جامعة دمشق
كلية الآداب
قسم اللغة العربية

أدب الرسائل في العصر الأيوبي (القاضي الفاضل نموذجا)

رسالة أعدت لنيل درجة الدكتوراه في الأدب العربي

بإشراف الأستاذ الدكتور :
علي أبو زيد
إعداد الطالب : سلطان عبد الرؤوف الحريري

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم يا من يملك حوائج السائلين، ويعلم ضمير الصامتين، لكل مسألة منك سمع حاضر، وجواب عتيد. أسألك أن تصلي على محمد وآل محمد ، وعلى أصحاب محمد...
اللهم ارزقني عقلا كاملا، ولبا راجحا، وقلبا زكيا، وعلما كثيرا، وأدبا بارعا، واجعل ذلك كله لي، ولا تجعله علي.
اللهم اعصمني من الزلل، و سددني إلى طريق الحق يا أرحم الراحمين

مُقَدِّمَة

عكف الباحثون على دراسة الشعر بوصفه الشاهد الأمين على عبقرية العرب، والمثل الأرفع للفنون العربية عبر عصورها المختلفة، وكان حظّ النثر العربي من الدراسة أقل بكثير من حظّ الشعر على ما فيه من غنى لفظيّ ومعنويّ.

وقد تبين للباحث ما أصاب العصر الأيوبي من تطور في فن الرسائل في المحتوى والأسلوب، وقد ظهر جليا في توضيح صورة له ، ومن تنوّع مضامينه، وتلوّن رؤاه الفنية، ولاشك أن عوامل متنوعة قد غدّت هذا التطور حتى تمّ تمامه على الصورة التي ستتضح في رسائل هذا العصر، ورسائل القاضي الفاضل سيّد هذا الفن ، وصاحب المذهب الفني الذي عُرِفَ به .

و تأتي أهميّة الدراسة من أهمية الرسائل؛ إذ يعد فن الترسل من أعلى الفنون شأوا وأكثرها ثراء، وأكثرها تعبيرا عن طبيعة العصر الذي أنشئت فيه.

وقد حظي النثر الفني في العصرين الفاطمي والأيوبي باهتمام الباحثين، وممّا يلاحظ على الدراسات - فيما وقفت عليه - أنها لم تقف طويلا عند أدب الرسائل في العصر الأيوبي، أو عند رائده القاضي الفاضل ، ومن هذه الدراسات التي تناولت هذا الكاتب: (في أدب مصر الفاطمية) للدكتور محمد كامل حسين، و (الفن ومذاهبه في النثر العربي) للدكتور شوقي ضيف، و (أدب الحروب الصليبية)، و (الأدب المصري من قيام الدولة الأيوبية حتى مجيء الحملة الفرنسية)، و (الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي الأول) للدكتور عبد اللطيف حمزة ، و(الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية في مصر والشام) للدكتور أحمد أحمد بدوي، و (الأدب في عصر صلاح الدين الأيوبي) للدكتور محمد زغلول سلام ، وقد لقي القاضي الفاضل اهتماما من مجموعة من الدارسين ، فقد تناوله باحث بدراسة بعنوان (القاضي الفاضل حياته وشعره)[1]، بوصفه شاعرا، وتناوله آخر بوصفه سياسيا في دراسة بعنوان : (القاضي الفاضل وصلاح الدين)[1] . وتناولته الباحثة هادية دجاني شكيل بدراسة بعنوان: (القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني العسقلاني – دوره التخطيطي في دولة صلاح الدين وفتوحاته)[2]

وممّا يلاحظ على الدراسات السابقة أنها لم تخصّ الرسائل عند القاضي الفاضل بدراسة مستفيضة تبيّن معالم طريقته التي اشتهر بها، ووصل من خلالها إلى ما وصل إليه في عالم السياسة بقلمه، إلى جانب شهرته الكتابية التي غلبت شهرته الشعرية، وقد لاحظ ذلك كل من تعرّض للحديث عن شخصيته الأدبية.

و قد كان النثر ولاسيما الرسائل التي عرف بها أوسع مدى أمام الفكرة من الشعر، وأكثر حرية في قوالب صوغه؛ حيث وجد العقل فيه مسرحا أوسع، ومدى أرحب.

والجدير بالذكر أن دراستي هذه ليست عالة على ما سبقها من دراسات، و لا يمكن لي أن أنكر إفادتي من الأبحاث والدراسات التي سبقتني في عصور الأدب المختلفة، والعصرين الفاطمي والأيوبي بصفة خاصة، وقد رجوت أن يكون بحثي هذا حلقة تصل ما قبلها بما بعدها من دراسات حول أعلام الكتابة العربية الذين تركوا بصماتهم على النثر الفني، وقد بنيت الدراسة على فرضية تقول إن للقاضي الفاضل طريقة عرف بها، ومثّلت منعطفا مهمّا على الطريق

---

(١) دراسة نال فيها معدها درجة الماجستير من كلية دار العلوم ، والدراسة لرشدي الأشهب.- القاهرة ١٩٧٠

[1] أعدت هذه الدراسة سوسن محمد تمر، وحصلت بها على درجة الماجستير من كلية دار العلوم القاهرة ١٩٧٠.

[2] صدر هذا الكتاب عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية – بطبعتين: الأولى في بيروت-تشرين أول ١٩٩٣- والثانية بيروت ١٩٩٩.

الطويل لنثرنا الفني، وقد قال بذلك الكثير من معاصريه ، ومن الدارسين المحدثين .

ومن العوامل التي كان لها أثرها في اختيار البحث اختلاف الباحثين حول طريقته الكتابية، فمنهم من رآه مقلدا لمن سبقوه، ومنهم من رآه صاحب طريقة في الكتابة به عرفت، وإليه نسبت، وقد كان دوري في البحث ترجيح الرأي الثاني على الرأي الأول بموضوعية وتجرّد .

وقد اعتمدت في دراستي المنهج التكاملي الذي يقوم على التحليل و الموازنة، واستنطاق النصوص.

وأما المصادر التي أمدّت البحث بالمادة العلمية فيمكن تقسيمها إلى قسمين:

أحدهما المختارات من كتابات القاضي الفاضل المستقلة في مصنفات خاصة ، ومنها:

- (الدر النظيم من ترسل عبد الرحيم)، حققه الدكتور أحمد بدوي .
- (رسائل عن الحرب والسلام)، حققه الدكتور محمد نغش.
- (الفاضل من كلام القاضي الفاضل) مخطوط في دار الكتب المصرية.
- (الرسائل الأدبية، للقاضي الفاضل)، مخطوط في مكتبة الأزهر
- (الرسالة الحجازية)، مخطوط بالفاتيكان.
- الفاضل من إنشاء القاضي الفاضل) مخطوط في مكتبة الأزهر .

أما القسم الثاني فمنه الموسوعات الأدبية التي ضمّت بين دفتيها من بين ما ضمّت عددا كبيرا من رسائل القاضي الفاضل مثل : (وفيات الأعيان)، و(نهاية الأرب في فنون الأدب)، و(صبح الأعشى)، ومن المصادر المهمّة أيضا كتاب: (فصوص الفصول وعقود العقول) لابن سناء الملك ، و(الروضتين) لأبي شامة .

أما رسائل القاضي الفاضل التي ضمّها كتاب (الروضتين) بجزأيه فتغلب عليها الصبغة السياسية ؛ ممّا يؤكد أهمّية هذه الرسائل بكونها مادة تاريخية بالإضافة إلى أنها مادة أدبية مميزة.

واستوت هذه الدراسة على مقدمة، و مدخل، وخمسة أبواب.

اهتمّت المقدمة بأسباب اختيار البحث، و المصادر التي اعتمدها الباحث ، والخطة المتبعة فيه.

واهتمّ المدخل بإبراز ملامح البيئة السياسية والاجتماعية والفكرية في العصر الأيوبي، بما يخدم البحث، ويؤسس للقيم الموضوعية التي مثّلت الأرض الخصبة لأدب الرسائل، وقد توسّعت قليلا في هذا المدخل ؛ لأن القاضي الفاضل كان أحد الفاعلين في رسم سياسة العصر، كونه وزير صلاح الدين ومشيره، وكاتب ديوانه .

ولما للبيئة من أثر ، بل آثار ، في حياة الناس، وفي حياة أهل الفن بوجه خاص ، وقد تظهر هذه الآثار ظهورا قويا واضحا، وقد تختفي اختفاء عصيا، وقد تكون بين الأمرين ، ولكن البحث البصير في رسائل القاضي الفاضل جعلني أضع بين يدي البحث هذا المدخل ، لتأثره بالبيئة التي عاشها ، وشارك في صناعتها.

وكان الباب الأول بعنوان : (الدراسات النقدية الحديثة للرسائل وتقييمها)، و درست في الفصل الأول منه منزلة الرسائل من الدراسات الحديثة ، وتقييم تلك الدراسات، وبيان المنهج الذي اتبعته فيها، إلى جانب إبراز عنصر الأدبية في تلك الرسائل، وكان الفصل الثاني في الرسالة والمصطلحات الموازية والتطور الدلالي لها.

وكان الفصل الثالث في ثقافة الكاتب في العصر الأيوبي ، وفيه الأدوات التي كان الكتّاب يعتمدونها، ومثلت دستورهم في ذلك العصر .

أما الباب الثاني فقد اهتمّ بالقاضي الفاضل والحياة الأدبية في عصره، و تعرّض لحياته، وثقافته، وأثره في علوم عصره وعلمائه.

واهتمّ الباب الثالث بمذهب القاضي الفاضل الفني وأثره في معاصريه، وفيه بيان لآثاره، ودراسة لمضمون رسائله، وعوامل تأثير مذهبه الفني في عصره، وتأثيره في نثر معاصريه، مع دراسة لأهم من تأثروا به، وقد اخترت اثنين من كتاب عصره وهما : ابن الأثير والعماد الأصفهاني، وواحدا ممن تأثروا به من العصر المملوكي وهو محيي الدين بن عبد الظاهر.

وبعد أن اكتملت الدراسة الموضوعية للبحث جاء ت الدراسة الفنية في الباب الرابع ، التي اهتمّت بالخصائص الفنية لمذهب القاضي الفاضل، وتناول ثقافته في رسائله ، ووظائف التداخل بين النصوص فيها، مع دراسة للبديع في تلك الرسائل، وخصائص مذهبه الفني في مستوى الألفاظ والتراكيب، وكان للبناء الفني في رسائله الحظّ الوافر من الدراسة للوقوف عند البناء الشكلي لرسائله ، مع بيان لدلالات الأساليب ، وختم الباب بفصل التقليد والتجديد في رسائله ، و به بيان لمواطن كل منهما في الشكل والمضمون.

و كان الباب الخامس في نقد مواقف النقاد والدارسين لمذهب القاضي الفاضل الكتابي نقدا موضوعيا يقف عند حدود آرائهم بالتفسير والنقد والترجيح.

وإذا كان البحث في الباقيات الصالحات من تاريخ الأمة فيما بين يدي الناس شاقا وعسيرا ، فإن البحث والتنقيب فيما خفي عنهم أشق وأعسر ، ولذلك فإن كتابة بحث عن العصر الأيوبي أصعب وأعقد من العصور التي سبقته أو تلته ، وما ذلك إلا لتشعب المداخل ، وكثرة الإنتاج الأدبي .

و واجهت في طريق إنجازي لهذه الدراسة صعوبات جمّة، كان من أهمّها غزارة رصيد القاضي الفاضل الأدبي المرتبط بالرسائل، وهو رصيد لم

يطّلع عليه الكثيرون ؛ لأنه مازال مخطوطا، وقد اضطررت للسفر مرتين إلى القاهرة للحصول على المخطوطات ، وذلك لتعذر الحصول عليها عن طريق المراسلة، وقد أعيتني الوسيلة إلى ذلك ،إلى جانب المراسلات للحصول على المخطوطات من مصادر أخرى كمكتبة الفاتيكان،وقد وفقني الله- تعالى- إلى الحصول عليها واعتمادها مادة لدراستي.

ومن هنا كانت أهميّة البحث في رسائل هذا العصر، وعلى قدر التعب تكون لذة الراحة، وبعد إنجازه – مع اعترافي بالقصور- عدت وجعبتي عامرة بالصيد الدسم الذي أرجو أن يغني من جهد ، ويسد من حاجة ، ويسمن من جوع.

ولست أزعم أن محاولتي قد أرْبتْ على الغاية، أو أنها استجمعت الموضوع من شتى نواحيه ، فذلك ما لا يدّعيه إلا من رسخت أطنابُهُ في متاهات العُجب والغرور، إذ إن ثمة ظواهر مهمّة لم يكن بمقدور البحث – على سعته- الوفاء بحقها من البحث .

وبعد فهذا هو موضوع دراستي، و الدوافع إليها ، و مصادرها الأساسية ، وإني لآمل أن أكون قد وفقت فيها .

وأخيرا ، ليسمح لي أستاذي الفاضل الدكتور علي أبو زيد أن أتوجه إليه بوافر التقدير والإجلال ، لتفضله بالإشراف على أطروحتي ، وعلى ما منحني من وقته وجهده وسعة صدره ؛ إذ رعى البحث بعطف الأب وعلم الأستاذ ، إلى أن أصبح حقيقة واقعة، وقد كان لملاحظاته القيّمة وتوجيهاته السديدة أثر بيّن في تصويبه وتقويمه، فقد كان يوجهني بعلمه وخبرته ، ويأخذ بيدي كلما قاربت زللا ، فجزاه الله عني وعن العلم خير الجزاء.

و شكري وعظيم امتناني لأستاذي الفاضل الدكتور عمر موسى باشا صاحب الأيادي البيض الذي لم يقف بعرفه عندي، بل طال بذلك بحثي برعايته، وتشجيعه المتواصل، فقد كانت البداية معه، منذ أن كان البحث فكرة.

أقدم له شكرا يترجم عن نيتي ، ولسان طويتي.

كما أتوجّه بالشكر الجزيل إلى أستاذي العالم والإنسان ، الأستاذ الدكتور حسين نصّار أستاذ الأدب في كلية الآداب جامعة القاهرة ، وقد كان مشرفا مشاركا على هذه الأطروحة، ولم يبخل عليّ بملحوظاته التي وضعتها نصب عيني في زيارتي له في القاهرة ، ولقائي به في دولة الكويت ، فله مني التقدير الذي يستحق (ومن وجد الإحسان قيدا تقيدا).

كما أتوجّه بالشكر الجزيل إلى أستاذي الفاضل الدكتور محمد طاهر الحمصي الذي كنت أفزع إليه فيما أشكل عليّ، ولم يبخل عليّ بتوجيهاته السديدة التي أثرت البحث، وقوّمت ما اعوجّ منه.

والشكر موصول إلى الأساتذة العلماء الذين تفضلوا عليّ بقبول النظر في هذه الرسالة بعين العدالة والإنصاف ، مما كان له كبير الأثر في إقالة العثرات وتصويب الهنات ،وإخال أن الكلمات غير قادرة على الوفاء بفضلهم.

وأخيرا فإن أحسنت فبما حبانيه خالقي العظيم من فيض عطائه وجزيل نعمائه، وإلا فغاية ما أرجو ألا أحرم أجر المجتهد ، والله أدعو أن يكون البحث خالصا لوجهه الكريم ، وأن يوفقني إلى خدمة تراث الأمة العظيم. عليه توكلت وإليه أنيب ،

﴿ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ﴾

المدخل

ملامح البيئة
السياسية والاجتماعية
والفكرية في العصر الأيوبي

أولا – ملامح البيئة السياسية :

في العصر الذي تتناوله الدراسة، تصارعت على السيادة قوى متنابذة من عباسيين، وسلاجقة، وفاطميين ناهيك عن الزحف الصليبي الذي بدأ على جسد الأمة.

إن الناظر في تاريخ الدولة الإسلامية يلمح بجلاء ذلك الصراع المؤلم الذي كان ينخر جسدها ويزيد تفككها وضعفها. فضلا عما كان يجري فيها من فتن داخلية في دولتي العباسيين والفاطميين مما زاد في هوة الصدع، فالدولة العباسية كانت مشغولة بالسلاجقة الذين سيطروا على خلفائها [(١)] ، و قد شغل السلاجقة أيضا بنزاعات داخلية فيما بينهم حول السلطة بعد وفاة ملكشاه، ودبت الفوضى في دولتهم القوية، وتسلل إليها التمزق والانحلال [(٢)] ومن المهم أن نذكر هنا أن هذا التمزق تزامن مع إعداد أوربا العدة للقيام بحملتها الصليبية الأولى على ديار الإسلام، وزاد الصراع حدة في سعي الفاطميين إلى ضم الشام لأهميتها السياسية والدينية، فالعباسيون يريدون الحفاظ عليها، والفاطميون يرونها منطلقا لدعوتهم الشيعية ودرعاً لدولتهم، ولذلك لم يتورعوا عن التعاون مع الصليبيين إبّان حصارهم أنطاكية، وتحالفوا معهم ضد منافسيهم من السلاجقة، قال ابن الأثير: "... وقيل إن أصحاب مصر من العلويين لما رأوا قوة الدولة السلجوقية وتمكّنها ، واستيلاءها على بلاد الشام إلى غزة ، ولم يبق بينهم وبين مصر ولاية أخرى تمنعهم ؛ خافوا وأرسلوا إلى الفرنج يدعونهم إلى الخروج إلى الشام ليملكوه،ويكونوا بينهم وبين المسلمين"[(٣)]،وهذا يدل على جهل الفاطميين، وعدم إدراكهم فداحة الخطر الصليبي على الإسلام والمسلمين، حتى كان تهاونهم في مواجهة الغزاة والتصدي لهم من أهم الأسباب التي عملت على سقوط دولتهم واندحارها [(٤)]، والجدير بالذكر أن هذا التمزق الذي عانته الدولة الإسلامية فيما بين حكامها فتّ في عضدها، ومكّن الغزاة الصليبيين من السيطرة على سواحل الشام كلها [(١)]، فأقاموا فيها خلال فترة قصيرة إمارات قوية [(٢)]لم يكن من اليسير على المسلمين التغلب عليها.

وقد مضى زمن طويل قبل أن توجد قيادة قديرة صالحة للمسلمين في بلاد الشام ممثلة بعماد الدين زنكي، وابنه نور الدين محمود، ثم في صلاح الدين الأيوبي، فقد استعاد عماد الدين بعض المدن في سنة تسع وعشرين وخمسمئة، انتهت بمدينة الرّها أول إمارة للصليبيين سنة تسع وثلاثين

[(١)] تاريخ دولة آل سلجوق :٢٢٨ – ٢٣٥ ، وانظر : ذيل تاريخ دمشق :١٣٤ .
[(٢)] ذيل تاريخ دمشق :٢٠٢ وما بعدها ، وأخبار الأمراء السلجوقية :١٥٥ .
[(٣)] الكامل في التاريخ : ١٨٦/٨ .
[(٤)] النكت العصرية في أخبار الوزراة المصرية :٨٨، والنجوم الزاهرة : ١٤٨/٥ –١٧٩
[(١)] المنتقى من أخبار مصر :٦٤ ، والبداية والنهاية :٢٦٧/١٢ ، والنجوم الزاهرة :١٦٧/٥
[(٢)] ذيل تاريخ دمشق :٢١٩ ، والكامل في التاريخ :٢٥٨/٨،١٨٩،١٨٥ 259 .

وخمسمئة، واستعاد ولده من بعده الحصون الصليبية التابعة لأنطاكية بعد هزيمتهم في معركة إنب سنة أربع وأربعين وخمسمئة، وغيرها من المدن.

وكانت الدولة الفاطمية في هذه الآونة تعاني فسادا وضعفا شديدين، وذلك لما كان يحاك فيها من دسائس ومؤامرات على مناصب الوزارة والحكم، فقد كان الخلفاء فيها يتولون الحكم وهم صغار[٣] ويستبد بتدبير أمورهم الوزراء. وفي ذلك يقول ابن الأثير: " ... وكان الوزراء بمصر لهم الحكم في البلاد والخلفاء معهم اسم لا معنى تحته " [٤]، وكان الخلفاء الفاطميون أنفسهم من أسباب هذا النزاع بين الوزراء ؛ وذلك لأنهم كانوا يتبعون سياسة غير سليمة في طريقة تعيينهم ، فكانوا يعهدون بالوزارة إلى من أطاح بسابقه ، وتغلب عليه، بدلا من أن يضربوا على يد الخارج على النظام منهم ، ليقطعوا الخلاف ويحسموا الأمر ، فعملوا بذلك على إشعال نار الفتن ، وتوسيع شقة الخلاف والنزاع بين وزرائهم، فعجلوا في سقوط دولتهم .

وبهذا تكون الدولة الفاطمية قائمة على حكم غير فعلي من الخلفاء وحكم فعلي من الوزراء الذين كان لهم الشأن الأكبر والأثر الواضح في تسيير دفة الأمور في الدولة، فكانت الكلمة كلمتهم ولا سيما في عصر ضعاف الخلفاء منذ عهد المستنصر والمستعلي والآمر والحافظ حتى عضد الدولة عندما استبد الوزراء بالأمر دون الخلفاء، فكانوا أصحاب الحل والعقد، واتخذوا لأنفسهم ألقاب الجيوش، والسلاطين، وحجروا على الخلفاء، فلم يعد لهم ذكر إلى جانبهم، وتحوّلت الدولة الفاطمية إلى ساحة حرب على الوزارة بين مجموعة من الوزراء، كل يريد الكرسي لنفسه، فيقتل سابقه، ويتصدر كرسي الوزارة فيحكم وقتا محدودا من الزمن ليأتي غيره ليقتله ويقعد مكانه، كل ذلك تحت نظر الخلفاء ، وأحيانا- كما قلنا- برغبة منهم، ورعاية سرية للقاتل من وزرائهم، أو من يريدونه وزيرا لهم، وقد تحدثت كتب التاريخ، وأطالت الحديث في تلك الخلافات وفي ذلك قال ابن شداد : "...و كانت عادة المصريين أنه إذا غلب شخصٌ صاحبَ المنصب، و عجز صاحب المنصب عن دفعه، وعرفوا عجزه، وقعوا للقاهر منهم، ورتّبوه، ومكّنوه؛ فإن قوتهم إنما كانت بعسكر وزيرهم، وهو ملقب عندهم بالسلطان، وما كانوا يرون المكاشفة،وأغراضهم مستتبة،وقواعدهم مستقرة من أول زمانهم على هذا المثال" [١] .

ومن أساليب بعض الخلفاء التآمر على وزرائهم، والتحريض على قتلهم من أجل تقوية نفوذهم وسلطانهم، ولكي يتخلصوا من تسلطهم واستبدادهم

---

[٣] الكامل في التاريخ :٤٤٠/٩ ، والنجوم الزاهرة :٢٨٨/٥، ٢٩١، ٣١٩، ٣٣٤ .

[٤] الكامل في التاريخ :٤٢/٩ ، ، وانظر : مصر في العصور الوسطى :١٢٥ .

[١] سيرة صلاح الدين :٣٦ ، والروضتين :ج١ ،ق١ / ٣٣١ .

بأمور السلطنة والحكم، ومن ذلك ما فعله الحافظ بوزيره رضوان حينما حرّض الجند على قتله، فهرب إلى الشام، وأمر الحافظ بنهب داره وحرمه[٢]، ثم سجنه وقتله بعد عودته إلى مصر بأمان منه[٣]، وما فعله الظافر بوزيره ابن مصّال عندما تغلب عليه ابن السلار، وقد عجز الخليفة عن حمايته، فقال له: " اخرج إلى الحوف ، اجمع واحشد ، وأنفق فيهم ، وادفع ابن السلار " [٤]، وحينما قتل ابن المصّال وأحضر رأسه إلى الخليفة الظافر، خلع على ابن السلار خلع الوزارة ، ولقبه الملك العادل [١] ، ثم تآمر عليه، ودس له من قتله[٢].

صوّر ابن الأثير حال مصر التي كانت تعاني ضعف خلفائها وحكامها في العهد الفاطمي الأخير، فقال : " ... وكانت الوزارة في مصر لمن غلب ، والخلفاء وراء حجاب، والوزراء كالمتكلمين،وقلّ أن وليها أحد بعد الأفضل إلا بحرب وقتل وما شاكل ذلك "[٣].

وكان خلفاء الفاطميين غير قادرين على حماية أنفسهم حتى من دسائس وزرائهم، فقد تقلب على حكم مصر أربعة خلفاء [٤]، وسبعة وزراء كلهم ماتوا قتلا [٥]

وربط ابن الأثير بين سقوط عسقلان بيد الغزاة سنة ثمان وأربعين وخمسمئة، وبين نزاعات الوزراء في مصر وخلافاتهم من أجل السلطنة بقوله : "... وفي هذه السنة، ملك الفرنج عسقلان، وكانت من جملة مملكة الظافر بالله العلوي المصري، وكان الوزراء بمصر لهم الحكم في البلاد، والخلفاء معهم اسم لا معنى تحته، وكان الوزراء كل سنة يرسلون إليها من الذخائر والأموال والرجال من يقوم بحفظها، فلما كان في هذه السنة، قتل ابن السلار، واختلفت الأهواء في مصر، وولي عباس الوزارة، فاغتنم الفرنج اشتغالهم عن عسقلان، وزحفوا إليه، وقاتلوا عليه، فلم يجدوا من

---

[٢] الاعتبار :٣٧ ، والوزارة والوزراء في العصر الفاطمي :٢٨٢-٢٨٣ .

[٣] الاعتبار :٤٠-٤١ ، وذيل تاريخ دمشق :٤٦٠ -٤٦١

[٤] الاعتبار :٨ ، والنجوم الزاهرة :٢٩٥/٥، ٤٤٦ ، و الوزارة والوزراء :٢٨٢-٢٨٣ .

[١] الاعتبار :٩ ، والمنتقى من أخبار مصر :١٤٢ .

[٢] الاعتبار :١٠، ٢٢ ، ومرآة الزمان في تاريخ الأعيان : ق١ ج٨ /٢١٤ –٢١٥

[٣] الكامل في التاريخ :٤١/٩ ، ٦٧ ، ونور الدين محمود :٢٨٣ .

[٤] وهم الحافظ ، عبد المجيد أبو الميمون (٥٢٤ – ٥٤٤) ، والظافر ، إسماعيل أبو المنصور (٥٤٤ –٥٤٩) ، والفائز ، عيسى أبو القاسم ، (٥٤٩ –٥٥٥) ، والعاضد ، عبد الله أبو محمد ، آخر خلفائهم في مصر (٥٥٥ –٥٦٧) .

[٥] وهم : ابن المصّال ، وابن السلار ، وعباس ، ورزيك ، وطلائع بن رزيك وضرغام ، ثم شاور السعدي ، انظر : النكت العصرية في أخبار الوزراة المصرية : ٦٦-٦٧، والاعتبار :٧، ٩،/، ٢٣، ٢٧ ، والروضتين :ج١ ق١ /٣٣١ –٣٣٢ ، ثم انظر تفصيل أخبارهم في كتاب : الوزارة والوزراء ٢٧٩-٢٨٩

يمنعهم، فملكوه " [1] . أخذ نور الدين يتطلع إلى مصر التي تعاني الفوضى والتمزق، وسعى إلى توحيدها مع شقيقتها الشام ؛ وذلك للوقوف في وجه الغزو الصليبي. قال نور الدين مخاطبا صلاح الدين الذي كره العودة إلى مصر:"... إن تأخرت أنت عن المسير إلى مصر، فالمصلحة تقتضي أن أسير أنا بنفسي إليها،فإننا إن أهملنا أمرها ملكها الفرنج،ولا يبقى لنا معهم مقام بالشام وغيره"[2] ؛ ولذا فقد أرسل أسد الدين شيركوه إلى بغداد ليستأذن الخليفة بذلك،فأقره الخليفة،وجعل له إمرة مصر إذا فتحها[3]،فوجه إليها حملات ثلاثاً[4]بقيادة أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين، وضعت الثالثة الحد للتدخل الصليبي فيها، وقضت على تنازع الوزراء وتنافسهم على السلطة، وقد تحقق ذلك بقتل شاور ثم بوزارة شيركوه، وبعد ذلك بوزارة صلاح الدين للخليفة العاضد في مصر.[5]،وبذلك أصبح نور الدين القوة الإسلامية الكبيرة بعد أن وحّد القوى الإسلامية في مصر والشام والجزيرة ، واتّخذ من دمشق قاعدة لعملياته العسكرية ؛ وذلك لأن هذا الحلم كان يراوده من زمن طويل لينطلق في جهاده،وحصل للمرة الأولى في تاريخ الدولة الفاطمية أن يتولى وزيران سنيان الوزارة بدأها شيركوه، "وكان صلاح الدين يدبر الأمور جميعها، ويباشر مهام الحكم إبّان وزارة شيركوه"[1]، وبعد وفاة شيركوه اختار العاضد صلاح الدين وزيرا له،وذهب بعضهم إلى أنه"اختار صلاح الدين ليوليه الوزارة؛ لكونه صغير السن، قليل الأتباع في الجيش النوري الصلاحي بمصر، مما يسهل انقياده له[2]، وأكّد ابن شداد أن صلاح الدين بعد توليه الوزارة الفاطمية، قد تغلب على الأمر كله، وأدرك ما ينتظره من مهام ضخمة في استرداد ساحل الشام من الصليبيين، وفي إزالة الدولة الفاطمية والدعوة الإسماعيلية من مصر، وهو لا يزال وزيرا للفاطميين؛ إذ يقول ابن شداد:"ولقد

---

(١) الكامل في التاريخ : ٤٢/٩ .

(٢) الروضتين ،ج١ق٢،وانظر النجوم الزاهرة :٣٥٠/٥ ٠

(٣) انظر نور الدين محمود :٢٩٨ ٠

(٤) كانت الأولى منها سنة (٥٥٩ ه)تلبية لرغبة شاور الذي استنجد بنور الدين ليخلصه من منافسة ضرغام٠انظر سيرة صلاح الدين :٣٦ ،والكامل :٨٤/٩-٨٥ وأما الثانية ،فكانت سنة (٥٦٢ه)لتدخل الغزاة بشؤون مصر ،واتفاقهم مع شاور ضد شيركوه،انظر سيرة صلاح الدين ٣٧-٣٨ ،والروضتين،ج١ق٣٦٣/٢ –٣٦٦ ٠وأما الثالثة،فكانت سنة (٥٦٤ه)بناء على طلب العاضد وشاور للتخلص من الفرنجة،انظر سيرة صلاح الدين :٣٨-٤٠-مفرج الكروب:١٥٨/١-١٦٣،والكواكب الدرية:١٧٥-١٧٨ ٠

(٥) انظر المصادر نفسها في حوادث سنة (٥٦٤ه)٠

(١) تاريخ مصر الإسلامية زمن سلاطين بني أيوب:٣٩-٤٠ ٠

(٢) المرجع نفسه :٤٠

سمعت منه يقول: لما يسّر الله لي الديار المصرية، علمت أنه أراد فتح الساحل؛ لأنه أوقع ذلك في نفسي، ومن حين استتب له الأمر، مازال يشن الغارات على الإفرنج، وغشي الناس من عجائب الأفضال والنعم ما لم يؤرخ عن غير تلك الأيام، هذا كله وهو وزير متابع للقوم، ولكنه مقوٍّ لمذهب السنة، وغرس في أهل البلاد العلم والفقه والتصوف والدين، والناس يهرعون إليه من كل صوب، ويفدون عليه من كل جانب، وهو لا يخيب قاصدا، ولا يعدم رافدا إلى سنة خمس وستين وخمسمئة" [٣]، وكان صلاح الدين إبّان وزارته للفاطميين يستميل المصريين إليه بما قام به من إصلاحات داخلية قال ابن واصل:"... ثم شرع صلاح الدين في استمالة قلوب الناس إليه وبذل من الأموال ما كان أسد الدين قد جمعه، وطلب إلى العاضد شيئا يخرجه، فلم يمكنه منعه، فمال الناس إليه وأحبوه وقويت نفسه على القيام بهذا الأمر، والثبات فيه، وضعف أمر العاضد"[٤]، وكانت الخطوة الأولى قلب النظام القضائي الشيعي في مصر، إذ استبدل بقضاة الشيعة قضاة شافعيين، ثم قمع فتنة السودان التي تزعمها مؤتمن الخلافة بتحريض من العاضد نفسه، وبذلك تحققت رغبة نور الدين بقطع الدعوة الفاطمية بعد أن تغلب صلاح الدين على العقبات التي واجهته، ودونما أية معارضة ذات شأن ثم أرسل أخاه تورانشاه إلى اليمن؛ وذلك للانتفاع بطاقاتها البشرية والمادية، ولتأمين طريق الحج بقطع دابر اللصوص الذين كانوا يتعرضون للحجاج المسلمين؛ وقد تمّ ذلك سنة تسع وستين وخمسمئة [١]، وتوفي نور الدين سنة تسع وستين وخمسمئة، وخلف مملكة مترامية الأطراف، وخلفه في الحكم طفل صغير لم يبلغ سن الحلم، قال أبو الفداء : " ... فلما مات نور الدين، بويع من بعده بالملك لولده الصالح إسماعيل، وكان صغيرا، وجعل أتابكه الأمير ابن مقدم، فاختلفت الأمراء ، وحادت الآراء وظهرت الشرور ... ، وطمعت الأعداء من كل جانب في المسلمين، وعزم الفرنج على قصد دمشق وانتزاعها من أيدي المسلمين فبرز إليهم ابن مقدم الأتابك، فواقعهم عند بانياس فضعف عن مقاومتهم ، فهادنهم مدة ، ودفع إليهم أموالا جزية عجلها لهم "[٢] ،وبدأ التمزق يصيب جسد الدولة النورية بعد محاولة سيف الدين غازي ابن أخي نور الدين – صاحب الموصل الانفصال عن جسد الدولة القوي ، والاستيلاء على أجزاء من مملكة عمه، و كان صلاح الدين في هذه الآونة مشغولا بالتصدي للصليبيين الذين داهموا الإسكندرية، والقضاء على فتنة السودان سنة ٥٦٤هـ ، وفتنة عمارة اليمني سنة ٥٦٩ وذلك

[٣] سيرة صلاح الدين :٤٠-٤١-والروضتين ،ج١،ق٢،:٤٠٦ .
[٤] مفرج الكروب في أخبار بني أيوب: ١٧٤/١ . والكامل في التاريخ :١٠٢/٩ .
[١] الروضتين: ج٢ ، ق٢/ ٤٠٨.
[٢] البداية والنهاية:١٢ / ٢٨٥.

محاولة منهم لإعادة الدولة الفاطمية الشيعية[٣]. و بعد أن ثبت صلاح الدين الأمور في مصر ، اتجه إلى الشام لتوحيد القوى الإسلامية فيها ، يقول دريد عبد القادر نوري : "... أدرك صلاح الدين أنه الوارث الحقيقي للدولة الزنكية ،وأن من واجبه إعادة بناء الدولة ، وتوحيد الكلمة ومواصلة السياسة التي بدأها نور الدين " [٤]، فبعد موت أسد الدين شيركوه ، كان الأمل الذي يسعى إليه صلاح الدين هو تحرير البلاد الإسلامية من يد الصليبيين . ينقل ابن شداد عن لسان صلاح الدين قوله :" ... لما يسر الله لي الديار المصرية علمت أنه أراد فتح الساحل؛ لأنه أوقع ذلك في نفسي " [١]، ومن أجل ذلك عزم صلاح الدين على دخول دمشق، واضعا نصب عينيه توحيدها لمجاهدة الغزاة ، وهذا واضح في قول القاضي الفاضل من رسالة له للديوان ببغداد عندما تسلم صلاح الدين حلب :" ... وإنه لا يؤثر إلا أن تكون كلمة الله هي العليا لا غير، وثغور الإسلام لها الرعاية ولا ضير ، ولا نختار إلا أن تغدو جيوش المسلمين متحاشدة على عدوها لا متحاسدة بعتوّها " [٢].

وكان لا بد من دخول دمشق ،وهذا ما حصل في سنة سبعين وخمسمئة، فاستقبلته طائعة [٣] ، والتفّ أهلها حوله ، ولكن المواصِلة والحلبيين وقفوا في وجه سلطانه ، ولكنه استطاع أن يوحّد القوى الإسلامية في الشام والجزيرة ومصر واليمن تحت قيادة واحدة ، وراية واحدة ، وذلك في وقت طويل دام تسع سنين مع الحلبيين ، وإحدى عشرة سنة مع المواصِلة.

لم يمنع توحيد المدن الإسلامية صلاح الدين عن خوض معارك التحرير مع الغزاة الصليبيين ، فقد كان يقاتل على جبهتين ؛ إذ قاتل الخارجين على الوحدة الإسلامية في الشام والجزيرة ، وديار بكر ،وقد تمكّن بعد توحيد الأمة من الانطلاق من مرحلة الدفاع إلى مرحلة الهجوم والمواجهة ،وبعد تمام التوحيد ، وفي سنة ثلاث وثمانين وخمسمئة توجه صلاح الدين إلى الكرك و الشوبك؛ لأن صاحبهما نقض الهدنة باعتدائه على قافلة تجارية . قال العماد : " ... وسلب قرار القرى وسكونها ، وفجع الفرنج بكرمها وزيتونها " [٤] ، وفي السنة نفسها كانت معركة حطين الخالدة التي انتصر فيها صلاح الدين على الصليبيين ، فكانت هذه المعركة كما وصفها ابن واصل : " ... مفتاح الفتوح الإسلامية ، وبها تيسّر فتح بيت المقدس "[١] ، وبعدها توالت الفتوحات ،

---

[٣] الكامل في التاريخ: ٩ / ١٢٣-١٢٤
[٤] سياسة صلاح الدين الأيوبي :١٢١ .
[١] مفرج الكروب في أخبار بني أيوب:١٨/٢ .
[٢] الروضتين :ج٤٨/٢ .
[٣] سيرة صلاح الدين :٥٠ ، ومرآة الزمان في تاريخ الأعيان :ق١ ج٨ /٣٢٦ –٣٢٧ .
[٤] الفيح القسي في الفتح القدسي :٥٩ ، وسيرة صلاح الدين :٧٤ –٧٥ ، والسلوك لمعرفة دول الملوك : ج١ ،ق١ /٩٣ .
[١] مفرج الكروب في أخبار بني أيوب: ١٨٨/٢ .

فسقطت في يده حصونهم وقلاعهم ، وهي جبيل[٢]، واللاذقية [٢]، وصهيون[٤] وبكاس[٥] ، ثم سرمينية[٦] . قال ابن الأثير : " ... واتفق أن فتح هذه المدن والحصون جميعها من جبلة إلى سرمينية مع كثرتها ، كان في ست جمع مع أنها في أيدي أشجع الناس وأشدهم عداوة للمسلمين " [٧]،وبعد أن كلل صلاح الدين جهوده في الجهاد،باسترداد بيت المقدس من أيدي الصليبيين في سنة ثلاث وثمانين وخمسمئة للهجرة . أعلن الخطبة للعباسيين على منابر بيت المقدس وغيره من بلاد الشام التي استردها من الصليبيين،وذلك بعد إعادة الشعائر الإسلامية إلى هذه البلاد،التي كان الصليبيون قد حوّلوا مساجدها إلى كنائس ،فكان سلاطين بني أيوب يغسلون هذه المقدسات لإزالة شعائر الكفرة عنها،ويرفعون الرايات – شعار العباسين -على منابرها ،ثم يرتبون القومة لحفظها،والمؤذنين والقراء لمداومة أداء الشعائر بها ،مع رصد الأوقاف عليها للعناية بإصلاحها وترميمها.[٨]

أدت انتصارات صلاح الدين المستمرة على الصليبيين إلى حملة صليبية ثالثة بقيادة رتشارد قلب الأسد، وذلك في سنة خمس وثمانين وخمسمئة للهجر ة ؛ حيث حاصر عكا،وخاض المسلمون معهم معارك ضارية ٠

ومع شدة المعارك ،وقسوة الحصار صمد المحاصرون زهاء سنتين إلى أن ضعف سور عكا ،فطلبوا الأمان على أنفسهم وأموالهم ،وطلبوا مغادرة المدينة "فلما رأى المشطوب أن صلاح الدين لا يقدر على نفع ،ولا يدفع عنهم ضررا،خرج إلى الفرنج وقرّر معهم تسليم البلد ،وخروج من فيه بأموالهم وأنفسهم،وبذل عن ذلك مئتي ألف دينار ،وخمسمئة أسير من المعروفين،وإعادة صليب الصلبوت،وأربعة عشر ألف دينار للمركيس صاحب صور،فأجابوه على ذلك وحلفوا له عليه "[١] ثم أخلف الغزاة الوعد ،فقتلوا الأسرى"... ثم أحضروا من الأسارى المسلمين من كتب الله شهادته في ذلك ،وكانوا زهاء

---

[٢] جبيل : بلد من سواحل دمشق ، وهو بلد مشهور في شرقي بيروت ، معجم البلدان : ٢ /١٠٩ .

[٢] اللاذقية : مدينة في ساحل بحر الشام تعد في أعمال حمص ، ملكها الفرنج سنة (٥٠٠ هـ) .

[٤] صهيون : حصن حصين من أعمال سواحل بحر الشام من أعمال حمص غير مشرف على البحر، وهي قلعة حصينة مكينة في طرف جبل ، معجم البلدان :٣ /٤٣٦ – ٤٣٧ ، ويسمى الآن قلعة صلاح الدين.

[٥] بكاس والشغر : قلعتان من أعمال حلب على شاطىء العاصي ، بينهما واد كالخندق يقال له : الشغر . انظر : معجم البلدان :١ /٢١٥ .

[٦] سرمينية : بلدة من أعمال حلب . انظر : معجم البلدان : ٣ /٢١٥ .

[٧] الفيح القسي في الفتح القدسي : ٢٤٧ ، وسيرة صلاح الدين :٩٢ .

[٨] انظر الفيح القسي في الفتح القدسي :٩٥-١٠٨-١١٨-١٣٧-١٤٠-١٤٤،ومفرج الكروب:٢٢٩:٢-٢٤١ ٠

[١] الكامل في التاريخ :٢١٤/٩ ٠

ثلاثة آلاف مسلم في الحبال،وأوثقوهم،وحملوا عليهم حملة الرجل الواحد ،فقتلوهم صبرا وطعنا وضربا بالسيف،واليزك الإسلامي يشاهدهم ولا يعلم ما ذا يصنعون،لبعدهم عنهم "[٢]، وبعد سقوط عكا حاول الغزاة استعادة بيت المقدس ،والإغارة على المدن الإسلامية المحررة،والسيطرة على الساحل الفلسطيني كله . وفي طريقهم خاض المسلمون معهم معارك ضارية أخذوا من خلالها حيفا وقيسارية.

استمر الصراع بين الفريقين طويلا إلى أن اتّفق الطرفان على وضع الحرب ثلاث سنوات، وذلك في سنة ثمان وثمانين وخمسمئة بطلب إلى الفرنج ؛ لرغبة ملكهم بالعودة إلى بلاده ، وعاد صلاح الدين إلى دمشق ، ولكن القدر لم يمهله طويلا ، إذ انتقل إلى جوار ربه سنة تسع وثمانين وخمسمئة [٣] ، فطويت بذلك صفحة مشرقة من تاريخ الإسلام ، وقد ظهرت أصداء هذا كله في أدب العصر الأيوبي ، ولا سيما أدب القاضي الفاضل الذي رافق صاحبه في أيامه كلها ، حلوها ومرها .

" لما مات صلاح الدين بدمشق ، كان معه ولده الأكبر الأفضل نور الدين علي ، وكان قد حلف له العساكر جميعهم ، فلما مات ملك دمشق وبيت المقدس وبعلبك وبصرى وبانياس وهونين وتبّين ،والأعمال جميعهاإلى الداروم ، وكان ولده الملك العزيز عثمان بمصر فاستولى عليها واستقر ملكه بها ، وكان ولده الظاهر غازي بحلب فاستولى عليها ، وعلى أعمالها جميعها ، وكان بحماة محمود بن تقي الدين عمه فأطاعه ، وصار معه ، وكان بحمص شيركوه بن محمد بن شيركوه ، فأطاع الملك الأفضل ، وكان الملك العادل بالكرك[١]. وبذلك فقد دبت الفرقة بين أبناء البيت الواحد ، وفي ذلك يقول القاضي الفاضل :" ... أما هذا البيت فإن الآباء فيه اتفقوا فملكوا ، وإن الأبناء منهم اختلفوا فهلكوا ، وإذا غرب نجم،فما الحيلة في تشريقه ، وإذا بدا تخريق ثوب فما يليه إلا تمزيقه " [٢]

استغل الصليبيون الصراع بين الأيوبيين على الحكم : " ... فكاتبوا ملك الألمان ، وقالوا: إن عظام أبيه إلى الآن في صور وكأنه في الأسر منتظر الإفراج، فإنه لا يقبر إلا في البيت المقدس إذا استخلص، والآن ما كان غلا منه قد استرخص ، فإن المسلمين قد اشتغل بعضهم ببعض، ولهوا عن كل سنّة وفرض"[٣]. ذكر ابن كثير في حوادث سنة ثلاث وتسعين وخمسمئة " ... في

---

[٢] سيرة صلاح الدين :١٧٤،وانظر الفيح القسي في الفتح القدسي :٥٢٨،والروضتين:١٨٩/٢ .

[٣] سيرة صلاح الدين :٢٤٦ ٢٢٥ ، ومرآة الزمان في تاريخ الأعيان :ق١ ج٨ /٤٢١ ، والعبر في خبر من عبر :٤ /٢٧٠ .

[١] الكامل في التاريخ :٩/ ٢٢٦ –٢٢٧ ، والروضتين :٢٢٤/٢ –٢٢٦ .

[٢] الروضتين :٢٣١/٢-٢٣٣ .

[٣] المصدر نفسه : ٢٣٣/٢ .

هذه السنة، انقضت مدة الهدنة التي كان عقدها الملك صلاح الدين للفرنج ، فأقبلوا بحدهم وحديدهم ، فتلقاهم العادل بمرج عكا فكسرهم ، وغنمهم ، وفتح يافا عنوة " [٤] .

وبعد ذلك وحّد أبناء صلاح الدين صفوفهم في مواجهة الصليبيين بعد أن أحسوا بخطرهم ، وذلك إثر اعتدائهم على حصن تبّين ، فدافعوا عنها دفاعا مستميتا حتى ردّوا الغزاة عنها ، وأرغموا الغزاة على الصلح مرة أخرى [٥].

وفي سنة خمس وتسعين وخمسمئة ، عاد الخلاف من جديد بين أفراد الأسرة الأيوبية على الحكم ، وذلك بعد موت الملك العزيز عثمان صاحب مصر، بين الملك الأفضل الوصي على ابن أخيه الصغير بمصر ، وبين عمه العادل حاكم دمشق ، وبها تحالف الأفضل مع أخيه الظاهر صاحب حلب ، واتفقا على انتزاع دمشق من عمهما العادل ، فزحف إلى مصر في السنة التالية ،وأخرج الأفضل منها ، واستبد بحكمها ، وبذلك توحدت الدولة الأيوبية من جديد ، وقضى على الحملة الصليبية الألمانية قضاء تاما ، وبذلك عادت للدولة الأيوبية هيبتها وقوتها .

---

[٤] البداية و النهاية :١٤/١٣ .

[٥] الكامل في التاريخ :٩ / ٣٣٨ ، ومرآة الزمان في تاريخ الأعيان:ق١ ج٨ /٤٥٥ .

ثانيا - ملامح البيئتين: الاجتماعية والاقتصادية .

دولتان اختلفتا في المناهج والرؤى: " الفاطمية التي عنيت بالدعوتين السياسية والمذهبية، والأيوبية التي قضت العمر كله من أوله إلى آخره في الحروب الصليبية " [١]

وبين هاتين الدولتين عاش المسلمون في مصر والشام اختلافا كبيرا ، ولما كانت جوانب الحياة متداخلة، فإن معالم الحياة السياسية تظهر آثارها على الناس اجتماعيا واقتصاديا، ففي عهد الدولة الفاطمية أثّرت الفتن والدسائس الداخلية في الحياة في ذلك العصر، فقد وقعت الدولة في ضائقات مالية ، وصعوبة في العيش، فأثقلت الضرائب كاهل الشعب، وذلك لسد نفقات الدولة التي هدرت جل طاقاتها الاقتصادية في نزاعاتها الداخلية؛ و اضطربت الحياة الاجتماعية في ذلك العهد، وعمت الفوضى حياة الناس .

كان المجتمع المصري يضم عناصر من أجناس مختلفة : عرب ، وترك ، وفرس، وروم، وأرمن، و شركس، وقبط [٢]. وقام المجتمع على طبقتين: (الخاصة) وتألفت من : الخلفاء والوزراء، والكتّاب، وكبار رجال الدولة، و(العامة)، وهم سواد الشعب من حرفيين، وصنّاع،وفلاحين ،وجند ورقيق استأثرت الأولى بالجاه والغنى، وللثانية ما زاد عن حاجتها،و اعتنى الفاطميون "بالمواسم العامة،فزادوا في بهجة الرعية، وتوددوا إليهم، و ملؤوا أفواه زعمائها وشعرائها وعلمائها وسادتها،ومنحوهم أثمن الفرص لإظهار سرورهم وفرحهم بها،وحدبهم عليها، و كأن هذه الأعياد كانت جزءا مهما من برامج الدعاوى السياسية آنذاك، ونجحت في تنفيذها نجاحا لا مثيل له.[٣]،وكثرت الأعياد حتى عدد منها المقريزي ثمانية وعشرين عيدا في كل عام،[٤]ولم يكن الوزراء أقل أبّهة وعظمة من الخلفاء، وفي الاستحواذ على الذهب والفضة والمجوهرات،حتى قيل عن أحدهم وهو" الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالي"إنّه خلف من الأموال والنقود والقماش والمواشي ما يستحيا من ذكره[١]، ومن ذلك أيضا ما بذله طلائع بن رزيك في زفاف أخته إلى الخليفة العاضد من الذهب والمال. قال عمارة:"... وحمل إلى الخليفة في زفاف أخته بيوت مال أقلها الذهب"[٢]. ساعد على حياة البذخ هذه عوامل من أهمها: ازدهار التجارة والصناعة، ووفرة الغلات الزراعية،[٣]وكانت تلك الحياة على حساب الرعية وسواد الناس الذين كانوا يكدون ويشقون لينعم

---

[١] الحركة الفكرية في مصر في العصر الأيوبي والمملوكي الأول :٥٧ .

[٢] الأدب في العصر الأيوبي :٥٠ ــ٥٢ .

[٣] الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي الأول :٥٧ ·

[٤] الخطط (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) :٣٨٤/٢ ·

[١] النجوم الزاهرة: ٢٢٢/٥ ·

[٢] الروضتين :ج١،ق٤٣٩/٢ ·

[٣] تاريخ مصر الاجتماعي والاقتصادي :٢٥٥-٢٥٩ ·

بعرقهم السادة والوزراء الذين اتخذوا من منصب الوزارة في العصر الفاطمي الأخير وسيلة لجمع الأموال من أيدي الناس لحماية أنفسهم من الدسائس والفتن .[٤] قال المقريزي في حوادث سنة سبع وستين وخمسمئة:"... وفيها عمّت بلوى الضائقة بأهل مصر؛ لأن الذهب والفضة خرجا منها وما رجعا،وعدما فلم يوجدا، ولهج الناس لما عمّهم من ذلك، وصاروا إذا قيل دينار أحمر فكأنما ذكرت حرمة الرجل الغيور ، وإن حصل في يده ،فكأنما جاءت بشارة الجنة له "[٥] فقد حجز الخلفاء الأموال في خزائنهم ،وتركوا الشعب يعيش بين الضنك والرجاء،وأوضح مثال على ذلك ما وجده صلاح الدين في قصر العاضد بعد ما استولى عليه، وهذا ما ذكره ابن الأثير بقوله :"... وكان من كثرته يخرج عن الإحصاء،وفيه من الأعلاق النفيسة والأشياء الغريبة ما تخلو الدنيا من مثله،ومن الجواهر التي لم توجد عند غيرهم".[٦]

وبقضائه على الدولة الفاطمية حاول صلاح الدين الأيوبي تغيير أوضاع الناس فجمع ما في خزائن الخلفاء من أموال، وسخّرها في جهاد الفرنج وإصلاح أوضاع البلاد وأحوالها؛ فعادت إلى المسلمين بمصر والشام حياة الخير والرفاه بما قام به من إصلاحات في الميادين كلها، في التعليم والصناعة والزراعة، فقد بدأ بنفسه ليضرب للرعية أمثلة حية، وليكون قدوة لهم في زهده وتقشفه؛ لأنه كان يبحث عن هدف أسمى بكثير من حياة الترف والجاه،فلم يترك بعد وفاته مالا ولا عقارا ينم عن بذخ أو ترف . قال ابن شداد : "... فإنه ملك ما ملك، ومات ولم يخلف في خزانته من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعين درهما ناصريا، وجرما واحدا ذهبا صوريا، ولم يخلف ملكا ولا دارا، ولا عقارا، ولا بستانا، ولا قرية، ولا مزرعة، ولا شيئا من أنواع الأملاك " [١]. أما من الناحية الاقتصادية فقد كان لإسقاط الضرائب أثر بالغ في ازدهار التجارة وانتعاش الاقتصاد . قال صلاح الدين في منشور أصدره بهذا الصدد : " ... وخرج أمرنا بكتب هذا المنشور بمسامحة أهل القاهرة ومصر، وجميع التجار المترددين إليها، وإلى ساحل المقسم والمنية بأبواب المكوس صادرها وواردها، فيرد التاجر ويسفر، ويغيب عن ماله ويحضر و يقارض ويتجر برا وبحرا، مركبا وظهرا، سرا و جهرا، ولا يحلّ ما شده، ولا يحاول ما عنده، ولا يكشف ما ستره، ولا يسأل عما أورده وأصدره، ولا يستوقف في طريقه، ولا يشرق بريقه، ولا يؤخذ منه طعمة، ولا يستباح له حرمة "[٢].

---

[٤] الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي : ٨٢ .

[٥] السلوك لمعرفة دول الملوك :ق١ج٤٦/١ .

[٦] الكامل :١١٢/٩،وانظر الروضتين :ج١ ق٤٩٥/٢،والبداية والنهاية :٢٦٦/١٢ .

[١] سيرة صلاح الدين :٨ ، وانظر الروضتين :٢ /٢١٧ .

[٢] الروضتين : ج١ ق٢ /٥٢٣ ، وانظر : مفرج الكروب في أخبار بني أيوب:٢٠/٢

ثم أمّن صلاح الدين طرق التجارة الداخلية والخارجية، ولذلك حاول القضاء على إمارة الكرك التي كانت عقبة في طريق التجارة بين مصر والشام والحجاز ، قال ابن جبير : " من ذلك خروج صلاح الدين بجميع عساكر المسلمين لمنازلة حصن الكرك، وهو من أعظم حصون النصارى وهو المعترض في طريق الحجاز ،والمانع لسبيل المسلمين على البر " [٣]، وبذلك أمِّنَت الطرق التجارية ، وبات التجار آمنين على تجارتهم، ولا يعترض طريق قوافلهم معترض، وفي هذا يقول ابن جبير : " ... وسرنا في الصحراء نبيت منها حيث جنّ علينا الليل، والقوافل العيذابية والقوصية صادرة واردة، والمفازة معمورة أمنا "[١]،مما أدى إلى تنشيط التجارة وازدهارها "... واختلاف القوافل التجارية من مصر إلى دمشق على بلاد الفرنج غير منقطع، واختلاف المسلمين من دمشق إلى عكا كذلك وتجار النصارى لا يمنع أحد منهم ولا يعترض " [٢]، وهذا الازدهار الاقتصادي أدّى إلى ازدهار الأسواق، حتى باتت مثار إعجاب من رآها من الرحالة العرب، قال ابن جبير في وصف سوق حلب بالشام :" ... وأما البلد ، فموضوعه ضخم جدا ، حفيل التركيب، بديع الحسن، واسع الأسواق كبيرها، متصلة الانتظام مستطيلة، تخرج عن سماط صنعة إلى سماط صنعة أخرى، إلى أن تفرغ من جميع الصناعات المدنية، كلها مسقوف بالخشب، مساكنها في ظلال وارفة، وكل سوق منها تقيد الأبصار حسنا، وتستوقف المتوفز تعجبا "[٣]، ومن ذلك ما نقله الرحالة ناصر خسرو عن سوق مدينة طرابلس : " ... وشوارعها وأسواقها جميلة نظيفة، وحتى لتظن أن كل سوق قصر مزين "[٤].

أما الصناعة، فقد كانت مزدهرة، ولاسيما صناعة أدوات القتال، والسفن والملابس، والزجاج، والورق، ومع ازدهار الاقتصاد كان السلطان يلتفت إلى الأمور الداخلية في دولته، فيقيم المشاريع العمرانية، كالمدارس والمارستانات، والحصون،والقلاع، والأسوار، و الخوانق، و الرباطات وغيرها"[٥]

---

[٣] رحلة ابن جبير :٢٠١

[١] رحلة ابن جبير :٦٢ .

[٢] المصدر نفسه :٢٠١ .

[٣] المصدر نفسه :١٧٨.

[٤] سفر نامة :٤٨ .

[٥] الروضتين : ج١ ،ق٢ /٦٨٦-٦٨٨-٦٨٩ .

ثالثا -ملامح البيئتين : الفكرية والثقافية :

كان للزعامة التي سلمت لمصر في العصور الوسطى الأثر الأكبر فوق الجهود الحربية في الوضع العلمي والأدبي، فازدهرت الحركة الفكرية والثقافية في هذه العصور، ولاسيما العصر الأيوبي ازدهارا كبيرا مع انشغال الدولة بالجهاد ضد الصليبيين، فكان كما وصفه أحد الدارسين : " ... عصر إحياء للفكر والثقافة الإسلامية والعربية، كما كان عصر إحياء سياسي " [١] .

كان صلاح الدين الأيوبي محبا للعلم والعلماء، مكرما لهم مغدقا عليهم، فكان طبيعيا أن يظهر أثر ذلك في آداب العصر وعلومه، وقد أسند إلى العلماء والأدباء مناصب رفيعة في دولته،واتخذ من بعضهم وزراء ومستشارين من مثل : القاضي الفاضل ، والعماد الأصفهاني [٢]، وابن شداد[٣]. قال ابن شداد في ذلك : " ... وكان يكرم من يرد عليه من المشايخ وأرباب العلم والفضل وذوي الأقدار،وكان يوصينا بألا نغفل عمّن يجتاز بالخيم من المشايخ المعروفين حتى نحضرهم عنده ، وينالهم من إحسانه " [٤] . بنى صلاح الدين المدارس والمراكز العلمية : " و تكاد المصادر التي يرجع إليها في تاريخ الدولتين الأيوبية والمملوكية لا تمد الباحث بشيء ذي بال في وصف نظام التعليم بهذه المدارس التي يشير إليها البحث، ولكن هذه المصادر التي يشار إليها تكتفي بأوصاف موجزة لهذه المدارس؛ فيعثر الباحث في ثنايا هذه الأوصاف على عبارات تدل دلالة قريبة أو بعيدة على شيء من هذا النظام، أو على شيء من مراتب العلماء، أو درجاتهم الفنية بالتعبير الحديث، ومن ذلك

---

[١] الأدب في العصر الأيوبي :٧٥ .

[٢] محمد بن صفي الدين ، الملقب عماد الدين الكاتب الأصفهاني (٥٩٧هـ) ، تفقه بالمدرسة النظامية ، وكان فقيها شافعيا أتقن الخلاف وفنون الأدب ، وكان جيد النظم ، كثير القول ، له الترسل المليح والكتابة البليغة ، خرج إلى الشام وخدم نور الدين ، ثم تولى الكتابة لصلاح الدين مع القاضي الفاضل ، وهو صاحب " خريدة القصر وجريدة العصر " و " الفيح القسي في الفتح القدسي والفتح القدسي " و البرق الشامي " ،وغيرها . انظر وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان وأنباء أبناء الزمان :١٤٧/٥-١٥٣ ، وطبقات الشافعية- السبكي :٦ /١٧٨

[٣] هوأبو المحاسن ، يوسف بن رافع بن تميم الأسدي (٦٣٢هـ) ، فقيه شافعي ، ولد بالموصل ، واتصل بصلاح الدين وولاه قضاء العسكر ، ثم الحكم بالقدس الشريف بعد تحريره ، وبعد وفاة السلطان اتصل بابنه الظاهر صاحب حلب ، وهو من شيوخ ابن خلكان، وله كتاب : سيرة صلاح الدين ، المعروف بالنوادر السلطانية . انظر وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان وأنباء أبناء الزمان :٨٤/٧ ــ١٨٠.

[٤] سيرة صلاح الدين :٣١ .

مثلا أن نقرأ عن أحد العلماء أنه: (تولى التدريس) في إحدى المدارس على مذهب مالك أو الشافعي ، وأن آخر: (تصدر للإقراء)؛ أي إقراء مذهب مالك أو الشافعي، وأن ثالثا كان يتولى: (الإعادة)؛ أعني كان معيدا .

أفلا يمكن أن تدل هذه النصوص وأمثالها على أن وظائف التعليم بهذه المدارس كلها كان يعهد بها إلى معلمين على طبقات ثلاث ؟ " [(١)]، وهذه الطبقات هي : طبقة الصدر، ثم المدرسين، ثم المعيدين .

وجاء في وصف المقريزي للمدرسة التي بناها صلاح الدين بجوار ضريح الإمام الشافعي : " ... وجعل فيها معيدين، وعدة من الطلبة، وولي تدريسها جماعة من أكابر الأعيان ثم خلت من مدرس ثلاثين سنة، واكتفى فيها بالمعيدين، وهم عشرة أنفس "[(٢)]، ولذلك أصبحت مصر والشام في عهده موئلا للعلماء والأدباء والفقهاء الذين وفدوا إلى دولة صلاح الدين من المشرق والمغرب والأندلس، لما وجدوا فيها من التقدير والتشجيع والإكرام . ومن أشهر الذين قدموا إلى مصر والشام في عهده : العماد الأصفهاني، وابن شداد، والهروي [(٣)]، والبغدادي[(٤)] ، وغيرهم كثير .

لقد عرف عن صلاح الدين حرصه على مجالسة العلماء، والذهاب إليهم مع أبنائه للسماع منهم، وقد تحدّث ابن شداد عن شغف السلطان بالحديث ومجالسة العلماء : " ... وكان - رحمه الله - شديد الرغبة في سماع الحديث . ومتى سمع عن شيخ ذي دراية عالية وسماع كثير ، فإن كان ممن يحضر عنده استحضر وسمع عليه ، فأسمع من كان يحضره في ذلك المكان من أولاده ومماليكه والمختصين به ، وكان يأمر الناس بالجلوس عند سماع الحديث إجلالا له ،وإن كان ذلك الشيخ ممن لا يطرق أبواب السلاطين، ويتجاوز عن الحضور في مجالسهم، سعى إليه وسمع عليه؛ وكان يستحضره في خلوته،ويحضر شيئا من كتب الحديث، ويقرؤها، فإذا مر بحديث فيه عبرة رقّ قلبه، ودمعت عينه " [(١)]، فقد سمع الحديث وموطأ مالك من شيخ الحديث في عصره الحافظ السلفي[(٢)]بالإسكندرية، ومن الشيخ البندهي المسعودي[(٣)]بالقاهرة

---

(١) الحركة الفكرية في مصر :١٦٩ .

(٢) الخطط (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار): ـــــ

(٣) علي بن أبي بكر علي الهروي (٦١١هـ) ، ولد بالموصل وطاف البلاد ، وأكثر من الزيارات ، تقدم عند الملك الظاهر بن صلاح الدين صاحب حلب ،. انظر : وفيات الأعيان

(٤) عبد اللطيف بن يوسف بن محمد بن علي البغدادي (٦٢٩هـ) من فلاسفة الإسلام ، وأحد العلماء المكثرين من التصنيف في الحكمة وعلم النفس والتاريخ والطب . انظر : عيون الأنباء في طبقات الأطباء :٦٨٥ ، و إنباه الرواة :١٩٣/٢-١٩٦ .

(١) سيرة صلاح الدين :٧ .

(٢) الحافظ أحمد بن محمد بن أحمد السلفي الأصفهاني (٥٧٦ ه)،أحد الحفاظ المكثرين ، كان مغرما بجمع الكتب،حتى جمع منها عددا ضخما ٠انظر : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان:١٠٥/١

قال أبو شامة:"...وقد عين لسماع الأحاديث النبوية بقراءة الإمام تاج الدين البندهي المسعودي ميقاتا "[٤]؛ لذا فقد انتشرت المراكز العلمية والثقافية في مصر والشام من مدينة الإسكندرية إلى حلب، وكان من أشهرها القاهرة،والإسكندرية،وقوص،وأسيوط في مصر، ودمشق وحلب ثم بيت المقدس[٥]

وكفى بمجلس السلطان عظمة بأنه ازدان بالقاضي الفاضل وزيرا ومديرا ومشيرا،والعماد الأصفهاني كاتبا وشاعرا ومؤرخا وأديبا،والقاضي بهاء الدين ابن شداد كاتبا ومشيرا،وابن الأثير كاتبا وناقدا.

تحدّث المؤرخون والكتّاب عن شخصية صلاح الدين فوصفوه بالورع والثقافة الواسعة"... كان حافظا لأنساب خيلهم،عالما بعجائب الدنيا ونوادرها حيث كان يستفيد محاضره ما لا يسمع من غيره"،وكان محبا للشعر ناقدا له،و كان يستحسن الشعر الجيد،ويردده في مجلسه،ومدحه كثير من الشعراء،و انتجعوه من البلدان"[١]، ويقول العماد فيه: "لا يجري في مجلسه ومأنسه إلا ما هو من الحكم والكلم الفائق الرائق ،يحب الشعر الجيد ،ويحبه بشعار جوده"[٢]،وكان صلاح الدين ذا عناية بالقرآن والحديث النبوي الشريف،فكان يحب سماع القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف يقول ابن شداد :"... وكان يحب سماع القرآن العظيم،حتى إنه كان يستخير إمامه،ويشترط أن يكون عالما بعلوم القرآن متقنا لحفظه"[٣] ويقول أيضا:"... وكان يحب أن يقرأ الحديث النبوي بنفسه،وكان يستحضرني في خلوته ويحضر شيئا من كتب الحديث ويقرؤها هو"[٤]

كان لهذه الصفات التي اتّصف بها السلطان،مع رعايته واهتمامه بالعلم والعلماء أثر بالغ في تنشيط الحركة الثقافية والفكرية في عهده حتى كان - رحمه الله - من بناة النهضة العلمية وحماة أربابها في عصره.[٥]

وكان لموقع مصر المتميز مابين المغرب والأندلس وبلاد الشام والحجاز أثر بالغ الأهمية في ازدهار الحركتين الثقافية والفكرية، فالمارون في طريق

---

[٣] محمد بن عبد الرحمن بن مسعود،الملقب تاج الدين البندهي(٥٨٤ه)فقيه شافعي،وكان أديبا فاضلا،اعتنى بالمقامات الحريرية فشرحها.انظر ترجمته في: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان :٣٩٠/٤-٣٩٢.

[٤] الروضتين :٢١/٢ .

[٥] انظر تفصيل ذلك في كتاب: الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام:٤٢-٧٤

[١] السلوك : ق١-ج١- ص ١١٣

[٢] خريدة القصر وجريدة العصر(قسم شعراء الشام) :٧٨ .

[٣] سيرة صلاح الدين :٩ .

[٤] المصدر نفسه :١٠ .

[٥] تاريخ سورية ولبنان وفلسطين :٢ / ٢٤٠ .

حجهم بمصر كانوا يؤثرون في حركتها الفكرية، ويتأثرون بما فيها؛ لأن أغلبهم كانوا يحرصون على لقاء المشايخ فيها، وقد يعجبهم المقام في ظل صلاح الدين، فيستقرون في مصر والشام، وقد نشأ عن ذلك حركة علمية وفكرية نشطة، وامتزاج حضاري وثقافي بين المشرق والمغرب .

و كان من مظاهر ذلك النشاط الفكري والأدبي ما يعقده الشعراء من مجالس أدبية. قال ابن خلكان في حديثه عن ابن سناء الملك : " ... واتّفق في عصره بمصر جماعة من الشعراء المجيدين، وكان لهم مجالس يجري بينهم فيها مفاكهات ومحاورات يروق سماعها، ودخل في ذلك الوقت إلى مصر ابن عنين فاحتفلوا به، وعملوا له دعوات، وكانوا يجتمعون على أرغد عيش، وكانوا يقولون : هذا شاعر الشام، وجرت له محافل سطرت عنهم " [1]،والحديث عن المجالس الأدبية في مصر يطول ؛ لأننا نجد في طيات كتب التاريخ والأدب تفصيلات ما كان يجري في تلك المجالس .

ولم تكن الشام ببعيدة عن هذا الأسلوب، فلم تَحُلِ الحروب الدائرة بين الغزاة الصليبيين وصلاح الدين دون إقامة المجالس الأدبية والعلمية ولاسيما في بيت المقدس بعد تحريره، فقد كان موئل العلماء والأدباء والفقهاء، توافدوا إليه من كل حدب وصوب، وشاركوا بذلك في تنشيط الحركة الفكرية والثقافية، فحاول كثيرون منهم أن يكون لهم شرف إلقاء أول خطبة جمعة فيه بعد تحريره، وفي هذا يقول العماد الكاتب : " ... وتذاكر العلماء ، وتناظر الفقهاء، وتحدّث الرواة، وروى المحدثون، ولخّص المفسرون، وفسّر الملخصون، و انتدى الفضلاء، وانتدب الخطباء، وكثر المترشحون للخطابة، المترشحون بالإصابة، المعروفون بالفصاحة، الموصوفون بالحصافة، فما فيهم إلا من خطب الرتبة، ورتّب الخطبة، وأنشأ معنى شائعا، ووشّى لفظا رائقا "[2]

بذل صلاح الدين الأيوبي تشجيعا ماديا ومعنويا للعلماء والأدباء، وكان يحضر مجالسهم، ويشارك فيها مشاركة فعّالة، وفي هذا يقول البغدادي: " ... وأول ليلة حضرته، وجدت مجلسا حفلا بأهل العلم يتذاكرون في أصناف العلوم، ويحسن الاستماع والمشاركة ، ويتفقه ، ويأتي بكل معنى بديع " [1] .

ومما زاد في حدّة النشاط الفكري في العصر كثرة العلماء والأدباء، نذكر منهم على سبيل المثال: القاضي الفاضل، والعماد الأصفهاني، وابن سناء الملك [2]، وابن الأثير [3]، وابن شداد، وغيرهم، وقد ذكر العماد الأصفهاني أعدادا منهم في كتابه: (خريدة القصر وجريدة العصر)[4].

---

[1] وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان :٦٢/٦ .

[2] الفيح القسي في الفتح القدسي :١٣٨ ، وانظر : إتحاف الأخِصّا :٢٦٢/١-٢٦٣(مخطوط)

[1] عيون الأنباء في طبقات الأطباء :٢٨٨ .

[2] هبة الله بن القاضي الرشيد أبي الفضل جعفر بن المعتمد بن سناء الملك (٦٠٨ هـ) ، شاعر مشهور، وصاحب ديوان الشعر البديع والنظم الرائق، له ديوان سماه : " دار الطراز "، قال

ومن المظاهر البارزة للحركة الفكرية في ذلك العصر شيوع الرحلة في طلب العلم من المغرب والأندلس إلى مصر والشام للنهل من علوم علمائها، ومن أبرز هؤلاء العلماء الذين كانوا يقصدون الحافظ السلفي الذي قال فيه ابن خلكان : " وقصده الناس من الأماكن البعيدة، وسمعوا عليه، وانتفعوا به، ولم يكن في آخر عمره في عصره مثله "(٥).

يقول ابن جبير في ذلك:

"... واتسم اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء الطارئين حتى أمر بتعيين حمامات يستحمون فيها متى احتاجوا إلى ذلك، ونصب لهم مارستانا لعلاج من مرض منهم، و وكّل بهم أطباء يتفقدون أحوالهم، وتحت أيديهم خدام يأمرونهم بالنظر في مصالحهم التي يشيرون بها من علاج وغذاء "(١)

ولذلك حثّ ابن جبير أبناء المغرب والأندلس على الرحلة إلى المشرق، حيث يجد الرحالة العلم والتشجيع والإكرام في دولة السلطان صلاح الدين الأيوبي ، وهذا ما رآه وعاينه بنفسه في أثناء مروره بمصر والشام وبلاد الحجاز، ويتضح ذلك في قوله : " ... فمن شاء الفلاح من نَشَأَةِ مغربنا، فليرحل إلى هذه البلاد، ويتغرب في طلب العلم، فيجد الأمور المعينات كثيرة، فأولها: فراغ البال من أمر المعيشة، فهذا المشرق أبوابه مفتوحة لذلك، فادخل أيها المجتهد بسلام"(٢) .

أما التأليف فقد زادت حركته في هذا العصر؛ وذلك مجاراة لما كان يجري فيه من جهاد ضد الصليبيين: " ... وكان الرجل إذا أراد أن يتقرب إليه يحثّه على الجهاد، ويذكر شيئا من أخبار الجهاد، ولقد ألفت له كتب عدّة في الجهاد، وأنا ممن جمع له فيه كتابا جمعت فيه آدابه، وكل آية وردت فيه، وكل حديث روي في فضله، وشرحت غريبها "(٣). كما ألفت كتب أخرى في سيرة صلاح الدين وفتوحاته، ومن تلك الكتب: (النوادر السلطانية، أو سيرة صلاح

عنه العماد : " أحرز في صناعة النثر والنظم غاية " . انظر : خريدة القصر وجريدة العصر(قسم شعراء مصر) :٦٧/١ ، وانظر وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان :٦١/٦-٦٢

(٣) أبو الفتح ، ضياء الدين نصر الله بن أبي الكرم الشيباني (٦٣٧هـ) الأديب، صاحب: (المثل السائر في في أدب الكاتب والشاعر)، و (الوشي المرقوم في حل المنظوم)، وزر للملك الأفضل بن صلاح الدين . انظر : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان : ٣٨٩/٥-٣٩٧

(٤) كتاب جليل الفائدة. حقق القسم الخاص بشعراء مصر : الدكتور أحمد أمين، والدكتور شوقي ضيف، والدكتور إحسان عباس ، سنة ١٩٥١ م، وهو في جزأين، وحقق القسم الخاص بشعراء الشام، الدكتور : شكري فيصل ، و هو في جزأين وبداية، وحقق القسم الخاص بأهل أصفهان عدنان محمد – إيران – طهران – مركز التراث ١٩٩٩م.

(٥) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان :١ /١٠٥ .

(١) رحلة ابن جبير :٤٦.

(٢) المصدر نفسه : ٢٠٠ .

(٣) سيرة صلاح الدين :٢١ .

الدين) لابن شداد، وكتاب: (الفيح القسي والفتح القدسي)، و (البرق الشامي) للعماد الأصفهاني، وما جادت به قريحة القاضي الفاضل من رسائل ويوميات كما سيظهر البحث فيما بعد .

كان لا بد لهذه الحركة الفكرية المزدهرة من مواكبة الاهتمام بالمكتبات العامة والخاصة، فقد لقيت المكتبات عناية خاصة من السلطان، والوزراء، والأدباء، وكبار رجال الدولة، وفي مقدمتهم القاضي الفاضل الذي امتلك مكتبة ضمت في ثناياها مئة ألف مجلد قال ياقوت الحموي: " ... كان جمّاعة للكتب حريصا عليها جدا، ولم أرَ مع اشتمالي على الكتب، وبيعي لها، وتجارتي فيها أشدّ اهتماما منه بها، ولا أكثر حرصا منه على اقتنائها، وحصل منها ما لم يحصل لأحد "[١]، وبذلك فقد كان لا بدمن ازدهار تجارة الكتب وتداولها في الشام ومصر، وذلك لتنافس الناس على اقتنائها وشرائها بأثمن الأسعار [٢]، فحين أدرك السلطان شغف القاضي الفاضل، والعماد الكاتب بالكتب أهداهما معظم الكتب التي وجدها في مكتبة القصر الفاطمي .

أما أدباء هذا العصر فقد كانوا يجمعون بين النثر والنظم، والنقد الأدبي، وهذا ما نلمحه في مؤلفاتهم التي وصلت إلينا، ومن أشهر هؤلاء : القاضي الفاضل، والعماد الأصفهاني، وابن الأثير، وابن كاسيبويه[٣]، وابن مماتي[٤] وابن رفاعة [٥] .

أما التأليف فقد انتعش في العلوم على اختلاف مشاربها، وتنوعت أبوابه في كل المجالات ، فكثرت المؤلفات التي تعالج مختلف فنون المعرفة، ففي مجال الشريعة والفقه وأصول الدين، نبغ عدد من العلماء من أشهرهم: الشهرزوري [٦]،

---

[١] معجم الأدباء :١٥/١٨٧-١٨٨ .

[٢] الأدب في العصر الأيوبي :٨٦.

[٣] القاضي المؤتمن ابن كاسيبويه، من كتاب مصر المشهورين الذين كتبوا في الديوان الفاضلي، كان كاتبا شاعرا . انظر ترجمته في كتاب الخريدة، :١/٥٤-٥٥٦.

[٤] أبو المكارم، أسعد بن الخطير أبي سعيد مهذب بن مينا بن زكريا الأسعد ابن مماتي المصري الكاتب الشاعر (٦٠٦هـ)، نصراني أسلم في الدولة الصلاحية، وتولى نظر الدواوين بمصر ، وهو أحد الكتاب في الديوان الفاضلي ، ووفيات الأعيان :١/٢١٠ –٢١٣ .

[٥] عبد الرحمن بن هبة الله بن حسن بن رفاعة المعروف بكاتب الأمير ناصر الدولة ، من كتاب الديوان الفاضلي،انظر ترجمته وأخباره في، خريدة القصر وجريدة العصر (قسم شعراء مصر) :١/٥٦ .

[٦] أبو الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري (٥٧٢هـ)، فقيه شافعي، وزر لنور الدين، وكان أديبا وشاعرا: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان : ٤/٢٤١-٢٤٢ .

والهكـاري [١] ، والخبوشـاني [٢] ، والـسهروردي[٣]، والعراقـي الخطيـب[٤] ، وابـن الزكـي [٥]، والغزنـوي [٦]، وابـن عـساكر [٧]، وابـــــن شـــــداد[٨]، والطريثيثي[٩] ،
والبوصيري [١]وعبد الغنـي المقدسـي [٢]، والجمـال المـصري ،[٣] والـسخاوي [٤]،وابـن الـصلاح [٥]، وغيـرهم كثيـر ، وقيـل إن العلمـاء الـذين نبغـوا فـي هـذا العصر من المحدثين دون غيرهم قد جاوزوا ثلاثمئة محدث [٦] .

---

(١) عيسى بن محمد بن عيسى بن محمد بن أحمد الهكاري (٥٨٥هـ) كان أحد الأمراء بالدولـة الصلاحية معولا عليه في الآراء و المشورات: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمـان :٤٩٧/٣-٤٩٨.

(٢) محمد بن الموفق بن سعيد بن علي بن الحسن بن عبد الله، الخبوشاني الشافعي (٥٨٧هـ) ، كان فقيها شافعيا فاضلا كثير الورع، أحد الأئمة علما ودينا وورعا: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان :٢٣٩/٤.

(٣) يحيى بن حبش بن أميرك السهروردي، (٥٨٧ هـ)، كان من علماء عصره، فقيه شافعي متهم بعقيدته ، قتل بحلب في دولـة الظـاهر غـازي، لـه فـي النظـم والنثـر أشياء لطيفـة . وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان : ٦/ ٢٦٨ ــ٢٧٤ .

(٤) إبراهيم بن منصور بن المسلم ، الفقيـه الشافعي المعروف بـالعراقي الخطيب (٥٩٦هـ) ، كان فقيها فاضلا: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان :٣٣/١-٣٦ ، وطبقات الشافعية ــ السبكي :٣٧/٧-٣٩ .

(٥) محمد بـن علـي بـن يحيـى بـن علـي بـن عبد العزيـز ، القرشـي الدمشقي ، الفقيـه الشافعي (٥٩٨هـ) ، تـولى قـضاء دمشق ، وهـو صـاحب الخطبـة الأولـى ببيت المقدس بعد فتحـه سـنة (٥٨٣هـ) : انظر ترجمته في : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان :٢٢٩/٤-٢٣٧ .

(٦) أحمد بن محمد بن حمود الغزنوي (٥٩٣هـ)، من غزنة إحدى بلاد الهند، درس الفقه علـى مشهوري أساتذة المذهب حتى بلغ شأوا بعيدا، وأخذ عنه جماعة، مات بحلب، له مؤلفات عديدة غب الفقه منها (أصول الفقه). تـاج التـراجم :١٠، انظـر : الحيـاة العقليـة فـي عـصر الحـروب الصليبية بمصر والشام :١٧٩ .

(٧) عبد الرحمن بن محمد بن الحسن بن هبـة الله الدمشقي، الملقب فخـر الـدين، المعروف بـابن عساكر (٦٢٠هـ) فقيه شافعي ، كان إمام وقته في علمه ودينه ، درّس بالقدس زمنـا، وبدمشق، وهو ابن أخي الحافظ ابن عساكر صـاحب تـاريخ دمشق . وفيـات الأعيـان وأنبـاء أبنـاء الزمـان :١٣٥/٣ ، وطبقات الشافعية ــ السبكي :١٧٧/٨.

(٨) تقدمت ترجمته : ص ٢٦ من هذا البحث

(٩) مسعود بن محمد بن مسعود بن طاهر النيسابوري الطريثيثي، الفقيه الشافعي، الملقب قطب الدين (٥٧٨هـ)، كان عالما صالحا، جمع للسلطان صلاح الدين عقيدة تجمع ما يحتـاج إليـه مـن أمور دينه ، وصنف كتاب (الهادي) في الفقه . انظر ترجمته في : وفيات الأعيان وأنباء أبنـاء الزمان :١٩٦/٥-١٩٧ ، والعبر في خبر من عبر :٢٣٥/٤-٢٣٦ .

(١) هبة الله بن علي بن مسعود بن ثابت بن هاشم الأنصاري الخزرجي المصري المولد،(٥٩٨ ه)،له سماعات عالية وروايات تفرد بها ولم يكن في آخر عصره في درجته مثله،كان أديبا كاتبا. انظر وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان :٦٧/٦ ــ٦٨،العبر في خبر من عبر:٣٠٦/٤ ٠

(٢) عبد الغني بن عبد الواحد بن علي بن سرور المقدسي الجماعيلي (٦٠٠ ه)،كان أوحد زمانـه في علم الحديث سمع بأصبهان،ودمشق والإسكندرية، . انظر ذيل الروضتين،ص:٤٦-٤٧ ٠

(٣) يونس بن بدران بن فيرزز المصري،(٦٢٣ ه)،قاضـي قضاة دمشق،درس التفسير والفقه بالمدرسة العادلية،اختصر كتاب (الأم) الشافعي. الروضتين ص:١٤٨ ٠

وفـي علـوم اللغـة والنحـو نبغـت جمهـرة مـن العلمـاء مـن أشـهرهم : المعـافري[٧]، وابـن ظفـر[٨] ، وابـن بـري [٩]، والكنـدي [١٠]، والـزواوي [١١]، وغيرهم .

هذا ولم تقتصر عناية علماء العربية على فرع واحد من فروعها ؛ إذ إنها تناولت هذه الفروع كلها من أدب، وبلاغة، وعروض، ونقد، وغيرها، كما يتبين من كتابات القاضي الفاضل، والعماد الأصفهاني، وابن سناء الملك، وابن مماتي، وابن الأثير صاحب (المثل السائر)، و(الوشي المرقوم)، والبغدادي صاحب (قوانين البلاغة) وغيرهم .

وبرع العلماء في تلك الفترة بالكيمياء، والفلك ولا سبيل لذكرهم، وكتب فـي التـاريخ العـام والخـاص جماعـة مـنهم : أسـامة بـن منقـذ [١]، والعمـاد الأصفاني، وابن شداد، والبغدادي، وغيرهم .

النـاظر فـي تـراجم العلمـاء فـي هـذا العـصر يـرى أنهـم مـن العلمـاء الموسوعيين الذين لم يكتفوا بتحصيل علم واحد، بل كانوا يسعون إلى تحصيل معظم فنون المعرفة الشائعة في عصرهم، فكان الواحد منهم يجمع إلى علم الفقه علم الحديث، والقراءات، واللغة، والنحو، والكتابة، والتاريخ، والطب، ونحو ذلك من العلوم كما أثبت البحث في تراجم من ذكروا فيه ،ولعل السبب في هذا يعود إلى أن التصدي لكتاب الله وتفسيره كان يتطلب من الرجل أن يلم

---

[٤] علي بن محمد بن عبد الصمد بن عبد الأحد الهمذاني المصري السخاوي،المقرئ النحوي الملقب بعلم الدين،(٦٤٣ هـ . انظر : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان :٣٤٠/٣-٣٤١

[٥] ،عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان بن موسى الكردي الشهرزوري مفتي الشام،(٦٤٣ ه)،فقيه شافعي . انظر وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان:٢٤٣/٣-٢٤٥،ذيل الروضتين،ص:١٧٥-١٧٦

[٦] الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام :١٢٤.

[٧] عبد الجبار بن محمد بن علي المعافري المغربي كان إماما في اللغة وفنون الأدب دخل مصر، وقرأ عليه ابن بري، وغيره . انظر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان :٢١٥/٣-٢١٦، وبغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة :٧٢/٢ .

[٨] محمد بن ظفر الصقلي المعروف بحجة الدين، أحد الأدباء الفضلاء، له مؤلفات كثيرة في اللغة والنحو والأدب والتفسير والتاريخ والفقه، مات سنة (٥٦٨هـ). انظر : الخريدة: ٤٩/٣ .

[٩] عبد الله بن بري بن عبد الجبار المقدسي المصري (٥٨٢هـ) كان إماما مشهورا في علم النحو واللغة، علامة عصره، وحافظ وقته، انظر : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان :٢/ ٣٤.

[١٠] زيد بن الحسن بن زيد بن الحسن بن سعيد الكندي، الملقب تاج الدين (٦١٣) كان أوحد عصره في فنون الأدب، نحوي لغوي، مقرىء، محدث. انظر : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان :٣٣٩/٢-٣٤٢ .

[١١] يحيى بن عبد المعطي بن عبد النور الزواوي النحوي (٦٢٨ هـ) كان أحد أئمة عصره في النحو واللغة، أديب شاعر. انظر : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان :١٩٧/٦

[١] أسامة بن مرشد بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني (٥٨٤هـ)، له من التصانيف : (الاعتبار)، وديوان شعر ، و(لباب الآداب) . انظر : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان :١٩٥/١-١٩٩

بأنماط مختلفة من المعارف والعلوم، ويمكن تصوّر هذه المعارف من خلال قول صاحب كشاف اصطلاحات الفنون: " إن العلوم التي يحتاج إليها المفسر خمسة عشر علما هي: اللغة، والنحو، والتصريف، والاشتقاق، والمعاني، والبيان، والبديع وعلم القراءات، وأصول الدين، وأصول الفقه، وأسباب النزول، والقصص، والناسخ والمنسوخ، والفقه، والحديث " [٢]، ولهذا فقد اتسمت ثقافة علمائنا في هذا العصر بالموسوعية كما أشرت سابقا .

ومما تقدّم، يمكن للباحث أن يرى بوضوح أن الحياة الفكرية والثقافية في مصر والشام في هذا العصر قد شهدت ازدهارا كبيرا ونشاطا واسعا مع وجود الحروب المستمرة التي خاضها المسلمون مع الصليبيين ؛ إلا أن الثقافة الدينية وما يتصل بها من لغة، ونحو، وأدب. هي الثقافة الغالبة على هذا العصر.

وبعد فهذه هي أهم ملامح البيئة السياسية والاجتماعية والثقافية التي عاش في كنفها القاضي الفاضل، والعماد الأصفهاني، وابن الأثير، فأثرت في أدبهم ، وتأثروا بها في رسائلهم التي هي محور الدراسة في هذا البحث .

رابعا - الحركة الأدبية في العصر الأيوبي، وأسباب انتعاشها:

انتعشت الآداب في عصر الدولة الأيوبية لأسباب عدة منها الخاص بتلك الدولة و لم يكن للدول السابقة عهد به، ومنها العام الذي شاركت فيه غيرها من الدول السابقة، فأما الأسباب التي شاركت فيها غيرها فهي: الاستقلال وانطلاق اليد في الإصلاح، وما كان لولاة الأمر في هذه الدولة ووزرائها من ملكات أدبية، وعناية به فضلا عن طبيعة مصر المشجعة على تفتق القرائح الأدبية، وميل شعب مصر نفسه إلى التمتع بأسباب الجمال المختلفة. وأما الخاص بالدولة الأيوبية فهو معاصرتها لاشتعال الحروب الصليبية، وما تبعها، وإنشاء المدارس التي لم تعرفها مصر قبل هذه الدولة،وفيما يتعلق بعناية الدولة الأيوبية بالأدب يمكن القول إنها ترجع إلى سلاطين الدولة أنفسهم وعرفانهم بقدر الآداب وملكاتهم العربية، فمن بين ما ذكر عن صلاح الدين أنه كان يميل إلى الفضائل ويستحسن الأشعار الجيدة، ويرددها في مجالسه الخاصة والعامة، ومكاتباته الرسمية والإخوانية [١]، وقد روي أن العماد الأصفهاني عرض على صلاح الدين يوما بضعة أبيات في وصف المشمش ومنها قوله :

بدت بين أوراق الغصون كأنها كرات نضار في لجين مطرق

فقال صلاح الدين: تشبيه الورق باللجين غير موفق؛ لأن الورق نفسه أخضر. فقال العماد : كرات نضار بالزمرد محدق، فقال لا بأس [٢] .

---

[٢] كشاف اصطلاحات الفنون : ٣٥ ، وانظر : الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام :١٠٨ .

[١] النجوم الزاهرة: ٦/ ٥٦-٥٧، و وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان :٣٩٨/٢ ...

[٢] الأدب المصري : ٥٩ .

وقد كان رجال الدولة من وزراء وقواد يسيرون على منهج سلاطينهم في الاحتفاء بالأدب والاعتزاز به، ومن بينهم القاضي الفاضل الذي عرفت عنه مجالسة الأدباء ومسامرتهم؛ مما يدل على أن ذلك الرجل كان جعبة أخبار،ولا يغيب عنه شيء من محاسن الماضين والمعاصرين . مما يروى عنه أنه قد جلس يوما وحوله ثلة من الأدباء فتحدثوا عن أدب العماد الأصفهاني،فقال القاضي الفاضل لأصحابه: قولوا رأيكم فيه، فشبهوا قريحته، ومنطقه بصفات لم يقبلها القاضي الفاضل،فعقب على قولهم:"هو كالزناد ظاهره بارد،وداخله نار"[١]، وقد كان العماد يعتريه العي والتلجلج أحيانا؛ لذا قال عنه ابن عساكر : " قالوا وقد كان منطوقه يعتريه جمود وفترة، وقريحته في غاية الجودة والحدة، ومن بين ما اشتهر به القاضي الفاضل جمع الكتب التي كان يبذل فيها المال الكثير، ومما يذكر عن جمعه الكتب أن صلاح الدين وجد خزانة كتب ليس لها في الإسلام نظير كانت للفاطميين اشتملت هذه الخزانة على ألفي ألف مجلد منها بالخطوط المستوية مئة ألف فأعطاها القاضي الفاضل "[٢] .

وفضل العماد وهو أحد وزراء صلاح الدين كان عظيما جدا في كتاباته ومؤلفاته التي أهمها: " خريدة القصر وجريدة العصر " فقد ذكر في كتابه هذا الشعراء الذين كانوا بعد المائة الخامسة إلى سنة اثنتين وسبعين وخمسمئة، وجمع فيها شعراء العراق والشام والجزيرة ومصر والمغرب، ولم يترك إلا النادر الخامل .

وفي النظر إلى أثر الطبيعة المصرية في تفتق القرائح الأدبية في هذا العصر يستوقف الباحث ما حفظته كتب التاريخ والأدب عن مجالس الشعراء والأدباء وأخبارهم وطرائفهم في هذا العصر، حيث كانوا يجتمعون في المغاني لاستماع الأغاني، ويذهبون إلى التمتع بالجزيرة والجيزة والأماكن العزيزة، ومما يروى في ذلك أن العماد الأصفهاني لما جاء مصر صفت له الحياة وارتاح إليها وإلى أهلها، قال : " وتوفرنا على الاجتماع في المغاني لاستماع الأغاني، والتنزه في الجزيرة والجيزة، والأماكن العزيزة، ومنازل العز والروضة، ودار الملك والنيل، والمقياس وموانى السفن، ومجاري الفلك، والقصور بالقرافة، وربوع الضيافة، ورواية الأحاديث النبوية، والمباحث في المسائل الفقهية، والمعاني الأدبية ... واقترحنا على القاضي الشهرزوري أن يفرجنا في الأهرام، فقد شغفنا بأخبارها في الشام، فخرج بنا إليها ودار بنا حواليها، ودرنا تلك البرابي والبراري والرمال والصحاري، وهالنا أبو الهول،

---

[١] البداية والنهاية ٣٠/١٣ ٠

[٢] حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة : ٣٤/٢

وضاق في وصفه مجال القول، ورأينا العجائب، وروينا الغرائب، واستصغرنا في جنب الهرمين كل ما استعظمناه، وتداولنا الحديث في الهرم ومن بناه "[١].

وأما ما يتعلق بالحروب الصليبية فقد كان لها الأثر الأعظم في إنعاش الحركة الأدبية في ذلك العصر، فيمكن القول بأن هذه الحروب كانت النفير العام الذي دوى فأيقظ الشرق من رقدته، ونبهه من غفلته، ووحده بعد تفرقة، وجمعه بعد شتات، وأعاده إلى الجد والصرامة، بعد أن أضعفه الترف، و أثملته الدعة، وخدرته النعمة، وبعثت الحروب الصليبية في الأدب الحياة، وجددت فيه القوة، فأذكت حواس الشعراء، وألهبت مشاعرهم، وأججت انفعالاتهم، وأمدتهم بالمعين الصادق من المعاني والأفكار، فأصبح الشاعر لا يمدح استجابة لدافع خارج عن شعوره أو تحقيقا لرغبة مفروضة عليه، وإنما يستمد من نفسه الوحي والإلهام، ويجد في قرارتها الحافز والدافع .

واتّخذ الشعراء من الحروب الصليبية موضوعا وتأثرت أساليبهم بها، ومن وحشيتها وأطماعها ما ابتلت به الشرق من محن، وما واجهت من بطولات صورا وأخيلة، ولا يكفي في هذا المقام الإجمال وإنما يعوزنا قليل من التفصيل؛ وإن كانت الكتب التي ألفت في هذا الموضوع وحده قد سدت هذه الثغرة في الأدب[٢]، وإنما يفرض المقام أن نلم بشيء من أثر هذه الحروب في الأدب من حيث موضوعاته، وأساليبه، وصوره، وأخيلته .

لقد غلب الشعر الحماسي على شعر شعراء هذا العصر حتى أصبح طابعا عاما طغى على روحه، فيكاد لا يخلو ديوان شاعر من شعراء هذه الفترة من ذلك الشعر الحماسي الذي يعكس صدى البطولات الرائعة في مقاومة الصليبيين، وتلك الانتصارات التي أحرزها " عماد الدين زنكي " و من بعده " نور الدين " ومن بعده " صلاح الدين "، بل لا نغالي إذا قلنا إن هذه القصائد وأمثالها هي التي غلبت على دواوين الشعراء. وقد أسمى الدكتور محمد كامل حسين هذا اللون من الشعر فن: " الشعور بالقومية الإسلامية "[١]، والحقيقة أن المسلمين قد شعروا بهذا الشعور، ونادوا به إبّان حروب " صلاح الدين وخلفائه "، وكان الأدب ، شعرا ونثرا هو اللسان المعبر عن هذا الشعور، وإن كنت أظن أن هذا المصطلح لم يوفق فيه صاحبه؛ لأن القومية لم تكن مطروحة آنذاك، بل لعل مصطلح الأمة الإسلامية أكثر تعبيرا عن الشعور؛ لأن المقاتلين كانوا مزيجا من القوميات يجمعهم الإسلام، ولا تجمعهم القومية، وليس أدل على ذلك من أن قوّادهم وعلى رأسهم صلاح الدين لم يكونوا عربا، ولم يعبروا عن قومياتهم، بل عبروا عن انتمائهم للإسلام .

---

[١] الروضتين : ٢٦٧/٢ .

[٢] منها : الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية للدكتور أحمد بدوي .

[١] دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين :٨٧

وحظي صلاح الدين بكثير من المدائح من كثير من الشعراء كابن سناء الملك، وابن الساعاتي، وعماد الدين الأصفهاني، وابن قلاقس السكندري، والأسعد بن مماتي، وابن النبيه وغيرهم من الشعراء .

ولم يقف شعراء الحماسة عند مواطن النصر وحدها، بل هزّت نفوسهم الهزائم فتأثروا بها، فوصفوا ما حل من نكبات، وما ابتلوا به من محن وشدائد، كما وصفوا ما حاق بهم من قتل وتخريب، وسلب ونهب، وعبث بمقدسات المسلمين، ولاسيما تلك الجرائم الوحشية التي اقترفها الصليبيون في القدس [٢]

والحق أن الأدب كله في هذا العصر تلون بلون الحياة الحربية، وما ينجم عنها من نصر أو هزيمة، وما تستدعيه من تهييج للخواطر، وإثارة للمشاعر، وتحميس للمحاربين وحثّ على القتال، ثم ما يترتب عليها من حزن وحسرة، أو فرح وبهجة، أو خوف وذعر إلى غير ذلك ، وقد فصّل الدكتور أحمد بدوي هذا الموضوع تفصيلا وافيا في كتابه: " الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية "[١]، وقد ذكر ما يقرب من عشرين غرضا من أغراض الشعر تأثرت بالحروب الصليبية ومعظم هذه الأغراض يرجع إلى الشعر الحماسي أو إلى ما سمّاه الدكتور محمد كامل حسين: " فن الشعور بالقومية الإسلامية ".

وكان الشعراء في جملتهم يتجهون إلى محاكاة الشعراء العباسيين في أساليبهم، وطرائق تعبيرهم، وبلغوا من ذلك حظا كبيرا حتى لنستطيع أن نضع بعضهم في بعض قصائده إلى جوار كبار الشعراء العباسيين، ولكننا لا نستطيع أن نغفل ما كان في هذا العصر من اتجاه إلى الزخرف والزينة يكاد يشترك فيه شعراء هذا العصر جميعهم، يقوى بعضهم حتى لا تضعف الزينة من أسلوبه، وحتى تبدو كأنها طبيعية غير متكلفة، وتقوى هي على الآخر حتى تسقط شعره في تكلف ممقوت ثقيل [٢] .

ولم يكن النثر بأقل عزما من الشعر فقد أدّى دورا إيجابيا ربما كان أشد وأعظم أثرا من الشعر؛ ذلك أن الكتّاب الذين ولوا أمر ديوان الإنشاء في هذه الفترة كانت أقلامهم أسنة وكلماتهم مشهورة، ولهم قدرة على رصف الكلام وتحبيره حتى ليهز النفوس الضعيفة ، وهاهو ذا القاضي الفاضل يقول في رسالة عن الفتوحات في عهد صلاح الدين الأيوبي : " ... فأما الفتوحات الناصرية فقد هطلت قطرا، بل جرت نهرا، بل جرت بحرا، بل درّت درا، فما ينقضي يوم جمعة إلا عن تخلق محاريبها، واستجابة دعوة خطيبها، وافتضاض بكر من القلاع، بعوان[٣]من الحرب يقعد لها الموت على قارعة القراع، وأخر

---

[٢] الأدب في عصر صلاح الدين :٢٧٠ .

[١] الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية :٤٠٧-٥٤٣ .

[٢] المرجع نفسه :٥٦٠ .

[٣] العوان : المتوسطة في العمر بين الصغر والكبر من النساء والبهائم ، وهنا استعيرت للقلاع .

ما تسلم دربان من الديوية[٤]، والفتح منهما فتحان، ويدهم في الحرب يدان، وظهورهم لا يدحرها إلا اللعنة وصدورهم لا يملؤها إلا الطعنة، وكانوا قد اجتهدوا في القتال ، وصبروا على مر النضال، ومر النصال، حتى أهمدتهم الصفاح، وأرقدتهم الجراح، فحينئذ لاذوا بالأمان، وطلبوا ذمة سلطان الإيمان، فلم يجبهم إلا بقطيعة ثقلها، وعدد و غلات وأسلحة اعتقلها، فأجابوا مكرهين، ونزلوا آيسين طامعين، وكملوا القطيعة ... "[١].

ومما كتبه العماد الكاتب عن صلاح الدين بعد أن استولى الفرنج على عكا وغدروا بأسرى المسلمين قوله: " ... وللكرام آجال، والحرب سجال، ولله من المؤمنين رجال، والآن فقرت الحميات، وهبّت النخوات، ووجب على كل مسلم أن ينهض لنصرة الإسلام، ويتدارك ما حدث من الكسر بالجبر والإحكام، ويعيد ما وهى من عقد الفتوح إلى النظام فأين ذوو الأنفة والحمية، والسهم العلية، والنفوس الأبية ؟! أما يهتمون لصرع من استشهدوا من إخوانهم، أما يثورون لثأر إيمانهم ؟ أما تبكي العيون لمن قتل من أماثلها وأعيانها؟ فإن مصابهم عظيم، ومقامهم عند ربهم الكريم كريم، وأراد الله بذلك تنبيه الهمم الراقدة، وإثارة العزائم الراكدة ."[٢]

ففي هذه الرسالة إثارة للهمم الفاترة، وإنهاض للعزائم المتوانية، وفيها مع الهزيمة إيمان المؤمن بالنصر، والدعوة للأخذ بالثأر من أولئك الغادرين الذين لا يرعون في الحرب إلاّ ولا ذمة.

ولا أريد تفصيل الحديث في عوامل انتعاش الكتابة بصفة خاصة؛ لأن ذلك سيكون من خلال الدراسة المستفيضة لفن الكتابة (الرسائل) في مكانه من البحث.

أما فيما يتعلق بالمدارس في مصر، فيمكن القول بأن الدولة الأيوبية هي أول دولة أنشأت المدارس بمصر ووقفت عليها الأوقاف التي تضمن حياتها بعد موت منشئها، فقد فات الفاطميين فضل إنشاء المدارس مع كثرة ما أنفقوا من أموال وأحدثوا من منشآت، ولم يلفت نظرهم ما قام به نظام الملك شاه بن ألب أرسلان السلجوقي من إنشاء المدارس وتعيين المعلمين والقائمين بأمر المدرسة جميعا، وضمان ذلك بالأوقاف التي توقف على المدرسة لتحيا بعد منشئها، وهو أوّل من سنّ هذا النظام، ويرجع عدم اهتمام الفاطميين بإنشاء المدارس إلى أن مذهبهم وهو مذهب الإمامية لم يقل بهذه الأشياء، ولكن لما ملك صلاح الدين مصر وشرع في إصلاح أحوالها كان من مستلزمات هذا الإصلاح إنشاء المدارس على نمط مدرسة نظام الملك، وقد عدد ابن خلكان المدارس التي

---

[٤] الديوية : أطلقها المسلمون على جمعية فرسان المعبد Templiers .

[١] رسائل الحرب والسلام من ترسل القاضي الفاضل : ٤٨-٤٩ .

[٢] الروضتين :٢/١٧٠-١٧١ .

أنشأها صلاح الدين في مصر [١]، وهذه المدارس كان قوامها تعليم الدين فهذه مدرسة للأحناف، وتلك للشافعية، وأخرى للمالكية، ولكننا نعلم أن الدين الإسلامي لا يستقل من علوم العربية؛ لأنه منها يستمد فهمه ويدرك كنهه فلا بد أن العربية وفروعها كانت تدرس بهذه المدارس .

ولما كان الناس على دين ملوكهم صار الأمراء والوزراء في الدولة الأيوبية يعملون عمل ملوكها فينشئون المدارس ويقفون عليها الأوقاف التي تضمن لها حياتها وإجراء الرزق على أساتذتها وطلابها والقائمين بأمرها جميعا، ومن ذلك على سبيل المثال مدرسة القاضي الفاضل التي جعل فيها كتبه كلها ووقف عليها الأوقاف التي ضمنت لها الحياة إلى عصر المماليك حتى أصاب مصر الغلاء سنة أربع وتسعين وستمئة، فنهبت كتبها وبيعت في ذلك الغلاء (٢)، ولم يكن التعليم مقصورا على هذه المدارس، بل إنه ظل كذلك كما كان من قبل يدرس في المساجد الجامعة(٣)

الباب الأول

(الدراسات النقدية للرسائل وتقييمها)

[١] وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان :٤٠٢/٢ .

[٢] الخطط (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار): ٣٦٦/٢ .

(٣) يستثنى من هذه المساجد الجامعة الجامع الأزهر، وذلك لأن الأيوبيين كانوا من متحرجي أهل السنة، فحاولوا محو كل أثر للفاطميين الشيعة. انظر: دائرة المعارف الإسلامية، المجلد الثاني، العدد الأول: ٥٢ .

الفصل الأول- نقد الدراسات التي تناولت الرسائل:

١- منزلة الرسائل في الدراسات التي تناولتها:

يمكن للباحث أن يصنف الدراسات التي اهتمت بالرسائل الأدبية صنفين: صنفا جاء ضمن كتابة تاريخ الأدب العربي، وصنفاً اتخذ الرسائل موضوعاً من موضوعات النقد وسعى إلى إبراز قيمتها الأدبية، ونجد نوعاً ثالثاً من الأبحاث اعتمد الرسائل في دراسة مسائل حضارية. لكننا نقتصر في هذا المضمار على الاهتمام بالصنفين الأوّلين؛ لأنهما أوثق اتّصالا بموضوع بحثنا.

جاء اهتمام مؤرخي الأدب بالرسائل في سياق جمع التراث، وإنزاله في البيئة التي أنتجته، وفي نطاق التعريف بكتّاب النثر العربي، وبذل بعضهم جهوداً كبرى في ضبط المدونة والإحالة على مظانها، ووضعها في سياقها التاريخي والحضاري[١]، وانصرف بعضهم إلى تحقيق النصوص، والتعريف بظروف كتابتها[٢]، وتندرج في هذا الاتجاه جملة من الأبحاث، توسعت في دراسة عوامل نشأة الرسالة، ومراحل تطورها، فاقتصرت على تناول عصر من العصور دون سواه، وأبرزت هذه الأبحاث دور الكتابة الفنية في تطوير الفكر العربي الإسلامي، وفي التعبير عن المسائل الحضارية التي تضيق عنها الأجناس الشفوية، ولاسيما الشعر والخطابة".

---

[١] نشير بذلك إلى أعمال بروكلمان، وإلى رسائل المفاضلات بين أهل القيروان و الأندلس

[٢] منها أعمال عبد السلام هارون في تحقيق رسائل الجاحظ، وجهود شارل بلا في المجال نفسه. تحقيق بنت الشاطئ من رسائل المعري.

[٣] انظر: الفن ومذاهبه في النثر العربي، وتطور الأساليب النثرية في الأدب العربي.

٢-الدراسات النقدية وتقييمها:

انصرف كثير من النقاد المحدثين إلى دراسة الرسائل في نوعين من الأبحاث: نوع تناول النثر العربي عموما[١] أو بشيء من التخصيص من حيث الإطار التاريخي والجغرافي[٢] ومن حيث الموضوع[٣]، وقد حظيت الرسائل في هذه الأبحاث بأبواب مستقلة في بعض الدراسات، وأدرجت في بعضها الآخر ضمن تحليل اتجاهات النثر الكبرى، وتناولها بعض الدّارسين في سياق دراسة الأعلام أو العصور الأدبية. ونوع ثانٍ مداره على الرسائل في عصر بعينه[٤]، أو على منحى من مناحيها الفنية[٥]، وفي نموذج من نماذجها المشهورة[٦]. كما جاءت بعض الأبحاث مقدمات للرسائل التي حُققت[٧]، و رفدت تلك الدراسات النقدية جملة من الأبحاث البلاغية والأسلوبية المتصلة بأسلوب الكتابة الفنية عموما، و اهتم أصحابها فيها بالخصائص الأسلوبية المشتركة بين أجناس النثر القديم كالازدواج والسجع والاقتباس من القرآن . نستنتج من الدراسات الخاصة بالرسائل أن اعتناء النقاد بهذا المجال الأدبي ضعيف، إذا قيس بالجهود التي بذلت في دراسة سائر المجالات، ويبدو لنا أن هذه الدراسات لم تهتم إلا بالخصائص الأدبية التي تشترك فيها الرسائل مع سائر الأجناس النثرية، ولم تطبق إلا المقاييس المشتركة بين مختلف أنواع النصوص، ولا شك في أن بلاغة النثر عموما تتألف من مجمل الخصائص الفنية التي تتسم بها أجناسه الأدبية، إلا أننا لم نعثر في الأبحاث التي اهتمّت بالرسائل على الخصائص المميزة لها، وأسهمت بها في تطوير النثر العربي، فقد تبين لي من خلال البحث أن كتابة الرسائل ظاهرة من ظواهر التواصل في مختلف الثقافات، وهي في الأصل، عمل تواصلي مرتبط بتاريخ العظماء، وكذلك بتاريخ المؤسسات المدنية .وأما الرسائل فقد قسمها النقاد أقساما هي:

---

(١) انظر الفن ومذاهبه في النثر العربي، وتطور الأساليب النثرية في الأدب العربي في الأدب العربي.

(٢) النثر الفني في القرن الرابع، والكتابة الفنية في مشرق الدولة الإسلامية في القرن الثالث الهجري، ونشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي وغيرها...

(٣) النثر الفني وأثر الجاحظ فيه.

(٤) أدب المراسلات في العصر الأموي: د. حسين نصار: مجلة عالم الفكر – نوفمبر ١٩٨٣: ص ٦٣١.

(٥) الرسالة الهزلية من أبي عثمان إلى أبي الوليد : شارل بلا: مجلة الكتاب: الأعداد ١١-١٢—٢٥-١٣١...

(٦) البنية القصصية في التوابع والزوابع: عبد العزيز شبل: حوليات الجامعة التونسية: العدد ٢٩- لسنة ١٩٨٨ ص-١٤٥- ١٧٢

(٧) انظر : تحقيق شارل بلا لرسالة التربيع والتدوير للجاحظ، وتقديم عبد الوهاب عزام وشوقي ضيف لرسائل الصاحب بن عباد ، وغيرها.

أ- الرسائل الديوانية، وقد استعمل هذا المصطلح جلّ النقاد[١]، وإن اختار بعضهم مصطلحات أخرى هي الرسائل السياسية[٢] والسلطانية[٣]، والرسمية[٤].
ب- الرسائل الإخوانية، وهي التسمية الغالبة، إلا أننا نجد مصطلحات أخرى، وهي الرسائل الاجتماعية[٥]، والمكاتبات[٦] والمراجعات[٧] والرسائل الشخصية الخاصة[٨].
ج- و يمثل القسم الثالث الحياة العقدية بوجه خاص، وهو يضم الرسائل الدينية[٩]. وقد فرّعها بعض الدارسين إلى رسائل وعظية[١٠]، وتربوية[١١].
د- و يدخل في القسم الرابع الرسائل جميعها التي عدّها النقاد أدبية،و قد اقتصر بعضهم على تصنيف جامع، مثل الرسائل الأدبية[١]، أو الإنشائية[٢]، وشقّق آخرون هذا التصنيف إلى أنواع فرعية وفق الأغراض: الرسائل الوصفية، والهجائية، والمدحية[٣]، ولكن بعض الباحثين أطلقوا مصطلح الرسالة على جنس فرعي في هذا المقام وهو رسالة الأدب في مفهومه الأخلاقي،و نستخلص من هذا التصنيف أن أغلب الدراسات لم تتدرج في اتّجاه تحديد مصطلح دقيق، وقد أفرط النقاد في استعمال التسميات، ولم يعملوا على تدقيقها في نطاق نقدي واضح المعالم. ونلاحظ ثانياً أن في استعمال مصطلح الرسائل الأدبية بإزاء مصطلحي الرسائل الديوانية و الإخوانية نفياً ضمنياً لعنصر الأدبية في النمطين الآخرين، وفي مراعاة مقاييس تصنيف النقاد السياق الحضاري الذي أنشئت فيه تلك الرسائل ، فإنها أهملت المجال الأدبي الذي تشترك فيه جميع الأصناف على اختلاف أغراضها، ولم تهتم بالعلاقات الأدبية التي تجمع بينها في نطاقه،وقد لاحظ عدد من النقاد هذا التناقض بين التقسيم الذي اعتمدوه وواقع النصوص، فسعوا إلى إبراز عناصر الاشتراك بين هذه الأنواع: يقول أنيس

---

[١] تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي: ص٢١٨
[٢] نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي : ص٩
[٣] في النثر العربي: ص ١٦٢
[٤] الكتابة الفنية في مشرق الدولة الإسلامية : ص ٢٤٦.
[٥] رسائل ومقامات أندلسية: ص٢٨
[٦] الترسل في القرن الثالث: ص١٦٢.
[٧] النثر الأندلسي: ص: ١٦٩.
[٨] التوجه الأدبي: ص١٧.
[٩] الفن ومذاهبه في النثر العربي: ص١١١.
[١٠] أدب المراسلات في العصر الأموي: ص٦٤٠.
[١١] في النثر العربي: ص ١٨٧.
[١] تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي: ص ٣٢٣.
[٢] تاريخ الأدب الأندلسي: ص٣٢٦.
[٣] النثر الأندلسي: ص ١٦١-١٧٦-٢٤٧.

المقدسي في معرض التمييز بين الرسالة الديوانية والرسالة الأدبية: "إنّ الرسالة الأدبية تختلف عن الرسالة الديوانية في الأغراض ،و أما الأسلوب النثري فهو متماثل في الصنفين"[٤]. فلئن كان هذا التمييز ممكناً، فإنها- فضلاً عما يثيره من مشكلات نظرية-غير كاف، ولعل من المفيد أن يُدعم بتصنيف آخر يقابله، ويكون فيه تماثل الأساليب منطلقا للجمع بين هذه الرسائل،و يرى آخرون أن السياق الخارجي كاف لتحديد نوع الرسالة، و يهملون الغرض والأسلوب معا. يقول مصطفى الشكعة في تسويغ وضعه رسالة كتبها الصولي في التعزية[١] ضمن الرسائل الديوانية: "فالرسالة مواساة، ولكنها صادرة عن ديوان الخليفة، فهي ديوانية، رغم صفتها الاجتماعية"[٢]، بل يغالي بعضهم في تضييق مجال الرسالة الأدبية، فيصنف النماذج بحسب الهوية الاجتماعية للمرسل إليه، ويخرج رسائل كثيرة من الصنف الأدبي. يقول خضر حازم عبدالله: "الرسائل التي عالجت مشكلات اجتماعية، وموضوعات ذات صلة قوية بحياة الناس، ألحقناها بالرسائل الديوانية؛ لأن كتّابها، وإن كانوا من الأدباء فقد توجهوا بها إلى الأمراء والحكام، ورجال السياسة، مما اقتضى أن يكون لها طابع معين خاص. دفعنا إلى وضعها في رسائل السياسة والسلطان"[٣]، ولم يبين الباحث هذا الطابع الخاص، إلا أن الواضح من كلامه أنه اعتمد مراتب المخاطبين مقياساً للتمييز بين أجناس الرسائل، وربما كان هذا التصنيف مفيدا لو بين الباحث كيف تختلف خطط الخطاب في الرسائل الديوانية والأدبية، وكيف تختلف طرائق تحقيق أغراضها باختلاف أقدار المخاطبين، و لقد شعر جلّ النقاد بأنّ القسم الرابع في هذا التصنيف أي الرسائل الأدبية يمكن أن يتسع ليشمل جانباً مهما مما تضمنته الأقسام الثلاثة الأولى،و لئن فصلوا بين نماذج يمكن أن تكون أجناساً فرعية في جنس جامع، ولم يراعوا سمات التداخل بينه؛ فإنهم ذكروا أن مصطلح الرسالة الأدبية لا يمكن أن يطلق على جنس من هذه الأجناس؛ لأن مجال الأدبية قاسم مشترك بينها جميعاً، ويمكن أن نبرز ثبات عنصر الأدبية في الأجناس الثلاثة التي أخرجها النقاد من دائرة الرسائل الأدبية بمقتضى المصطلح الذي استعملوه، وذلك على النحو الآتي:

أ- الرسالة الوعظية أو الدينية:

(٤) تطور الأساليب النثرية: ص٣٢٣.
(١) جمهرة رسائل العرب: ٤- ٣٨.
(٢) الأدب في موكب الحضارة الإسلامية: ص٤٠٧.
(٣) النثر الأندلسي: ص٢٠٨.

يلحّ بعض النقاد ممن عد هذه الرسالة صنفاً متميزاً على ثبات عنصر الأدبية فيها. يقول د. حسين نصار: "..... الرسائل الوعظية كانت منذ نشأتها أقرب من غيرها إلى النمط الفني ؛ لأنها لا تريد الإفهام أو الإخبار فحسب وإنما يطلب إليها أن تؤثر في قارئها ولذلك يضطر الكاتب إلى اختيار ألفاظه، وجمله، وتعبيره كله[١]. لقد أقرّ أستاذنا الدكتور حسين نصار أن العمل التواصلي في الرسائل الوعظية يجاوز التواصل العادي، لكنه لم يقرّ بأنها تدخل في مجال التواصل الأدبي، بل عدّها مرحلة ممهدة لظهور ما سمّاه النمط الفني، ولعل هذه النظرة لا تراعي تطور الأنظمة الأدبية، وخصائص تكون الأجناس، فالرسائل الوعظية ليست قريبة من النمط الفني كما يرى الدكتور حسين نصار، بل هي في تقديرنا جنس من أجناس الرسائل الأدبية،و نلاحظ أولاً أن الوعظ عمل تواصلي غير خاص بالرسائل، وهو من هذه الجهة وضع من أوضاع التلفظ الأدبي ينتج عن الخطاب التأديبي في مختلف أجناسه، ونرى ثانياً أن التلفظ الوعظي لا يرتبط بالضرورة بأجناس الأدب الوعظي؛ إذ يمكن أن يكون مثلاً خطة في الخطابة الردعية، وقد كان كذلك في خطابة الحجاج بن يوسف الثقفي حتى قال عنه الحسن البصري إنه: "يعظ عظة الأزارقة، ويبطش بطش الجبارين"[٢]،فالوعظ في مقدمات هذه الخطابة يساعد الخطيب على استمالة الجمهور، وعلى تحقيق مقصد من مقاصد الخطابة الأساسية وهو الدعوة إلى الفضائل، ويعين الوعظ كذلك على مواجهة الخطابة المعارضة ، وذلك باستعمال المقدمات الخلقية التي تتنازعها المذاهب المختلفة نحو: "إن الله كفانا مؤونة الدنيا، وأمرنا بطلب الآخرة، مالي أرى علماءكم يُدهنون، وجهالكم لا يتعلمون، وشراركم لا يتوبون، ومالي أراكم تحرصون على ما كفيتم، وتضيعون ما به أمرتم؟!!"[٣]

نستخلص من هاتين الملاحظتين أن الوعظ عمل من الأعمال التواصلية الأدبية، وأنه يمثل مستوى من مستويات الخطاب الأدبي في أجناس أدبية كثيرة، وهو في الرسائل الوعظية غرض من الأغراض انتقل به الخطاب الوعظي من مجال أدبي إلى آخر.

إن الرسائل الوعظية هي الجنس الأدبي الذي آل إليه الخطاب الوعظي بعد نشأته في النثر الخطابي الشفوي، وقد تفرعت عن هذا الجنس أنواع من الرسائل المختلفة، نذكر منها رسائل الآباء إلى الأبناء كرسالة معاوية بن أبي سفيان إلى ابنه يزيد[١]، أو رسالة عبد الملك بن مروان إلى بعض ولده[٢]،وهي رسائل كثيرة في التاريخ العربي القديم.

---

[١] أدب المراسلات في العصر الأموي: ص٦٤٠.

[٢] البيان والتبيين: ٣- ١٦٤

[٣] من خطبة للحجاج: العقد الفريد " ٤-١١٨

[١] جمهرة رسائل العرب: ٢-٦٩-٧٢

فالرسائل الوعظية لم تمهد لنشأة الأدبية كما يرى د. حسين نصار، بل تكون جنساً فرعياً في مقام الترسل، في عصر أدبي مخصوص، ويمكن في الوقت نفسه أن يعد هذا الجنس الفرعي مرحلة تأسيس الشكل الخارجي للرسائل الأدبية ،و به يتم الاعتناء بالشكل الخارجي من الخصائص البنيوية العامة في كتابة الرسائل كفصل الخطاب، والتحميد، وتضمين الآيات القرآنية، والأحاديث، والأشعار، والأمثال، وأعني به كذلك بناء الجملة النثرية القائمة على الموازنة ازدواجاً وسجعاً. فالرسالة الوعظية يمكن أن تكون شكلاً من أشكال تطور مقاصد الكتابة في الرسالة الأدبية الوعظية ورسائل الرثاء والتعزية، و نلاحظ تشابهاً في بعض المعاني والأساليب مردّه إلى مقتضيات مقام الترسل بوجه عام،وكذلك الشأن في رسائل العتاب، فهي وإن كانت إخوانية في مقامها العام،فهي تنزع إلى الوعظ واللوم فتستعمل صيغ المخاطبة المستعملة في الرسائل الوعظية.

ب- الرسالة الديوانية:

ذهب الدكتور محمد رجب النجار إلى أن صناعة الإنشاء ، أو الرسائل الإنشائية ، والتي يطلق عليها الديوانية " من أرقى أنواع الأدب الرسائلي ، وأجلها خطرا ، وأعظمها أمرا في رأي القدماء ، مع أن نصيبها من النثر الفني ضئيل نسبيا ، ودون الرسائل الدبية ، إلا أنها تتفق معها في أداء وظيفتين كبيرتين من وظائف الاتصال الأدبي ، ومن هنا تتجلى قيمتها الأدبية إحداهما ، أساسية هي الوظيفة الإبلاغية أو التعبيرية الانفعالية ، والأخرى هي الوظيفة الشعرية (الأدبية)"(١) ، ولكن التعثر المنهجي الذي تتسم به الدراسات العربية الحديثة في نقدها الرسائل الديوانية يرجع إلى عدم استعمال أدوات التحليل الأدبي الملائمة لخطاب هذه الرسائل، ولسنا هنا مضطرين لإبراز انصراف النقاد عن تحليل مجال الأدبية الفعلي في هذا الجنس من الرسائل، و لاحظنا أن في الرسائل الأدبية القديمة قسماً من الرسائل الديوانية ذا صبغة سردية، وهو يضم الرسائل التي سماها القدامى رسائل التبشير بالفتوحات، وهي تكتب للإخبار عن فتح في سياق المراسلات بين الخلفاء وولاتهم وقوادهم، ولاحظنا ثانياً أن كتّاب هذه الرسائل لا يقتصرون على عرض الحادثة عرضا عاماً لمجرد الإخبار، بل يحولون الخبر إلى قصة قصيرة ذات رؤية مشهدية تُشبه أحيانا الرؤية المشهدية في أدب أيام العرب،ويمكن للباحث المدقق أن يستنتج

---

(٢) المصدر نفسه : ٢-٢٤٢.

(١) النثر العربي من الشفاهية إلى الكتابية – فنونه – مدارسه – أعلامه : ص ١٣٩

أن البحث في أدبية الرسائل الرسمية يمكن أن يتم باعتماد أدوات تحليل الخطاب السردي؛ لأن التبشير بالفتح عمل سردي ينجزه الكاتب بعد الواقعة ليمثلها في خطاب سردي، ولما كانت الرسالة في هذا الجنس من الكتابة تمثيلاً للحادثة لا تنقل الواقع نقلا أميناً، فإنها تخضع بالضرورة لأحد أنظمة القصّ.

ولذلك فقد عد النقاد الرسائل الديوانية وثائق تاريخية يمكن أن تعوّض عن النص التاريخي، ولم يقدروا أن سرد الوقائع محاكاة للوقائع وللأقوال، وأنه يصاغ في حكاية يحرص الكاتب على انتقاء أعمالها القصصية وعلى ترتيبها، وعلى بناء أشخاصها وفق رؤية مخصوصة، و قد أفردوا لتحليل بلاغة العبارة الكثير من العمل ، ولا يخفى على الباحث أن عملهم هذا ينطبق على الأجناس النثرية القديمة جميعها.

ولذلك فإن القيمة القيمة الوثائقية غالبة على دوافع البحث في النقد القديم ، وقد رأينا من الضروري أن ننبه في مستهل هذا الفصل على جدوى التمييز بين الفتوحات بوصفها فعلاً مادياً خارج عالم اللغة، والتبشير بها أو الحديث عنها كونها خطاباً أدبياً مختلفا تمام الاختلاف عن ذلك الفعل المادي. ونلاحظ أولاً أن علاقة التخاطب في هذا الجنس من الرسائل لا تنشأ للإخبار بالفتح فحسب، بل تجاوز هذه الوظيفة إلى إشهاره، وإلى استغلال الحديث عنه لدعم صورة الحاكم ولتقويته، فتتحول الرسالة إلى حجة دالة على أن الفاتحين جديرون بالحكم، وقد اطّرد في خواتم رسائل القاضي الفاضل مثلاً الحث على استغلال هذه الرسائل جنساً من أجناس الدعوة السياسية لبني أيوب ولولاتهم، وبذلك فإننا نستنتج من خواتيمه من الرسائل الديوانية أنها ليست بمراسلات خاصة بين أولي الأمر فحسب، وذلك كما يرى كثير من النقاد، وإنما هي جنس من المراسلات التي تكتب لتقرأ على عامة الناس، وإن في استعمال القاضي الفاضل وكتاب العصر الأيوبي عبارات الإشهار ما يدل على أن وظيفة الرسائل تجاوزت الإخبار إلى تفخيم الحدث، وتعظيمه في أسماع الناس.

ج- الرسالة الإخوانية:

وهي من الرسائل المتبادلة بين الإخوان، وقد ذهب بعضهم إلى تسميتها بالرسائل الشخصية أو الذاتية بمقابل الديوانية أو الرسمية " لسببين ، أحدهما أن طرفي الاتصال فيها (المرسل والمرسل إليه) أوسع دائرة من دائرة الإخوان ، والآخر أن السمة الفارقة فيها تقوم على البوح الذاتي أو الشخصي بين المترسلين عندما يتبادلان فيها الأخبار عن ذواتهم وشؤونهم وحياتهم الخاصة، والتعبير عن آرائهم ومواقفهم الشخصية ، أو التصريح بأفكارهم وتصوراتهم الذاتية (الجانب الشخصي) تجاه بعض القضايا من حولهم ، أو الإعراب عن مشاعرهم وعواطفهم، خاصة في المناسبات الاجتماعية ، أو اللحظات التاريخية"[١]

لم أظفر فيما وقع تحت يدي من الدراسات ببحث مستقل في تطور مصطلح الإخوانيات من الناحية الأدبية، وقد ظل هذا المصطلح مجال تنازع بين النقاد في حيزي التحليل الاجتماعي والتحليل الأدبي، واستعمل في الأصل للتعبير عن علاقة اجتماعية حضرية،ثم تطور في خطاب النقاد وكتّاب الأدب القدامى، وخرج للدلالة على مجال من مجالات التخاطب بين الشعراء والكتّاب المتكافئين في المرتبة الاجتماعية، وقد استعمله الثعالبي مثلاً في سياق خاص بجنس من أجناس الكتابة متميز عن سائر الأجناس الداخلة في أدب الرسائل، يقول في حديثه عن أبي القاسم الإسكافي النيسابوري: "ومن عجيب أمره أنّه كان أكتب الناس في السلطانيات، فإذا تعاطى الإخوانيات كان قصير السعي، وكان يقال إذا استعمل أبو القاسم نون الكبرياء تكلم من في السماء"[٢]، و لم يجاوز الثعالبي في هذه المقولة الحكم العام إلى توضيح الفرق بين بلاغة الجنس الديواني أو السلطاني ، وبلاغة الجنس الإخواني ، ولكنه يقر بأنّ مصطلح الإخوانية مصطلح يمكن استعماله للتمييز بين أصناف البلاغات داخل أدب الرسائل، وقد جاوز التخاطب الإخواني أغراض المخاطبة الإخوانية في المدلول الأصلي؛ أي الأغراض الناظمة لمعاني الأخوة والصداقة إلى أغراض أخرى تشمل ما يشغل الأدباء ،وصارت الإخوانيات منذ مطلع القرن الثالث للهجرة جنساً من أجناس الحوار المكتوب.

وقد خرج المصطلح إلى هذه الدلالة في كتب الإنشاء المتأخرة، فالإخوانيات عند القلقشندي تضم: التهاني والتعازي والملاطفة والتهادي والشفاعات والعنايات والاستزارة واختطاب المودة وافتتاح المكاتبة وخطبة النساء والاسترضاء والاستعطاف والاعتذار والشكوى واستماحة الحوائج والشكر والعتاب والعيادة والسؤال عن حال المريض والذمّ والإخبار والمداعبة[١]، ولا

---

[١] النثر العربي القديم بين الشفاهية والكتابية – فنونه – مدارسه – أعلامه : ١٥٦

[٢] يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر : ٤-٩٧-٩٨

[١] صبح الأعشى:٩-٥ ، وما بعدها

يشمل التخاطب في هذه الأغراض المحاورات النثرية فحسب، بل يشمل المحاورات الشعرية.

ولذلك فإنّ القصد في الرسائل الإخوانية يتجاوز الإخبار إلى تحقيق وظائف الإنشاء الأدبي، و به تتحول المراسلات إلى حركة أدبية، وإلى مجال من مجالات التنافس في الكتابة. ويمثل هذا التنافس وجها من وجوه تطوير السمّة الحوارية في الرسائل؛ إذ ينطلق الكتّاب من الأعمال التواصلية الأساسية، ثم يتوسعون بها من خلال المحاورة التي تجري بينهم ويكون كل طرف من طرفي المحاورة أي الرسالة الأولى أو الثانية دافعاً إلى إتمام الكتابة في الغرض نفسه ،" ومن المعروف أن مثل هذه الرسائل الشخصية ، إذا كانت ذات قيمة أدبية وفكرية ، أو تاريخية فإنها تندرج اليوم – في تصنيفها الموضوعي – تحت إطار ما يسمى (أدب المراسلات الشخصية) خاصة تلك التي يكتبها أدباتء أو كتاب أو شخصيات مرموقة ، أو آحاد من الناس العاديين الذين يتمتعون بحس لغوي ، أو أدبي عالٍ ، وبقدر مساحة البوح الذاتي في هذه المراسلات الشخصية ، أو الذاتية تتأكد الذات، وتتأجج العواطف ، وتتكشف الأسرار والخبايا ، وتتجلى الحقائق ، وتكاد تصبح نوعا من (الاعترافات) أو (الشهادات) ذات القيمة الفنية والتاريخية " [٢]، وقد حرص مصنفو كتب تعليم الإنشاء على ضبط مقومات كل جنس من أجناس الرسائل، فحددوا صيغ الدعاء وأساليب المخاطبة، ومقاصد الكتابة، وموضوعاتها وطرائق التمثل والاستشهاد،وأنواع الخواتيم، مراعين في ذلك كله أغراض كل جنس في علاقته بالمخاطب،وإن هذا النمط من التصنيف يرد أصناف الرسائل جميعها إلى مجالين كبيرين، أما المجال الأول فهو: مجال المكاتبات السلطانية وفيه تتفاوت مراتب المخاطبين، وأما المجال الثاني فهو: المجال الإخواني وفيه تتناظر هذه المراتب، ولكن القدامى لم يدرجوا تصنيف الرسائل الأدبية إلا ضمن واحد من هذين المجالين . إلا أن المحدثين من نقاد الرسائل لم يعيروا إشكالية التصنيف أية أهمية، فقد استخدموا التصنيف القديم دون أن يثيروا مشكلة تصور القدامى لمراتب الأجناس الأدبية، وما ينطوي عليه هذا التصور من أبعاد جمالية واجتماعية، وسنرى أن أجناس الرسائل ليست متكافئة من حيث إسهامها في تكوين المجال الأدبي، بل إنّ كل جنس يختلف عن سواه من حيث مستوى هذا الإسهام ودرجته،ومثال ذلك أن التهنئة غرض تشترك فيه الرسالة الديوانية، والرسالة الإخوانية، ولكنه يصاغ فيهما على نحوين مختلفين: فهو في الرسالة الديوانية غرض تمجيدي جاد، يرتبط بأحداث دقيقة كالتولية، والتبشير بالفتوحات، ويتضمن معاني المدح السياسي، وإن المناسبة الجادة، كدعم التولية، أو إذاعة خبر الفتح وتضخيمه تحتاج إلى التوسع الأدبي بإبراز الحدث، أو التغني بخصال فاعله،ويمكن أن نقول بعبارة أخرى إن التهنئة في

---

(٢) النثر العربي القديم بين الشفاهية والكتابية – فنونه – مدارسه – أعلامه : ١٥٧

الرسائل التي يسميها النقاد رسائل ديوانية غرض ؛ أي إنه غرض لا يقتصر فيه الكتّاب على الإخبار بل يتممون به إنشاء حدث سياسي ما وإظهاره بأفخم الصور وأقواها تأثيراً في النفوس، ويستخدم الغرض نفسه في الرسائل الإخوانية، لكنه لم يُثمر في منزعه الجاد إلا رسائل إخبارية، لا تتجاوز المجاملة، وهي كما سبق أن ذكرنا تنسج على منوال واحد، في التهنئة بالمولود، وبقدوم العام،

وبالعودة من الحج، وغير ذلك[1]،

وقد كتب جانب من هذه الرسائل للإخبار عن أحداث تتصل بسيرة الكاتب وبعلاقاته بذويه، وأصدقائه وأعدائه، وورد جانب منها أجوبة على ابتداءات، ولا يكون لهذا الجنس قصد فني إلا إذا خرج إلى الهزل كالتهنئة بزواج الأم[2]، أو السخرية والهجاء أو التسلية كالتهنئة بالعزل، وإذا اقتضى المقام أن يخرج الكاتب من غرض إلى آخر يناقضه كالتعزية في مقام تهنئة أو يولد جنساً فرعياً في هذا المقام على غرار خروج الصاحب إلى المفاخرة بجنس المولود كما ذكرنا.

---

[1] من هذا الصنف ما ينوف على ٤٠٠ رسالة، وقد جمع منها القلقشندي في صبح الأعشى في صناعة الإنشا١٢٩ في التهاني، و١١ نموذجا في أجوبة التهاني، وقد قسمها ١١ ضربا، وقسم كل ضرب أصنافا؛ فالتهنئة بالمولود مثلا ضرب من الضروب، و التهنئة بالبنات صنف في هذا الضرب، وصدرها بالتهنئة بالوزارة، وختمها بزواج الأم. انظر صبح الأعشى في صناعة الإنشا: ٨/ ٩-٧٤

[2] نوادر التهاني ضمن صبح الأعشى:٩/ ٧٣

الفصل الثاني: الرسالة والمصطلحات الموازية لها و تطورها الدلالي:

١- مصطلح الرسالة والمصطلحات الموازية لها:

إن السياقات التي وردت فيها كلمة رسالة في التراث العربي متنوعة ونجد كتابا ضخما يسمى رسائل، ولكنه يضم أنواعا من النصوص مختلفة،وترد عبارة رسالة في عناوين الآثار [١] و في مظانها سواء أكان النص مرسلاً إلى قارئ بعينه أم كان موجها إلى عامة القراء،و يثير استعمال كلمة رسالة مشكلات عدة تتصل بدلالة الاستعمال، أو بحقيقة العلاقة بين التسمية ونوع النص الذي تطلق عليه، من حيث البنية والمضمون، وقد لا تعترضنا هذه المشكلات في دراسة بعض الأجناس النثرية الأخرى كالخطبة والمقامة والمفاخرة؛ لأن وجوه استعمال المصطلح فيها محدودة، فالنقاد الذين سبقونا تمكّنوا من تحديد دلالاتها الاصطلاحية...

أما مصطلح: (رسالة) فإنه لم يحظَ بدراسة خاصة تتصدى للبحث في وجوه استعماله، وللنظر في دلالات العبارات التي لها صلة معنوية به كالكتاب والترسل وغيرها وسأحاول -في مرحلة أولى-دراسة معنى الرسالة في اللغة، وفي مختلف سياقات استعمالها، ودراسة صلتها بالكلمات القريبة منها، وأحاول في مرحلة ثانية، تحليل الصلة بين الدلالة اللغوية العامة والاستعمال الاصطلاحي الأدبي .

٢-معنى الرسالة لغة:

تتضمن مادة: (رسل) في العربية ثلاثة مجالات معنوية متقاربة، هي الامتداد والطول والاتساع أولاً، واللين والسهولة والتحرر من القيد ثانياً، والتمهل والترفق والتأني ثالثاً[٢]،وقد جاء فعل أرسل ليفيد هذه المعاني جميعاً، فهو يعني توجيه الشيء من مكان إلى آخر، والإطلاق من القيد، والتوسع والتمديد. كما جاء فعل ترسل ليفيد (تمهل)، وتأتي في سياق القيام بالفعل،و قد دلت كلمة رسالة في الأصل على إطلاق الكلام من مكان إلى آخر، فتعلق بها المعنى في السياقات جميعها، ولئن استعملت كلمة (مألكة) لتسمية الكلام الشفوي أو المكتوب الذي يحمله رسول، فإنّ الذي غلب على الاستعمال هو لفظ رسالة.

٣-معاني الرسالة السياقية:

اتسع معنى الرسالة فاستعملت الكلمة في سياقات مخصوصة، ودلّت على نصوص بعينها، ففي القرآن الكريم دلت على مجمل ما أنزل على الرسل من

---

[١] نرى قسما كبيرا من الموسوعات يتضمن في عناوينه عبارة (رسالة في)

[٢] لسان العرب: مادة رسل

تعاليم سماوية: ﴿ فتولى عنهم، وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ﴾[1]غير أن تسمية الكتب السماوية رسائل، والقرآن الكريم على وجه الخصوص، لم تشع في الاستعمال، وإنما استقرت فيه عبارات أخرى منها الكتاب، والتنزيل، علاوة على أن كلمة القرآن هي نفسها أوسع استعمالا من سواها، ويمكن أن نعد العصر الأموي منعرجاً مهمّاً في تاريخ تطور معنى لفظة الرسالة، فقد كانت مؤسسة الديوان السياق الحضاري الذي ازداد فيه معنى الرسالة اتساعاً وارتباطاً بأنماط الكتابة، وكان إنشاء ديوان الرسائل دليلاً على استقرار دلالة الكلمة السياسية والإدارية، إلا أن الكتابة الديوانية لم تكن، كما لاحظنا، بمعزل عن النثر الأدبي، إذ إن كبار الناثرين في القرنين الأول والثاني هم أنفسهم كتّاب الديوان، كعبد الحميد بن يحيى الكاتب (قتل ١٣٢هـ)، وعبد الله بن المقفع (قتل ١٤٢ هـ)، وسهل بن هارون (٢١٥ هـ)،وقد ذهب صاحبا فصل: (كاتب) في دائرة المعارف الإسلامية إلى أن كتّاب العصر الأموي صنفان: أما الصنف الأول فيضم كتّاب الإنشاء وهم كتاب بلغاء يتميزون بمقدرتهم اللغوية والبلاغية، ويوكل إليهم تحرير المراسلات الصادرة عن الديوان في صيغة أدبية. وأما الصنف الثاني فيتألف من الكتبة الذين يجاوز دورهم صياغة الرسائل إلى إنشائها وإلى تدبير مضامينها، لكونهم محل استشارة الخلفاء، وفي منزلة الوزراء، ويرى صاحبا هذا الفصل كذلك أن كتّاب الصنف الأول سيصبحون بعد هذا العصر كتّاب أدب وأدباء،وأنّ كتّاب الصنف الثاني سيتحولون إلى وزراء، ولعل رسالة عبد الحميد بن يحيى إلى الكتّاب- وقد كتبها في أواخر العصر الأموي -، تعبر بوضوح كبير عن صورة الكتّاب التي تعنينا: فهي تعبر أولاً عن الإحساس بظهور الكتّاب بوصفهم طبقة اجتماعية وفئة لها في الحياة الاجتماعية منزلة الصدارة بإزاء سائر طبقات الخاصة :"فموقعكم من الملوك موقع أسماعهم التي بها يسمعون، وأبصارهم التي بها يبصرون ،وألسنتهم التي بها ينطقون، وأيديهم التي بها يبطشون، فأمتعكم الله بما خصّكم من فضل صناعتكم"[1]،وهي تتجه ثانياً إلى مخاطب عام دون تفصيل لمراتب الكتّاب أو إيحاء بأن لطبقة الكتّاب في ذلك العصر فروعاً ومراتب، على نحو ما سنرى في عصور تالية،وهي ثالثاً أقرب إلى مخاطبة الأديب أو الناثر الكاتب في معناه الواسع منها إلى مخاطبة كاتب الديوان في معناه الإداري الضيق، ولا وجود في هذه الرسالة أو في غيرها مما وصل إلينا من المصادر لما يوحي بهذا التصنيف، وإنما تعبّر جميع رسائل الكتّاب عن بداية السعي إلى اكتساب صفة الأديب، ولم يكن هؤلاء الكتّاب يميزون في أساليبهم وطرائق إنشائهم بين أغراض الكتابة الديوانية، وأغراض النثر الأدبي التي يطرقونها خارج مهمتهم الإدارية، ولم تبلغ المؤسسات

---

[1] الأعراف: ٧٩

[1] رسائل البلغاء: ص٢٢٢

الديوانية من التعقد ما يدعو إلى تمييز ديوان الرسائل من غيره من الدواوين، و قد أطلق مصطلح: (رسالة) على جميع النماذج بلا تمييز ، وقد رسخت الكتابة الديوانية الدلالة المزدوجة لكلمة رسالة، فبرز الاشتراك المعنوي بين الرسالة بكونها جنساً من أجناس الكتابة الأدبية، وبين الرسالة بكونها جنساً من أجناس المكاتبات الإدارية، وكان لهذا الجيل الأول دور حاسم في بلورة المصطلح ورسم حدود استعماله؛ فقد وُضع القسم الأكبر من النثر الأدبي المكتوب في باب الترسل، وأطلقت عبارة الرسالة على مختلف النماذج الفنية التي تمثل اتجاهاً جديداً في النثر العربي بغض النظر عن مقام الكتابة أو سياقها الخارجي.

٤-الرسالة والمعاني القريبة منها :

إنّ تعدد معاني كلمة الرسالة لا ينفي إحساس القدامى بالفروق بين دلالاتها، ولئن لم يتركوا لنا اصطلاحاً في مؤلف مستقل، فإن استعمالهم فيه إشارات عديدة تدل على أنهم كانوا يميزون بين أصناف الرسائل وفق مقامات الكلام وأجناس النصوص.

- الرسالة و الكتاب:

يميز القدامى بين الرسالة المحمولة مشافهة أي الرسالة في دلالتها اللغوية الأولى، وبين الرسالة المكتوبة، وقد جنحوا لاستعمال كلمة(كتاب) لنعت النوع الثاني[١].

ولكلمة (كتاب) دلالات أصلية متعددة، فهي تطلق على ما يكتب فيه كله، وعلى الدواة يكتب منها، والصحيفة يكتب فيها[٢]، واستعملت كذلك في معنى الرسالة المحررة على رقعة، وقد ذكر الجاحظ الفرق بينها وبين الرسالة الشفوية فقال:"قال سليمان: ﴿ اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ﴾، وقد كان عنده من يبلغ الرسالة على تمامها، من عفريت، ومن بعض من عنده علم الكتاب، فرأى أنّ الكتاب أبهى وأنبل وأفخم من الرسالة على ظهر لسان..."[٣]،ويدل هذا الاستعمال على أن الرسالة لا تعني إلا مقاما من مقامات التواصل بين المتخاطبين، وهي محتوى إخباري ينقل مشافهة، ويسمى كذلك (مألكة وألوكة)، وهما كلمتان مشتقتان من (ألك)، وهي مادة تدل على معنيين مختلفين، فهي في أساس البلاغة بمعنى حمل، يقول عمرو بن شاس:

---

[١] انظر: أدب الخلفاء الراشدين – ص٥-١٤

[٢] انظر: لسان العرب : مادة كتب.

[٣] الحيوان: ٩٨/١.

ألكني إلى قومي السلام رسالة بآية ما كانوا ضعافاً ولا عزلا[٤]

وجاء في تاج العروس: "الألوك بضم اللاّم، وسميت؛ ألوكا لأنه يؤلك في الفم أي يعلك في الفم"[١]، ويمكن للرسول أن يكون بديلا عن المرسل في صياغة الرسالة، أمّا الكتاب فهو يحيلنا على الجانب المادي من عملية الإرسال،وهو محتوى وشكل، ولا يعدو الرسول في هذا المقام الواسطة التي لا أثر لها في مخاطبة المرسل إليه، ولئن اكتسبت كلمة رسالة مدلولات جديدة، و لاسيما في القرآن، فإنها ظلت تشترك وكلمة كتاب في معان ثلاثة تبرز في مجالات الاستعمال التالية:

أ -الكتاب بمعنى الرسالة الخاصة: ويطلق على الرسائل التي يكون المخاطب فيها فردا معلوما، مهما تكن منزلة المتراسلين الاجتماعية، وبذلك سميت رسائل الرسول والخلفاء والعمال كتبا، وقد استقر استعمال عبارة كتاب مرادفاً للرسالة الخاصة قبل القرن الثالث للهجرة، وذلك على عكس ما يذهب إليه صاحبا القسم الأول من فصل: (رسالة) بدائرة المعارف الإسلامية، واطّرد استعمال كلمة كتاب بالمعنى نفسه عند كتّاب القرن الرابع للهجرة فافتتحوا مراسلاتهم بعبارة: (كتابي إليك) بوصفها عبارة استهلال.

.ب- الكتاب بمعنى الرسالة الموجهة من أديب معروف إلى مخاطب جمع يعيِّنه المرسل في نصه، أو إلى عموم القراء، من وراء مخاطب مفرد يُهدى إليه الكتاب في المقدمة، ويرى بعض النقاد أن الرسائل التي تندرج في هذا الصنف يمكن أن نطلق عليها مصطلح مقالة[٢] ،وقد استعمل الجاحظ الكلمتين بمعنى واحد في آثاره كلها[٣].

.ج- تترادف كلمتا (رسالة) و(كتاب) في تأدية معنى التأليف الأدبي أو الفلسفي أو العلمي المتسم بالابتكار والخلق، في مختلف مجالات الإبداع، الطب والهندسة والكيمياء والرياضيات، والإلهيات، وغيرها من العلوم،و تتخذ كلمة رسالة بعداً تعليمياً تربوياً في بعض المصنفات، وتصبح دالة على وظيفة ذلك الكتاب كرسائل إخوان الصفا، فهي لم توجه إلى عامة القراء، ولا إلى مخاطب مفرد مخصوص بقراءة الرسائل، وإنما كتبت لفئة من المتعلمين المنتمين إلى مذهب في الفكر والسياسة والعقيدة متميز، لذلك اتخذت الرسالة في هذا السياق معنى الوصية العامة أو التعاليم.

---

[٤] أساس البلاغة : ص٢٠.

[١] تاج العروس: مادة ألك.

[٢] انظر مثلا : فن المقالة : محمد يوسف نجم .

[٣] لم يذكر الجاحظ كلمة رسالة في كتاب الحيوان إلا مرتين في قوله:" وعبتني برسائلي وبكل ما كتبت به إلى إخواني ، وقوله :" وعبتني برسائلي الهاشميات" ص٧ . أما سائر آثاره فقد سماها كتبا.

- **المصطلحات المشتقة من مادة رسل:**

صاغ القدامى من مادة رسل كلمات عدة خرجت للدلالة الاصطلاحية، واستعملت في كتب النقد وفي بعض الموسوعات استعمالاً فنياً يخص الرسائل الأدبية، وتتصل بعض المصطلحات بوضع كاتب الرسالة نفسه، فقد استعملوا مصطلح (مترسل) لتمييز صنف من الكتّاب من سواهم: "أنا مترسل كما يقال أنا متوقف، ولا يقال ذلك إلا فيمن تكرر فعله في الرسائل، ويقال لمن فعل ذلك مرة واحدة أرسل يُرسل إرسالاً، وهو مُرسل"(١)،فإذا كانت كلمة مُرسل لا تحمل أية دلالة اصطلاحية وإنما تستعمل في دلالتها الأصلية، فإن كلمة: (مترسل) انتقلت للدلالة على معنى مرتبط بسياق مخصوص، فهي اسم لكاتب الرسائل الذي أكسبه طول ممارسة الكتابة صفة الشخصية الأدبية،وتعني كلمة تكرار في كلام ابن وهب اكتساب المترسل تقاليد الكتابة، وتعدد النماذج الأدبية التي يؤلفها فتكون الجنس ، فالترسل والمترسل مصطلحان يمثلان درجة فوق درجة الإرسال والمرسل أو توسعاً في الفعل الأصلي المشتق من مادة رسل، كما أن الترسل يجمع بين مفهوم تكرار فعل الكتابة وتبادل الرسائل، فهو مصطلح دالّ على جنس الكتابة ونوع التلفظ بها، و يتفرع عن وضع المترسل وضع خاص هو وضع المراسل: "راسل يراسل مراسلة، وهو مراسل، وذلك إذا كان هو ومن يراسله قد اشتركا في المراسلة"(٢)، فالمراسل يشترك و المترسل في وضع عام هو كتابة الرسالة، ولكن المراسل يتميز بعلاقة التخاطب الرسائلي ويكتب نوعاً خاصاً من الرسائل يقتضي جواباً ،و يكون جواباً على ابتداء، وفعلاً فقد استقر هذان المصطلحان في كتب الأدب والنقد والتراجم، واستعملا للتمييز بين كتّاب الرسائل الأدبية، وغيرهم من الكتّاب الذين ألفوا مصنفات سموها رسائل أو كتباً؛ فقد خصص ابن النديم مثلاً جانباً من الفن الثاني من المقالة الثالثة في الفهرست للرسائل سمّاه: "أسماء الكتّاب المترسلين ممن دونت رسائله"(١)، و يتضح من الصيغة التي استعملها أن كلمة مترسل تطلق لتخصيص معنى كلمة الكاتب؛ لأن هذه الكلمة ليست مقصورة على الناثر المبدع في مقام الترسل، وإنما تطلق على جميع أصناف الكتّاب، وهي تحيل القارئ إلى الدلالة اللغوية دون الدلالة الاصطلاحية، وهي مشتقة من مادة كتب، وهذه المادة تحيلنا على مطلق الكتابة دون تخصيص صنف من أصنافها. كما إن كلمة كاتب تحيل على صفة معينة، ومنزلة اجتماعية. أما كلمة مترسل فتظل في جميع السياقات دالة على وضع أدبي، وعلى جنس من أجناس التخصص داخل الكتابة، وإذا وازنت مصطلحات (كاتب، وخطيب،

(١) البرهان في وجوه البيان : ص١٩٣.

(٢) المصدر نفسه ، والصفحة نفسها.

(١) الفهرست: ص. ص-١٧٤-١٧٨.

وشاعر)، فإنني ألاحظ أن الخطيب والشاعر لفظان مشتقان من المادة نفسها التي اشتق منها اسم الجنس الأدبي (الشعر) أو المقام (الخطابة).

أما لفظة (كاتب) فهي مشتقة من المادة نفسها التي اشتقت منها الكتابة، والكتابة لا تخصّ مقاما بعينه، ولا تحيل على جنس أدبي دون سواه.

إن المترسلين جميعهم كتّاب، ولكن ليس كل كاتب مترسلاً، ولعل هذا الفرق بين المصطلحين حدا بالقدامى إلى تخصيص صناعة الرسالة بمصطلح يميزها من سائر أنواع الكتابة، وهو الترسل، وإلى تمييز كاتب الرسائل ممن سواه من الكتّاب بإضافة صفة تخصيص فسماه ابن وهب: (كاتب اللفظ) وعلي ابن خلف (صاحب الرسائل)، فقد استعمل أكثر النقاد القدامى[٢] وبعض المحدثين[٣] مصطلح الترسل لتسمية مقام كتابة الرسالة الأدبية، ولعل في هذا التصنيف، كما يرى بعض الباحثين، تقسيماً ضمنياً لأجناس الرسائل[١]،ولئن ورد المصطلح عند بعضهم بمعنى الكتابة النثرية عموما، وقد ورد ذلك في قول ابن الأثير:" إن طريق الإحسان في منثور الكلام يخالف طريق الإحسان في منظومه؛ لأن الترسل هو ما وضح معناه ، وأعطاك سماعه من أول وهلة ما تتضمنه ألفاظه، وأفخر الشعر ما غمض فلم يعطك غرضه إلا بعد مماطلة منه"[٢]،فقد تمحّض بحكم رسوخ الاستعمال للدلالة على صناعة الرسالة، أو فن كتابة الرسالة، و استعمله كتّاب الرسائل أنفسهم في هذا المعنى، يقول الخوارزمي في مدح أحد كتاب عصره: "وعلمت أن الله تعالى قدر أن يثلج صدري، فتعلمت الترسل من نثره"[٣] ، بل إنّ بعض الكتب التي وضعت لتعليم قواعد كتابة الرسائل تضمنت في عناوينها كلمة الترسل مثل: (كتاب حسن التوسل في صناعة الترسل) لشهاب الدين الحلبي (ت.٥٢٧هـ)،و يتفرع عن الترسل مقام خاص سماه القدامى: (مراسلة) ، وسبق أن أشرت إليه في تحليل كلمتي : (مرسل ومراسل)، فالرسائل التي تدخل في صنف المراسلات، ويتبادلها الكتّاب تمثل من الناحيتين الحضارية والفنية جنساً متميزاً من سائر الرسائل؛ لأنه يعبر عن ملامح الشخصية الأدبية في أبعادها الذاتية، ولأن عملية الكتابة فيه تتم بين طرفين، وتسمى الرسالة الأولى ابتداءً والرد عليها جواباً وإعادة الكتابة استئنافاً، وربما تحولت المراسلة إلى حركة تكاتب فانفتحت على المعارضة الشعرية: زوج يوسف بن القاسم ابنه أحمد بابنة الحسن بن سليمان، وكان من كتّاب البرامكة، فكتب إلى يحيى بن خالد:"عرضت حاجة فكرهت أن أعدل بها عن الوزير بأبخسه مع معرفتي

---

[٢] انظر مثلا: البرهان في وجوه البيان : ص١٩٢

[٣] الترسل في القرن الثالث: ص١٧.

[١] انظر نقد النثر : ص ١٦٢.

[٢] المثل السائر في في أدب الكاتب والشاعر. ٧/٤.

[٣] رسائل الخوارزمي: ص٢٣١

لرب نعمته ، فإن رأى الوزير أن يوقع ما استحققته من أرزاقي بشهرين، سلفاً لشهرين، فعل، فوقع يحيى إليه: "هذه فضيلة في أوليائنا، وحقوق في ضيافتنا ونحن بالقيام منها دونك حريون، وبحظ نقلها عن مالك جديرون، وفي أسفل الرقعة من شعر يحيى (من البسيط):

عندي لمثلك إحسان وتكرمة فثق بذلك مني ابسـ ـط الأملا

فكتب إليه يوسف بن القاسم:

فهمت ما قلت في بري ومنزلتي ونصح غيبي وبسطي نحوك الأملا
ولم أزل منك من أمري على ثقة لا أبتغي بك ممن قد تـرى بدلا[١]

فالرسالة الواحدة سواء أكانت ابتداء أم جوابا لا تمثل سوى نصف المراسلة، ويبرز ذلك في مقدمات الرسائل التي تكون مواصلة لعملية الترسل: "تأخر عني كتاب شيخي حتى نسيت أيام المراسلة"[٢]، أو تكون متابعة للإنشاء في الغرض الأدبي نفسه، وتظهر خصائص هذه الوحدة في الصيغة الحوارية التي تستهل بها الرسائل، نحو قول الهمذاني في الرد على رسالة في شكوى الزمن: "نعم، أطال الله بقاء الشيخ الإمام، إنه الحمأ المسنون، وإن ظننت الظنون، والناس يُنسبون لآدم، وإن كان العهد قد تقادم"[٣].

وإن التعامل مع هذا النوع من الرسائل ينبغي أن يُراعي الوحدة النصية التي تؤلفها الرسالتان المتبادلتان، أو مجموع الرسائل التي تكوِّن حركة تكاتب متصلة بين كاتبين... وقد تفطن أبو بكر الصولي إلى هذه الخصيصة فقال في تعليل المنهج الذي اختاره في تبويب رسائل ابن المعتز الشعرية: "ولعبد الله بن المعتز بعد هذه أشعار حسان في مكاتباته لإخوانه تركنا ذكرها لنذكرها مع أشعار إخوانه إذا انتهينا إليهم، إذ كانوا مقلين، لتحسن أشعارهم بجواباته لهم"[٤]،وقال عبد الرحمن اليزدادي[٥] في تقديم رسائل قابوس بن و شمكير مسوِّغا جمعه مراسلات الصاحب بن عباد لقابوس في المجموع نفسه: " إن محاسن الكلام وغرائب الصنعة لا تظهر إلا إذا قوبل كلام بكلام، وعُرض معنى على معنى مثله"[١]، ولئن لم يبين هذان الجامعان مقومات هذا الحسن فإنهما ألمعا إلى منهج طريف في قراءة هذا الجنس من الرسائل، وهو يقوم على مراعاة التفاعل بين النصوص، وما ينتجه من صيغ تخاطب ذات إنشائية خاصة بهذا الجنس الفرعي في أدب الرسائل، وأقرا ضمنياً، بأن إنتاج المعنى

---

[١] الأوراق – الصولي :١٥٦/١
[٢] رسائل الخوارزمي : ص ١٣٦
[٣] رسائل الهمذاني: ص٢٥١
[٤] الأوراق: ٢٨٧/٣
[٥] جامع رسائل قابوس بن وشمكير ، ولم نعثر على ترجمته.
[١] كمال البلاغة في رسائل قابوس بن وشمكير: ص١٨

لا يتم بشكل ملائم لهذا الجنس إذا اقتصر القارئ على قراءة رسالة واحدة بوصفها وحدة نصّية،والذي يتأمل هذه المراسلات، و لاسيما الجوابية منها يتبين دور الابتداء في تبين أبنية الجواب ومعانيه.

إن هذا الجنس من الرسائل هو الجنس الذي تظهر فيه سمات المحاورات النثرية المكتوبة، وإن الكاتب في هذا الجنس الأدبي سواء أكان صاحب الابتداء أم صاحب الجواب يكون أشد مراعاة للمخاطب، لا بكونه متقبلاً للرسالة فحسب بل بكونه كاتباً سيرد على الرسالة بجواب أو باستئناف، وهذا الجنس من المراسلات هو الذي انصبّ عليه اهتمام النقاد القدامى من دون استثناء.

- المصطلحات المشاركة للرسالة في المعنى:

يستعمل النقاد القدامى في السياقات النقدية الخاصة بالرسائل كلمات قريبة في معناها من معنى الرسالة الاصطلاحي، وأهمّها على الإطلاق كلمة: (مكاتبة)، فهي ترادف عبارة الرسالة الديوانية، يقول القلقشندي :"كان هذا الديوان في الزمن المتقدم يُعبر عنه بديوان الرسائل، وربما قيل ديوان المكاتبات"[٢]،وترادف كذلك كلمة المراسلة الخاصة،و قد وضع القلقشندي نفسه الفصل المتعلق بالإخوانيات تحت عنوان: "في رسوم المكاتبات الإخوانية"[٣] ، ونجد مصطلحات عدة توسم بها الردود الرسائلية هي: (المجاوبات، والمراجعات، والتوقيعات).

أما (المجاوبات): فمصطلح متعدد المعاني؛ إذ يطلق على الكلام البليغ الذي يرتجله البلغاء والخطباء في المفاخرات و الوفادات على الملوك والخلفاء، وتكون رداً منهم على أسئلة تُختبر بها بديهتهم، وقد سميت بها كذلك الرسائل الجوابية.

وأما (المراجعات): فينعت بها صنف من المراسلات يتكرر تبادلها بين الكتّاب[١]، وتوسم بها المراسلات النثرية والشعرية على السواء، (فالمجاوبة والمراجعة) يمثلان في الاصطلاح الخاص بالرسائل شكلين من أشكال التلفظ أو وضعين من أوضاع الكتابة مرتبطين بتحول المترسل من قارئ إلى كاتب.

ونلاحظ أخيراً أن (التوقيع): مصطلح خاص يطلق على الرد يكتبه الخليفة أو القاضي أو الوالي في ذيل الرقعة التي تتضمن قصة ترفع إليه[٢]، وهو موجز لا يتجاوز جملة أو جملتين، وربما جاء شاهدا من بيت شعر أو آية تناسب المقام، وقد ميز القدامى والمحدثون هذه النصوص من

---

[٢] صبح الأعشى: ٩٠/١

[٣] المصدر نفسه:١٢٦/٨.

[١] النثر الأندلسي: ص ١٦٩.

[٢] انظر صبح الأعشى: ٤٨٦/٣.

سائر الرسائل، وعدّوها صنفا من الترسل مستقلا[٣]،و نلاحظ أن التوقيع قد مثّل منذ أواخر القرن الثاني للهجرة نموذجاً أمثل لكتابة الرسائل عموما حتى قال جعفر بن يحيى لكتّابه: "إن استطعتم أن يكون كلامكم كله مثل: التوقيع فافعلوا".

إن التوقيع يمثل، من جهة العلاقة بين المتخاطبين الجنس الذي يكون فيه المتكلم ذا مرتبة فوق مرتبة المخاطب، ولكن موقعه من المراسلات هو موقع الرسالة الجوابية أو المراجعة من مراسلات المتناظرين في المرتبة. و المتأمل في هذا الصنف من المراسلات يلاحظ أنها كانت مجالا من مجالات اجتهاد الكتّاب في صياغة العبارة الحكيمة.

وفي نهاية الفصل يمكن للباحث أن يَخْلُص من دراسة مصطلح الرسالة والسجل اللغوي القريب منها إلى نتائج عدّة لعل أهمها:

١- أن كلمة رسالة يتنازعها وجهان في الاستعمال مختلفان؛ فهي تستعمل خارج حدود الكتابة والإنشاء استعمالاً عاماً، فتطلق على كل بلاغ محمول، وعلى مطلق التواصل بين المتخاطبين المتباعدين في المكان، فلا تحيل على مقام من مقامات الكلام دون سواه، أو جنس من أجناس الخطاب دون غيره، وقد رسخ هذا المعنى الأول في الاستعمال، ولم يتلاش بظهور المعنى الاصطلاحي، وهي تستعمل أيضا بوصفها مصطلحاً فنياً يطلق على جملة من الأجناس التي ينتجها مقام من مقامات الكتابة النثرية، ويوضع بإزاء أسماء الأجناس الأدبية، عند تقسيم الكلام، وتصنيف النصوص: "الكلام المنظوم ثلاثة: الرسائل، والخطب، والشعر، وجميعها تحتاج إلى حسن التأليف وجودة التركيب"[١]. وتتجاذبها في هذا الاستعمال أيضاً مستويات عدة: فهي تستعمل في لغة الإدارة (الرسائل الديوانية)، وفي السياق الأدبي : (الرسائل الأدبية)، وفي لغة العلوم: (رسائل الهندسة والنبات والرياضيات وغيرها)،و هي كذلك تجمع في مجال الأدب بين الرسائل النثرية والرسائل الشعرية، وينتج عن هذا الاستعمال المتعدد ووجوهه نتيجة ثانية وهي:

٢- أنّ كلمة: (الرسالة) لفظ مرن قادر على اكتساب المعنى الذي يقتضيه السياق، أو على التلون المعنوي دون أن يتخلى عن دلالته الأصلية، فدلالته الاصطلاحية ظلت رهينة السياق الذي يُستعمل فيه، وقد عمل القدامى على تمييز الرسالة المكتوبة بوجه عام، والمكتوبة كتابة أدبية بوجه خاص، من الرسالة الشفوية في معناها الأول، وهي(المألكة)، فاستعملوا جملة من المصطلحات التصنيفية كالكتاب، والمكاتبة، والمراسلة، و وضعوا مصطلحات خاصة عديدة بأغراض الرسائل المكتوبة كالسلطانيات و

---

[٣] انظر العقد الفريد: ٢/٤-٢٤٧.

[١] الصناعتين (الكتابة والشعر): ص١٧٣

الإخوانيات، ولعل أهم مصطلح هو: (الترسل)، فكلمة الترسل هي التي تحمل في معناها الدلالة الأدبية لكتابة الرسائل، وهي اسم الصناعة التي ينتج الرسالة؛ لأن العلاقة بينهما من جنس العلاقة بين الشعر والقصيدة، والخطابة والخطبة، والقصّ والقصّة؛ و لذلك فإن أكثر المصادر القديمة اتجهت إلى تسمية بلاغة الرسالة الأدبية التي تصدر عن خصائص الصناعة التي تُنتجها، أو المقام الذي تنشأ فيه بلاغة ترسل، وقد هيمنت بلاغة الترسل على سائر أجناس الكتابة وأدّت ببعض النقاد إلى استعمال عبارتي الترسل والكتابة بمعنى واحد من مثل العسكري في الصناعتين: الكتابة والشعر، فهو يقصر حديثه عن فنون الكتابة على الترسل دون سواه من الأجناس النثرية، ونلاحظ أخيراً أن القدامى قد ضبطوا نظاماً من المصطلحات التي تسمى أجناساً فرعية في مقام واحد وظلت عبارة الرسالة متحررة من قيود التصنيف متجاوزة حدود الجنس الأدبي.

- مصطلح الترسل:

يعدّ اهتمام القدامى بالترسل موضوعاً من مواضيع النقد إلى القرن الثالث للهجرة، فقد ذكر ابن النديم وياقوت الحموي طائفة من المصنفات في هذا الباب ولكنها لم تصل إلينا، ويبدو من عناوينها أن الرسائل الأدبية قد كانت مادة من مواد الاختيار والتصنيف، ونذكر من هذه المصنفات كتاب: (طبقات الكتّاب)

لأحمد بن إسماعيل بن الخصيب[1]، و إذا تأملنا المصنفات التي وصلت إلينا فإننا لا نجد تعريفا للترسل ذا صبغة نقدية، فهذه المقولة الأدبية لم تحدد في مصنفات القرن الثالث، ولا سيما في الآثار الخاصة بهذا الفن(كالرسالة العذراء) لابن المدبّر وكتاب :(الكتّاب وصفة الدواة والقلم) لأبي القاسم عبد الله البغدادي، بل إنّ المصطلح نفسه لم يستعمل في هذه المصنفات وإنما ظهر للمرة الأولى في كتب النقد، في القرن الرابع للهجرة،و قد ورد تعريف الترسل ضمن تصنيف أجناس الكلام المنثور، وقسم جمهور النقاد النثر إلى أقسام أربعة كبرى، يقول ابن وهب: "وأما المنثور فليس يخلو من أن يكون خطابة، أو ترسلا، أو احتجاجا، أو حديثاً"[2]، ووازن بين هذه الأقسام، باعتماد معيار ظروف القول، فبدا الترسل مرادفاً لمقام كتابة الرسالة: "فأما الرسائل فالإنسان في فسحة من تحكيكها ، فقد كفي صاحبها المقام الذي ذكرناه"[1]، و عرّف ابن وهب الترسل فقال: " كلام يراسل به من بعيد، فاشتق له اسم الترسل، والرسالة من ذلك"[2]؛ فالترسل هو وضع تواصل بين طرفين

---

[1] الفهرست: ص١١٦

[2] البرهان في وجوه البيان: ص١٩١.

[1] المصدر نفسه : ص١٩٢، ويعني بالمقام الخطابة.

[2] المصدر نفسه : ص١٩٣.

متباعدين في المكان، وفعل تخاطبي ابتدعه الإنسان للتغلب على عائق ما يحول دون المواجهة، أو لتعمد اجتنابها مع التقارب على نحو ما سنرى في الترسل الأدبي، و نستخلص من تحديد القدامى لقواعد الترسل أن هذا المصطلح لا يُطلق على كتابة الرسالة فحسب، بل يقصد به مطلق التلفظ بين متباعدين، سواء أكان مكاتبة أم مشافهة عبر رسول، ويبرز هذا المعنى في الفصل الذي عقده ابن وهب الكاتب للحديث عن شروط الرسول، ضمن باب الترسل، وهي شروط بلاغية، تمكنه إذا توفرت فيه، من تعويض المتكلم المرسل، في مخاطبة المرسل إليه: "والذي يحتاج المرسل فيه إلى الرسول؛ أن يختاره حتى يكون أفضل من بحضرته في عقله، وأدبه، وضبطه، وعارضته؛ لأنه قد أقامه فيما يؤديه عنه مقامه، فإذا أرسل من يثق بأمانته وعقله فوّض إليه أن يقول عنه ما يراه أولى بالصواب عنده"(٣).

الفصل الثالث ـ ثقافة الكاتب من مفهوم العصر الأيوبي:

الثقافة الواسعة تنتج أدبا واسع المدى، يبدو فيه العقل الحصيف والذوق اللطيف، والنظر الثاقب، والرأي الصائب، والذهن المتفتق المبتكر، والتصوير الدقيق؛ لأنه لو لم يكن الأديب أو الفنان ذا ثقافة واسعة ، لما أتيح له أن يصوغ الآيات الفنية الخالدة، غير أن الثقافة إذا أخذت بتلابيب الأديب، وتشبثت بفكره، واستأثرت بعقله استغرقت حواسه وجعلته يتتبع الحقائق وحدها، ويجمعها ويحللها ويختبرها ويعللها، وبدا أدبه لذلك ذا قيمة خطيرة في عالم الفكر، ولكن تزايله السماحة والظرف، والرقة واللطف، وتفيض عنه البشاشة.

وفي حديثنا عن ثقافة الكاتب في العصر الأيوبي، نذهب إلى كتاب أسهب في ذلك، وحدد معالم تلك الثقافة، وهو كتاب: (المثل السائر) لابن الأثير، وقد اعتمدته في هذا الفصل من البحث؛ لأن مؤلفه هو أحد الكتّاب المعنيين بالدراسة، ولأنه من أهم المصادر العربية في فن الكتابة، واختياري لابن الأثير ليس على سبيل التخصيص، وإنما هو من باب التنظير الذي اختص دون سواه في هذا الفن، ولأنه لسان غيره من كتاب هذا العصر وشعرائه.

---

(٣) البرهان في وجوه البيان: ص ٣٥٠

وقبل الخوض في رأي ابن الأثير في ثقافة الكاتب، أتساءل: هل عرف النقد العربي القديم هذه الثقافة ؟ و هل أدرك مفهومها؟.

أجل عرف الأسس المكتسبة في حدود ظروفه ومفاهيمه، وعلوم أعصاره بقدر يكاد لا يقل عما هو عليه في النقد الحديث، وأدرك ما للثقافة وما يرتبط بها من أثر كبير وأساسي في الإنتاج الأدبي شعرا ونثرا[1]،وربما كان عبد الحميد الكاتب أقدم من عرف هذا الفن وبادر بدعوته التي أعانت الكتّاب على أداء مهامهم، وذلك في رسالته إلى الكتّاب والتي قال فيها: " أما بعد، حفظكم الله يا أهل صناعة الكتابة، وحاطكم ووفقكم وأرشدكم! فجعلكم -معشر الكتّاب -في أشرف الجهات أهْلَ الأدب، والمروءةِ والعلمِ، والرواية، فتنافسوا يا معشر الكتّاب في صنوف الآداب، وتفقّهوا في الدين، وابدؤوا بعلم كتاب الله ﷻ ، والفرائِض ثم العربية فإنها ثِقاف ألسنتكم، ثم أجيدوا الخط فإنه حِلْيةُ كُتبكم، وارووا الأشعار، واعرفوا غريبَها ومعانِيَها، وأيامَ العرب والعجم، وأحاديثَها وسِيَرَها فإن ذلك مُعينٌ لكم على ما تسمو إليه هِمَمُكم، ولا تُضيِّعوا النظرَ في الحساب، فإنه قِوَامُ كُتّاب الخراج، وارغبوا بأنفسكم عن المطامع سَنيها وَدَنيَّها، وسَفْسَافِ الأمور ومحاقِرها، فإنها مَذلّة للرقاب مَفْسَدَة للكُتَّاب، ونزّهوا صناعتكم عن الدناءات، واربؤوا بأنفسكم عن السِّعاية والنميمة وما فيه أهل الجهالات، وإياكم والكِبْرَ والصَّلفَ والعَظَمَة، فإنها عداوة مجتلَبَةٌ من غير إحْنَة وتحابُّوا في الله ﷻ في صناعتِكم، وتواصوا عليها بالذي هو أليقُ بأهل الفضل والعدلِ والنُّبْل من سلَفِكم"[1]،ثم جاء ابن المدبر في العصر العباسي، وقد وعى أكثر مكونات الإطار في نصائحه التي أسداها إلى الكتّاب الناشئين؛ إذ حضهم على التمرس بما يحتاجون إليه من علوم العربية، ومناحي ثقافتها، وأكد ضرورة الاطلاع على ما يرفدها من معارف العصر وتياراته الأجنبية[2]

أما ابن قتيبة فقد ندد بالكتّاب الذين انصرفوا عن الثقافة العربية الخالصة بالثقافات الأجنبية التي كانت تؤلف عنصرا مهما مما سمي آنذاك: (الثقافة الإسلامية)، وهذه العناصر الأجنبية هي الثقافة الفارسية من جانب، والثقافة اليونانية من جانب آخر .[3]

وفي العصر الفاطمي كان الاهتمام بثقافة الكاتب لا يقل أبدا عن الاهتمام بها في أي عصر آخر. يقول علي بن خلف صاحب (مواد البيان): " الكاتب يحتاج في إنشاء هذه الكتب إلى علم التوحيد وبراهينه، وشرح الرسول – ﷺ- خاصة دعائه وبراهينه، وآيات نبوته، ليتوسع في الإبانة عن ظهور

---

[1] بناء القصيدة في النقد العربي: ص٥٦

(١) مقدمة ابن خلدون: ص٢٤٨

(٢) رسائل البلغاء: عن بناء القصيدة في النقد العربي- ص ٦٩

(٣) أدب الكاتب : ص٠٧

حجته ووضوح محجته"[٤]،وابن الصيرفي الذي أنشأ كتابه: (قانون ديوان الرسائل) في إعداد كاتب الإنشاء وإمداده بالزاد الصالح له في مهنته، وعرض نماذج بلاغية يقتفيها فيما يكتب، ومن تعاليمه التي لا تخرج كثيرا عن أقوال السابقين:" أن يكون الكاتب حافظا لكتاب الله تعالى، فهو أحوج الناس إلى الاستشهاد به في أثناء محاوراته وفصول مكاتباته، حفاظا لأخبار الرسول و الأئمة من ذريته- ﷺ ... حافظا للأشعار يستشهد بما عساه يحسن الاستشهاد به في بعض المواضع، فإن للمنظوم من البهجة في النفس والوقع في القلب ما ليس للمنثور..." [١]،وألف عبد الرحمن بن شيث كتابا يعنى فيه بديوان الإنشاء هو (معالم الكتابة)، ويعد مكملا لكتاب ابن الصيرفي(قانون ديوان الرسائل) [٢]

ومن ضمن ما جاء فيه قوله: " أن يكثر الكاتب من مطالعة كتب التاريخ والأخبار؛ فإنها توقعه على مفاصل الأمور، وليتأمل المعاني التي عُني بها الكتّاب وعانوها؛ فإنها تعينه، ويغزر بها في الكتابة مَعينُه، والحفظ في ذلك ملاك الأمر فإنه يؤهل ويدرب، ويسهل المطلوب ويقرب"[٣]،وإذا أتينا إلى العصر الأيوبي فإننا نجد ابن الأثير يطالب الكاتب بأمور كثيرة، إذا أراد أن يخوض مجال الكتابة، فقد دفعت أهمية ديوان الإنشاء والعمل الرسمي فيه كل من يريد الوصول إليه أن يأخذ نفسه بقسط كبير من الثقافة يؤهله لهذا المنصب الرفيع- فضلا عما يجب أن يتصف به من صفات عقلية وخلقية -،" وعلى الكاتب في كل الأحوال أن يتمسك بها، ويبرع في استخدامها حتى يتمكن من إصابة الغرض الذي يكتب فيه وإلا كان أديبا كأسد السوق، غير قريب إلى قلوب الرؤساء ونفوسهم ، ولا مختارا لمجالسهم وأسمارهم"[٤]

١-أدوات الكاتب

-الموهبة (الطبع):

مع طغيان مفهوم (الصناعة) على الأدب ولاسيما الشعر في النقد القديم، فقد قال أكثر النقاد بضرورة الموهبة في الكاتب والشاعر معا، ودعوا إلى دعمها بالثقافة والمراس وما إليها، وهذه المفاهيم يسميها النقد المعاصر أسس العمل الأدبي أيا كان نوعه.

---

(٤) صبح الأعشى: نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية: ج٨-ص٢٤٤
(١) قانون ديوان الرسائل: ص ٩٥
(٢) الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية: ص٣٣٧
(٣) المرجع نفسه: ص ٣٣٧
(٤) الأدب في عصر صلاح الدين: ص ١٩٣

ومن أوائل القائلين بالطبع والموهبة- بشر بن المعتمر- الذي يقول: " فإن ابتليت بأن تتكلف القول و تتعاطى الصنعة، ولم تسمح لك الطباع في أول وهلة، وتعصى عليك بعد إجالة الفكرة، فلا تعجل ولا تضجر، ودعه بياض يومك أو سواد ليلك، وعاوده عند نشاطك، وفراغ بالك، فإنك لا تعدم الإجابة والمواتاة"(١)،وقال الجاحظ بالطبع وتعدد الطبائع:" ويكون له طبع في تأليف الرسائل والخطب والأسجاع، ولا يكون له طبع في قرض بيت شعر، وكان عبد الحميد الأكبر وابن المقفع مع بلاغة أقلامهما وألسنتهما، لا يستطيعان من الشعر إلا ما لا يذكر مثله"(٢)،وهذا علي بن خلف يقول: " أول معادن هذه الصناعة الجليلة القريحة الفاضلة والغريزة التي هي مبدأ الكمال ومنشأ التمام، والأساس الذي يبنى عليه أو الركن الذي يستند إليه، فإن المرء قد يجتهد في تحصيل الآداب، ويتوفر على اقتناء العلوم واكتسابها، وهو مع ذلك غير مطبوع على تأليف الكلام فلا يفيده ما اكتسبه بخلاف المطبوع على ذلك، فإنه وإن قصّر في اقتباس العلوم واكتساب المواد فقد يلحق بأوساط أهل الصناعة"(٣). وفي العصر الأيوبي نادى ابن الأثير بضرورة الموهبة، ولا نظنه أتى بجديد سوى إلمامه بما سبق، وضرب الأمثلة الجيدة التي تكشف عن مفهوم القدامى الواضح للطبع وأهميته"(٤)

وملخص كلام ابن الأثير في ذلك:" أن تأليف الكلام يفتقر إلى آلات جمة، وذلك بعد أن يركب الله في الأديب الطبع القابل لذلك المجيب له ، وإلا فلا جدوى من الثقافة بدونه فإنه إذا لم يكن ثمّ طبع فإنه لا تغني تلك الآلات شيئا. مثله مثل النار الكامنة في الزناد والحديدة التي يقدح بها، ألا ترى أنه إذا لم يكن في الزناد نار لا تفيد تلك الحديدة شيئا". (١)

ويبين تفاوت هذه الموهبة من أديب إلى آخر ، وأثر هذا على منظومه و منثوره، يقول : " وأغرب من ذلك أن صاحب الطبع في المنظوم يجيد في المدح دون الهجاء ، أو في الهجاء دون المديح، أو يجيد في الوصف دون الغزل. وهكذا الكاتب يجيد في الديوانيات دون الإخوانيات"(٢)

ويضرب مثلا لذلك بالصابي الذي قال فيه: " ولقد عدت إلى مكاتباته فوجدته أجاد في السلطانيات كل الإجادة، وأحسن كل الإحسان، ولكنه في الإخوانيات مقصّر، وكذلك في كتب التعازي "(٣)

- علوم العربية:

---

(١) البيان والتبيين: ج١- ص٧٧
(٢) المصدر نفسه:ج١-ص١١٦
(٣) صبح الأعشى في صناعة الإنشا– نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية: ج٢- ص٣١٧
(٤) بناء القصيدة في النقد العربي: ص ٥٢
(١) الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور: ص٠٣
(٢) المصدر نفسه: ص٣
(٣) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر:ج١/ص٢٤٥

يشترط ابن الأثير في أدوات الكاتب بعد الطبع ألوانا من المعرفة التي لا غنى عنها مع الطبع؛ لأنها تقويه، وتغنيه، وتطيل من تدفقه وحيويته، وقد حصرها في ثمانية علوم: النحو، والصرف، والإدغام، واللغة، و الأمثال، وانفرد بثلاثة وهي: القرآن الكريم، والأخبار النبوية، و الأحكام السلطانية، ثم قال كابن سنان الخفاجي بالعروض والقوافي فيما يتعلق بالشاعر".[٤]، وتعد علوم اللغة العربية العنصر الثاني في ثقافة ابن الأثير، وهي وسيلته لإتقان علوم القرآن الكريم العنصر الأول في ثقافته، و قد أخذها عن ابن المبارك[٥]،الذي كان أستاذا لأخيه الأكبر مجد الدين المبارك، يقول مجد الدين:" وكنت أقرأ علم اللغة على سعيد بن الدهان ، وكان يأمرني بصنعة الشعر فكنت لا أقدر عليه"[١]،وأخذ عن أستاذه تاج الدين أبي اليمن الكندي [٢] ، الذي تبادل معه الرسائل عند رحيله من دمشق إلى الموصل، والتي اعترف فيها بأستاذيته ؛ يقول : "ولا أستثني في هذا الموضع أحدا إلا المجلس السامي التاجي؛ لأنه إمام هذه الفضيلة، وإنما المأموم"هذا بالإضافة إلى قراءاته الكثيرة لعلماء عظام لم يرهم وإنما عرفهم من خلال كتبهم مثل: أبي علي الفارسي، وكتابه: (الإيضاح)، وثعلب وكتابه (الفصيح)، وأبي منصور المعروف بابن الجواليقي وكتابه: (إصلاح ما تغلط فيه العامة)، والميداني في كتابه(مجمع الأمثال)، وأبي عثمان المازني وكتابه (التصريف)[٣]،والملاحظ أن قراءات ابن الأثير في علم العربية تمتاز بالاختيار الجيد إذ انتقى لجماعة من أفاضل العلماء الذين عرفوا بسعة الأفق، وكانوا إلى جانب هذا من المقربين لدى مثقفي عصره"[٤]

- علم النحو:

النحو في رأي ابن الأثير مهم للكاتب والشاعر؛ يقول:" ميزان علم البيان، فكما يستعين كل عربي بالخط وتجويده ليأمن معرة اللحن، فكذلك يستعين صاحب الصناعة بالنحو؛ لأنه به تستقيم معاني الكلام، وتصان عرى تأليفه من الانحلال ، لاسيما في كل ما تدل صيغته الواحدة على معان مختلفة، وفي هذه

---

(٤) المصدر نفسه: ج١- ص٤٠-٦٠

(٥) الحسن بن يوسف بن المطهر من علماء اللغة، له كتاب (الرسالة السعدية، والمآخذ الكندية)، وقد ألف ابن الأثير عليه كتاب (الاستدراك في الرد على رسالة ابن الدهان المسماة

= بالمآخذ الكندية من المعاني الطائية)، توفي سنة٥٦٩ هـ. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: ج٥-ص٣٨٤

(١) البداية والنهاية: ج٣-ص٤٥

(٢) من العلماء النحاة، كان أوحد عصره في الأدب. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ج٢-٣٤٢

(٣) رسائل ضياء الدين بن الأثير: ص٣٣١

(٤) الأدب في عصر صلاح الدين: ص٤٥

الحال لا تفهم إلا بعلامات معينة، مثال ذلك قوله تعالى"﴿ إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ ﴾ ، ففي هذه الآية يتقدم المفعول (اللهَ) على الفاعل(العلماءٌ) ، وإذا لم يكن ثمّ علامة تبين أحدهما من الآخر أشكل الأمر،غير أن لابن الأثير نظرة خاصة في حاجة الكلام الدائمة إلى النحو يقول:" إننا إذا نظرنا إلى ضرورته وأقسامه المدونة وجدنا أكثرها غير محتاج إليه في إفهام المعنى مثل أن يقال: (قوم) لو أمرت رجلا بإثبات الواو ، ولم تجزم لما اختل من فهم ذلك شيئا ، وكذلك الشرط لو قلت : (إن تقوم أقوم) ، ولم تجزم لكان المعنى مفهوما"(١)وكان ابن الأثير مدفوعا – فيما يبدو- بما قاله الشيخ ابن الدهان من أن المتنبي كان يحفظ كتاب الحدود في النحو، وكتاب العين في اللغة ، وأنه عظم في نفس الفارسي بسبب ذلك؛ وهي فضيلة تامة لكنها خارجة عما تقتضيه صناعة الشعر ؛ لأن الشعر لا يفتقر قائله إلى استخراج كلمات لغوية من كتاب العين، ولا من غيره، وكذلك لا يفتقر أيضا إلى عويص غامض من النحو، والمتنبي إنما يوصف في شعره باختيار الألفاظ والمعاني لا بحفظه كتاب العين والحدود؛ إذ لو كان هذا مما ينفع في قول الشعر لكان الخليل بن أحمد وسيبويه أشعر أهل الأرض" (٢) ، ولعل هذا السبب الذي جعل ابن الأثير يتحامل على مفسري الأشعار من النحاة واللغويين مثل: ابن جني الذي أخطأ في فهم كثير من شعر المتنبي مع أنه عالم جليل في اللغة ، والحقيقة أنهم ليسوا من فرسان هذا الميدان، ولا من رجال حلبته، وذلك أنهم اقتصروا على شرح معناها وما فيها من الكلمات اللغوية وتبيين مواضع الإعراب منها دون العناية بشرح ما تضمنته من أسرار الفصاحة والبلاغة" (٣) وأظن أن ابن الأثير وأستاذه قد جانبا الصواب في ذلك؛ لأنهما عقدا مقارنة غير صحيحة بين الشعراء والنحاة؛ فالشاعر يحتاج للنحوي لتكتمل موهبته بصحة الصياغة، وليس شرطا أن يكون النحوي شاعرا؛ لأن الشعر مرتبط بالموهبة.

- علم الصرف:

"علم الصرف من العلوم اللسانية التي تخدم القرآن الكريم واللغة العربية، وفي الوقت نفسه يصون اللسان والقلم عن الخطأ في المفردات ومخالفة قوانين اللغة في الكتابة، فيقوم مقياسا في معرفة أصل الكلمة وما فيها من حروف الزيادة، ومعرفتها من حيث الأصالة والصحة، والإعلال، والحذف،

---

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ج١-ص٤١

(٢) الاستدراك في الرد على رسالة ابن الدهان المسماة بالمآخذ الكندية من المعاني الطائية: ص١٣، ١٤

(٣) المصدر نفسه: ص١٥

والإبدال، والإدغام، والاشتقاق، فيمكن حينئذ أن يتصرف فيها بالجمع والتصغير والنسبة ونحو ذلك"[١]،والفرق بين النحو والصرف فيما يتعلق بالكاتب:" أن الكاتب إذا كان بالمعاني مختارا لها، قادرا على الألفاظ مجيدا فيها، ولم يكن عارفا بعلم النحو فإنه يفسد ما يصوغه من الكلام، ويختل عليه ما يقصده من المعاني، أما التصريف فإنه إذا لم يكن عارفا به لم تفسد عليه معاني كلامه، وإنما تفسد عليه الأوضاع، وإن كانت المعاني صحيحة فإذا أريد تصغير كلمة أو جمعها أو النسبة إليها، فإنه إذا لم يعرف الأصل في حروف الكلمة، وزيادتها، وحذفها، وإبدالها يضل حينئذ عن السبيل، وينشأ من ذلك مجال للعائب والطاعن " [٢]

-الإدغام:

يراه ابن الأثير مفيدا للشاعر لا للكاتب، وذلك " لأنه يضطر في بعض الأحوال إلى إدغام حرف أو فك إدغام من أجل إقامة الميزان الشعري كقول الشاعر:

اذهبي في كلاءة الرحمن أنت مني في ذمة وأمان
تَرْهبيني والجيد منك للبلى والحشا والبُغُام والعينان[٣]

وتظهر حاجة الشاعر هنا وانتفاعه بالإدغام إذا سئل عن قوله: " ترهبيني"،وقيل إن الأصل في ذلك " ترهبينني" بحذف إحدى النونين؛ فإذا كان عارفا بالإدغام أجاب في " ترهبينني" أن أدغمت إحدى النونين في الأخرى ثم خفف الإدغام فصارت " ترهبيني"، وهو إذا كان المثلان في كلمتين وقبلهما ساكن، وهو حرف مد أو لين يجوز إدغام أحدهما في الآخر" [١]

ويعترض ابن أبي الحديد على قول ابن الأثير: " لا حاجة بالكاتب لمعرفة الإدغام"؛ فيقول: "فكلاهما يحتاج إليه في الكلام ، فكما يحتاج إليه الشاعر لإقامة الميزان الشعري قد يحتاج إليه الكاتب للقرينة، وقد يصيب فيه وقد يخطئ، فمن الخطأ أن يقول: " وأخلص بعدما نافق، وأصحب بعدما شاقق" فقد دعته القرينة إلى أن أخطأ في ذلك الإدغام في موضع لا يجوز فكه فيه، ومثال الصواب: " أولاهم بالإحسان من لم يغش ولم يمارق، ولم يشق عصا ولم يشاقق"، ويأتي بشاهد من كتابات ابن الأثير نفسه، وفيه استفادته من الإدغام في كتبه:" فإنما قصدنا أن يكون الكتاب الذي يكتب في هذا المعنى مشتملا على الترغيب والترهيب والمسامحة في موضع والمحاققة في موضع،

---

[١] المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ج١-ص٤٥
[٢] المصدر نفسه: ج١-ص٤٨
[٣] الوزن في البيت مختل ، وهكذا ورد في الأصل.
[١] الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور: ص١٣

ففائدة الإدغام ظهرت في أنه أراد أن يزن لفظة المسامحة بلفظة المحاققة، وسها عن أن المحاققة بفك الإدغام غير جائزة" [٢]

– علم اللغة:

يعير ابن الأثير الناحية اللغوية من صحة عبارة، وسلامة تركيب اهتماما كبيرا، فيحرص على الاستعمال المتداول من الألفاظ بما فيها الألفاظ الغريبة الحسنة؛ لأنها في كل الأحوال رأس مال الكاتب منها ينفق دائما وعليها يعتمد، وقديما اشترط النقاد في ثقافة الكاتب معرفته باللغة فعاب ابن قتيبة على كتّاب دواوين العصر العباسي انصرافهم عن علوم اللغة:

" إنهم يهملون النظر في اللغة بينما يشغفون بالنظر في النجوم والمنطق إلى غير ذلك؛ مما كانوا يتشدقون به مما عرفوه من الفلسفة والثقافات الأجنبية"[٣]

ولما كانت سلامة اللغة من شروط جمال العمل الأدبي نبّه ابن الأثير على مواردها الأصيلة والموجودة في القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، والشعر، وهذه الموارد تقف بالكاتب على الأسماء المترادفة، والمشتركة، والمتباينة، والمتواطئة، والمشككة، والمشابهة، و أما المترادفة فهي المختلفة الدالة على معنى يندرج تحت حقيقة واحدة كالخمر والراح، والعقار، والأسماء المشتركة هي اللفظ الواحد المطلق على موجودات مختلفة كالعين فإنها تطلق على العين الناظرة، وعلى ينبوع الماء، وعلى المطر،و الألفاظ المتباينة هي الأسماء المختلفة الدالة على معان مختلفة كالفرس، والحمار، والجدار، وأما الألفاظ المتواطئة والمشككة والمشابهة، فلا يحتاج مؤلف الكلام إلى معرفتها؛ وذلك لأن فائدتها لا تذكر في التأليف بجانب فائدة الألفاظ المترادفة والمشتركة، وما تشابه المترادفة من المتباينة"[١]

- الأمثال والحكم:

تمتّ الأمثال بصلة إلى مصادر عدة هي: القرآن الكريم، والحديث الشريف، والشعر، ولم يقتصر استخراج ابن الأثير للأمثال على هذه المظان التي هي ينابيع اللغة وأصل الفصاحة، وإنما بحث عنها في موارد أخرى عند العامة وأصحاب الحرف:"جعلت كدي في تتبع أقوال الناس في مفاوضتهم، ومحاورتهم؛ فإنه قد تَصْدر الأقوال البليغة والحكم والأمثال ممن لا يعلم مقدار ما يقوله ، فاستفدت بذلك فوائد كثيرة لا أحصرها عددا"[٢]

وقد بلغ من اهتمامه بالأمثال أنه همّ بجمع الصحيح منها يقول:

---

[٢] الفلك الدائر على المثل السائر: ص١٦.

[٣] أدب الكاتب: ص٧.

[١]) الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور: ص١٣

[٢] المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ج١ ، ص٨١

" وكنت جردت من كتاب الأمثال للميداني، أوراقا خفيفة تشتمل على الحسن من الأمثال الذي يدخل في باب الاستعمال"(٣)

- أيام العرب:

أيام العرب ووقائعها الخاصة بمثابة الأمثال والأشعار، ولا تقل حاجة الكاتب إلى معرفتها، والإفادة منها عن أية أداة أخرى ولاسيما معرفة الأشعار التي قيلت في كل يوم منها، والفوارس الذين اشتهروا بها، فقد ترد على الكاتب رسالة فيها استشهاد ببعض هذه الأشعار أو فيها إشارة إلى يوم من تلك الأيام، وواقعة من تلك الوقائع، وإذ ذاك يستطيع أن يجيب عن هذه الرسالة، فمثلا قول أبي تمام:

إذا افتخرت يوما تميم بقوسها وزادت على ما وطدت من مناقب

فأنتم بذي قار أحالت سيوفكم عروش الذين استرهنوا قوس حاجب

فهذ البيت مثلا لا يدرك الكاتب معناه ما لم يكن عارفا بهذه المفخرة التي تشير إليها هذه الأبيات، وخلاصتها ما يأتي:

وفد حاجب بن زرارة التميمي على كسرى في سنة جدب، فقال له حاجب كسرى: من أنت؟ قال: رجل من العرب، فلما دخل على كسرى قال له: " من أنت؟" قال: سيّد من العرب. فقال له كسرى: ألم تقل بالباب إنك رجل من العرب؟ قال: كنت بالباب رجلا منهم، فلما حضرت بين يدي الملك سدتهم، فسر كسرى من إجابته وملأ فمه درّا، ثم شكا إليه الرجل جدب الحجاز، وطلب حمل ألف بعير بُرّا على أن يعيد قيمتها..." (١)

" ولا يخلو المؤلف من الانتصاب لوصف يوم يمر به في بعض الأحوال شبيها بيوم من تلك الأيام ومماثلا له، فإذا جاء بذكر بعض تلك الأيام المناسبة لمراده، الموافقة له وقاس عليه يومه، فقال: أشهر من يوم كذا أو أسير "، أو ما جرى هذا المجرى فإنه يكون في غاية الحسن والرونق"(٢)

- الثقافة الشعرية:

إن أهمية الثقافة الشعرية للأديب قد أعارها النقد العربي القديم مزيدا من العناية حيث أجمع النقاد وأهل البصر بالكلام على ضرورة حفظ النصوص الأدبية شعرا ونثرا، وممارسة الحل لهذه النصوص فيما يكتبون وينظمون للتدرب على صنعة الأدب"(٣)

---

(٣) الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور: ص١٣

(١) صبح الأعشى: ج١، ص٤٥٦

(٢) الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور: ص١٧

(٣) قانون ديوان الرسائل: ص١٠٣

ومعروف أن حفظ الشعر والتمرس بأساليبه من أهم أسباب نبوغ الشعراء قديما، فقد كان كل من يجد في نفسه موهبة الشعر يحفظ كثيرا منه ويلزم واحدا من الشعراء يكون تلميذا له، فمثلا كان أبو نواس قد طلب إليه معلمه وأستاذه خلف الأحمر أن يحفظ كثيرا من الشعر القديم، وأن يحاول تقليده، وكذلك الحال بالنسبة للصدر الأول الذين اتخذوا من الشعر ديوانا يعتمدونه في تفسير ما غرب عليهم من ألفاظ القرآن الكريم مثل: عمر بن الخطاب، وأبي بكر الصديق، وعلي بن أبي طالب، والإمام الشافعي الذي حفظ ديوان هذيل[١]

وقد كان ابن الأثير يرى في الاطلاع على الأدب شعره ونثره، قديمه وحديثه، وحفظ مختاره، والتدرب على تقليده أمرا لازما لما فيه من فوائد جمة:"لأن الشاعر أو الكاتب يعلم منه أغراض الناس ونتائج فكرهم، ويعرف به مقاصد كل فريق منهم، وإلى أين ترامت به صنعته في ذلك، فإن هذه الأشياء مما يشحذ القريحة، ويذكي الفطنة، وإذا كان صاحب هذه الصناعة عارفا بما تصير إليه المعاني التي ذكرت، وتعب في استخراجها كالشيء الملقى بين يديه يأخذ منه ما أراد ويترك ما أراد"[٢]

- علوم: المعاني،والبيان، والبديع:

هذه الأدوات وهي علوم البلاغة نجد ابن الأثير ينادي بها بعد الفراغ من الأدوات المشار إليها؛ يقول:

" فإذا أكمل صاحب هذه الصناعة معرفة هذه الآلات الثمانية، وكان ذا طبع مجيب وقريحة مواتية فعليه بالنظر في كتابنا هذا، والتصفح لما أودعناه من حقائق علم البيان ونبهنا عليه من أصول ذلك وفروعه"[٣]

وقد أشار ابن الأثير إلى قراءاته في هذا المجال بقوله:" أما بعد، فلما كان تأليف الكلام مما لا يوقف على غوره، ولا يعرف كنه أمره إلا بالاطلاع على علم البيان الذي هو لهذه الصناعة بمنزلة الميزان؛ احتجت حين شدوت نبذة من الكلام المنثور إلى معرفة هذا المذكور، فشرعت عند ذلك في تطلبه، والبحث عن تصانيفه وكتبه، فلم أترك في تحصيله سبيلا إلا نهجته ، ولا غادرت في إدراكه بابا إلا ولجته حتى اتضّح عندي باديه وخافيه، وانكشف لي أقوال الأئمة المشهورين فيه كأبي الحسن علي بن عيسى الرماني، وأبي الحسن بن بشر الآمدي، وأبي عثمان الجاحظ، وقدامة بن جعفر الكاتب، وأبي هلال العسكري، وأبي العلاء محمد بن غانم المعروف بالغانمي، وأبي محمد عبد الله ابن سنان الخفاجي، وغيرهم ممن له كتاب يشار إليه، وقول تعقد الخناصر عليه"[١]

---

[١] صبح الأعشى- نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية: ج١ – ص٣١٩

[٢] الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور: ص١٧.

[٣]) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ج١-ص٦٢

(١) الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور: ص٢

وواضح أن هذه الخطبة تجمع باقة من أهم ما كتب في هذا المجال، وإن لم يذكرها بالتحديد، وأشار إلى أصحابها، ويرجح اعتماده على كتاب الرماني: (النكت في إعجاز القرآن الكريم) ، ومن الجاحظ على: (البيان والتبيين)، ومن قدامة بن جعفر على: (نقد الشعر)، و (الخراج وصناعة الكتابة) و (جواهر الألفاظ)، ومن أبي هلال العسكري على كتاب: (الصناعتين) .

ويبدو انتفاع الكاتب بعلوم المعاني، والبيان، والبديع من وجوه عدة تكمن في:

١- أن من فاتته هذه العلوم وكان ناقصا فيها نقصت صناعته بقدر ما ينقص من ذلك.

٢- استخدام المصطلحات الخاصة بهذه العلوم على سبيل التورية مثلها مثل: مصطلحات النحو وغيره.

٣- إتقان هذه العلوم معرفة الكاتب بدلالات الألفاظ المجازية، وما ترمز إليه من معان[٢]

- القرآن الكريم:

تمثل علوم الدين العنصر الأول في ثقافة الكاتب الإنشائية، وقد كان الكتّاب يحرصون على درس أمّات الكتب التي تتصل بالقرآن الكريم، من مثل: كتب التفسير، والسنن، والصحاح، وكتب علوم القرآن.

ويرى ابن الأثير أنه ينبغي للناشئ أن يحفظ كتاب الله تعالى، يقول:" فالكاتب إذا كان حافظا للقرآن يستطيع أن يضمن كلامه بالآيات في أماكنها اللائقة بها، واستعمالها في مواضعها المناسبة لها، تكسبه بذلك فخامة وجزالة ورونقا، وتوخي ذلك في كل كتاب عسر جدا، وإنما انفردت بذلك دون غيري من الكتّاب، فإني أستعمله في كل كتاب حتى إنه ليأتي في الكتاب الواحد في مواضع عدة منه، ولقد أنشأت تقليدا لبعض الملوك مما يكتب في ديوان الخلافة، ثم إني اعتبرت ما ورد فيه من معاني الآيات والأخبار النبوية فكان ما يزيد على الخمسين، وهذا لا أتكلفه وإنما يأتي وفق ما يقتضيه الموضع"[١]

ولعل من المهم الإشارة إلى أن تضمين الكتب بالآيات لم يكن حكرا على ابن الأثير وحده-كما قال- بل اشترك في ذلك كتّاب العصر الأيوبي، وعلى رأسهم القاضي الفاضل، والعماد الأصفهاني.

- الحديث النبوي:

الحديث النبوي يلي القرآن الكريم من حيث أهميته للكاتب في نظر ابن الأثير؛ لذلك هو يسلك فيه مسلكه في القرآن الكريم، لما له من بعد أثر

(٢) في النقد الأدبي: ص١١٩

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ج١-ص٩٩

وفوائد قريبة من فوائده، فيحفظ الأحاديث ويدعو غيره إلى حفظها؛ يقول:" وينبغي للأديب من حفظ أحاديث الرسول – ﷺ- ولاسيما الصحيح منها الذي يدخل في الاستعمال، وأول ما تحفظه من الأخبار[٢] هو كتاب الشهاب، فإنه كتاب مختصر، وما فيه جميعه يستعمل فإذا حفظته وتدربت على استعماله حصل عندك قوة على التصرف، والمعرفة بما يدخل في الاستعمال وما لا يدخل، وعند ذلك تتصفح كتاب صحيح البخاري، وصحيح مسلم، والموطأ، وسنن الترمذي، وسنن أبي داود، وسنن النسائي"[١].

وقد بلغ من اهتمام ابن الأثير بعلوم الحديث أنه صنف كتابا ذكره في مواضع كثيرة من كتبه. يقول:"وكنت أتعبت نفسي زمانا حتى جمعت كتابا يشتمل على أكثر من ثلاثة آلاف خبر من الأخبار النبوية، كلها يحتاج إليها في أسباب الكتابة، وكنت ألزم مطالعة ذلك الكتاب لزوم المحتفل، ولا أزال في مطالعته كالحال المرتحل"[٢]

وليس هذا فقط فابن الأثير يعتمد عليه فيقلد أسلوبه بالحل، والاقتباس، والتضمين الكلي والجزئي، وهذا صحيح بفهم الأخبار النبوية بحيث يستطيع المتأدب أن ينفق منها عن سعة، ويستشهد بكل شيء في موضعه، ويحتج بمكان الحجة، ويستدل بموضع الدليل، ويتصرف عن علم بموضوع اللفظ ومعناه.

- الأحكام السلطانية:

من الأدوات التي انفرد ابن الأثير بها الأحكام السلطانية. يقول:
"لأن الكاتب المنشئ في الديوان قد يؤمر بأمر فيعرف كيف يجري قلمه على حكم الشريعة المطهرة من ولاية قضاء وحسبة وغيرها. فمعرفته بالإقامة على أنها من المسائل السياسية ومعناها الولاية على المسلمين، وحكمها في الإسلام موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا، وعقدها لمن يقوم في الأمة واجب بالإجماع"[٣].

وبعد فهذه أدوات الكاتب من مفهوم العصر الأيوبي ، وقد وعاها كتاب العصر، وساروا على هديها كل وفق اطلاعه ، وإن كنت لا أجزم بأن كل ما ورد فيها يقع موقع القانون الذي لا يجوز الحيد عنه، وسيكون لهذا الأمر تفصيل في موقعه من البحث.

---

[٢] استخدم ابن الأثير مصطلح (الأخبار النبوية) بدلا من الحديث النبوي الشريف
[١] المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ج١، ص ١٤٩،٦١
[٢] الوشي المرقوم في حل المنظوم: ص٥
[٣] المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر : ج ١ / ١٤٩.

الباب الثاني

القاضي الفاضل والحياة الأدبية في عصره

- اسمه ونسبه :

أجمع الذين ترجموا للقاضي الفاضل من المؤرخين على أن كنيته أبو علي[1]، واسمه عبد الرحيم ، واسم أبيه علي،وجده الحسن . قالوا : " أبو علي عبد الرحيم بن علي بن الحسن "[2]. ولكنهم اختلفوا اختلافا جزئيا في اسم والد جده . فمنهم من يرى أنه الحسن ، وفي مقدمتهم معاصره العماد الأصفهاني ، إذ يقول : " أبو علي عبد الرحيم ابن القاضي الأشرف أبي المجد علي بن الحسن بن الحسن بن أحمد ابن البيساني "[3] ، ومنهم من يرى أنه الحسين ، ومن هؤلاء النويري إذ يقول : " أبو علي عبد الرحيم ابن القاضي

---

(1) ذهب ابن الساعاتي إلى أن كنيته أبو محمد . وهذا مخالف للإجماع . الجامع المختصر :٢٨/٩.

(2) خريدة القصر وجريدة العصر (قسم شعراء مصر) :٣٥/١ .

(3) المصدر نفسه :٣٥/١ ، ووفيات الأعيان :١٥٨/٣ ، وسير أعلام النبلاء :٣٣٨/٢١-٣٣٩

الأشرف أبي المجد علي بن الحسن بن الحسين بن أحمد اللخمي "[٤] ، في حين نجد أن السبكي قد أسقط كلمة الحسن الثانية من سلسلة نسبه واكتفى بالقول إنه :" عبد الرحيم بن علي بن الحسن بن أحمد "[٥]، وقد أيده فيما ذهب إليه المقريزي في الخطط [٦]، على أنه أورد لنا نسب الفاضل لما أورده جمهور مؤرخيه في كتابه السلوك [٧].

ويبدو لي من مقارنة ما أوردته المصادر السابقة أن تصحيفا قد وقع في رواية النويري بين كلمة الحسن التي أجمع عليها معاصرو القاضي الفاضل وقريبو العهد منه ، وبين كلمة الحسين التي أوردها النويري بسبب تحريف النساخ كما يرجح البحث .

وقد أوصلتني بعض المصادر إلى سلسلة نسب القاضي الفاضل . يقول المنذري ، وهو قريب عهد من الفاضل حين يتحدث عنه : " ... القاضي الأجل الأفضل أبو علي عبد الرحيم ابن القاضي الأجل الأشرف أبي الحسن علي بن الحسن بن الحسن بن أحمد بن الفرج بن أحمد العسقلاني "[١] . ويقول ابن خلكان إنه :

" أبو علي عبد الرحيم بن القاضي الأشرف بهاء الدين أبي المجد علي بن القاضي السعيد أبي محمد الحسن بن الحسن بن أحمد بن الفرج بن أحمد اللخمي العسقلاني المولد المصري الدار "[٢] . ويقول الذهبي : " أبو علي عبد الرحيم بن علي بن الحسن بن الحسن بن أحمد بن المفرج اللخمي ، الشامي ، البيساني الأصل ، العسقلاني المولد ، المصري الدار "[٣]

ومما تقدم نلاحظ أن القاضي الفاضل قد نسب إلى لخم ، وبيسان ، وعسقلان وهذا أمر لا خلاف فيه؛ لأنه لا يقودنا إلى الشك في نسبه ، فالذين نسبوه إلى لخم ردوه إلى أصله حين نسبوه إلى قبيلة لخم ، وهي قبيلة عربية صليبة خرجت من الجزيرة العربية مع المسلمين الفاتحين إلى فلسطين واستقرت فيها [٤]. وأما الذين ردوه إلى بيسان ، فقد نسبوه إلى بلدة الإقامة . يقول المنذري : " وكان والده القاضي الأشرف تولى الحكم ببيسان ، فنسبوا إليها وغلبت عليهم "[٥] ، ويقول الذهبي :

---

(٤) نهاية الأرب في فنون الأدب:١/٨ ، والنجوم الزاهرة :١٥٦/٦ .
(٥) طبقات الشافعية - السبكي : ١٦٦/٧.
(٦) الخطط (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) : ٣٦٦/٢.
(٧) السلوك لمعرفة دول الملوك : ١٥٤/١ .
(١) التكملة لوفيات النقلة : ٢٠٩/٢ ــ٢١٠ .
(٢) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان :١٥٨/٣.
(٣) سير أعلام النبلاء : ٣٣٨/٢١-٣٣٩ .
(٤) معجم قبائل العرب (لخم) .
(٥) التكملة لوفيات النقلة :٢١١/٢.

" وفي انتسابه إلى بيسان تجوّز ، فما هو منها ، بل قد ولي أبوه القاضي الأشرف أبو الحسن قضاءها "(٦)، ثم إن حياة القاضي الفاضل كما رأينا قد ارتبطت ارتباطا وثيقا بهذين المكانين؛ ولذا فليس غريبا أن ينسب إليهما ، حتى إن بعض مؤرخي الفاضل كانوا يكتفون بذكر شهرته واسمه ونسبه ، فيقولون:" القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني "(١) ،وهذا يعود إلى تلك الشهرة الواسعة التي حظي بها القاضي الفاضل آنذاك ، لدرجة أن القلقشندي في معظم الأحيان كان يكتفي بذكر شهرته ، فيقول : القاضي الفاضل (٢) و من استقراء كل ما سبق ، نطمئن إلى أن اسم القاضي الفاضل ونسبه هما كما يلي : أبو علي ، عبد الرحيم بن علي بن الحسن بن الحسن بن أحمد بن الفرج بن أحمد اللخمي البيساني العسقلاني ، وذلك لإجماع معاصريه من المؤرخين الذين أحاطوا به ، أو اتصلوا به اتصالا وثيقا، ولا سيما العماد الأصفهاني .

- مولده:

اتفق معظم الذين تحدثوا عن زمن ولادة القاضي الفاضل من المؤرخين وأصحاب التراجم على أنه قد ولد في يوم الاثنين الخامس عشر من جمادى الآخرة سنة تسع وعشرين وخمسمئة . يقول ابن خلكان : " وكانت ولادته يوم الاثنين في خامس عشر جمادى الآخرة سنة تسع وعشرين وخمسمئة "(٣) ، في حين نجد أن ابن واصل عندما يتحدث عن زمان وفاة الفاضل ، يقول : وكان مولد القاضي الفاضل على ما بلغني سنة ست وعشرين وخمسمئة ، فكان عمره نحو سبعين سنة "(٤) ... وقد أيده في ذلك أبو الفداء (٥)، وابن الوردي (٦)، والنويري (٧)

ومن خلال تتبعنا لهذه الرواية ، نرى أن ابن واصل المتوفى سنة سبع وتسعين وستمئة ، هو أول من ذكر هذا التاريخ ، إذ لم يؤيده أحد من الذين كانوا قريبي عهد من الفاضل . وعنه أخذ أبو الفداء ، وابن الوردي ، و النويري . أضف إلى هذا ، أن هؤلاء أوردوا الخبر بأسلوب يوحي بالشك

---

(٦) سير أعلام النبلاء :٢١ /٣٣٩ .

(١) النكت العصرية في أخبار الوزراة المصرية :٥٣ ،والروضتين :٤٠٣/١ ، ومعجم البلدان :٥٢٧/١ .

(٢) صبح الأعشى في صناعة الإنشا في مواضع كثيرة

(٣) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان :١٦١/٣ .

(٤) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب: ١١٠/٣

(٥) المختصر :١٢٨/٥ .

(٦) تتمة المختصر :١٧٣/٢ .

(٧) الإلمام بالأعلام :١٧٠/١

فمنهم من قدمه بقوله : (بلغني) ، ومنهم من قال : (قيل) ، وهذا يجعلنا أكثر اطمئنانا لرواية ابن خلكان التي أجمع عليها معاصرو القاضي الفاضل .

وأما ابن كثير ، فقد تجاوز هاتين الروايتين فقال : " ولد سنة ثنتين وخمسمئة " [١] . وهذه رواية ينفرد بها ابن كثير من بين الذين ترجموا للقاضي الفاضل ولم يوردها أحد من المؤرخين غيره ، وهي تفيد أن القاضي الفاضل عاش حتى جاوز التسعين ، وهذا مخالف لأقوال جمهرة المؤرخين الذين أجمعوا على أنه لم يتجاوز السبعين عاما من عمره .

وأما الذين تحدثوا عن مكان ولادته ، فقد توزعت آراؤهم بين مدينتين هما : عسقلان ، وبيسان ، فالمنذري[٢] ، وابن خلكان[٣] ، والذهبي[٤]،والسبكي[٥] والأسنوي [٦]، وابن تغري بردي [٧]، وابن الوردي[٨] ، والنعيمي [٩]يجمعون على أنه قد ولد بعسقلان ،وقد خالفهم في ذلك سبط بن الجوزي ، إذ يقول : " ولد ببيسان " [١٠]، وهو بهذا يخالف جمهرة المؤرخين ، مما يرجح الرواية التي ذكرها أصحابها أن عسقلان هي مدينة المولد ، وأن بيسان هي بلدة الإقامة حيث كان قاضيا فيها . يقول المنذري كما سبق أن أوردنا : " وكان والده القاضي الأشرف تولى الحكم ببيسان ، فنسبوا إليها وغلبت عليهم"[١١]

- شيـــــــــوخه :

كانت الحياة الأولى للقاضي الفاضل في عسقلان ، ثم في مصر ، ويفهم مما سبق أن أستاذه الأول وموجهه بعسقلان هو والده ، وأن أستاذه الأول بمصر هو الموفق ابن الخلال [١] ، ولم يخف ذلك على المؤرخين وعلماء هذا الفن – يعني فن الكتابة _ أن القاضي الفاضل - رحمه الله - قد أخذ علم الإنشاء وحكمه عن الموفق بن الخلال منشىء الخليفة الحافظ العلوي ، ورتبته في الإنشاء معلومة " [٢]

---

[١] البداية والنهاية :١٣ /٢٤

[٢] التكملة لوفيات النقلة :٢ /٢١٠

[٣] وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان :١٥٨/٣ .

[٤] سير أعلام النبلاء : ٣٣٩/٢١ .

[٥] طبقات الشافعية - السبكي: ١٦٦/٧

[٦] طبقات الأسنوي : ٢٨٢/٢

[٧] النجوم الزاهرة : ١٥٦/٦

[٨] تتمة المختصر : ١٧٣/٢ .

[٩] الدارس في تاريخ المدارس : ٩٠/١ .

[١٠] مرآة الزمان في تاريخ الأعيان : ٤٧٢/٨

[١١] التكملة لوفيات النقلة :٢١١/٢

[١] هو الموفق أبو الحجاج يوسف بن محمد المعروف بابن الخلال.

[٢] ثمرات الأوراق في المحاضرات :١٣٨ .

وجاء عن ابن الخلال فـي الخريدة : " أنـه نـاظر ديوان مصر وإنسان ناظره، وجامع مفاخره ، وكـان إليـه الإنشاء ، ولـه قدرة علـى الترسل ، يكتب كما يشاء ، وعاش كثيرا ، وعطل فـي آخر عمره وأضر ، ولـزم بيتـه إلـى أن تعوّض منه القبر ، وتوفي بعد تملك الناصر مصر بثلاث سنين "[٣]،وذكر عنـه صاحب وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان : " أنه لم يزل رئيسا لديوان الإنشاء بمصر حتى آخر العصر الفاطمي إلى أن طعن فـي السن ، وعجز عن الحركة ، فانقطع في بيته وكان القاضي الفاضل يرعى له حق الصحبة والتعلم ، فكـان يجري عليه كل ما يحتاج إليه إلى أن مات في جمادى الآخرة سنة ست وستين وخمسمئة"[٤].

ويفهم مما سبق مدى مـا وصـل إليـه ابـن الخـلال مـن علـو الرتبـة عند الخلفاء الفاطميين عن طريق رئاسة ديوان الإنشاء ، ولعل هذا ما أغرى تلميذه الفاضل بالتطلع إلى هذه المكانة بوساطة الوسيلة التي توسل بها أستاذه ، وهي العمل بديوان الإنشاء والتقرب إلى رئاسة الدولة ،واتصل الفاضل في مصر في شبابه بأبي الفتح محمود بن إسماعيل الفهري المعروف بابن قادوس [٥]،وتتلمذ على يده، وقد وصفه ابن ميسر بقوله : " كـان من أماثل المصريين وكتّابهم ، مقدما عند ملوكهـم"[١]

وعمل ابن قادوس فـي ديوان الإنشاء ، وتقدّم بـه قلمـه ، وارتقت بـه بلاغته حتى قدره ملوك عصره ، وصـار أحد رجال الملك الصالح طلائع بن رزيك ، وظل فـي ديوان الإنشاء حتـى مـات سنة خمسمئة وإحدى وخمسين هجرية فـي أيام طلائع بن رزيك وزير الفائز، ولما مات حضر الصالح طلائع من القاهرة إلى مصر للصلاة عليه ومشى في جنازته حتى ووري التراب "[٢]

ويتضح من هذا أن ابن قادوس لم يكن كاتبا مغمورا ، بل كـان معروفا ومشهورا ، مما دفع القاضي الفاضل إلى الاقتداء به فـي الكتابة ؛ فكان يعظمه ويسميه ذا البلاغتين ، يريد بلاغة الشعر والنثر ، وكـان لا يتمكن من اقتباس فوائده غالبا إلا فـي ركوبـه مـن القصر إلـى منزلـه ، ومـن منزلـه إلـى القصر فيسايره ويجاريه في فنون الكتابة والأدب والشعر[٣]

ويحفظ ديوان القاضـي الفاضل قصيدة طويلة بلغ عدد أبياتها السبعة والخمسين بيتا قالها مدحا فـي ابن قادوس وإطراء لبلاغتـه [٤]، وهـي ذات أسلوب جزل ، وكأن القاضي الفاضل أراد بها – على حد قول الدكتور أحمد

---

[٣] خريدة القصر وجريدة العصر : قسم شعراء مصر :٢٢١/١ .
[٤] وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان : ٧ /٢٢١ .
[٥] خريدة القصر وجريدة العصر (قسم شعراء مصر) : ٢٢٦/١ .
[١] تاريخ مصر الإسلامية زمن سلاطين بني أيوب:٩٧/٢ .
[٢] المصدر نفسه :٩٧/٢
[٣] الروضتين :١٠٣/١ .
[٤] نص القصيدة في ديوان القاضي الفاضل :١٧٤/١-١٨٠ .

بدوي _ أن يطمئن بها أستاذه على أنه تلميذ مخلص في الاقتداء به ، وأن تعليمه فيه قد أثمر [٥]، ومن هذه القصيدة قوله :

ويا قسور الكتّاب بدد صفوفهم إذا وشحت كفاك من قلم رمحا

جلوت على الأسماع درا فإنها قد التقطته في المحافل في الأضحى

وسجع هو السجع الحمامي ، هزنا معاطف أغصان فدى سجعك السجحا

مدحناه مدحا فيه ذم لغيره إذا مدح السجع الفتى أنب النبحا

وكم نشرت منه مناشير حكمة طوى كاشح عن أن يساجلها الكشحا

ولعل مكانة ابن قادوس في الدولة الفاطمية هي التي زادت من تطلع القاضي الفاضل للوصول إلى مكانة مرموقة في هذه الدولة، يؤكد ذلك أن وسيلة ابن قادوس كانت هي الأخرى الكتابة في بداية شبابه وذهابه إلى قاضي الاسكندرية ابن حديد بأنه راجع إلى رغبته في العمل بمكان يكون له فيه شأن كبير لا كهذا العمل الثانوي الذي أسند إليه بديوان الإنشاء بالقاهرة، ويرجح تاريخ حياة القاضي الفاضل أن الشكوى التي ترى في شعره من مهنة الكتابة، ومن حظه البائس الذي انفرد به بين الكتّاب كانت في ذلك العهد، وتتبدى هذه الشكوى في قوله :

تعس الكاتب الشقي ، فما أشقاه بالأمر بين هذي الخليقة

خير أيامه ولا خير فيها يوم يلقى من بكرة وجه ليقة[١]

والدراريع [٢] فخره وهو منها في ثياب من صدره مشقوقة [٣]

ومن قوله :

أرى الكتّاب كلهم جميعا بأرزاق تعمهم سنينا

وما لي بينهم رزق كأني خلقت من الكرام الكاتبينا[٤]

---

[٥] القاضي الفاضل دراسة ونماذج :١٢ .

[١] صوفة توضع في الدواة .

[٢] هي جمع دراعة هو ثوب من الصوف مشقوق من أيام الوجه إلى قريب من رأس الفؤاد بأزرار وعرى ، وهو من ثياب الوزراء من أرباب الأقلام ، انظر دراسات في التاريخ الإسلامي :٤٩ .

[٣] ديوان القاضي الفاضل :٣٧٠/٢، ٣٧١ .

[٤] المصدر نفسه :٣٨٦/٢ .

كما أخذ القاضي الفاضل فن الكتابة عن كاتبين آخرين غير ابن الخلال ، وابن قادوس، ولكن عن طريق غير مباشر وهما : ابن عبد كان ، وابن الشخباء .

أما ابن عبد كان فهو أحمد بن مودود [٥]كاتب أحمد بن طولون الذي أحضره من بغداد إلى مصر، وقد نال شهرة واسعة في عصره وبعد عصره[١] ، وتوفي بعد أحمد بن طولون؛ لأنه كتب لابنه خمارويه ؛ وتتفق المصادر القديمة على أن إسحق بن نصير تولى ديوان الرسائل من بعده لخمارويه بن أحمد ابن طولون[٢]

وعرف ابن عبد كان بجودة أدبه وفنه حتى قال عنه صاحب الفهرست : " كان بليغا مترسلا وفصيحا ، وله ديوان رسائل كبير "[٣] ، كما أشاد به صاحب صبح الأعشى في في موضع من كتابه ، ومما قال فيه: " إن أهل بغداد كانوا يحسدون أهل مصر على طبطب المحرر ، وابن عبد كان، ويقولون بمصر كاتب ومحرر ليس لأمير المؤمنين بمدينة السلام مثلهما"[٤].

كما ذكر عنه أنه عندما استكتب " أقام منار ديوان الإنشاء ورفع مقداره " [٥] ، وقد كان لديوان الإنشاء شأن كبير على يد ابن عبد كان حتى إن بعض كتّاب العراق هاجر إلى مصر للتتلمذ على يد رئيس الديوان ، وقد سجل ياقوت طرفا من هذا حين قال في معرض حديثه عن إسحق بن نصير الكاتب البغدادي : " قدم على ابن عبد كان رئيس الديوان والتمس منه التصرف، ولم يزل معه إلى أن توفي واستخلفه مكانه خمارويه وأجرى عليه أربعمئة دينار في الشهر ثم رفعها إلى ألف دينار "[٦]،ومما تقدم ذكره تتضح مكانة ابن عبد كان في الكتابة وارتفاع شأنه وذيوع صيته في هذا الفن بين مؤرخي الأدب العربي ونقاده .

كان ابن عبد كان أستاذا للقاضي الفاضل؛ لأنه من غير المعقول ألا يكون القاضي الفاضل قد اطلع على رسائل ابن عبد كان الذي كانت تقرأ رسائله في الشام ، ويفهم ذلك من الحوار الذي دار بين الصاحب بن عباد ورجل من أهل الشام ، فقد سأل الصاحب هذا الرجل:" رسائل من تقرأ ؟

[٥] صبح الأعشى في صناعة الإنشا:٩٥/١ .

[١] بدأ عمله في مصر منذ قيام الدولة الطولونية على يد أحمد بن طولون ، واسم عبد كان يدل على أنه فارسي الأصل ؛ إذ الألف والنون تأتي في الفارسية القديمة للنسبة بينما تأتي الكاف للتصغير ، وعلى هذا يكون اسمه عبيدي : الفن ومذاهبه في النثر العربي :٣٤٨

[٢] صبح الأعشى في صناعة الإنشا:٩٥/١ ، وحسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة :١٤٦/٢ .

[٣] الفهرست: ١٩٧ .

[٤] صبح الأعشى في صناعة الإنشا: ١٧/٣ .

[٥] المصدر نفسه :٢٨/١ .

[٦] معجم الأدباء :٨٥/٦ .

فأجابه : رسائل ابن عبد كان[١] . فإذا كانت رسائل ابن عبد كان قد شاع ذكرها في الشام وصاحبها في مصر فمن المعقول جدا أن يكون كاتب في مصر قد اطلع عليها ، ويؤكد ذلك أن ابن عبد كان قد وضع للكتّاب في مصر رسوم الكتب، بماذا تنتهي ؟ وبماذا تعنون ؟ "[٢] .

وأما الأستاذ الثاني للقاضي الفاضل فهو الشيخ المجيد أبو علي الحسن بن عبد الصمد بن الشخباء العسقلاني [٣] الذي كتب في ديوان الرسائل للمستنصر صاحب مصر [٤]، مات مقتولا سنة اثنتين وثمانين وأربعمئة هجرية [٥] . فقد وصفه العماد الكاتب بقوله : " المجيد مجيد كنعته ، قادر على ابتداع الكلام ونحته"[٦]، كما قال عنه ابن خلكان :" إنه صاحب الخطب المشهورة والرسائل المحبرة ، كان من فرسان النثر وله فيه اليد الطولى "[٧]،ونعته ابن بسام بقوله:"كان من البلغاء الأفراد ، وأبهر نجوم تلك البلاد طلوعا من ثنايا الأدب واجتناء لخبايا لسان العرب "[٨]

كما وصفه ياقوت بقوله :" كان يلقب بالمجيد ذي الفضيلتين - الشعر والنثر - أحد البلغاء الفصحاء الشعراء له رسائل مدونة مشهورة "[٩]،ولم تخف تلمذة القاضي الفاضل لابن الشخباء على القدماء يقول : " ويقال إن القاضي الفاضل – رحمه الله تعالى – كان جل اعتماده على حفظ كلامه ، وإنه كان يستحضر أكثره "[١]، كما جاء في معجم الأدباء أن القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني استمد من رسائل ابن الشخباء المدونة المشهورة وبها اعتدّ "[٢] .

وقد تبين من نشأة القاضي الفاضل وتكوينه الأدبي ثلاثة عوامل كان لها أثر واضح في اتباعه طريقة خاصة في الكتابة سار عليها الكتّاب من بعده :

العامل الأول: الجفوة الشديدة التي كانت بينه وبين كتّاب ديوان الإنشاء بالقاهرة في عصر الظافر بن الحافظ، فقد أثرت هذه الجفوة في موقفه من الكتّاب وغيرهم من النابهين عندما صار له شأن في الدولتين الفاطمية والأيوبية ؛ حيث إنه صار لا يطيق البقاء في القاهرة بعد وفاة والده فرحل إلى الإسكندرية ومكث بها زهاء ثماني سنوات عمل خلالها كاتبا لوالي

---

[١]معجم الأدباء : ٢٥٨/٦ .
[٢] صبح الأعشى في صناعة الإنشا: ١٦٠/٨ .
[٣] وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان : ٨٩/٢ .
[٤] معجم الأدباء :١٥٢/٩ .
[٥] وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان : ٨٩/٢ .
[٦] خريدة القصر وجريدة العصر (قسم شعراء مصر) : ١٤ .
[٧] وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان :٨٩/٢ .
[٨] الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة : ق٤
[٩] معجم الأدباء : ١٥٢/٩-١٥٣ .
[١] وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان : ٨٩/٢ .
[٢] معجم الأدباء : ١٥٣/٩،١٢٥ .

الإسكندرية وقاضيها ابن حديد ، وهذه الجفوة نفسها هي التي جعلت كتّاب الإنشاء بالقاهرة يطعنون في مقدرته على الكتابة ، ويرمونه بالقصور فيها ، وذلك عندما كانت تصل بقلمه مكاتبات والي الإسكندرية إلى الخليفة الظافر بالقاهرة .

وقد لفت موقف الكتّاب في هذه الفترة تجاه القاضي الفاضل انتباه المؤرخين ، من ذلك قول ابن خلكان : " وكانت مكاتبات ابن حديد ترد إلى مصر بخطه - يعني القاضي الفاضل - وهي في غاية البلاغة فحسده كتّاب الإنشاء على فضله وخافوا على تقدمه عليهم فسعوا إلى الظافر به، فقالوا إنه قصّر في الكتابة ، وكان صاحب ديوان الإنشاء القاضي ابن بنان ، فحكي أن الظافر قال لابن بنان : تكتب إلى ابن حديد بقطع يد كاتبه ، فتعصب له ابن بنان ، وقال :

يا مولانا هذا الرجل ما منه تقصير وإنما حسده هؤلاء الكتّاب فسعوا به ليؤذيه مولانا . قال الظافر : فتكتب إلى ابن حديد يرسله إلينا ويكتب لنا . قال ابن بنان : وكنت بعد ذلك في مجلس فرأيت القاضي الفاضل وقد حضر وهو قائم بين يديه ثم استخدمه "(١) .

ولم تَخبُ غيرة الكتّاب من القاضي الفاضل بمرور الأيام، بل نراهم يحاولون التخلص منه في أقرب مناسبة ؛ وها هو ذا أبو شامة يثبت ذلك حيث يقول : " إن القصر بعثه – يعني القاضي الفاضل – إلى أسد الدين شيركوه استبعادا له ، ذلك أنه زاحم كتّاب القصر فثقل عليهم أمره ، وعندما أرسلوه إلى شيركوه ظن رؤساء ديوان المكاتبات أن هذا أمر لا يتم ، وأن أسد الدين سيقتله كما قتل من قبله ، يعنون ضرغاما ، وشاور وابنه ، وقالوا لعله يقتل معه فنخلص من مزاحمته لنا ، فكان من أمره ما كان " (٢) ،ولم يكن القاضي الفاضل من جهة أخرى يكتم شعوره تجاه هؤلاء الكتّاب قبل أن يصل إلى مكانة مرموقة بديوان الإنشاء. فقد شعر بالضيم الذي كان يلحقه رغم ما يحسه في نفسه من قدرة على الكتابة تفوق الكتّاب الذين تولوا المناصب المرموقة بديوان الإنشاء للفاطميين بالقاهرة آنذاك رغم جهلهم في نظره، ويظهر ذلك بجلاء في قوله:

ما ضر جهل الجاهليـ ـن ولا انتفعت أنا بحذقي
وزيادتي في الحذق فهـ ـي زيادة في نقص رزقي(٣)

العامل الثاني : حرصه الشديد على التقرب ممن بيدهم مقاليد الأمور ، ولو أدى ذلك إلى مدحه اليوم قاتل ممدوحه بالأمس ، ما دام هذا يوصله إلى ما

(١) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان : ٢٢١/٧ .
(٢) الروضتين : ١٠٩/١ .
(٣) ديوان القاضي الفاضل : ٢٨٩/١ .

يطمع إليه من المكانة الأدبية والسياسية ،ولعل ذلك راجع إلى حداثة سنه آنذاك وتطلعه إلى تبوُّء أعلى المراتب في الدولة ، وقد أدى ذلك إلى ذيوع طريقته ويؤكد هذا الرأي موقفه من رزيك وشجاع بن شاور قاتل رزيك ، ومن أسد الدين شيركوه وصلاح الدين الذين كان على يديهما نهاية شاور .

وكان لاضطراب الدولة الفاطمية في ذلك العهد أثر في تفكير القاضي الفاضل، ويظهر ذلك من إغرائه نور الدين محمود بحماية مصر وبسط سلطانه عليها، ويتضح ذلك من خلال قصيدة وجهها إليه يقول فيها:

وما بعد مصر للغنى متطلب   وما بعد هذا المال مال فيكتسب

ولو أنه في البأس يمضي أو الندى   لهان، ولكن في الأغاني وفي الطرب [(١)]

وقد كان لذلك أثره في اختيار القاضي الفاضل كاتبا لأسد الدين شيركوه بالإضافة إلى السبب الذي سبق ذكره ، وكما كان القاضي الفاضل يسعى إلى الشهرة والسلطان بالتقرب إلى الأقوى من الأفراد ؛ سعى إليهما أيضا بالتقرب إلى الأقوى من الدول ، ودليل ذلك أنه لما ولي صلاح الدين السني أمر مصر واستخلصه إلى نفسه ، وحسن اعتقاده فيه؛ استعان به على ما أراد من إزالة الدولة الفاطمية الشيعية حتى تم مراده [(٢)] .وقد فتح القاضي الفاضل أخلد صفحات حياته يوم اتصل بصلاح الدين ، ففوّض إليه الوزارة وديوان الإنشاء،واتخذه ساعده الأيمن فيما أراد من إصلاحات مالية وحربية ، واستبشر به صلاح الدين فلم يرد أن يستكتب سواه ، والدليل على ذلك أن العماد الأصفهاني عندما أراد أن يكون كاتب إنشاء في ديوان صلاح الدين استعان على ذلك بأن مدح القاضي الفاضل بقصيدة . ودخل الفاضل على السلطان صلاح الدين وقال : " غدا تأتيك تراجم الأعاجم ، ما يحلها مثل العماد الكاتب ، فقال : مالي عنك مندوحة ، أنت كاتبي ووزيري ، وقد رأيت على وجهك البركة ، فإذا استكتبت غيرك تحدث الناس ، قال الفاضل : هذا يحل التراجم ، وربما أغيب أنا ولا أقدر على ملازمتك، فإذا غبت قام العماد الكاتب مقامي ، وقد عرفت فضل العماد وخدمته للدولة النورية ، فاستكتبه "[(٣)]

وأصبح القاضي الفاضل لسان صلاح الدين إلى الخلفاء والملوك والأمراء والمسجل في رسائله لحوادث الدولة وأحداث تلك الحقبة من الزمان.

- ثقافتـــــــه وأثره في علوم عصره وعلمائه:

يرى صاحب كتاب الصناعتين أن الأديب مطالب بأدوات كثيرة قبل أن يقحم نفسه في ميدان الكتابة والكتّاب ، فيقول : " ينبغي أن تعلم أن الكتابة

---

(١) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار :٢٨٠/٧.

(٢) الخطط (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) : ١٩٨/٤

(٣) النجوم الزاهرة : ٦٤/٦ .

الجيدة تحتاج إلى أدوات جمة ، وآلات كثيرة ، ومن معرفة العربية لتصحيح الألفاظ وإصابة المعاني ، وإلى الحساب ، وعلم المساحة ، والمعرفة بالأزمنة والشهور والأهلة ، وغير ذلك "[١] ، ويقول ابن رشيق : " والشاعر مأخوذ بكل علم، مطلوب بكل مكرمة ، لاتساع الشعر واحتماله كل ما حمل : من نحو ، ولغة ، وفقه، وخبر ، وحساب ، وفريضة ، واحتياج أكثر هذه العلوم إلى شهادته، وهو مكتف بذاته ، مستغن عما سواه ، ولأنه قيد للأخبار وتجديد للآثار "[٢] .

ومن خلال تتبعي لما أورده الذين أرّخوا للقاضي الفاضل ، ولأخبار شيوخه الذين اتّصل بهم وتتلمذ عليهم ، أستطيع أن أقول : إنه قد امتلك هذه الأدوات إذ نال حظا من الثقافة والمعرفة الدينية ، واللغوية ، والأدبية ، وغيرها من معارف عصره ،على أنه كان ذا موهبة وذكاء ، وعقل متفتح . فقد حفظ القرآن الكريم ، وديوان الحماسة [٣] قبل أن يتجاوز الخامسة عشرة من عمره ، ودرس الفقه ، والحديث ، والتفسير ، وعلوم اللغة ، والأدب . يقول الذهبي : " حفظ القرآن ، وكتب ختمة ، وقرأ الجمع بين الصحيحين على ابن فرح ، عن رجل، عن الحميدي ، وصحب أبا الفتح محمود بن قادوس المنشىء "[٤] . ويقول السبكي : " سمع الحديث من الحافظ أبي القاسم بن عساكر ، وأبي محمد العثماني وأبي طاهر بن عوف ، وغيرهم " [٥] . ويضيف المقريزي : " ويشتغل بعلوم الأدب ، وتفسير القرآن "[١] . وفي أدبه وشعره ما يؤكد لنا سعة حفظه لأشعار العرب وأقوالهم ، ولاسيما ديوان المتنبي الذي كان القاضي الفاضل معجبا به [٢] ، وديواني أبي تمام والبحتري [٣]، وغيرهم .

ومن هذا كله ، يتضح لنا أن القاضي الفاضل كان ذا شخصية واسعة الاطلاع متنوعة الثقافة ، غنية بالمعارف والعلوم المختلفة المتنوعة التي كانت معروفة في عصره .

ومما يشهد بسعة ثقافته ، ما أورده معاصره العماد الأصفهاني عن نتاجه الأدبي الوفير الذي كتبه في فترة الحروب الصليبية ، ولم يكرر فيه لفظا ولا

---

[١] الصناعتين(الكتابة والشعر) : ١٦٠ ، وصبح الأعشى في صناعة الإنشا:١٤٠/١ -١٤٧

[٢] العمدة :١٩٦/١ .

[٣] الوشي المرقوم في حل المنظوم : ٩ .، والروضتين :ج١ ق٢ / ٤٨٨ .

[٤] سير أعلام النبلاء : ٣٤٤/٢١ ، والبداية والنهاية :٢٨٤/١٣ .

[٥] طبقات الشافعية- السبكي :١٦٧/٧ ، وطبقات الأسنوي :٢٨٤/٢ .

[١] الخطط (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار):٣٦٧/٢ ، والدارس في تاريخ المدارس:٩١/١، والشذرات :٤ / ٣٢٥ .

[٢] الوشي المرقوم في حل المنظوم :١٠

[٣] شذرات الذهب في أخبار من ذهب :٣٢٦/٤ .

دعاء ، إنما كان في كل عمل أدبي ينشئه يبتكر شيئا جديدا من مخزونه الثقافي الواسع . يقول : " وما ألفيته كرر دعاء ذكره في مكاتباته ، ولا ردد لفظا في مخاطبة ، بل تأتي فصوله مبتكرة مبتدعة ، مبتدعة لا مفتكرة، بالعرف والعرفان معرفة لا نكرة"(٤) ، ويضيف مؤكدا ذلك فيقول : " إن شاء أنشأ في يوم واحد ، بل في ساعة واحدة ، ما لو دوّن لكان لأهل الصناعة خير بضاعة "(٥) .

ولعل هذه الثقافة الواسعة المتنوعة التي ألم بها القاضي الفاضل ، ولا سيما اللغوية منها ، هي التي كانت وراء فكرة المقامات التي شرع في كتابتها على ما ذكره ابن حجة الحموي إذ يقول : " ثبت عن القاضي الفاضل أنه شرع في معارضة المقامات ، وعارض منها فصلا بفصل أحسن منه "(٦)

إلا أن هذه المقامات لم تصل إلينا ، ولم أجد أية إشارة إليها فيما بين يدي من المصادر التي ترجمت للقاضي الفاضل إلا في هذا المصدر الذي توفي صاحبه سنة (٨٣٧ هـ)، فربما فقدت فيما فقد من تراثنا ، بسبب ما تعرضت له أمتنا الإسلامية من نكبات وفتن ، وقد تبدت هذه الثقافة الواسعة فيما وصل إلينا من نتاجه الأدبي ورسائله(١) التي استرعت أنظار مؤرخيه لكثرتها . يقول ابن خلكان: " أخبرني أحد الفضلاء الثقات المطلعين على حقيقة أمره ، أن

(٤) الروضتين :٢٤٢/٢ ، وسير أعلام النبلاء :٣٤٠/٢١ .
(٥) خريدة القصر وجريدة العصر (قسم شعراء مصر) :٣٦/١ .
(٦) خزانة الأدب وغاية الأرب : ٤٦١ .
(١) قام الأستاذ بروكلمان بإحصاء رسائل القاضي الفاضل ، ورصد أماكن وجودها المحفوظة فيها وهي :
= أ – (الدر النظيم من ترسل عبد الرحيم) ، حققه الدكتور أحمد بدوي ، القاهرة ١٩٥١ م .
ب – (رسائل عن الحرب والسلام) ، حققه الدكتور محمد نغش ، القاهرة ،١٩٨٤ .
ج - (الفاضل من كلام القاضي الفاضل) مخطوط ، دار الكتب المصرية ، رقم (٣٨٨٢) أدب .
د - (الرسائل الأدبية ، للقاضي الفاضل) ، مخطوط مكتبة الأزهر ، رقم : (٧٠٣٥) أدب
هـ - (الرسالة الحجازية) مخطوط بالفاتيكان .
و – (كتاب مكاتبة ، مختصر من متبلج الأنوار ومتأرّج النوّار في المكاتبات إلى الملوك والوزراء والعلماء مما جمعه ابن مماتي من قول القاضي الفاضل) ، مخطوط ، بالفاتيكان .
ز – (رسائله إلى الخليفة في بغداد) ، مخطوط ، باريس ، وأورد مجموعة من رسائله ومكاتباته المفردة . انظر : تاريخ الأدب العربي :١٠/٦ –١١ .
وللقاضي الفاضل رسائل أخرى كثيرة في معظم كتب التاريخ والأدب ، ولا سيما في المصادر التالية : الخريدة ، والروضتين ، ومفرج الكروب في أخبار بني أيوب، وصبح الأعشى في صناعة الإنشا، ونهاية الأرب في فنون الأدب ، ومسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، والأنس الجليس ، وغيرها ، وقد وقفت على مخطوط آخر من مخطوطاته لم يصل إليه بروكلمان ،فيما وصل إليه من مخطوطات ، .وهو من اختيار ابن نباتة بعنوان : (الفاضل من إنشاء القاضي الفاضل) الأزهر برقم ٧٠٦٥ .

مسودات رسائله في المجلدات والتعليقات في الأوراق إذا جمعت ما تقصر عن مئة مجلد، وهو مجيد في أكثرها "[٢]، وبوسعنا كذلك أن نلمح أثر هذه الثقافة الواسعة المتنوعة من مجموع ما وصل إلينا من شعره ونثره .

كان القاضي الفاضل إلى ذلك ذا موهبة في تذوق الشعر ونقده . يقول الدكتور محمد زغلول سلام:"لم يكن القاضي الفاضل كاتبا وشاعرا فحسب، بل كان ناقدا كذلك، يجلس في مجالس السلطان صلاح الدين، ويناقش الشعراء الذين يأتون لمدح السلطان، فيقرظهم.

وحين كان ينقد شعر معاصريه، كان ينبههم على عيوبهم، ويبين مواطن الإبداع والجودة في أشعارهم بأسلوب يدل على المعرفة والقدرة على الحجاج. ومن ذلك ما أخذه على صديقه ومعاصره ابن سناء الملك؛ إذ قال في إحدى قصائده التي مدح بها صلاح الدين :

يزخرف منها وجهها فهو جنة ... ويخضر منها نضرة فهو سندس
صليني وهذا الحسن باق فربما ... يعزل بيت الحسن منه ويكنس [١]

ذلك لأن لفظة (يكنس) لفظة ثقيلة مستكرهة غير منسجمة في موقعها. وهذا واضح في قوله : " والقصيدة فائقة في حسنها ، بديعة في فنها ، وقد ذلّت السين وانقادت ، فلو أنها الراء لما زادت ، وبيت (يعزل ويكنس) أردت أن أكنسه من القصيدة ، فإن لفظة الكنس غير لائقة في مكانها "[٢]، وقد دافع ابن سناء عن استعماله لهذه اللفظة محتجا بابن المعتز ،وقد كان دفاعه غير مقنع لأنه غير معصوم من الغلط ، ولا يقلد إلا في الصواب فقط ، وقد علم ما ذكره ابن رشيق في عمدته من تهافت طبعه ، وتباين وضعه ، فذكر من محاسنه ما لا يعلق معه كتاب ، ومن بارده و غثه ما لا تلبس عليه الثياب "[٣]. ومن ذلك أيضا ما أورده سبط ابن الجوزي ، إذ قال : " وسمع قائلا يقول بيت شعر ، وهذا هو :

لقد ضاع شعري على بابكم ... كما ضاع در على صالحه

فقال : لو قلعت عينا هذا الشعر لأبصر "[٤].

ومن الصعب علينا أن نتقبل رواية الذهبي عن ضعف الفاضل في النحو، وذلك في قوله : " وكان قليل النحو ، ولكنه له دربة قوية[١]. إذ لا يمكن

---

[٢] وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان :١٥٨/٣ .

[١] ديوان ابن سناء الملك :٤٢٧/١ وصبح الأعشى في صناعة الإنشا:٢٥٠/٢ ٠

[٢] صبح الأعشى في صناعة الإنشا:٢٥٠/٢ .

[٣] ديوان ابن سناء الملك : ٤٢٩/١ نقلا عن فصوص الفصول ، وصبح الأعشى في صناعة الإنشا:٢٥١/٢ ٠وهناك أمثلة أخرى من نقده لشعر ابن سناء الملك في ديوانه :٩٣/١-٩٤ ٠-١١٤-١٢١-١٢٩-٢١٧-٣٥١-٣٧٨-٣٧٩ ، ٤٦٤/٢ -٤٧٧-٨٢٩-٨٠ ، حيث ينقل عن فصوص الفصول لابن سناء الملك .

[٤] مرآة الزمان في تاريخ الأعيان :٤٧٢/٨ ٠

أن يكون الفاضل في هذا المنصب الرفيع ، وهذه الثقافة الواسعة المتنوعة التي كان أساسها القرآن الكريم ، والحديث النبوي الشريف ، والشعر القديم ، خفيف البضاعة من النحو ، وهو الذي كان يناقش علماء اللغة في مسائل اللغة والنحو [٢]، قبل أن يلحقهم بالخدمة ويشركهم معه في ديوان الإنشاء وغيره ، ثم إن ما وصل إلينا من شعره ونثره ، يكشف لنا عن عالم متمكن من اللغة ،و عرف الفاضل بتشجيعه للعلم والعلماء وعنايته بهم. يقول الذهبي : " ولأصحاب العلم عنده نفاق ، يحسن إليهم "[٣] . ويقول المقريزي : " ولأصحاب الأدب عنده نفاق ، يحسن إليهم ، ولا يمن على أحد ، ويؤثر أرباب البيوت والغرباء "[٤]. وقد كان من أثر ذلك أن نشطت الحركة الفكرية والثقافية في دولة صلاح الدين حتى غدت مصر والشام قبلة العلماء والأدباء وأصحاب النباهة والفكر ، يقصدونها من كل حدب وصوب . يقول عبد اللطيف البغدادي ، وهو ممن عاشوا في ظل هذه الدولة : " ولما دخلت دمشق ، وجدت فيها من أعيان بغداد والبلاد ممن جمعهم الإحسان الصلاحي جمعا كثيرا " [٥] . ويقول العماد الأصفهاني منوها بدور الفاضل في ازدهار الحركة العلمية والفكرية في دولة صلاح الدين : " وعز العالم وذل الجاهل ، وأفاض الأفاضل في الشكر ، وراض الأماثل قرّح القرائح في النظم والنثر ، وعاد الرجاء مفتوح الرتاج ، ممنوح النتاج، حالي التاج بيواقيت الفوز، علي السراج في مواقيت العز، أرج الآفاق بذائع البدائع، رائج الأسواق بضائع البضائع ، بوجود المولى الفاضل ، وجوده المولى إلى الأفاضل"[١]ويقول : " منشر رفات العلم ، وناشر راياته " [٢]فهو الذي قرب العماد الأصفهاني [٣]، وابن سناء الملك[٤] ، والأسعد ابن مماتي[٥]، وعبد اللطيف البغدادي[٦] ، وغيرهم من المفكرين والعلماء .

يقول العماد الأصفهاني كذلك ، وهو يذكر حوادث سنة ست وسبعين وخمسمئة : " وفي هذه السنة بمصر ، عربت كتاب كيمياء السعادة ، تصنيف الإمام أبي حامد الغزالي في مجلدين ، وفزت من تعريبه وعلم ما فيه

---

[١] سير أعلام النبلاء :٣٤٣/٢١ ، والخطط (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) :٣٦٧/٢.

[٢] الإفادة والاعتبار في الأمور والمشاهدات والحوادث المعاينة بأرض مصر /٨-٩

[٣] سير أعلام النبلاء :٣٤٣/٢١ ٠

[٤] الخطط (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) :٣٦٧/٢ ، والدارس في تاريخ المدارس:٩١/١، وشذرات الذهب في أخبار من ذهب : ٣٢٥/٤.

[٥] الإفادة والاعتبار في الأمور والمشاهدات والحوادث المعاينة بأرض مصر :٧ ٠

[١] خريدة القصر وجريدة العصر (قسم شعراء مصر) :٤/١ ٠

[٢] المصدر نفسه : ٣٦/١ ٠

[٣] خريدة القصر وجريدة العصر (قسم شعراء مصر) : ٥/١

[٤] عيون الأنباء :٦٨٧ ، والسلوك لمعرفة دول الملوك :١٣٩/١

[٥] معجم الأدباء : ١١٣/٦ ٠

[٦] الإفادة والاعتبار في الأمور والمشاهدات والحوادث المعاينة بأرض مصر : -٠

بسعادتين، وذلك بأمر فاضلي لزمني امتثاله ، وشملني في إتمامه إقباله "[٧] ، ويقول في ترجمته لمحمد بن محمد بن هبة الله العلوي : " أهدى إليّ ديوان شعره بمصر القاضي الفاضل ، في جملة ما أسداه إليّ من الفواضل "[٨] . وقد عرف علماء العصر قدره ورعايته لهم ، فأخذوا يؤلفون الكتب باسمه ، ويهدونها إليه [٩] ، اعترافا بفضله عليهم ، وتشجيعه لهم . وقد يعرضون عليه مؤلفاتهم ليساعده في تسميتها ، فيساعدهم في ذلك. ومما يذكر في مضمار الثقافة أن القاضي الفاضل أنشأ مدرسة لتدريس المذهبين : الشافعي والمالكي ' والعلوم العربية الأخرى ، وتخيّر لها من الأساتذة المشاهير في عصره من أمثال الشاطبي ، والشيخ علي بن موسى الدهان ، وعبد الرحمن بن سلامة الاسكندراني ،

وغيرهم [١] ، وزودها بمكتبة حافلة بالكتب المختلفة المتنوعة، حتى كانت من أعظم مدارس مصر وأشهرها [٢] في ذلك العصر . يقول ابن خلكان في ذلك : " وبنى مدرسة بدرب ملوخية ، ورأيت بخطه أنه استفتح التدريس بها يوم السبت مستهل المحرم من سنة ثمانين وخمسمئة "[٣]، وكأنه أدرك أن مجاهدة الغزاة الصليبيين تحتاج إضافة إلى السلاح إلى عقيدة راسخة موحدة ، من شأنها أن تجمع العقول وتقضي على عوامل الفرقة والتمزق .

- معالم شخصيته:

نستطيع أن نتبين بعض معالم الفاضل الجسمية والنفسية من خلال ما أورده عنه معاصروه الذين اتصلوا به وخالطوه ، ومن خلال ما أورده عنه مؤرخوه الذين تحدثوا عنه . يقول عبد اللطيف البغدادي ، وهو ممن شاهدوا الفاضل واتّصلوا به في أثناء حديثه عن لقائه الأول بالقاضي الفاضل في القدس : " فدخلنا عليه ، فرأيت شيخا ضئيلا كله رأس وقلب "[٤]. ويقول الذهبي : " ضعيف البنية، رقيق الصورة "[٥] . وأما الأسنوي فيصفه بقوله:"

---

[٧] الروضتين :٢٠/٢ ، وبدائع البدائة :٤.
[٨] خريدة القصر وجريدة العصر (قسم شعراء مصر) :١٢١/١ ٠
[٩] فقد أهدى إليه جعفر بن شمس الخلافة كتابه المعروف بـ(الآداب النافعة) ، الآداب النافعة:٣، وأهدى إليه محمد بن هبة الله البرمكي أحد فقهاء عصره أرجوزة في الفرائض بعنوان : (روضة المرتاض ، ونزهة الفرّاض) ، انظر طبقات الشافعية - السبكي: ٢٣/٧ -٢٤
[١] الروضتين : ٢٤١/٢ ٠، والخطط (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) : ٣٦٦/٢ ٠
[٢] الخطط (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) :٣٦٦/٢ ٠
[٣] وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان :١٦٢/٣ ، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان :٤٧٣/٨ .
[٤] الإفادة والاعتبار في الأمور والمشاهدات والحوادث المعاينة بأرض مصر :٨-٩ ، وعيون الأنباء ك٦٨٧ ، والخطط (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) : ٣٦٧/٢ .
[٥] سير أعلام النبلاء :٣٤٣/٢١ ، والخطط (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) :٣٦٧/٢ ، والدارس في تاريخ المدارس :٩١/١ .

وكان دميم الخلقة ، أسمر ، وبه حدبة ظاهرة ، يغطيها بالطيلسان "[٦]. ويقول العماد الأصفهاني :

ناحل الجسم ذو خطاب به   يصغر للدهر كل خطب جسيم[٧]

ويؤكد لنا الفاضل نفسه ، أنه كان يعاني معاودة المرض لجسمه بين الفينة والفينة ، وكأني به يريد أن يعتذر عن عدم تمكنه من مصاحبة سلطانه بسبب مرضه ، وضعف جسمه إذ يقول : " كتبت ، وقد عاد النقرس إلى تقييدهما ، وجنبي طريح ، وما في صحيح إلا سقمي فإنه صحيح ، وإذ لقيت الذين آمنوا أئن ، وإذا خلوت إلى شيطان المرض أصيح "[١] . ويقول في رسالة أخرى : " وقد دب الفناء في عضوا عضوا، وأخذني الزمان جزوا جزوا ، وكل يوم يذهب منّي شيء بعد شيء، ويكثر شبهي بالميت ويبعد عن الحي " [٢]

ومما تقدم ، يمكن ملاحظة أن الفاضل كان أسمر اللون ، قصير القامة، نحيل الجسم ، ضئيل الجسد ، معتل الصحة ،له حدبة يحجبها عن أعين الناس ، أما من الناحية الخلقية والنفسية، فقد أثبت له مؤرخوه وشعراء عصره الكثير من الصفات الخلقية الحميدة . يقول معاصره العماد الأصفهاني :

" ... فهو مع ما يتولاه من أشغال المملكة الشاغلة ، ومهامه المستغرقة في العاجلة ، لا يغفل عن الآجلة، ولا يفتر عن المواظبة على نوافل صلاته ، وحفظ أوراده ووظائفه ، وبث أصفاده[٣]، وعوارفه ، ويختم كل يوم ختمة من القرآن المجيد ، ويضيف إليه ما شاء من المزيد "[٤]، ويقول ابن الساعي :

" ... وكان خيّرا كثير الصلاة والحج والمجاورة"[٥] ويؤكد السبكي ذلك في قوله : " . صاحب أوراد من صلاة وصيام وغيرهما"[٦]. وينوه المقريزي بحسن تدينه وتقواه ، فيقول : وكان له الدين والعفاف والتقى والمواظبة على أوراد الليل والصيام وقراءة القرآن"[٧] .

ومما سبق يمكن ملاحظة أن عزيمته القوية قد مكنته من التغلب على مرضه وضعف جسده ،وأما بذله في

---

[٦] طبقات الشافعية- السبكي :٢٨٤/٢

[٧] ديوان العماد الأصفهاني :٣٩٤

[١] المختار من إنشاء القاضي الفاضل (مخطوط) :٢٧ .وفيه إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إننا معكم إنما نحن مستهزئون ﴾ : البقرة:١٤

[٢] المصدر نفسه :٢٧

[٣] الأصفاد : جمع صفد ، وهو العطاء . لسان العرب : مادة : صفد .

[٤] خريدة القصر وجريدة العصر (قسم شعراء مصر) ٣٦/١

[٥] الجامع المختصر : ٢٩/٩ .

[٦] طبقات الشافعية – السبكي: ١٦٧/٧

[٧] الخطط (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) : ٣٦٧/٢ .

سبيل الله ، فقد كان عظيما ، فقد أنفق القاضي الفاضل الكثير من ثروته الواسعة التي جمعها من تجارته وإقطاعه[١]في وجوه البر وافتداء الأسرى المسلمين من أيدي الأعداء. يقول ابن الأثير : " وكان ديّنا كثير الصدقة والعبادة ، وله وقوف كثيرة على الصدقة وفك الأسارى "[٢]، ويقول سبط بن الجوزي مؤكدا ذلك:

" ووقف على الأسارى وقفا عميما، فاستنقذ به خلقا عظيما"[٣]

ويؤكد ابن العماد أنه كان يتخير من ماله ما يحب ليتصدق به على المحتاجين ، وأهل الفضل وذلك إذ يقول : " كان له بمصر ربع عظيم يؤجر بمبلغ كثير ، فلما عزم على الحج ركب ومر به ووقف فقال : اللهم إنك تعلم أن هذا الربع ليس شيء أحب إلي منه . اللهم فاشهد أني وقفته على فكاك الأسرى"[٤]فلقد كان مع هذه الثروة الضخمة ، زاهدا مع الغنى، وهذا كان أسمى عنده من الزهد مع الفقر ، كما يتضح في قوله :

وما كان فضل الزهد في العيش عن غنى يقاس بفضل الزهد في العيش عن فقر[٥]

ويقول الذهبي في زهده :

" وكان متقللا في مطعمه ومنكحه وملبسه لباسه البياض ، ويركب معه غلام وركابي ، ولا يمكن لأحد أن يصحبه "[٦]. ويقول المقريزي :" وكان قليل اللذات ، كثير الحسنات ، وكان متقللا في مطعمه ومنكحه وملبسه ، لباسه البياض ، ولا يبلغ جميع ما عليه دينارين ، ويركب معه غلام وركابي ، ولا يمكن أن يصحبه أحد ، ويكثر من زيارة القبور وتشييع الجنائز وعيادة المرضى"[٧].

وأما الفطنة والذكاء وسرعة البديهة ، فقد كانت سمات واضحة في شخصية القاضي الفاضل، وشهد بذلك معاصروه ومنهم صديقه العماد الأصفهاني الذي استهل ترجمته للقاضي الفاضل بقوله : " صاحب القران ، العديم الأقران ، وواحد الزمان ، العظيم الشان ، رب القلم والبيان ، واللسن واللسان ، والقريحة الوقادة ، والبصيرة النقادة ، والبديهة المعجزة " [١].

والأمثلة على ذكائه وسرعة بديهيته كثيرة ، منها ما أورده الذهبي إذ يقول : " كان القاضي الفاضل أحدب، فحدثني شيخنا أبو إسحق الموصلي أن القاضي

---

[١] سير أعلام النبلاء ٣٤٣/٢١ .

[٢] الكامل في التاريخ :٢٥١/٩

[٣] مرآة الزمان في تاريخ الأعيان : ق٢ج٨ /٤٧٣ .

[٤] شذرات الذهب في أخبار من ذهب : ٣٢٦/٤ .

[٥] ديوان القاضي الفاضل :٤٩٩/٢

[٦] سير أعلام النبلاء : ٢١ / ٣٤٣

[٧] الخطط (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) : ٣٦٧/٢ .

[١] خريدة القصر (قسم مصر) : ١ / ٣٥ .

الفاضل ذهب في الرسليّة إلى صاحب الموصل ، فأحضرت فواكه ، فقال بعض الكبار منكّتا : خياركم أحدب ، يورّي بذلك ، فقال الفاضل : خسّنا خير من خياركم "[٢] . ويقول معاصره عبد اللطيف البغدادي : " فدخلنا عليه ، فرأيت شيخا ضئيلا كله رأس وقلب ، وهو يكتب ويملي على اثنين ، ووجهه وشفتاه تلعب ألوان الحركات لقوة حرصه في إخراج الكلام ، وإنه يكتب بجملة أعضائه . وسألني القاضي الفاضل عن قوله سبحانه وتعالى : ﴿ حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ﴾ [٣]، أين جواب إذا ؟، وأين جواب لو في قوله تعالى : ﴿ ولو أن قرآنا سيرت به الجبال ﴾ ؟، وعن مسائل كثيرة ، ومع هذا فلا يقطع الكتابة والإملاء[٤]،ويشيد أبو الفتح البلطي بذكائه ، فيقول :

ذو المنطق الصائب في حومة الفصل
ذكاؤه الثاقب يجل عن مثل[٥]

ومن الصفات الأخرى التي أثبتها مؤرخوه له : الحلم والعفو . يقول البغدادي : " ولم يكن له انتقام من أعدائه إلا بإحسان أو الإعراض عنهم"[٦]، ويضيف ابن كثير إلى هذه الصفة صفة أخرى فيقول : " كان رحيم القلب ، حسن السيرة ، طاهر القلب والسريرة "[١] ، ومع ذلك كله فإنه لم يكن يتسامح مع من يعبث بأمن الدولة ، وإن كان أقرب المقربين إليه، ومن ذلك موقفه الحازم من صديقه الحميم عمارة اليمني [٢] الذي تآمر على الدولة ، ويقول العماد في القاضي الفاضل : " وهو ضابط الملك بآرائه ، ورابط السلك بآرائه " [٣].

وأما الوفاء والإخلاص في العمل ، فقد كانتا صفتين ملازمتين له حيثما كان موقعه سواء أكان هذا الموقع في ظل الدولة الفاطمية الشيعية أم في كنف

---

[٢] سير أعلام النبلاء :١٧٣/٢١ .
[٣] الزمر :٧٣
[٤] الإفادة والاعتبار في الأمور والمشاهدات والحوادث المعاينة بأرض مصر :٨-٩ .
[٥] معجم الأدباء : ١٢٧/٧
[٦] سير أعلام النبلاء :٣٤٣/٢١ .
[١] البداية والنهاية : ٢٤/١٣ .
[٢] أبو محمد عمارة بن علي بن زيدان بن أحمد الحكمي اليمني (٥٦٩ هـ) فقيه شاعر أديب ، وكان متعلقا بدولة الفواطم الشيعية لما لها من أيد عليه عندما دخل مصر ، فنصحه صديقه القاضي الفاضل أن يكف عن ذلك ، غير أنه تورط مع سبعة من المتآمرين على الدولة السنية في مصر ، وراسلوا الفرنج في محاولة منهم لإعادة الدولة الفاطمية الشيعية وإقامة ابن العاضد على عرشها ، ولما فضح أمره كتب إلى القاضي الفاضل مستعطفا إلا أنه لم يصغ إليه مع صداقته الحميمة لتآمره على المسلمين ، ووافق سلطانه على شنقه ، فشنق سنة ٥٦٩ هـ . وهوصاحب كتاب (النكت العصرية في أخبار الوزراة المصرية) . انظر ترجمته في : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان :٤٣١/٣-٤٣٦
[٣] خريدة القصر وجريدة العصر (قسم شعراء مصر) : ٣٦/١ .

الدولة الأيوبية السنية؛ ولذا فقد استطاع الفاضل أن يحافظ على منصبه في دولة الفواطم رغم شيوع الفتن والدسائس فيها؛ غير أن إخلاصه للدولة الأيوبية كان منقطع النظير . وقد صدق العماد حين قال فيه : " الصادق الشيم ، السابق بالكرم، ذو الوفاء والمروة ، والصفاء والفتوة ، والتقى والصلاح، والندى والسماح "[٤]، ولم أجد أحدا من الذين عاصروه وعرفوه من المؤرخين والشعراء يذمه في أخلاقه . وحين هجاه ابن عنين الشاعر الهجاء ، اقتصر على عيب جسدي فيه[٥]

- القاضي الفاضل في عهد صلاح الدين:

فوض صلاح الدين الوزارة وديوان الجيش للقاضي الفاضل فور استلامه وزارة العاضد، وقربه منه فاتخذه كاتبه ووزيره ومستشاره في الحل و الترحال، و منحه ثقته حتى أصبح من خاصته المحببة إلى نفسه ، لا يقدم على فعل شيء إلا بمشورته ورأيه . قال سبط بن الجوزي: " وكان القاضي الفاضل حاكما على الجميع وهو المشار إليه بالسيف والقلم ، لا يصدر السلطان إلا عن رأيه ، ولا يمضي في الأمور إلا بمضاته "[١] . ويقول المنذري : " وتقلب في الأمور الديوانية بالدولة المصرية ، ثم وزر للسلطان الملك الناصر صلاح الدين ، وكان الغالب على أموره ، وتقدّم عنده كثيرا وركن إليه ركونا تاما " [٢]. ويقول ابن فضل الله العمري : " كان الفاضل هو الدولة الصلاحية . كان كاتبها ووزيرها، وصاحبها ومشيرها ، والحامل لكلها ، والحاكم في كلها، والمجهز لبعوثها ، والمبرز عند إقعاء ليوثها "[٣] . ويقول السبكي : " وكان صديق صلاح الدين وعضده ووزيره ، وصاحب ديوان إنشائه ،و مشيره، وخليطه، وسميره " [٤]. وأما ابن كثير فيقول : " وكان أعز عليه من أهله وولده"[٥]

ومما تقدم ندرك أن الفاضل قد نال مكانة مرموقة لدى سلطانه ، ولا ريب في أنه كان لهذه الثقة أسباب كثيرة منها : أن القاضي الفاضل كان عونا للسلطان فيما قام به من إصلاحات سياسية ومالية وحربية ، وفي جهاده الصليبيين . وفي ذلك يقول العماد الأصفهاني : " سلطانه مطاع والسلطان له مطيع، والسلطان – رحمه الله – من مفتتحات فتوحه ومختتماتها ، ومبادىء

---

[٤] المصدر نفسه : ٣٦/١ .
[٥] ديوان ابن عنين :١٨٢ ، ١٨٤ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ٢١٠ ، ٢١٩
[١] مرآة الزمان في تاريخ الأعيان : ٤٣٤/٨ .
[٢] التكملة لوفيات النقلة : ٢١٠/٢ .
[٣] مسالك الأبصار في ممالك الأمصار :٢٨٧/٧ .
[٤] طبقات الشافعية- السبكي : ١٦٧/٧ .
[٥] البداية والنهاية : ٢٤/١٣ .

أمور دولته وغاياتها ما افتتح الأقاليم إلا بأقاليد آرابه وآرائه " [٦] ومنها أن الفاضل كان يتحمل عن السلطان أعباء الدولة وتدبير أمورها في حالة انشغاله بالجهاد ضد الصليبيين في بلاد الشام ، إذ كان ينوب عنه مع أحد أفراد أسرته، من مثل: أخيه العادل ، وابن أخيه تقي الدين ، وابنه العزيز . يقول العمري : " وكان إذا تأخر السلطان في بلد ناب عنه فيه ، أو كان ردءا لمن ينوب من إخوة السلطان وبنيه ، ويكون هو القائم بالملك ، القائل بالحياة والهلك " [١] ، ومنها أيضا ، أن الفاضل كان مخلصا لسلطانه في نصحه ومشورته،فكان يخفف عنه حزنه ويبث فيه روح الثقة والصبر والجلد، ففي سنة أربع وثمانين وخمسمئة،كان السلطان على حصار صفد ،فظهرت طائفة من أنصار الفاطميين بمصر تدعو لها،فأزعج ذلك السلطان وأهمّه ، فقال له الفاضل:"... يجب عليك أن تشكر الله على هذه النعمة ،فقد عرفت بهذا الأمر طاعة رعيتك،أليس لم يلب دعوتهم أحد وأنه لم يكن لهم من يمدهم ؟ فطب نفسا ،وزد بمنزلتك عند الله تعالى أنسا ٠فقال السلطان : كان الملوك قبلي تخافهم وتهرب منهم الرعية...فقال له : أنت أولى بشكر الله على هذه العارفة،... فاغرورقت بالدموع عيناه وبالسماح يداه،وأقسم أنه ما عاش لا يرد قاصدا ولا يصد وافدا "[٢]،و كان صلاح الدين متعلقا به ٠قال العماد:".ووصل القاضي الفاضل من مصر إلى المعسكر المنصور في ذي الحجة،وكان السلطان متشوقا لقدومه،وطالت مدة البين لغيبته عنه سنتين .على أن أمور الممالك بمصر كانت بحضوره مستتبة ،وقد جمع الملك العزيز بمقامه هيبة ومحبة، وكان السلطان شديد الوثوق بمكانه ،دائم الاعتماد والاستناد على إحسانه وإلى أركانه ،فإن استقدمه خاف على ما وراءه من المهام ،وإن تركه نال وحشة التفرد بالقضايا والأحكام .وكان يكاتبه بشرح الأحوال يستشيره ... فوصل إلى القدس،و اعتاق بتوالي الأمطار ثم وصل في ذي الحجة،ورجع الفضل،واجتمع الشمل ،واستأنس الملك بصاحب تدبيره وتأسيس ركنه برأي مشيره "[٣]،و قد كان السلطان شديد الحرص على الفاضل؛ إذ كان يحرص عليه حرصه على نفسه وأهله،وربما بأكثر من ذلك ،و هذا واضح في موافقته التي بعث بها إلى القاضي الفاضل حينما استأذنه في أداء فريضة الحج سنة سبعين وخمسمئة وفي ذلك يقول:" وصلني كتاب القاضي الفاضل ،وهو يذكر أنه مصمم على الحج-الله يجعله مبارك ميمون -، ولكن لا أفسح له فيه إلا بعد ثنتين : واحدة أنه لا يركب بحرا ، يسير مع العسكر إلى أيلة ، ومنها يتوجه ، ويقيم العسكر على أيلة ليلة وعلى إرم ليلة ودون إرم ليلة ، وقاطع إرم ليلة ، فيكون هو قد بعد

---

(٦) الروضتين : ٢٤١/٢ .
(١) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار :
(٢) الروضتين : ١٣٧/٢-١٣٨ .
(٣) الفيح الفسي في الفتح القدسي: ٤٦١ –٤٦٢ .

وما يبقى عليه خوف إن شاء الله – تعالى - ، وثانية : تأخذ يده وتحلفه برأسي أن لا يجاور..."[١] .

ومما يؤكد لنا حب السلطان العميق للفاضل وإصغاءه لنصحه ومشورته أنه عطل حجته بناء على رأي الفاضل؛ لأن الفرنجة كانوا ما يزالون في ديار الإسلام ، فوافقه السلطان ، ولم يحج .

وكان السلطان يتفاءل به ، ويرى البركة في وجهه . قال صلاح الدين مخاطبا الفاضل حينما قدّم إليه العماد الأصفهاني : " ... مالي عنك مندوحة ، أنت كاتبي ووزيري ، وقد رأيت على وجهك البركة "[٢]؛ ولذا كان يحرص على أن يصطحبه معه في بعض معاركه التي خاضها في بلاد الشام مع الصليبيين . وإن تأخر عنه لعذر أو مرض ، كان يزوره ويودعه ، حتى يستأنس برأيه ويكون آخر من يراه قبل خروجه للجهاد . قال أبو شامة : " ثم همّ بالغزاة، فبدأ بزيارة القاضي الفاضل ، وكان مقيما بجوسق ابن الفرّاش بالشرف الأعلى في بستانه، فاستضاء برأيه فيما يريد فعله ، وكان لا يأتي أمرا إلا من بابه ، فأقام عنده إلى الظهر ، ثم ودعه ورحل " [٣] .

ومن هذا كله يتضح لنا أن نفس الفاضل قد هدأت واطمأنت في كنف صلاح الدين الذي منحه ثقته كاملة ، ورفعه إلى أعلى المناصب في دولته ، إذ كان مستشاره في السلم والحرب ، ولسانه المعبر عنه إلى الملوك والأمراء داخل الدولة وخارجها ، فوجد الفاضل في كنفه نفسه ، وحقق على يديه ما كان يصبو إليه من المناصب وما كان يطمح فيه من جمع الشمل الإسلامي وتحرير المقدسات الإسلامية من الصليبيين.

ولقد أخلص لصلاح الدين ودولته أيما إخلاص، وخدمهما بكل ما لديه من مواهب: بقلمه، وفكره، ونصحه، ونفسه وكان لذلك أثر فيما حققه من انتصارات على الصليبيين و يتمثل ذلك جليا في قول صلاح الدين فيه بعد معركة حطين:" لا تظنوا أني ملكت البلاد بسيوفكم، بل بقلم الفاضل " [١].

فمهما كانت المبالغة شديدة في هذا القول فإنه يدلنا -على حد قول الدكتور محمد كامل حسين- على مقدار ما كان يكنه صلاح الدين من اعتزاز برأي القاضي الفاضل وفنه حتى أصبح الفاضل هذا المدبر الأول للبلاد وحاكمها الفعلي[٢] .

ويخالف موقف صلاح الدين من القاضي الفاضل موقف السلطان من الكتّاب في أغلب الأحيان ؛ لأن الدولة في بدايتها غالبا ما تكون في حاجة

---

[١] الروضتين :٧/٢ .
[٢] النجوم الزاهرة :٦ /٧٤ .
[٣] الروضتين :١٢٥/٢ .
[١] مرآة الزمان في تاريخ الأعيان : ٨ /٤٧٢ ، والنجوم الزاهرة :١٥٧/٦/٧٦ .
[٢] دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين :١٠ .

إلى أرباب السيوف أكثر من حاجتها إلى أرباب الأقلام، وقد فصل ابن خلدون هذه القضية في قوله : " اعلم أن السيف والقلم كلاهما آلة لصاحب الدولة يستعين بهما على أمره؛ إلا أن الحاجة في أول الدولة إلى السيف مادام أهلها في تمهيد أمرهم أشد من الحاجة إلى القلم؛ لأن القلم في تلك الحال خادم فقط منفذ للحكم السلطاني، والسيف شريك المعونة "[٣].

ويبدو أن صلاح الدين أعطى قلم القاضي الفاضل هذه الأهمية الكبيرة ، لأنه رأى فيه من القدرة على القيام بما يعجز عنه السيف في بعض الأحيان وسوف نرى مصداق ذلك عند دراسة رسائل القاضي الفاضل التي كان يبعث بها من مصر إلى السلطان صلاح الدين في الشام ، وهو في مواقف لايحسد عليها في حربه مع الصليبيين ، كما أن صلاح الدين اعتمد على القاضي الفاضل اعتمادا كبيرا في تسيير أمور البلاد؛ لأنه كان يعده وزيرا تنفيذيا وتفويضيا في آن واحد[١]

ويلقى السلطان وجه ربه بدمشق وبجواره صديقه ووزيره الذي كفنه [٢]، وأشار بأن يدفن معه سيفه الذي حارب به [٣]، وتمنى أن يفديه بنفسه[٤]

- الفاضل في عهد خلفاء صلاح الدين:

أراد القاضي الفاضل البقاء مع الملك الأفضل في دمشق ليكمل معه رسالته التي بدأها مع أبيه ، إلا أن الأفضل أعرض عنه ولم يلتفت إليه ، واستوزر ضياء الدين ابن الأثير ، الذي حسّن له إبعاد رجال أبيه ، فتركه الفاضل وشخص إلى مصر حيث الملك العزيز عثمان الذي أحسن وفادته ، وبالغ في احترامه وتقديره . قال ابن واصل : " ولمّا رأى القاضي الفاضل من الملك الأفضل و وزيره ضياء الدين ابن الأثير، ما لا يعجبه ، عزم على مفارقة الملك الأفضل والتوجه إلى الديار المصرية، واستأذن الملك الأفضل في ذلك، فأذن له . ولما وصل القاضي الفاضل إلى الديار المصرية، خرج الملك العزيز عماد الدين إلى استقباله، وأعظمه غاية الإعظام، وأحله محل الوالد، وصار لا يصدر أمرا إلا عن رأيه ومشورته "[٥]

ولازم الفاضل العزيز، وظل مؤثرا له محبا حتى دب النزاع بينه وبين أخيه الأفضل صاحب دمشق ، فحاول الفاضل أن يصلح بينهما، ولكن سرعان ما ساءت الأحوال واختلت الأمور، فآثر الفاضل اعتزال السياسة ولزم بيته؛

---

[٣] مقدمة ابن خلدون : ١٩٢ .

[١] تنقسم الوزارة في العالم الإسلامي ومنه مصر إلى وزارة تنفيذ، وفيها يقوم الوزير بتنفيذ أوامر الخليفة، ووزارة تفويض وفيها يكون الخليفة مغلوبا على أمره والأمور كلها بيد الوزير . انظر : دراسات في التاريخ الإسلامي ، للدكتور جمال الدين الشيال :٤٨ .

[٢] سيرة صلاح الدين:٢٤٧.

[٣] الروضتين :٢١٥/٢ .

[٤] سيرة صلاح الدين: ٢٤٦

[٥] مفرج الكروب في أخبار بني أيوب : ٥٢/٣

لأن ما فعله خلفاء صلاح الدين يتعارض مع مبادئه وتطلعاته التي عاش حياته من أجلها . فقد تفرقت الكلمة، واختلفت الأهواء، واختلت الأمور . قال المقريزي : " وكان القاضي الفاضل قد تنزه عن ملابسة الدولة ومخالطة أهلها، واعتزل لما رأى من اختلال الأمور " [١] .

على أن الفاضل بقي محتفظا بمكانته ومنزلته في ظل خلفاء صلاح الدين ولاسيما عند الملك العزيز، إذ كان يستشيره ويستنير برأيه كلما احتاج إلى ذلك. يقول ابن كثير: "... وبعد وفاة صلاح الدين، استمر على ما كان عليه عند ولده الملك العزيز في المكانة والرفعة ونفاذ الأمر " [٢] .

وقد بقيت صلته بالعزيز قوية متينة حتى توفي فبكاه الفاضل بكاء حارا، إذ قال معزيا عمه العادل : " والمملوك في حال تسطيره هذه الخدمة ، جامع بين مرضي قلب وجسد ، ووجع أطراف وغليل كبد ، فقد فجع المملوك بهذا المولى، والعهد بوالده غير بعيد ، والأسى في كل يوم جديد ، وما كان يندمل ذلك القرح ، حتى أعقبه هذا الجرح "[٣].

ومع أن القاضي الفاضل اعتزل السياسة، إلا أن كبار رجال الدولة الأيوبية في مصر كانوا يلجؤون إلى رأيه ومشورته كلما استجد أمر في الدولة، فهو الذي أشار عليهم بالأفضل ليكون وصيا على ابن أخيه العزيز بعد وفاته [٤] .

و مما سبق، يتضح لنا أن الفاضل في ظل خلفاء صلاح الدين كان معززا مبجلا، صاحب رأي ومشورة، وبقي كذلك حتى لقي ربه، قال أبو شامة: " وكانت الدولة بأسرها تأتي إلى خدمته إلى أن توفي " [٥]

- وفاتـــــــــــه:

اتفق معظم الذين تحدثوا عن وفاة القاضي الفاضل من المؤرخين على أنها كانت في شهر ربيع الآخر من سنة ست وتسعين وخمسمئة بالقاهرة [١]، ولكنهم اختلفوا اختلافا جزئيا في اليوم الذي توفي فيه ، فمنهم من يرى أنه توفي في يوم الثلاثاء الموافق السادس من ربيع الآخر ، وفي مقدمة هؤلاء

---

[١] السلوك لمعرفة دول الملوك : ١٢٧/١ .

[٢] وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان :١٦٢/٣ .

[٣] المصدر نفسه :٢٥٣/٣ .

[٤] مفرج الكروب في أخبار بني أيوب:٣ /٨٩

[٥] الروضتين : ٢٤٤/٢ .

[١] الكامل في التاريخ : ٢٥١/٩ .

العماد الأصفهاني الذي يقول : " وفي هذه السنة ، تمت الرزية الكبرى والبلية العظمى ، وفجيعة أهل الفضل بالدين والدنيا ، وذلك بانتقال القاضي الفاضل من دار الفناء إلى دار البقاء في داره بالقاهرة ، سادس ربيع الآخر يوم الثلاثاء "[٢]، ومنهم من يرى أنه توفي في يوم الأربعاء السابع من ربيع الآخر وعلى رأس هؤلاء المنذري : " وذلك في ليلة الأربعاء سابع شهر ربيع الآخر سنة ست وتسعين وخمسمئة بالقاهرة فجأة ، وزرت قبره مرارا ، وقرأت تاريخ وفاته على الرخام المحوط حول القبر كما هو هاهنا "[٣] . وفي هذا ما يدل دلالة واضحة على أنه توفي – رحمه الله – في يوم الأربعاء السابع من ربيع الآخر وعلى هذا أجمع معظم مؤرخيه .

في حين نجد أن ابن واصل يذهب إلى أنه توفي بعد ذلك بعشرة أيام،إذ يقول:"... وتوفي القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني في سابع عشر ربيع الآخر"[٤]. وهذا مخالف لجمهرة المؤرخين الذين أجمعوا على أنه السابع من ربيع الآخر ،ولم يتجاوزوا هذا التاريخ ،ويبدو لي أن تصحيفا قد وقع في رواية واصل بين لفظة (شهر)ولفظة (عشر)؛ لأن أحدا ممن سبقوه من المؤرخين لم يذكر أنه توفي في غير السادس أو السابع من ربيع الآخر كما رأينا مما يجعلنا نطمئن إلى رواية ابن خلكان التي أجمع عليها معظم المؤرخين ،و بهذا يكون القاضي الفاضل -رحمه الله -قد عاش سبعة وستين عاما ذاد خلالها عن عقيدته ووطنه بقلمه وفكره ولسانه. ومما يذكر هنا،أن القاضي الفاضل الذي عاش عزيزا مكرما في ظل صلاح الدين وخلفائه ،أحسّ أنه سينتقص من قدره ومكانته على يد ابن شكر[١]وزير العادل ؛ إذ كانت بينهما وحشة ،فتمنى الفاضل أن يموت قبل أن ينال أحد من كرامته. قال سبط ابن الجوزي:"لما تيقن الفاضل استيلاء العادل على القاهرة ،دعا على نفسه بالموت خوفا من ابن شكر وزير العادل،فإنه كانت بينه وبينه وحشة ،فخاف أن يستدعيه ويهينه ،فقام تلك الليلة يبكي،ويصلي فأصبح ميتا "[٢]، ويقول أبو شامة:"وحكي عن الملك المحسن بن صلاح الدين أنه قال: اتفق يوم وفاة الفاضل يوم دخول العادل القاهرة دخل من باب النصر ،وخرجنا بجنازته من باب زويلة"[٣].

---

[٢] الروضتين :٢٤١/٢ .

[٣] التكملة لوفيات النقلة :٢٠٩/٢ –٢١٠ .

[٤] مفرج الكروب في أخبار بني أيوب: ١٠٩/٣ .

[١] محد صفي الدين عبد الله بن علي بن عبد الخالق بن شكر (٦٢١هـ) ، كان وزيرا مهيبا عالما فاضلا ،مات بالقاهرة ، وله بها مدرسة ، وكان مؤثرا لأهل العلم والصالحين . كان يقول : ما في قلبي حسرة إلا ابن البيساني ، وما تمرّغ على عتباتي – يعني القاضي الفاضل " ، انظر : ذيل الروضتين :١٤٧ .

[٢] مرآة الزمان في تاريخ الأعيان : ٤٧٢/٨-٤٧٣ ، وسير أعلام النبلاء : ٣٤١/٢١ .

[٣] الروضتين :٢٤٤/٢

الباب الثالث

مذهب القاضي الفاضل الفني في الكتابة وأثره في معاصريه

الفصل الأول – آثار القاضي الفاضل الفنية:

يمكن تقسيم آثار القاضي الفاضل إلى قسمين:

- النثر غير الفني :

عرف هذا القسم من كتابات القاضي الفاضل بأسماء عدة منها : (تاريخ القاضي الفاضل)[١] ، أو (المتجددات)[٢] ، أو (المياومات) [٣]، ومن خلال هذه الأسماء وما يرد في هذا القسم من معان يمكن الوقوف على نوعية الموضوعات التي يتناولها القاضي الفاضل في كتاباته هذه ؛ فالأسماء الثلاثة تفصح عن أنها أطلقت على نوع من الكتابة أقرب إلى التاريخ منه إلى أي ضرب آخر من ضروب المعرفة الإنشائية . وحتى يتضح مضمون الموضوعات التي يتناولها القاضي الفاضل في متجدداته أو مياوماته أو تاريخه ، والأسلوب الذي صاغ به هذه الموضوعات سأعرض نصوصا من هذا القسم :

١- قال القاضي الفاضل في متجددات سنة سبع وستين وخمسمئة : " وفي ثالث عشريه كشف حاصل الخزائن الخاصة بالقصر ، فقيل إن الموجود فيه مائة صندوق كسوة فاخرة من موشح ومرصع ، وعقود ثمينة ، وذخائر فخمة ، وجواهر نفيسة ، وغير ذلك من ذخائر جمّة الخطر . وكان الكاشف بهاء الدين قراقوش ، وأخليت أمكنة من القصر الغربي سكن بها الأمير موسك والأمير أبو الهيجاء السمني ، وغيره من الغز[٤] "[٥] .

٢- وقال في متجددات سنة سبع وسبعين وخمسمئة : " في تاسع ذي القعدة أمر السلطان بفتح مارستان للمرضى الضعفاء ، فاختير له مكان بالقصر، وأفرد رسمه مشاهرة[٦] مبلغها مائتا دينار ، وغلات جهاتها الفيوم،واستخدم له أطباء و طبائعيين ، وجراحين ومشارفا ، وعاملا وخداما ، ووجد الناس به رفقا ، وإليه مستروحا ، وبه نفعا ؛ وكذلك بمصر أمر بفتح مارستانها القديم ، وأفرد برسمه من ديوان الأحباس[١] ما تقدير ارتفاعه

---

[١] وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان :٢٥٨/١.

[٢] الخطط(المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) :١٣٩/١-١٤٠.

[٣] مفرج الكروب في أخبار بني أيوب :٩ /٥.

[٤] جنس من الترك : مادة غزز : لسان العرب

[٥] الخطط (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) :٢٦١/٢.

[٦] من الشهر ، وهي المعاملة شهرا بشهر .

[١] ديوان الأوقاف

عشرون دينارا ، واستخدم له طبيب وعامل ومشارف ، وارتفق بـه الضعفاء ، وكثر بسبب ذلك الدعاء"[٢].

٣- وقال في متجددات سنة ثمان وثمانين وخمسمئة : " والذي انعقد عليه ارتفـاع الـديوان الـسلطاني ثـلاث مائـة ألـف وأربعـة وخمـسون ألفـا وأربعـة وأربعون دينارا والذي يميز زائد الارتفاع لسنة سبع وثمانين وخمسمئة على الارتفاع سنة ست وثمانين اثنان وعشرون ألفا وأربعمئة وخمسة وأربعون دينـارا، والـذي انـساق مـن البـواقي للـسنة أحـد وثلاثـون ألفـا وسـتمئة واثنـان وعشرون دينارا ، والذي اشتمل عليه متحصل ديوان الخاص الملكي الناصري بالديار المصرية لسنة سبع وثمانين وخمسمئة ثلثمئة ألف وأربعمئة وخمسون ألفا وأربع مائة وأربعة وخمسون دينارا ونصف وثلث وثمن "[٣].

٤- وقال في متجددات سنة سبع وستين وخمسمئة : " ثالث عشر ربيع الآخر ، فرقت الزكوات بعدما جمعت على الفقراء والمساكين وأبناء السبيل والغارمين بعد أن رفع إلى بيت المال السهام الأربعة، وهي سهام العاملين والمؤلفة وفي سبيل الله، وفي الرقاب وقررت لهم فريضة، و استوى على الأموال والبضائع وعلى ما يتقرر عليه من المواشي والنخل والخضروات "[٤]

ففي النص الأول من هذه النصوص يلاحظ أن الموضوع يتعلق بالكشف عن حاصل الخزائن من حيث نوعية الأشياء الموجودة بها وكمياتها ، والشخص القائم بهذا وما صاحبها من إجراءات ، وقد تناول القاضي الفاضل هذا النوع بأسلوب مطابق لأساليب الكتابة العلمية التي لا مجال فيها لإعمال الخيال ، بل المجال الوحيد فيها هو تسجيل الأحداث كما هي مقيّدةً بتواريخها التي كان القاضي الفاضل يفتتح بها الكلام عن كل حدث يسجله .

ويدور الحديث في النص الثاني حول قيام صلاح الدين الأيوبي بفتح أحد المستشفيات أو المصحات، وما له صلة بهذا الشأن، وقد تناوله القاضي الفاضل بأسلوب موضوعي لا أثر فيه للذاتية.

وفي النص الثالث يتعلق الأمر بميزانية الديوان السلطاني في السنة نفسها ، وموزانة هذه الميزانية بميزانيتي السنتين السابقتين لها . أما الأسلوب الذي تناول به الفاضل الحديث في هذا الموضوع فهو داخل تماما في الأساليب العلمية التي تقوم على ذكر الحقائق كما هي من خلال الأرقام الواردة بهذا النص؛ مما يجعل الموضوع إلى الاقتصاد أقرب منه إلى الأدب .

وتحدث القاضي الفاضل في النص الرابع عما تم في هذا اليوم من تفريق الزكاة على مستحقيها ، ومما يلاحظ على كلامه في هذا الغرض أنه لم

---

[٢] الخطط(المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) : ٢/٢٥٠-٥-٢٥١.
[٣] المصدر نفسه : ١/١٥٦.
[٤] المصدر نفسه : ١/١٩٢.

يلجأ إلى تعبير مجازي أو صور بيانية أو أي شكل من الأشكال البلاغية ؛ إذ إننا نراه يكتفي بتسجيل ما حدث بالضبط .

ويلاحظ على بعض هذه الموضوعات أنها تصلح أن تكون غرضا لعمل أدبي مثل: إقامة المصحات ؛ ولكن القاضي الفاضل تناول هذا الموضوع كما تناول غيره في هذا القسم من كتاباته تناولا لا يمكن وصفه إلا بأنه تسجيل للأحداث اليومية التي كانت تتم في مصر أيام صلاح الدين ، وابنه العزيز عندما كان هو على رأس المسؤولين عن تسيير أمور البلاد .

وعلى هذا فإن كتابات القاضي الفاضل المندرجة تحت هذا القسم تعد مادة لمن أراد التأريخ لبداية العصر الأيوبي في مصر ؛ لأنها تشتمل على حقائق كثيرة تتعلق بهذه الفترة كما إن الكاتب عبر عنها بأسلوب موضوعي لا ذاتي ؛ وذلك لأن هذه المتجددات أو المياومات أو تأريخ القاضي الفاضل أشبه ما تكون بالمذكرات اليومية ، وإن كانت في موضوعها ذات صبغة عامة بخلاف المذكرات .

وقد اكتفيت بهذه النصوص التي توضح الخصائص العامة لهذا القسم دون استقصاء لها لعدم دخولها في مجال بحثي ، إنما تطرقت إليها من باب استيفاء الموضوع ؛ لأنها تمثل شطرا من كتابات القاضي الفاضل.

- النثر الفني (الرسائل):

خلف القاضي الفاضل من هذا النثر كمّا كبيرا احتفظت به يد الزمن إما ملموما في شكل مجموعات مختارة مستقلة، وإما متناثرا في بطون أمهات الكتب الأدبية والتاريخية. و يمكننا استيضاح أمرين من خلال الوقوف على أهم مصادر كتابات القاضي الفاضل الفنية.

الأول - اتجاهات هذه الكتابات أو الموضوعات التي تناولتها ، وذلك بالوقوف على مضامين الرسائل الموجودة في مصادر كتابات القاضي الفاضل الفنية .

الثاني - بيان اختلاف المنازع لمؤلفي أهم المصادر التي احتوت على هذه الكتابات؛ وذلك بإجراء مقارنة بين رسائله في مصادرها المختلفة ، وبيان المكرر من الرسائل وتعليل سبب ذلك التكرار .

وسيبدأ البحث بالمجموعات أو المختارات التي جاءت في شكل مستقل عن أية كتابات غيرها ، ويثني بذكر أهم المصادر التي تناثر بين دفتيها هذا النثر مع غيره من كتابات لكتّاب آخرين غير القاضي الفاضل ، وسأرجىء تحليل هذا القسم من كتابات القاضي الفاضل إلى مكانه من البحث .

-المختارات من النثر الفني للقاضي الفاضل:

عرف من نثر القاضي الفاضل ثلاث مجموعات منها اثنتان لا تزالان مخطوطتين، ولم تحققا، والثالثة قد حققت ونشرت أما المجموعتان اللتان لم تحققا ولم تنشرا بعد فهما:

١- الفاضل من كلام الفاضل(١) :

تقع هذه المخطوطة في ثمان ومائة لوحة من اختيار (جمال الدين ابن نباتة)، وقد بدأت بمقدمة لصاحب الاختيار جاء فيها بعد البسملة قوله : " أما بعد الحمد لله منشيء الخلق بصنعه والصلوة[١] على سيدنا محمد وآله وصحبه ، حزب الحق وجمعه ، فهذه فقر جليلة النماء والانتماء ، وكلمات طيبات أصلها ثابت وفرعها في السماء ، اخترتها من مبتكر كلام سيدنا القاضي الفاضل – رحمه الله – اختيارا ينأى عني بوصفه ، وينأى عن الدر بعطفه "[٢].

وتشتمل هذه المخطوطة على أجزاء كثيرة من رسائل القاضي الفاضل بلغت عشرين وخمسمئة من رسائل مختلفة في أغراض متنوعة أكثرها في الوصف ، ويلاحظ على هذه المخطوطة أن المختار فيها يصل إلى ما يتجاوز الورقة طولا ، وذلك مثل ما جاء في وصف إحدى معارك صلاح الدين مع الفرنج[٣]، وما جاء في وصف ورقة زرقاء مكتوبة بالذهب[٤] ، وأحيانا لا يزيد المختار على السطرين وذلك كما جاء في وصف صحراء ، وما جاء في تقريظ إحدى القصائد[٥]، وأحيانا لا يتجاوز المختار في المرة الواحدة السطر قصرا مما لا يمكن من خلاله الوقوف على الموضوع الذي تناولته الرسالة[٦] ، ومما يسترعي الانتباه في قصر المختارات بهذه المخطوطة ما جاء في الورقة الخامسة والسبعين منها ؛ حيث إن كل المختارات الواردة بها لم يتجاوز طول الواحد منها السطرين ونصف السطر ، ولكن الغالب على مختارات ابن نباتة في هذه المخطوطة يتراوح طوله بين أربعة أسطر وعشرة .

ويمكن القول بأن المنزع الأدبي لابن نباتة كان له الأثر الواضح في هذه المجموعة من كتابات القاضي الفاضل ، ويظهر ذلك من فحوى كلمته التي استهل بها مصنفه هذا حيث يظهر إعجابه الشديد بهذه الفقر واضحا يعكسه ما أضفاه عليها من تقريظ ، ويؤكد هذا الدافع الأدبي لابن نباتة في مختاراته هذه تركيزه على الفقر التي لا فحوى لها سوى الوصف ، والوصف من أكثر الموضوعات التي تتجلى فيها خصائص القاضي الفاضل الأسلوبية كما سيتضح .

---

(١) مخطوطة مصورة بدار الكتب المصرية عن نسخة المتحف البريطاني بلندن . أدب رقم :٢٨٨٢.

(١) هكذا في المخطوط .

(٢) الفاضل من كلام الفاضل : ورقة ١ اختيار جمال الدين بن نباتة (مصور بدار الكتب رقم: ٣٨٨٢).

(٣) الفاضل من كلام الفاضل: الورقتان: ٢٩-٣٠.

(٤) المصدر نفسه : ٧٣-٧٤.

(٥) المصدر نفسه :الورقة : ٤

(٦) المصدر نفسه :الورقة :٦.

٢- الفاضل من إنشاء الفاضل(١):

تقع هذه المخطوطة في ثلاث وستين مائة صفحة بالنسبة لمخطوطة دار الكتب، أما مخطوطة الأزهر فتقع في خمس وستين ورقة ، وهي من اختيار (جمال الدين بن نباتة) أيضا .

ولوحظ على هذه المخطوطة أن المختارات من رسائل القاضي الفاضل انتهت في الصفحة السادسة والخمسين بعد المائة من مخطوطة دار الكتب، وفي الورقة الثانية والستين من مخطوطة الأزهر، وأكملت النسختان بعد ذلك بأشعار لكاتبنا ،وصدر ابن نباتة مصنفه هذا بكلمة له قال فيها :

" إني جمعت في هذه الأوراق ما تحصل لي جمعه من رسائل القاضي الفاضل محيي الدين عبد الرحيم بن علي البيساني – رحمه الله وعفا عنه[٢]"

اشتملت هذه المخطوطة على أربع وتسعين قطعة من رسائل مختلفة للقاضي الفاضل وقد صنفها على النحو التالي:

١-سبع وثلاثون في رسائل إخوانية احتل وصف بلاغة الكتب وحده من بينها أربع عشرة قطعة[٣] ظفر العماد الكاتب منها بخمس قطع[٤].

٢-سبع وخمسون من رسائل ديوانية[١]، تسع وعشرون منها في الوصف[٢] استأثر وصف حروب صلاح الدين مع الصليبيين من هذا العدد بإحدى وعشرين[٣] ،خصّص منها ثلاثا لفتح بيت المقدس [٤]، أما بقية المختارات في الوصف فقد جاءت على الشكل التالي : خمس منها في

---

(١) هذه المخطوطة موجودة تحت هذا الاسم بدار الكتب المصرية تحت رقم :٩٥٩٧أدب ، ومكتبة الأزهر تحت رقم ٤٦٩- أباظة ٧٠٦٥-أدب ، ومن الجدير بالذكر أن هذه المخطوطة موجودة في فهارس مكتبة الأزهر تحت الرقم السابق ذكره ولكن تحت اسم :(المختار من إنشاء القاضي الفاضل)

(٢) الفاضل من إنشاء الفاضل : ورقة ٤، مخطوط بدار الكتب المصرية ٩٥٩٧-أدب .

(٣) المصدر نفسه : ٨-٩-١٣-١٤-١٥-١٦-٢٣-٢٥-٢٩-٣٠-٣٧-٣٨-٥٢-٥٦-٦٥-٦٦-١٠١-١٠٦-١٠٨-١١٢-١١٣-١١٩-١٢٢.

(٤) المصدر نفسه :١٣-١٤-٢٣-٢٥-١٠١-١٠٥-١١٢-١١٣

(١) الفاضل من إنشاء الفاضل: ورقة ٤، مخطوط بدار الكتب المصرية ٩٥٩٧-أدب.: ٨-٩-١٧-٢٠-٢٣-٢٥-٣٠-٣٤-٣٨-٣٩-٤١-٥٢-٥٦-٦٥-٧١-٩٧-١٠٠-١٠٢-١٠٦-١١٢-١١٥-١١٩-١٢٣-١٤٣-١٤٦-١٥٥.

(٢) المصدر نفسه :٨-٩-١٧-٢٠-٢٣-٢٥-٢٦-٢٧-٢٨-٣٤-٥٦-٦٥-٩١-٩٧-١١٥-١١٩-١٣٠-١٤٣-١٤٧-١٥٠-١٤-١٥٥.

(٣) المصدر نفسه :٨-٩-١٧-٢٠-٢٥-٢٨-٣٤-٩١-٩٧-١١٥-١١٩١٣٠-١٤٣-١٤٧-١٥٠-١٥٤-١٥٥.

(٤) المصدر نفسه :١٣٠-١٣٨.

وصف عيد النحر[٥]، واثنتان في وصف عيد الفطر [٦]، وفي وصف الليل واحدة[٧].

ويمكننا استنتاج نقاط عدة من خلال تصنيف هذه المختارات هي :
أن وصف بلاغة الكتب قد نال اهتمام المصنف ، وهذا يفسره إعجابه بأسلوب القاضي الفاضل في هذا الموضوع ؛ لأنه من المجالات التي برز فيها القاضي الفاضل كما سنرى عند دراسة الخصائص الفنية لرسائله ، ويؤكد هذه الحقيقة إكثار المصنف من رسائل القاضي الفاضل التي كانت ردودا على رسائل العماد الكاتب بالذات ؛ لأن القاضي الفاضل كان يجد في وصف رسائل العماد مجالا فسيحا في وصف بلاغتها، وذلك لأن العماد كان يحرص على أن تكون رسائله للقاضي الفاضل في غاية الإبداع الفني لأسباب سنوضحها في مكانها من البحث .

والاستنتاج الآخر أن وصف حروب صلاح الدين مع الصليبيين قد استأثر بعدد كبير من المختارات، ويرجع هذا إلى طبيعة العصر الذي عاش فيه القاضي الفاضل في النصف الثاني من حياته عندما كان على رأس ديوان الكتّاب في دولة صلاح الدين الأيوبي ، وكان بحكم منصبه هذا عليه أن يتابع بقلمه الأحداث التي تدور من حوله في الدولة الأيوبية ، ولاسيما الأحداث الجسام ، وهي حروب صلاح الدين مع الصليبيين ، ويتضح هذا من اختيار المصنف لثلاثة فصول لرسائل مختلفة تدور حول موضوع واحد هو فتح بيت المقدس ذلك الموضوع الذي يعدّ أهم حدث في عصر صلاح الدين .

وقد أعجب ابن نباتة بأدب القاضي الفاضل إعجابا منقطع النظير ، ونجد هذا واضحا في مقدمته لهذا المصنف بقوله : " كان شهاب الأدب الثاقب وعقيل إحياء الكلام الذي ما برحت نيران ذهنه تتوقد على المراقب ، الذي تتحدث الأقلام عن بحر خاطره ولا حرج ، وتدل كلماته الفليحة على غزارة فضله كما يستدل على الروض بالأرج "[١]

[٥] المصدر نفسه :٥٩-٦٥.
[٦] المصدر نفسه :٥٦-٥٩.
[٧] المصدر نفسه :٢٣.
[١] الفاضل من إنشاء الفاضل : ورقة ٢، مخطوط بدار الكتب المصرية ٩٥٩٧-أدب .

الفصل الثاني -رسائل القاضي الفاضل من حيث المضمون:

١- الحروب الصليبية و البعد الديني:

قلّ أن شهد المسلمون في تاريخ حروبهم حربا أخطر من حروبهم مع الصليبيين، وهي حرب شاركت فيها الشعوب الأوربية جميعها تقريبا، كما هو واضح في قول الفاضل مخاطبا صلاح الدين في رسالة وجهها إليه في حصار عكا: " لما اجتمعت كلمة الكفر مع أقطار الأرض، وأطراف الدنيا، ومغرب الشمس، مزخر البحر ما تأخر منهم متأخر، ولا استبعد المسافة بينك وبينهم مستبعد، وخرجوا من ذات أنفسهم الخبيثة، لا أموال تنفق فيهم، ولا ملوك تحكم عليهم، ولا عصا تسوقهم، ولا سيف يزعجهم مهطعين إلى الداعي، ساعين في أثر الساعي، وهم من كل حدب ينسلون، ومن كل بر وبحر يقبلون، كنت يا مولانا، كما قيل -أبقاك الله -:

ولست بملك هازم لنظيره   ولكنك الإسلام للشرك هازم *" (١)

ويقول في موضع آخر: " فالعداوة محدقة بكم من كل مكان، والكفر مجتمع على الإيمان" (٢).

ومما تقدم يتبين أن الصراع الذي قام بين المسلمين والفرنج قد اتّخذ شكل صراع ديني كما صوّره القاضي الفاضل فيما وصل إلينا من أدبه النثري الذي واكب المعارك الدائرة بين الطرفين. ومضمون رسالته السابقة إلى صلاح الدين يؤكده مضمون رسالة أخرى كتبها عن صلاح الدين إلى الخليفة العباسي، وجاء فيها قوله: " والفرنج، فهم يعرفون منا خصما لا يملّ الشر حتى يملوا، وقرنا لا يزال يحرم السيف حتى يحلوا، حتى إننا لما جاورناهم في هذا الأمد القريب، وعلموا أنّ المصحف قد جاء بأيدينا يخاصم الصليب "(٣)... وقد صدر الفاضل فيما كتبه عن حسّ إسلامي في المفهوم التكاملي العام الذي يتجاوز الأعراق والبقاع الجغرافية المحدودة، وربط انتصارات المسلمين بالإرادة

---

* ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح العكبري، وفيه:

ولست مليكا هازما لنظيره   ولكنك التوحيد للشرك هازم   . : ٣١٩/٣.

(١) الروضتين، بيروت: ١٦٨/٢.

(٢) المصدر نفسه، حلمي: ج١ق٥٨٧/٢.

(٣) صبح الأعشى:٩٠/١٣.

الإلهية كما هو واضح في رسالة له إلى دار الخلافة في بغداد بعد استعادة صلاح الدين لمدينة عكا، وقد جاء في تلك الرسالة: " ودخلناه شاكرين لله تعالى هذه الموهبة الجسيمة، عارفين لله تعالى قدر هذه النعمة العميمة، والحمد لله الذي رفع كلمة الإيمان وعلّاها، ومحا آية الكفر بالإسلام وجلاّها " (١)، وكما هو واضح في قوله أيضا ، حينما سقط حصن الكرك المنيع في يد صلاح الدين : " وقرعنا الحديد بالحديد إلى أن ضجت النصال من النصال ، والله المشكور على ما انطوى من كلمة الكفر ، وانتشر من كلمة الإسلام وإن بلاد الشام اليوم لا تسمع فيها لغوا ولا تأثيما ، إلا قيلا سلاما سلاما " (٢).

وما يحل بالفرنج من الهزائم يرى فيه الفاضل عقابا لهم من الله تعالى، بسبب ما ارتكبوه بحق المسلمين من الأعمال الوحشية، حينما دخلوا بلادهم في بداية الغزو الصليبي. يقول إثر سقوط بيت المقدس في رسالة وجهها إلى بغداد: " وكانت قدرة الله تصرف فيه العنان بالعيان، عقوبة من الله ليس لصاحب يد بها يدان، وعثرت قدمه، وكانت الأرض لها حليفة " (٣).

وحين يتحدث عن جهاد صلاح الدين ، يؤكد الفاضل أن صلاح الدين لا يسعى من وراء ذلك إلى حماية الأرض والمقدسات الإسلامية فحسب، وإنما يجاهد في سبيل الله، لإعلاء كلمته ونشر دينه. يقول: " وكان الخادم لا يسعى سعيه لهذه المنقبة العظمى، ولا يقاسي البؤسى إلا رجاء هذه النعمى، ولا يناجز من استمطله في حربه، ولا يعاتب بأطراف القنا من تمادى في عتبه، إلا لتكون الكلمة مجموعة، والدعوة إلى سامعها مرفوعة، فتكون كلمة الله هي العليا، وليفوز بجوهر الآخرة لا بالعرض الأدنى من الدنيا " (٤)، ويمضي الفاضل إلى ما هو أبعد من ذلك، حين يرى أن الله هو الذي اختار صلاح الدين من بين ملوك الأرض لنصرة دينه، ومقارعة أعدائه، وخصه بهذه الفضيلة دون غيره من الحكام لما اتصف به من صفات حميدة وحب للجهاد في سبيل الله يقول:

" وكانت نعمة من الله يمنها على المملوك أن انتجبه من بين أهل أرضه وانتخبه لإقامة ما أمات الباطل من فرضه،ويسره من نصرة الحق وأهله وبشره بما بشر من لواء النصر ومد من ظله، وألهمًه الهمّة التي افترع منها بكرا، ومنحه النصرة فما يستطيع العدو صرفا ولا نصرا"(١) .

ومما تقدم، تتجلى نظرة القاضي الفاضل إلى جهاد صلاح الدين للصليبيين، فهو محوط بعناية الله تعالى ورعايته؛ لأنه سيف من سيوف الله

---

(١) الرسائل الأدبية للقاضي الفاضل (مخطوط): ٤٢ .

(٢) الروضتين، بيروت:١٣٦/٢ .

(٣) صبح الأعشى: ٤٩٩/٦ .

(٤) الرسائل الأدبية للقاضي الفاضل (مخطوط): ١٦٠ .

(١) صبح الأعشى: ٥٠٨/٦-٥٠٩.

المسلطة على الأعداء، وجنده هم أنصار التوحيد الذين يقارعون أنصار الشرك لرفع راية الإسلام واستعادة المقدسات الإسلامية المغتصبة، ومن ذلك قوله في بشارة بفتح عسقلان: " ومن قصص الفتح أنها لما واجهتها جيوش الإسلام الناصرية، وأنصار التوحيد الصلاحية، وأحاط بكفارها سخط الله، وحقوا أن ينجز لهم وعيده.".[٢]

وحين يتحدث عن معارك صلاح الدين التي خاضها مع الصليبيين وفتوحاته التي قام بها، وكان الفاضل يستلهم الكثير من المعاني الإسلامية في نثره حتى يستثير همم المسلمين، ويستحثهم على مواجهة الغزاة ونصرة الدين. ولذا فإن الله، كما يرى الفاضل يمد صلاح الدين بالملائكة، لتساعده في حروبه مع الأعداء[٣].

وصلاح الدين المجاهد في سبيل الله يقود الجيوش بنفسه، وينتقل بالمسلمين من نصر إلى نصر بعزمه وإرادته القوية، حتى استنقذت المقدسات الإسلامية من أيدي الصليبيين، وحررت البلاد، فأقيمت شعائر الإسلام، وعاد الدين قويا عزيزا مثلما كان من قبل، ومن ذلك قوله: " وهذه أمصار ومدن، وقد تسمى البلاد بلادا وهي مزارع وفدن، كل هذه ذوات معاقل ومعاقر، وبحار وجزائر، وجوامع ومنائر، وجموع وعساكر يتجاوزها الخادم بعد أن يحرزها، ويتركها وراءه بعد أن ينتهزها، ويحصد منها كفرا ويزرع إيمانا، ويحط من منائر جوامعها صلبانا، ويرفع أذانا، ويبدل المذابح منائر، والكنائس مساجد " [١]، ويقول القاضي أيضا بعد تحرير بيت المقدس من بشارة وجهها إلى دار الخلافة مهنئا : " وأصبحت الأرض المقدسة الطاهرة ، وكانت الطامث والرب الفرد الواحد ، وكان عندهم الثالث ، فبيوت الكفر مهدومة، ونيوب الشرك مهتومة "[٢].

وحرصا من القاضي الفاضل على الاستثارة الدينية، ركز على المعاني والشعائر الدينية الإسلامية التي رسخها صلاح الدين بعد هزائم الغزاة. ومن ذلك قوله في فتح: " وأوعز الخادم برد الأقصى إلى عهده المعهود وأقام له من الأئمة من يوفّيه ورده، وأقيمت الخطبة يوم الجمعة، فكادت السموات يتفطرن للسجوم[٣]لا الوجوم، والكواكب منها ينتثرن للطرب لا للرجوم، ورفعت إلى الله كلمة التوحيد، وكانت طرائقها مسدودة، وظهرت قبور الأنبياء، وكانت بينهم بالنجاسات مكدودة [٤]، وأقيمت الخمس ، وكان التثليث يقعدها ، وجهرت

---

[٣] المصدر نفسه:٤٩٩/٦.

[١] الرسائل الأدبية للقاضي الفاضل (مخطوط):١٦٧.

[٢] المصدر نفسه: ١٦٣.

[٣] السجوم: سجمت السحابة الماء سجوما: أي قطر ماؤها وسال قليلا أو كثيرا، (اللسان: سجم)

[٤] مكدودة: مغلوبة. (اللسان: كدد).

الألسنة بالله أكبر ، وكان سحر الكفر يعقدها "[٥] ، ومنها قوله بعد أن سقطت عسقلان في يد صلاح الدين : " وقد نصبت أعلام الإسلام على أبراجها وأسوارها ، وعمرت بموحديها ، وخلت من مشركيها وكفارها ، وكبر المكبر والمؤذنون في اقطار أرجائها ، وزالت سمة الصلبان عن جهاتها وأنحائها ، ورحل الناقوس عن فنائها ، وعوض جامعها منه بمنبرها " [٦]

وقد اتبع القاضي الفاضل في ادبه النثري الذي واكب المعارك والحروب الصليبية طرائق متنوعة لإيقاظ المشاعر الدينية في نفوس المسلمين، فكان يربط بين هزائم الصليبيين أمام صلاح الدين، وبين هزيمة المشركين الذين اجتمعوا على مدينة رسول الله – ﷺ – في معركة الأحزاب، كما يتبين من قوله في رسالة إلى بغداد هنّأ بها الخليفة برد الغزاة وأنصارهم عن مدينة حماة سنة ٥٧٣هـ: " ثم انصرفوا مجموعا لهم بين تنكيس الصلب وتحطيم الأصلاب، مفرقة أحزابهم عن المدينة المحروسة كما افترقت عن المدينة الشريفة النبوية الأحزاب"[١] .

ومن هذه الطرائق أيضا، أنه كان يربط بين الشخصيات الإسلامية المعاصرة له، وبين الشخصيات التي كان لها شأن خاص في تاريخ الإسلام، كربطه بين صلاح الدين وعمر بن الخطاب. فحين عادت عسقلان إلى حمى الإسلام سنة ٥٨٤هـ، قال: " وأشبه حاضر فتح يوسفها ماضي فتح عمرها "[٢] . ومنها أيضا الربط الدائم بين الصخرة المشرفة في القدس، والحجر الأسود في مكة. يقول: " ولما قدم الدين عليها عرف سويداء قلبه، وهنّأ كفؤها الحجر الأسود ببت عصمتها من الكافر بحربه "[٣]، ويقول أيضا : " والبيت الحرام الذي فك أخاه من الأسر "[٤] ، وهذا أمر درج عليه الأدباء والشعراء الذين واكبوا المعارك التي خاضها المسلمون بمجابهة أعداء الدين والعقيدة ، ومجدوا الفتوح والانتصارات الإسلامية ، إذ كانوا يربطون بين معارك عصرهم والمعارك السابقة التي انتصر فيها الإسلام ، ويربطون أبطالهم بالشخصيات الإسلامية التاريخية ، وذلك لاستثارة إيحاءات فكرية وعاطفية في نفوس المسلمين ولاسيما والمجاهدين ، لما لهذه الروابط من أثر بيّن في تعزيز الجهاد والتضحية .

وفي إطار الدعوة إلى الوحدة وضم القوى الإسلامية، كان الفاضل يؤمن إيمانا راسخا بأنه لا شيء يوحد هذه الدويلات الممزقة المتناحرة في ديار

---

[٥] مفرج الكروب: ٢٣٩/٢-٢٤٠.
[٦] الرسائل الأدبية للقاضي الفاضل (مخطوط): ١٤٨.

[١] الروضتين، حلمي: ج١ ق٧٠٧/٢.
[٢] الرسائل الأدبية للقاضي الفاضل (مخطوط):١٤٨ .
[٣] المصدر نفسه:١٦٠.
[٤] الرسائل الأدبية للقاضي الفاضل (مخطوط):٢١٥ .

الإسلام، ويجمعها على قتال عدوها الطامع بها غير العقيدة والدين، ولاسيما أن الطرف الآخر قد اتخذ من عقيدته وسيلة للتجميع والاستثارة، كما هو واضح في قول الفاضل من رسالة إلى بغداد:" ولا خفاء بعد حلولنا بهذه الخطة قاموا وقعدوا واستنجدوا أنصار النصرانية في الأقطار، وسيروا الصليب ومن كسا مذابحهم بقمامة، وهددوا طاغية كفرهم بأشراط القيامة، وأنفذوا البطارقة والقسيسين برسائل صور من يتصورونه ممن يسمونهم القديسين "[١].وقد اتخذ الفاضل من مواقف الفرنج تلك وسيلة للتحريض على قتالهم، كما نستبين من قوله محرضا صلاح الدين على قتالهم وتطهير البلاد من شرهم: " والجهاد فأنت رضيع درّه، وناشئةُ حجره، وظهور الخيل مواطنك، وظلال الجبل مساكنك، وفي ظلمات مشكلاته، تجلى محاسنك، وفي أعقاب نوازله تتلى ميامنك، فشمر له عن ساق من القنا، وخض فيه بحرا من الظبا واحلل فيه عقدة من كلمات من الله سبحانه وثيقات الحبى، وأسل الوهاد بداء العدا، وارفع برؤوسهم الربا حتى يأتي الله بالفتح " [٢]

ولعل هذا الشعور الديني العميق الذي حفل به أدب القاضي الفاضل النثري، يفسر قوله حين هاجم الصليبيون بيروت سنة ٥٩٣هـ، بعد وفاة صلاح الدين " فانظروا إلى أنكم الإسلام كله قد برز إلى الشرك كله، وأنكم ظل الله، فإن صححتم تلك النسبة، فإن الله لا ناسخ لظله، واصبروا إن الله مع الصابرين، ولا تهنوا وإن ذهب الناصر، فإن الله خير الناصرين "[٣]. و هذا الحس الديني نفسه هو الذي جعله يربط بين الحالة النفسية الصعبة التي عاشها المسلمون في حصار عكا وبين الذنوب المستشرية في النفوس مؤكدا أن العقيدة الصحيحة هي أساس النصر على الأعداء. ويتضح ذلك من قوله في رسالة بعثها من مصر إلى صلاح الدين وهو على عكا: " إنما أتينا من قبل أنفسنا، ولو صدقنا لعجل الله لنا عواقب صدقنا، ولو أطعناه لما عاقبنا بعدونا، ولو فعلنا ما نقدر عليه من أمره، لفعل لنا ما لا نقدر عليه إلا به، فلا يختصم أحد إلا نفسه وعمله، ولا يرجو إلا ربه "[١] .

---

[١] الروضتين، بيروت:٢٣٢/٢.
[٢] صبح الأعشى: ٩٧/١٠.
[٣] الروضتين، بيروت: ٢٣٢/٢.
[١] البداية والنهاية:٣٣٩/١٢.

- الدعوة إلى وحدة الأمة:

واجه المسلمون في عصر الحروب الصليبية زمن صلاح الدين الأيوبي خطرين عظيمين في وقت واحد لا يقل أحدهما عن الآخر في خطورته؛ إذ التقى على حربهم كل من يدينون بالولاء للصليب مدعومين بطاقات أوربا المادية والبشرية ، في حين كان حكام الدويلات الإسلامية الممزقة في بلاد الشام والجزيرة وديار بكر ، منشغلين بأنفسهم وربما تحالفوا مع الفرنج ضد صلاح الدين ، والمتآمرون على الإسلام من الداخل يسعون إلى التخلص من الدولة السنية في مصر التي كانت تقف في مواجهة الغزاة وهذا واضح في قول الفاضل مخاطبا الخليفة العباسي في بغداد : " والمملوك بين عدو إسلام يشاركونه في هذا الاسم لفظا ، ولا ينوون لما استحفظوا حفظا وعدوا كفرا ، فما يجاورهم إلا بلاده ، ولا يقارعهم إلا أجناده "[١] . ومن المؤلم حقا أن المتآمرين على الدولة السلجوقية من أنصار الدولة الفاطمية بمصر ، قد شاركوا في وقت من الأوقات مشاركة فعلية في قتال المسلمين بالسيف ، إذ وقفوا في جانب الصليبيين حينما هاجموا دمياط سنة ٥٦٦هـ . يقول الفاضل من رسالة وجهها إلى بغداد ، حينما اجتمع الفرنج وأعوانهم من المصريين على صلاح الدين في موقعة دمياط : " ونحن نقاتل العدوين : الباطن والظاهر ، ونصابر الضررين : المنافق والكافر ، حتى أتى الله بأمره ، وأيدنا بنصره ، وخابت المطامع مع المصريين ومع الفرنج ، وملك الروم ومن الجنوبيين ،

---

[١] الروضتين، حلمي: ج١ق٦٤٨/٢.

ومن أجناس الروم ؛ لأن أنفارهم تنافرت ، وأنصارهم تناصرت ، وأناجيل طواغيتهم رفعت ، وصلب صلبوتهم أخرجت " [٢] .

ومما زاد من خطورة الوضع، بعد وفاة نور الدين، تفرق الكلمة في بلاد الشام قبل توحيدها على يد صلاح الدين بعد قدومه من مصر. يقول الفاضل في رسالة كتبها عن صلاح الدين إلى الخليفة العباسي : " ثم عدنا إلى البلاد ، فتوافت إلينا الأجناد ، بما الدولة عليه من تشعب الآراء وتوزعها، وتشتت الأمور وتقطعها وأن كل قلعة قد حصل فيها صاحب ، وكل جانب قد طمح إليه طالب، و الفرنج قد بنوا بلادا يتحيفون بها الأطراف الإسلامية ، ويضايقون بها البلاد الشامية ، وأمراء الدولة النورية قد سجن أكابرهم ، وعوقبوا في الانتشار، وصودروا على الجمل الكبار "[١].

ومن أجل ذلك كان الفرنج يحرصون على إذكاء نار الفتن والخصومة بين أمراء الشام الخارجين على صلاح الدين حينما حاول توحيد القوى الإسلامية في بلاد الشام ، ويمدون لهم العون والمساعدة ، حتى تستمر حال الضعف والتمزق ولكي يحافظوا على استمرار كيانهم وبقائهم على أرض الإسلام . وهذا ما يؤكده أحد مؤرخيهم وليم الصوري ، إذ يقول : " ومن الخير أن نبذل المساعدة للملك الطفل (إسماعيل)[٢] لا مراعاة لمصالحه بل لتشجيعه بعده عدوا لصلاح الدين "[٣].

وإذ أدرك القاضي الفاضل قبل وفاة نور الدين أن الأداء كان يكمن في تفرق كلمة المسلمين واختلاف أهوائهم ، فقد أخذ يلح على المسلمين فيما كتبه إليهم من رسائل لكي يوحدوا كلمتهم وصفوفهم ، وينبذوا مظاهر التفرق والضعف ، ليقفوا في وجه عدوهم المتربص بهم ، وهذا واضح في رسالته التي بعث بها إلى نور الدين ،حين خشي تفرق الكلمة بين قادة المسلمين . يقول : فالله الله أن تختلف القلوب والأيدي فتبلغ الأعداء مرادها ، وتعدم الآراء رشادها ، وتنتقل النعم التي تعبت الأيام فيها إلى أن أعطت قيادها ، فكونوا يدا واحدة ، ولا تختلفوا فتنكلوا ، ولا تنازعوا فتفشلوا " [٤] .

لقد آمن القاضي الفاضل إيمانا مطلقا أن القوة الحقيقية للإسلام والمسلمين؛ إنما تكمن في وحدة الصف وتوحيد القوى الإسلامية في مواجهة الغزاة، والتصدي لهم ذلك لأن الوحدة والقوة توأمان. فحين فتح صلاح الدين حلب سنة (٥٧٩هـ) ، كتب عن صلاح الدين إلى الخليفة : " وإنه لا يؤثر

---

[٢] المصدر نفسه:ج١ق٦١٩/٢.
[١] صبح الأعشى: ٨٩/١٣.
[٢] الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي، صاحب حلب الذي ورث الملك عن أبيه، توفي سنة (٥٧٧هـ). انظر ترجمته وأخباره في الروضتين، بيروت:٢١/٢.
[٣] الشرق الأدنى في العصور الوسطى:٥٣.
[٤] الروضتين، حلمي، ج١ق٢/ ٥٨٧.

للإسلام وأهله إلا أن تغدو جيوش المسلمين متحاشدة على عدوها لا متحاسدة بعتوّها ، ولو أن أمور الحرب تصلحها الشركة ، لما عز عليه أن يكون كثير المشاركين، ولا أساءه أن تكون الدنيا كثيرة المالكين ، وإنما أمور الحرب لا تحتمل في التدبير إلا الوحدة ، فإذا صح التدبير ، لم تحتمل في اللقاء إلا العدة"[١].

ومن أجل ذلك ، كان الفاضل يربط دائما بين اندماج المدن الإسلامية في الوحدة ، واسترجاع المقدسات الإسلامية من أيدي الفرنج ، لإيمانه الراسخ بأهمية الوحدة واجتماع الكلمة ، فالوحدة والقوة كل واحدة منهما تدعم الأخرى ، وتأخذ برقبتها .

ويعبر الفاضل عن حزنه وألمه لتفرق كلمة المسلمين واختلاف أهوائهم والخطر الصليبي محدق بهم ، والأمر مرهون بوحدتهم ، فيقول : " يسرني أن يمد الله ظلهم ، وأن يجمع شملهم ، كما يسوءني أن تختلف آراؤهم ، ولا تنتظم أهواؤهم "[٢] .

ولذا فقد حمل الفاضل بشدة على الحكام والأمراء المسلمين الخارجين على الوحدة الإسلامية الذين لم ينهضوا للذود عن حمى الإسلام . وحمّلهم المسؤولية في تمكين الغزاة واستقرارهم في ديار الإسلام للذود عن حمى الإسلام. و حمّلهم المسؤولية في تمكين الغزاة واستقرارهم في ديار الإسلام ووقوفهم في وجه جمع القوى الإسلامية ووحدة الصف حرصا منهم على مصالحهم الخاصة . فهو يقول مخاطبا الخليفة عن صلاح الدين بشأن الموصل : " ولو أعين به لعظمت على الإسلام عائدته ، وظهرت في رفع منارته فائدته لأن اليد كانت تكون به على عدو الحق واحدة ، والهمّة لالات النصر واجدة "[٣]، ويقول في موضع آخر منبها على خطورة الموقف المتخاذل الذي وقفه أمراء الشام من صلاح الدين حينما زحف إلى الشام محاولا توحيدهم : " ونظرنا للإسلام ولنا ولبلاد الإسلام يجرد العزم في قلعه ، وإلا ثبتت عروقه ، واتسعت على أهل الدين خروقه ، وكانت الحجة لله قائمة ، وهمم القادرين بالقعود آثمة " [١]

ذلك لأن هؤلاء المنشقين الخارجين على الوحدة الإسلامية هدروا طاقات الأمة وعطلوها عن مواجهة الغزاة . وهذا واضح في قول الفاضل مخاطبا الخليفة : " فقد صرف وجهنا في هذا الوقت عن جهاد لو كنا بصدده ، وعن فرض لو وصلنا يومه بغده ، لكان الإسلام قد أعفى من شركة الشرك ، وانفك من ربقة أهل الإفك ، ولكانت الأسماء الشريفة قد قرعت منابر طالما

---

[١] الروضتين، بيروت: ٤٨/٢.
[٢] نهاية الأرب في فنون الأدب: ٩/٨.
[٣] الرسائل الأدبية للقاضي الفاضل (مخطوط): ١١٩.
[١] الرسائل الأدبية للقاضي الفاضل (مخطوط): ١٠٧.

عزلت الصلب خطباءها ، ولكان الدين الخالص قد خلص إلى بلاد صار المشركون متوطنيها، والمسلمون غرباء فيها "[٢] .

ويتحدث الفاضل عن الوحدة الإسلامية وآثارها في الإسلام والمسلمين ، وعن الغزاة الذين قويت شوكتهم بسبب تفرق المسلمين وتقاعس بعضهم عن نصرة الإسلام ، فيقول في رسالة كتبها إلى الخليفة عن صلاح الدين في أمر الموصل أيضا : " هذه الجزيرة الصغيرة ، منها تنبعث الجزيرة الكبيرة . وهي دار الفرقة ومدار المشقة لو انتظمت في السلك ، لانتظم جميع عسكر الإسلام في دار الشرك ، ولكان الكفر يلقي يديه ، وينقلب على عقبيه ، ويغشاه الإسلام من خلفه ومن بين يديه ، ويغزى من مصر برا وبحرا ، ومن الشام سرا وجهرا، ومن الجزيرة مدا وجزرا " [٣]

ولكي يستثير الفاضل نفوس هؤلاء الأمراء المتقاعسين عن نصرة الإسلام في حربه مع الغزاة ، أخذ يقارن بين موقفهم المتخاذل مع أنهم أصحاب حق ، وبين موقف الصليبيين الذين اجتمعوا من مختلف بقاع الأرض على حرب الإسلام والمسلمين بدافع الدين والعقيدة مضحين بكل ما يمتلكون لنصرتها . ومن ذلك قوله من رسالة بعثها إلى الخليفة في أثناء حصار عكا : " وإن البابا الذي لهم برومية قد حرم عليهم مطاعمهم ومشاربهم ، وقال : من لا يتوجه إلى القدس مستخلصا، فهو عندي محرم لا منكح له ولا مطعم ، فلأجل هذا يتهافتون على الورود ، ويتهالكون على يومهم الموعود، وقال لهم : إني واصل في الربيع ، جامع على الاستنفار شمل الجميع . وإذا نهض هذا ، فلا يقعد عنه أحد ، ويصل معه بأهله وولده ، كل من يقول لله أهل وولد فهذا شرح حال هؤلاء وتعصبهم في ضلالتهم، ولجاجتهم في غوايتهم ، بخلاف أهل الإسلام ، فإنهم يتضجرون ولا يصبرون بل يتفللون ولا يجتمعون "[١].

ولقد كان القاضي الفاضل لسداد رأيه وحسن تدبيره ، من أكثر أدباء عصره إحساسا بأهمية القيادة الواحدة التي تجمع شمل الأمة الإسلامية ، وتوحد صفوفها وكلمتها أمام أعدائها الذين كانوا يشكلون خطرا حقيقيا على الإسلام وأهله . ولاسيما إذا بقي وضع البلاد الإسلامية المتاخمة لحدود الغزاة على هذه الحال المؤلمة من الفرقة والتمزق والضعف ؛ ولذا فإنه لا ينسى وهو يتحدث عن الأمراء المنشقين الخارجين على وحدة الصف الإسلامي أن ينوّه بواجب الخليفة المسلم لحسم الخلافات الداخلية القائمة داخل الدولة الإسلامية بوصفه

---

[٢] الروضتين، بيروت:٢ /٢٣.
[٣] المصدر نفسه، بيروت:٢ /٤١.

[١] تاريخ ابن الفرات:٤/٢٢٩-٢٣٠.

الحاكم الأول ، فيها حتى يعيد للإسلام هيبته وقوته أمام أعدائه الذين يهددونه في عقر داره ، ومن ذلك قوله في رسالة وجهها إلى الخليفة العباسي في بغداد حينما عادت آمد إلى حمى الإسلام ، ووقفت إلى جانب صلاح الدين في حربه مع الصليبيين : " والخلف الذي أمير المؤمنين – صلوات الله عليه – مطالب بحسمه كان يحسم ، والظلم الذي سيفه مجرد لقطع دابره كان يقصم ويخصم، وجيوش هذا الدين كانت تجتمع على الكافرين فتفرق فرقهم وتجلى بأنوار الاتفاق غسقهم ، والشواغل كانت ترتفع ، والمواقع كانت تمتنع "[٢] .

ولما كانت الوحدة هي القوة الضاربة على أيدي الفرنج ، فإن الفاضل كان يبتهج أيما ابتهاج لانضمام أية مدينة إسلامية إلى الجماعة المجاهدة في سبيل الله ، بعد أن تتخلص من قيادتها المتخاذلة المتقاعسة وتسلم مقاليدها لصلاح الدين الأيوبي ، لتقف إلى جانبه في مجاهدة الفرنج . فحين تحقق حلم المسلمين بعد زوال الدولة الفاطمية عام (٥٦٧هـ) ، بوحدة مصر مع شقيقتها الشام ، ووقوفها إلى جانبها بكل طاقاتها المادية والبشرية ، كتب بذلك مبشرا إلى ديوان الخلافة في بغداد والفرحة تملأ قلبه ، فقال : " وقد توالت الفتوح غربا ويمنا وشاما ، وصارت البلاد بل الدنيا والشهر ، بل الدهر ، حرما حراما ، وأضحى الدين واحدا بعد ما كان أديانا والخلافة إذا ذكر بها أهل الخلاف لم يخروا عليها إلا صما وعميانا " [١]، وقال في رسالة أخرى كتبها إلى نور الدين في الموضوع ذاته : " فالإسلام ببركاته البادية وفتكاته الماضية، قد عاد مستوطنا بعد أن كان غريبا ، وضرب في البلاد بجرانه ، بعد أن كان الكفر يجثم عليه نحيلا عجيبا "[٢] .

وبسبب من حرص الفاضل على مظاهر الوحدة بين المسلمين ، فإنه كان يعزو كل ما حققه صلاح الدين من انتصارات على الصليبيين في بلاد الشام إلى الخليفة العباسي ، الحاكم الروحي للمسلمين عموما ، رغم ضعفه وتقصيره وعدم مشاركته لصلاح الدين مشاركة فعلية في حربه مع الغزاة ، اللهم ، إلا بالدعاء . ومن أجل ذلك تألم كثيرا حينما كوتب صاحب المغرب بلفظة (أمير المؤمنين) في رسالة خطها أحد كتّاب صلاح الدين معاتبا: " ومتى قرئت على منبر من منابر المغرب ، جعلنا خالعين في مكان الإجماع ، مبايعين من لا ينصره الله ، ولا شوكة فيه ، ولا يحل اتباعه ، مرخصين الغالي ، منحطين عن العالي، شاقين عصا المسلمين ، مفرقين كلمة المؤمنين ، مطيعين لمن لا تحل طاعته ، متقلدين لمن لا تصح ولايته ، فيفسد عقود الإسلام ، وينفتح باب

---
(٢) الرسائل الأدبية للقاضي الفاضل (مخطوط):١١٩.
(١) الروضتين : حلمي : ج١، ق٢ / ٤٩٦- ٤٧٩.
(٢) المصدر نفسه:ج١ق٥٦٣/٢.

يعجز وارده عن إصدار ، بل تمضي وتستشف الأمور وتكشف الأحوال " [1]
.

-وصف الجيش الصليبي في رسائله :

طبيعة الصراع القائم بين المسلمين والصليبيين على أرض الإسلام ؛ جعلت من الفرنج على اختلاف أنماطهم جنودا مقاتلين . ولما كان الفاضل في كتاباته يسعى على تعبئة المسلمين لمواجهة العدو ، فقد استخدم في أدبه وسائل التحريض والاستثارة والتعبئة النفسية ، متخذا من موقف الصليبيين حافزا على الاستثارة والتنبيه إلى الخطر الذي يتهدد بلاد الإسلام ؛ ففي رسالة له كتبها إلى صاحب المغرب وصلاح الدين على عكا. يقول : " فرع الكفار بالشام استصرخ بأصل الكفار من المغرب فأجابوهم رجالا وفرسانا وشيبا وشبابا ، وزرافات و وحدانا وبرا وبحرا ، مركبا وظهرا وركبوا إليهم سهلا ووعرا ، وبذلوا ماعونا وذخرا ، وما احتاجوا ملوكا ترتادهم ولا أرسانا تقتادهم ، بل خرج يلبي دعوة بطركه ، ولا يحتاج إلى عزمة ملكه ، وخرجت لهم عدة ملوك أقفلت العجمة على أسمائها"[2].

وكانت ضخامة جيوش الفرنج مما ركز عليه الفاضل في كتاباته ، من أجل تصوير خطرهم في حجمه الحقيقي ، ومن أجل تعظيم دور المسلمين في محاربتهم ، وهذا واضح -على سبيل المثال - في وصفه للأسطول الفرنجي الذي هاجم الإسكندرية عام (٥٦٩هـ)؛ إذ يقول من رسالة وجهها إلى بغداد شارحا الموقف للخليفة : " ومن هؤلاء الكفار : هذا صاحب صقلية ، كان حين علم بأن صاحب الشام ، وصاحب القسطنطينية قد اجتمعا في نوبة دمياط فغلبا وهزما وكسرا ، أراد أن يظهر قوته المستقلة بمفردها، وعزمته القائمة بمجردها، فعمر أسطولا استوعب فيه ماله ورجاله ، فله إلى الآن مدة خمس سنين يكثر عدته ، وينتخب عدته ، ويجتلب مقاتليه إلى أن وصل منها في السنة الخالية إلى الإسكندرية أمر رائع ، وخطب هائل ، ما أثقل ظهر البحر مثل حَمْله، ولا ملأ صدره مثل خيله ورجله ، وما هو إلا إقليم بل أقاليم نقله ، وجيش ما احتفل ملك قط بنظيره ، لولا أن الله خذله "[1] .

ويكرر الفاضل الحديث عن كثرة الجيوش المعادية . فهم في حصار عكا أمم لا تحصى من كثرة رجالهم [2]، وهم حين لقيهم صلاح الدين ببيت المقدس يذكرون بيوم الحشر ، لكثرة عددهم[3]. وحين هاجموا دمياط : " وصلوا إليها

---

[1] الروضتين، بيروت:١٧٥/٢.
[2] المصدر نفسه:١٧٢/٢.
[1] مفرج الكروب:٤٩١/٢.
[2] الروضتين، بيروت:١٣٦/٢.
[3] صبح الأعشى:٥٠١/٧.

بالعدد المجمهر ، والحشد الأوفر ، وخصوصا في نوبة دمياط فإنهم نازلوها بحرا في ألف مركب مقاتل وحامل ، وبرا في مئتي ألف فارس وراجل"[٤].

ومما تقدم ، نلاحظ أن الفرنج اعتمدوا على أعدادهم الكثيرة ، محاولين بذلك أن يضعفوا روح المقاتلين المسلمين المعنوية ،ظنا منهم أن العدد هو أساس النصر على المسلمين المتسلحين بسلاح العقيدة .

كثيرا ما كان الفاضل يفصل في بعض رسائله الحديث عن إمدادات الصليبيين المتدفقة عليهم من أوربا بعد سقوط معظم مدنهم في يد المسلمين إثر هزيمتهم في حطين . ويظهر الفاضل تعجبه من تكاتف الفرنج رغم أنهم على باطل ، ومن تخاذل المسلمين أحيانا مع أنهم أصحاب حق وقد تكرر ذلك في رسائله التي وجهها إلى الخليفة وأمراء المسلمين، ولاسيما خلال حصار عكا الذي عاناه المسلمون أيما معاناة بسبب ضيق إمداداتهم ، ومن ذلك قوله من رسالة له إلى بغداد شارحا الموقف حول عكا : " ومن خبر الكفار أنهم إلى الآن على عكا يمدهم البحر بمراكب أكثر عدة من أمواجه ويخرج للمسلمين منهم أمر من أجاجه[٥] . قد تعاضدت ملوك الكفر على أن ينهضوا إليهم من كل فرقة منهم طائفة ، ويقلدوا لهم من كل قرن يعجز بالكرة واصفه، فإذا قتل المسلمون واحدا في البر، بعث البحر عوضه ألفا ، وإذا ذهب بالقتل صف منهم أخلف بدله صفا ، فالزرع أكثر من الجداد ،والثمرة أنمى من الحصاد "[١]. وقوله أيضا : " ونادوا في نواديهم بأن البلاد بلادهم ، وأن إخوانهم بالقدس أبارهم الإسلام وأبادهم ، وأنه من خرج من بيته مهاجرا لحرب الإسلام وهبت له ذنوبه، وذهبت عنه عيوبه ، ومن عجز عن السفر سفّر من يقاتل عوضه ، أو يعين بماله وعدته قدرة ، فجاؤوا لابسين الحديد ، بعد أن كانوا لابسين الحداد ، وتواصلت منهم الأمداد "[٢].

وقد يعمد الفاضل من أجل استثارة المسلمين ، إلى الإشادة بجلد الفرنج في القتال ، وغيرتهم القوية على عقيدتهم ، فمن ذلك قوله من رسالة وجهها إلى الخليفة : " وقد بلي الإسلام منهم بقوم قد استطابوا الموت ، واستجابوا للصوت وفارقوا المحبوبين : الأوطان والأوطار ، وهجروا المألوفين : الأهل والديار وركبوا اللجج ، ووهبوا المهج . كل ذلك طاعة لقسيسهم ، وامتثالا لأمر مركيسهم وغيرةً لِمُتَعَبَّدِهم ، وحميةً لمعتقدهم ،وتهالكا على مقبرتهم ، وتحرقا على قمامتهم ، لا يطلبون مع شدة الإملاق مالا ، ولا يجدون مع كثرة المشاق مللا ، بل يتساقطون على نيران الظبى تساقط الفراش ، ويقتحمون

---

[٤] الرسائل الأدبية للقاضي الفاضل (مخطوط): ٩٧.والجداد وجه الأرض (القاموس المحيط :جدد)

[٥] الأجاج: الماء المالح (القاموس: أجج).

[١] مفرج الكروب: ٤٩١/٢.

[٢] الروضتين، بيروت: ١٤٩/٢.

الردى متدرعين الصبر مثبتي الجاش ، حتى خرجت النساء من بلادهن متبرزات ، وسرن إلى الشام في البحر والبر متجهزات ."[٣].

ولم ينكر الفاضل ما كان يتحلى به الفرنج من عزيمة وإرادة وصبر على القتال وشدائده . ومما قاله في ذلك : وصدورهم لا يملؤها إلا الطعنة ، وكانوا قد اجتهدوا في القتال ، وصبروا على مر النضال والنصال ، حتى أهمدتهم الصفاح ، وأرقدتهم الجراح "[٤]، وما قاله أيضا حينما حاصر صلاح الدين بيت المقدس : " فلما نازلها الخادم ، رأى بلدا كبلاد ، وجمعا كيوم التناد ، وعزائم قد تألبت وتولفت على الموت فنزلت بعرصته ، وهان عليها مورد السيف ، وأن تموت بغصته"[١] .

ويعترف القاضي الفاضل أيضا بمهارة الفرنج القتالية ، ودرايتهم بفنون الحرب والقتال ، كما يتضح من قوله في رسالة وجهها إلى الخليفة : ولهم – خذلهم الله – تنوع المكايدة ، فإنهم قاتلوا مرة بالأبرجة[٢]، وأخرى بالمنجنيقات، وثالثة بالدبابات[٣] ورابعة بالكباش[٤]، وأخرى باللوالب ، ويوما بالنقب ، وليلا بالسرابات[٥] ، وطورا بطم الخنادق ، وأناة بنصب السلالم ، ودفعة بالزحوف في الليل والنهار ، وحالة في البحر بالمراكب "[٦].

ولكن هذا لم يكن رأيه في جميع ما كتب ، إذ إنه يهوّن أحيانا من شانهم رفعا لتهيب المسلمين منهم ، وذلك حين يتهمهم بتجنب المواجهة على الرغم من كثرتهم وهم في غقر دارهم ، والمسلمون يعيثون بأرضهم ، يحرقون ويقتلون ويأسرون ، أو حين يحتمي جيش كثيف لهم بقيادة ملك القدس بحصن الداروم بدلا من مواجهة جيش للمسلمين دونه عددا وعدة ، وإذ ذاك تتاح لجيش المسلمين حرية الحركة في الأراضي التي يحتلونها ، إلى أن يعود إلى مصر سالما . ومن طبائعهم أنهم كانوا في المعتاد لا يقدمون على القتال إلا إذا كانوا

---

(٣) الروضتين، بيروت: ٢/١٦١-١٦٢.

(٤) الرسائل الأدبية للقاضي الفاضل (مخطوط): ٤٩.

(١) صبح الأعشى: ٥٠١/٧.

(٢) البرج آلة من آلات الحصار، تصنع من الخشب الصلب والحديد، وتصفح بالجلود المسقاة بالخل، حتى لا تشتعل فيه النار، يسير على عجلات، ويتسع لخمسمئة مقاتل، استعمله الصليبيون في حروبهم مع المسلمين ولاسيما في حصار عكا: (سيرة صلاح الدين:١٢٠.)

(٣) الدبابة آلة تصنع من الخشب الصلب، وتفح بالجلود، يدخل فيها الجند، ويقربونها من الحصن المحاصر، لينقبوه، وتقيهم مما يرمون به من فوقهم (سيرة صلاح الدين:٤٢).

(٤) الكبش آلة من آلات الحصار، كانت تستعمل لقذف الحصون ونطح الأسوار، يكون متصلا بالدبابة، له رأس ضخم وقرنان، تدفعها الجنود نحو الأسوار لتهدمها (القاموس المحيط: كبش).

(٥) جمع سربة: وهي جماعة من الجند ينسلون من العسكر، فيغيرون ويرجعون والجماعة من الخيل بين العشرين إلى الثلاثين، وقيل : بين العشرة إلى الثلاثين: (لسان العرب: سرب).

(٦) الروضتين، بيروت: ١٨٥/٢.

متحوطين. يقول الفاضل " والعدو المخذول لا يقاتل إلا على رقبة وحذر ، ولا يقاتل إلا في قرى محصنة أو من وراء جُدُر "[١].

وقد وصمهم الفاضل بالغدر والخيانة ،وبأنهم لا يقيمون وزنا للعهد إلا إذا كان يخدم مصالحهم الخاصة ، حتى بات الغدر ، ونقض العهود من خصائصهم في غلاقاتهم مع المسلمين ؛ ولذا كان الفاضل يحذر سلطانه من الاطمئنان إليهم كما يتضح مما كتبه إليه حينما عرضوا عليه صلح الرملة عام (٥٨٨هـ) . يقول : " وكيف تشنع ملك انكلتيرة بالغدر ، وهو – لعنه الله – قد أتى بأقبح الغدر وأفحشه في أهل عكا نهارا جهارا ، وشهد بخزيه وفضيحته المسلمون والنصارى، وغدر الفرنج معلوم :

إذا غدرت حسناء أوفت بعهدها ومن عهدها أن لا يدوم لها عهد

القوم هادنوا لما ضعفوا ، ويفسخون إذا قووا "[٢]

ولا ينسى الفاضل وهو يتحدث عن الجيش الصليبي أيضا أن يندد بمن تعاون معهم من المسلمين كأولئك الأعراب الذين كانوا في جنوب فلسطين والأردن إذ كان بعضهم أدلاء للغزاة ، مما دفع صلاح الدين إلى ترحيلهم ، حتى يحرم الفرنج من الانتفاع بهم . وندد الفاضل كذلك بأنصار الدولة الفاطمية الذين حاولوا بعد زوالها عام (٥٦٧هـ) أن يتعاونوا مع الفرنج لإعادة الأمر إليها ، بعد أن خلصت لصلاح الدين الذي كان ينوب عن نور الدين في مصر . فقد قال من رسالة وجهها إلى نور الدين بعد إعدام المتآمرين :" وكان أكثر ما يتعللون به، ويستريحون إليه المكاتبات المتواترة ، والمراسلات المتقاطرة إلى الفرنج ، التي يوسعون لهم فيها سبل المطامع ، ويحملونهم فيها على العظائم والفظائع ، ويزينون لهم الإقدام والقدوم ويخلعون فيها ربقة الإسلام خلع المرتد المخصوم ، ولأهل القصر والمصريين يدمر حصون الغزاة ، ويتلف موارد معيشتهم ، ملحقا بهم القتل والأسر ، وثم يعود سالما غانما "[٣]. ومن ذلك – على سبيل المثال –

قوله مصورا ما قام به صلاح الدين إثر هدم حصن بيت الأحزان[١] سنة (٥٧٥هـ) من رسالة وجهها إلى بغداد:" وبعد ذلك سار إلى أعمال طبرية وصور وبيروت من بلاد قد فتحها الكفر ما ركضت عليها المغيرة ولا أزعجت ترابها المثيرة، إنما نازلوها حي لقاح، ولا يخافون سيول الجبال على مرعى البطاح، فدخلها وتخللها وكسا رباها العارية الجيش فلبسته وجللها، وأراد فيها

---

(١) الرسائل الأدبية للقاضي الفاضل (مخطوط): ١٣٩.

(٢) الروضتين، بيروت:٢/٢٠٣-٢٠٤.

(٣) المصدر نفسه:٢/٢٠٧

(١) مخاضة على نهر الأردن تقع بين دمشق وفلسطين. يقول ياقوت: " سمي كذلك لأنه كان سكن يعقوب – عليه السلام - ، أيام فراقه ليوسف – عليه السلام – وكان الفرنج عمروه ، وبنوا به حصنا حصينا " معجم البلدان :١/٥١٩.

كأس المنون دهاقا، وحل الرؤوس ضربا، وشد الأعناق وثاقا، وطحن الحصون القائمة بكلكل[٢] الجيش وحل حتى البروج المشيدة بهدم يكسب حلم أعطافها معنى الطيش، وقطع من أحجارها كل غيظة منظرها المبهج غائظ لبني الإسلام، وكل دوحة مثمرة بأنجم لا يغيبها النهار، وعاد إلى دمشق في يوم الخميس تاسع ربيع الآخر بالنصر الظاهر والظفر الباهر "[٣]

ويحرص الفاضل على أن يتحدث عن الفرنج، وهم يلتجئون إلى حصونهم وقلاعهم بدلا من مواجهة جيش المسلمين الذي يجوس خلال ديارهم؛ فهو إذ يبحث عن خروج صلاح الدين من مصر ودخوله الأرض المحتلة في جنوب الأردن يقول: " وكان الخادم طالعا بخروجه من مصر طالبا للغزاة المفروضة، فحشد الفرنج ونزلوا بالكرك على إرجاف بالمصاف، ولم يزل الخادم على مداومة الأعمال إلى أوساط الأعمال، فحل بها وشن الغارة فأبعد وأذكى النار فأوقد، وطلب الماء المحمى أزرقة بأزرقهم فأورد وسفك دم الخصب بالنار وأخذ، وفيها عدل السيف الجار بالجار، وعلم أن الفرنج قد تسللوا لواذا، وتعللوا بالحصون احتجازا ولياذا، وأنهم لا يقاتلون إلا على نجاة متيقنة "[٤]

وقد يلتقي الجيش الإسلامي وهو في أرض العدو بجيش فرنجي كثيف مدجج بالسلاح يفوقه عددا وعدة، فلا يغامر بجنده، بل يتحرز ويتربص ويتصبر و لا يندفع إلى قتال رغم استثارته للدخول فيه، بعدِّ ذلك كله نوعا من التحوط والحذر، وقد صور الفاضل مواقف كهذه لجيش الفرنج في غير موضع من كتاباته، ومن ذلك:" ونزل العدو إلى الأرض منحطا عن سرجه، منحازا عن فجه وسالكا نهجا غير نهجه، وأحدق به راجله، وهو زهاء عشرين ألف راجل، وركز صليب صلبوته، فاستوى في المحمول والحامل، ونزل محصورا وخندق فكأنما أصبح الكافر في حفر ذلك الخندق مقبورا، وأقام بإزائه خمسة أيام تماسيه الوقائع وتصابحه وتماشيه الروائع وتصافحه، ويفزع فيه إلى الحفير، ويتكرر إليه في اليوم الواحد النفير، ويبعث إليه السهم، وهو في الحرب السفير، فيقبل تحية الضرب مترددة ولا يردها وتتبسم إليه صفيحة النصل متوددة فلا يوردها، ويجتهد في استخراجه وقد رأى العزائم ولم يخرج لدعوتها، والمكارم ولم يرحل لبغيتها [١]" [٢]. ومن أجل ذلك، كان اللقاء بين الطرفين في صورة مواجهة عامة غير شائع في كتابات الفاضل، قبل معركة

---

[٢] الكلكل: الصدر من كل شيء، وهو هنا: مقدمة الجيش: (اللسان: كلكل) .

[٣] الرسائل الأدبية للقاضي الفاضل (مخطوط): ١٥٣-١٣٦.

[٤] الروضتين، بيروت: ٥١/٢.

[١] مأخوذ من بيت:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها   واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

[٢] الروضتين، بيروت: ٢٨/٢-٢٩.

حطين، ولاسيما عندما يكون الفرنج بعيدين عن حصونهم وقلاعهم، وعندما يكونون قريبين منها، يصور جيش المسلمين وهو يغير على تجمعاتهم، ويرميهم بالسهام، لكي يرغمهم على الخروج من حصونهم، وبعد خروجهم تكون المعركة في المعتاد قصيرة خاطفة، تنتهي بلجوء الفرنج إلى حصونهم تطاردهم خيول المسلمين. ومن الأمثلة القليلة على لقاء المسلمين قبل معركة حطين في مواجهة مباشرة كما يصورها الجانب الإسلامي، ما كتبه الفاضل إلى الخليفة في بغداد، يصف فيه غزاة لصلاح الدين في أعمال طبرية عام (٥٧٨هـ)، إذ يقول: " وتوالت من الفرنج حملات ألجأهم إليها الاضطرار لا الاختيار، وثبت من دنا منهم من المسلمين من الأطلاب، ولقوهم وهم الأعداء لقاء الأحباب، وتعانقت لغير الوداد فصارت أوشحة، وطارت إلى أقرانها فصارت أرجل الخيل لها أجنحة، وصرعت للفرنج أبطال وخيالة، وتمت الحملة الإسلامية على من كان وراءهم من الرجالة فأخذ القتل كثيرا وقليلا ترك، وفرت روح الكافر من الجسد، وعملت النار فيه أيّةً سَلَكَ وألجأهم البلا إلى حصن يعرف بعفر بلا، وسع الخوف منه ما هو ضيق، وتعلق بالحياة منهم من هو متعلق ولم تتصرف صدور الخيل دون أن اعتقلتهم في سجنه، وألزمتهم به فصاروا قرطا في أذنه... "[١].

وكان من الطبيعي أن يركز الفاضل بقوة على شجاعة المقاتلين المسلمين وجرأتهم على أعدائهم، بعد أن أصبحت طرائقهم في الحرب معروفة لديهم. يقول الفاضل: " ولم يواجه الكفر وهو مجتمع في خيله فضلا عن رجله، ولم يهدد العدو بضرب مصاف إلا واستكانت العزائم لتهديده، ولم يجمع أمره على اللقاء إلا صرفه عنه الأمر، فأما الآن فقد أنس المسلمون بحزبه، وتمرنوا بحربه"[٢].

تلك هي صورة المعركة العامّة قبل معركة حطين. أما صورتها في حطين وما تبعها من المعارك فقد جاءت أكثر تفصيلا ودقة؛ إذ هي تقدم لنا فيما تقدم الجيشين المتحاربين، وساعة اللقاء، وما تمخضت عنه المعركة، ومجموعة من العناصر التفصيلية الأخرى، ولعل النص التالي يوضح الصورة التي قدمها الفاضل لجيش المسلمين المتوجه إلى معركة حطين، ولقائد هذا الجيش: " وقد ورد السلطان للغزاة إلى بلاد الكفر في عسكر فيه عساكر، وفي جمع البادي فيه كأنه حاضر، وفي حشد يتجاوز أن يحصله الناظر إلى أن لا يحصله الخاطر، ... ونجحت عزمة الله المسؤول في حسم عوارض اعتراضها، "[٣]، ويقول كذلك في وصف الجيش : " وذلك أن الخادم برز على جسر الخشب ، وقد اجتمع له من العسكر ما ضاق بهذا الفضاء الأكبر ، وحق

---

[١] الروضتين – بيروت :٢٩/٢.
[٢] المصدر نفسه:٢٩/٢.
[٣] المصدر نفسه: ٧٥/٢.

له يوم مسيرها أن تكدر عين الشمس بالعجاج الأكدر ، وتوجّه إلى أرض العدو وبجيش الهرقل ، وعزمة الإسكندر "[١].

ومن الجدير بالإشارة هنا، أن الفاضل لا يبدو حريصا وهو يتحدث عن المقاتلين المسلمين على وصف أسلحتهم وعدتهم القتالية، إنما يحرص على إبراز شجاعتهم وعزيمتهم وقوة إيمانهم، وما يبثونه من رعب في نفوس أعدائهم، ومن ذلك قوله:" وجيوش نصرة إذا عاينتها جيوش أعدائه جروا ذيول الهزائم ولا برحت جياده في أجياد الحصون تمائم، ولا فتئت أعداؤه يتساقون كأس الحتوف حيث السيوف أزاهر و الغمود كمائم، وجيشه المنصور يسير من أجنحة العقبان تحت غنائم، ومتى اضطرمت نار الهجير فطيور المنية على جداول السيوف حوائم، ونصر الله محيط في كل موقف تخون فيه السيوف القوائم " [٢]

ويشيد بمهارة المسلمين القتالية بقيادة صلاح الدين الذي استفاد في معاركه من عنصر المفاجأة والمباغتة، وسرعة الحركة، فيقول: " وصبّح الخادم طبرية فافتضّ عذرتها بالسيف، وهجم عليها هجوم الطيف، وتفرق أهلها بين الأسر والقتل وعاجلهم بالأمر فلم يقدروا على الخداع والختل، ونهب من الذخائر والأموال، والعدد والأثقال والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام ما يزيد على التعداد "[٣].

و كأني بالفاضل قد حرص على تبيان أن المسلمين في معاركهم التي خاضوها مع الغزاة لم ينتصروا على أعداء ضعاف يجهلون أساليب الحرب والقتال، وإنما تغلبوا على جيوش قوية لديها كل مقومات القتال ومتطلبات الحرب. وتتضح هذه النزعة في كثير من كتاباته، ومكنها قوله:" ويقاتلون تحت ذلك الصليب أصلب قتال وأصدقه، ويرونه ميثاقا يبنون عليه أشد عقد وأوثقه، ويعدونه سورا تحفر حوافر الخيل خندقه "[٤].

وبعد أن يصف لنا الفاضل قوة كل من الجيشين: الإسلامي والفرنجي ينقلنا إلى ساحة المعركة التي يصفها متكئا في ذلك على عنصري الحركة والتلوين، فيقدم لنا صورة متحركة لساعة اللقاء بين الطرفين، إذ يركز تركيزا خاصا على نكاية المسلمين بالغزاة، وقد لا نرى فيها الأعداء إلا وهم يصرعون و ينهزمون، وقد يكون وراء هذا النوع من التصوير أن الفاضل لم يشهد هذه المعارك بنفسه، إنما بنى ما يصفه على التخيل والسماع. ولذلك فقد جاء وصفه للمعركة مفتقرا إلى سمة الواقعية، إذ لا نرى فيه وصفا تفصيليا دقيقا لأحداث

---

[١] الرسائل الأدبية للقاضي الفاضل (مخطوط):٣٨-٣٩.

[٢] المصدر نفسه:٣٨.

[٣] المصدر نفسه:٣٩.

[٤] الروضتين، بيروت: ١٠١/٢.

المعركة وفق تسلسلها، ومن الأمثلة على ذلك قوله في موقعة طبرية: " فلقيهم الخادم وقد اشتدت عليهم نيران العطش، وجازاهم الله بما تقدم من سيئاتهم فاشتد عليهم بطشه إذا بطش، فبنت سنابك الخيل سماء من العجاج، نجومها الأسنة، وطارت إليهم عقبان من الخيول قوادمها القوائم ومخالبها الأعنة، وتصوبت عيون السمر إلى قلوبهم فكأنما تطلب سوادها، وقصدت أنهار السيوف أكبادهم فكأنما أرادت أن تروي فؤادها، فشربوا كأس المنون لما توردت صفحات الصفاح وغازلتهم عيون الرماح، وعقدت لهم الحوافر غماما من الغبار، وأنزلت عليهم قطرا من السهام المتطايرة الشرار، وحدتها رعود من الصهيل، وأبرقت في جوانبها بروق من كل سيف صقيل "[١]، وقوله أيضا في موقعة أخرى حول عكا عام (٥٨٥هـ): " فاستدارت بهم رجال الجاليشية[٢]، تقذف شياطينهم بشهابها وتهوي إلى أوكار أفئدتهم طيور نشابها، وتجنيهم من القنا و النشاب ثمر الردى متشابها "[٣].

ومما سبق، نرى أن الفاضل يركز على نتيجة المعركة أكثر من تركيزه على أحداثها الواقعية، وأنه لا يتوقف طويلا عند التحام الجيشين وتطور القتال لكي ينقل لنا تفصيلات دقيقة لأحداث المعركة، وإنما هو يركز على انتصار المسلمين، ويحرص على إعلان نبأ النصر،
ثم يعبر عن فرحته وسروره به. ومن أجل ذلك جاء وصفه للمعركة أشبه ما يكون ببيانات إعلامية عاطفية حافلة بالانفعالات، يسعى من ورائها إلى تطمين المسلمين، وإشاعة المسرة والاعتزاز في نفوسهم.

وفي حديثه عن نتيجة المعركة، يعبر الفاضل عن شماتته بالعدو المنهزم ويسخر منه؛ إذ يرى أن ما حل به إنما كان جزاءً وفاقًا على جرائمه، ولاسيما ما اقترفه رجاله من فظائع في بيت المقدس، حينما دخلوه في بداية الغزو الفرنجي لديار الإسلام. وما دام الأمر كذلك، فإن وصف ما لحق بالغزاة من قتل وأسر وإذلال، يصبح لدى الفاضل مصدر رضى واستمتاع. وهذا واضح في قوله مصورا هزيمتهم بمعركة حطين من بشارة على لسان صلاح الدين وجهها إلى بغداد: " وكان الخادم لقيهم اللقاة الأولى فأمده الله بمداركته، وأنجده بملائكته فكسرهم كسرة ما بعدها جبر وصرعهم صرعة لا يعيش معها بمشيئة الله كفر، وأسر منهم من أسرّت به السلاسل، وقتل منهم من فتكت به المناصل، وأجلت المعركة عن صرعى من الخيل والسلاح والكفار، وعن أنصاف نخيل،

---

[١] الرسائل الأدبية للقاضي الفاضل (مخطوط):٤٠.
[٢] راية عظيمة في رأسها خصلة من الشعر، وهي هنا مقدمة الجيش، انظر سيرة صلاح الدين:٦٢
[٣] الروضتين، بيروت:١٤٤/٢.

فإنه قتلهم بالسيوف الأفلاق، والرماح الأكسار، فنيلوا بثأر من السلاح ونالوه أيضا بثار "[١].

وفي حديثه عن أسرى الفرنجة يقول: " فلو رأيت أطناب الخيم في أعناق الأسرى يساقون مقرنين، لحمدت الله الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين "[٢]. ويختلط شعور الشماتة بمشاعر الفرح، حينما كان الفاضل يتحدث عن ملوك الغزاة العظام وقادتهم الشجعان الذين أسرهم المسلمون إثر معركة حطين، من أمثال ملك بيت المقدس وصاحب الكرك، وغيرهما،ويقدم الفاضل فيما كتبه عن المعركة صورة دموية مرعبة وهو يتحدث عن رؤوس الغزاة المرفوعة على أسنة الرماح، إذ يقول:" وعاد المسلمون برؤوس عدوهم في رؤوس القنا وقد اجتنوا ثمراتها، وبأرواحهم في صدور الظبى، وقد أطفؤوا بنارها جمراتها "[٣].وقد سار الفاضل على نهج غيره من كتّاب المسلمين وشعرائهم حين عد دماء الغزاة من الفرنج مادة تطهير للأرض الإسلامية المقدسة التي دنسها الأعداء باحتلالهم لها ، إذ يقول : " فلله الحمد أن أحرمت الصخرة بذلك البنيان المحيط،وطهرها ماطر من دم الكفر، وما كان ليطهرها البحر المحيط " [١].

وقد ارتبطت هزائم الفرنج بمرافقة السباع والطيور الجوارح للجيش الإسلامي، حتى تتغذى على جثث القتلى من الغزاة، كما تبين في قوله: " فلله هو من يوم تصاحب فيه الذئب والنسر "[٢]. ومثل هذه الصورة، من الصور التقليدية الموروثة التي تداولها الشعراء في الشعر العربي المرتبط بالواقع و الحروب"[٣].

ويتوقف الفاضل وهو يتحدث عن المعركة عند الآثار النفسية لهزيمة الأعداء فيرى في هزيمتهم سقوطا لهيبتهم، وزوال التهيب منهم، ووقوع هيبة المسلمين في نفوسهم، حتى صار الخوف من المسلمين حليفهم كما يرى ذلك في حديثه عن أثر معركة حطين بقوله: " وقد أظفر الله بالعدو الذي تشظت قناته وكانت شفقا، وطارت فِرَقُهُ فَرَقا، وفل سيفه فصار عصا، وصدعت حصاته وكان الأكثر عددا وحصا، فكلّت حملاته وكانت قدرة الله تصرّف فيه العنان بالعيان، عقوبة من الله ليس لصاحب يد بها يدان، وعثرت قدمه وكانت الأرض لها حليفة، وغضت عينه وكانت عيون السيوف دونها كسيفة، ونام

---

[١] صبح الأعشى:٤٩٩/٦.
[٢] الفاضل من كلام القاضي الفاضل (مخطوط): ورقة ١٠٠.
[٣] المصدر نفسه: ورقة:٩٨.
[١] مفرج الكروب: ٤٩٧/٢.
[٢] الرسائل الأدبية للقاضي الفاضل (مخطوط): ٢-٤.
[٣] شعر الحرب في العصر الجاهلي، علي الجندي: ١٩٩.

جفن سيفه وكانت يقظته تريق نطف الكرى من الجفون، وجدعت أنوف رماحه وطالما كانت شامخة بالمنى أو راعفة بالمنون..."[٤].

وما من انتصار حققه صلاح الدين على الفرنج، إلا كان حافزا للفاضل لكي يحث سلطانه على مواصلة الجهاد ضد الغزاة، حتى تستنقذ بقية الأراضي الإسلامية من أيديهم. ومن ذلك قوله مخاطبا السلطان إثر تحرير بيت المقدس: " ومن طلب خطيرا خاطر، ومن رام صفقة رابحة جاسر، ومن سما لأن يجلّي غمرة غامر، وإلا فإن القعود يلين تحت نيوب الأعداء المعاجم فتعضها، ويضعف في أيديها مهر القوائم فتقضها، هذا إلى كون القعود لا يقضي فرض الله في الجهاد، ولا يرعى به حق الله في العباد "[١].

وحرصا من الفاضل على استثارة همم المسلمين، كان يتحدث عن ارتباط الصليبيين بالصليب، وذلك في قوله: " وأسر الملك وبيده أوثق وثائقه، وآكَدُ وصله بالدين وعلائقه، وهو صليب الصلبوت وقائد أهل الجبروت، ما دهموا قط بأمر إلا وقام بين دهمائهم يبسط لهم باعه ويحرضهم وكان مد اليدين في هذه الدفعة وداعة، ولا جرم أنه يتهافت على ناره فراشهم ويجتمع في ظل ظلامه خشاشهم "[٢].

ويرى الفاضل في الانتصارات التي أحرزها المسلمون بقيادة صلاح الدين على الفرنج صورة من انتصارات المسلمين في فتوحاتهم الأولى، بل قد يرى فيها ما يزيد على تلك الفتوحات كما نرى في قوله : " وهذا فتح بل هذه فتوح قد ضاعف بها الله بهاء الإسلام والملة ، واستأنف إقبال أهل القبلة ، وأتت أيامها المختصرة على أكثر مما في التواريخ المشروحة من الفتوح "[٣] ، ويقول أيضا : " ولا كهذا النصر الذي خص مولانا وعم الإسلام ، ولا كهذا اليوم الذي أبقى الله له فضلا على الأيام ، وللقائم به فضلا على الأنام " [٤]

- وصف حروب الحصون والقلاع:

اتكأ الفرنجة في حروبهم على كثافة الجيش، و التحصينات المنيعة وذلك ليحبطوا أي هجوم من الجيوش الإسلامية، وليحافظوا على ما احتلوه من

---

[٤] صبح الأعشى في صناعة الإنشا: ٤٩٩/٦.
[١] صبح الأعشى في صناعة الإنشا: ٤٩٨/٦
[٢] الروضتين، بيروت: ١٠١/٢.
[٣] الرسائل الأدبية للقاضي الفاضل (مخطوط): ١٣٦.
[٤] المصدر نفسه: ٢١٤.

أراض، وهذا ما صوره القاضي الفاضل خير تصوير في رسائله، ويعد هذا النوع من التصوير مما أبدع فيه القاضي الفاضل أيما أبداع. يقول الأستاذ محمد كرد علي: " إذا استثنينا الدور الروماني فإنه لم يأت على الشام زمن توفرت الهمم فيه على البناء مثل عهد الصليبيين. فإن كل مستعمرة تجارية في الموانيء البحرية، كانت تحاول أن يكون لها على الأقل كنيسة وخانات، ثم القلاع التي غصّ بها القطر، وهي أحسن نموذج للهندسة الحربية في القرون الوسطى " [1].

ولا يشك الباحث أن من أهم الدوافع إلى بناء تلك التحصينات شعور الصليبيين بالغربة عن هذه البلاد، والمبالغة بالتحصينات والإنفاق عليها يدلان على ذلك، فقد بلغت تكاليف بناء حصن بيت الأحزان وحده ثمانين ألف دينار على ما ذكر القاضي الفاضل في رسالة له أرسلها إلى صلاح الدين عام (٥٧٥هـ):" وقد عرّض حائطه إلى أن زاد على عشرة أذرع، وقطعت له عظام الحجارة، كل فصّ منها من سبعة أذرع إلى ما فوقها وما دونها، وعدتها تزيد على عشرين ألف حجر لا يستقر الحجر في مكانه، ولا يستقر بنيانه إلا بأربعة دنانير إلى ما فوقها "[2]. وهذا المبلغ الذي أنفق في بناء الحصن كانت له في ذلك الوقت قيمة شرائية تفوق أضعاف أضعاف ماله في زمننا هذا.

لقد وصف الفاضل الكثير من الحصون الفرنجية في رسائله وهي: حصن بيت الأحزان، وحصنا الكرك والشوبك، وحصن برزية، وحصن عسقلان، وقلعة الداروم، وكوكب، وأيلة، وغزة... وغيرها.

توقف الفاضل عند وصف هذه الحصون؛ لأنها كانت منه مقومات قوة الفرنجة ومنعتهم، فبذلك يعطي صورة واضحة عن حصانتها ومنعتها، ثم يعطي صورة عن قدرة المقاتلين المسلمين الذين استباحوها وهدّموها. وفي أدب الفاضل ما يدل دلالة واضحة على أن الغزاة كانوا مهرة حاذقين في إقامة التحصينات، وتخير مواقعها؛ إذ كانوا يقيمونها على رؤوس الجبال المحاطة بالأودية العميقة من معظم الجهات ، ويضربون حولها الأسوار المنيعة ذات الأبراج العالية ، ويحفرون حولها الخنادق الواسعة حتى يتعذر على من يهاجمونها الوصول إليها . ومن ذلك قوله في حصن بيت الأحزان، حينما هاجمه صلاح الدين: " ونظر ما أتقن به الكفر، وتم له من حصن مشرف الأبراج مشرّفها، موضوع على أشرف التلال الوعرة وأقهرها لمن تحته وأكشفها، لا تثبت القدم فيه بفأس يحفر لموضع أخمصها، ولا تستقر النظرة عليه إلا على خطر من شرقها بماء مهابته وغصصه"[1]، وقوله أيضا في قلعة أيلة التي كانت من شدة علوها كأنها تعانق السحاب :" شاهدنا قلعة يحتاج

---

[1] خطط الشام، بيروت:٢٧٨/٥.
[2] الروضتين، بيروت:١٣/٢.
[1] الروضتين، بيروت: ١٣/٢.

راميها إلى الدهر المديد ، والأمل البعيد ، والزاد العتيد ، والبأس الشديد ، تنبو بعطف جامح عن الخطبة وتعرض بذكر مانع عن الضربة ، وتعطف بأنف عن السحاب شامخ وتطلع في الصباح بوجه شادخ ، كأن بينها وبين الأيام زمام ، وكأن نار الحوادث إذا بلغت ماءها برد وسلام"[٢].

ومما تقدم يتبين لنا مدى الجهد العظيم الذي بذله المقاتلون المسلمون الذين استباحوا هذه التحصينات المنيعة التي عانى المسلمون وجودها أيما معاناة في حروبهم مع الصليبيين، إذ اتخذوا منها أداة لمضايقة المسلمين وشلّ تحركاتهم وتوهين اقتصادهم، فكانت مرصدا لتحركاتهم العسكرية ومغارا على قوافلهم التجارية القادمة من مصر، أو الذاهبة إليها، وهذا واضح في حديث الفاضل عن حصن كوكب، إذ يقول: " وهي كرسي (الاسبتالية[٣])، ودار كفرهم، ومستقر صاحب أمرهم، وموضع سلاحهم وذخرهم، وكان بمجمع طرق قاعدا، ولملتقى السبل راصدا، فتغلقت بفتحه بلاد الفتح، واستوطنت وسلكت طرقها، وأمنت، وعمرت بلادها وسكنت "[١].

ومن أجل ذلك، كان الفاضل في كتاباته يتحدث عن خطورة هذه التحصينات والقلاع على الإسلام والمسلمين، ليحرّض المسلمين على إزالتها، وكان لحصن الكرك خطورة خاصة، إذ إنه كان يقع على طريق الحج، ويعترض من فيه قوافل الحجاج كما هو واضح في قول الفاضل: " وهو شجى في الحناجر، وقذى في المحاجر قد أخذ من الآمال بمخنقها، وقعد بإرصاد العزائم وطرقها، وصار ذئبا في ذلك الفج، وعذرا لتارك فريضة الله من الحج، وهو حصن الشوبك- يسر الله الآخر فتحه – كبيت الواصف للأسدين:

ما مر يوم إلا وعندهما   لحم رجال أو يولغان دما[٢]

وفي حديثه عن الجيش المغير على حصن بيت الأحزان: " وفيه من راتبة الرجال ما بين فارس كبير وغلامه، وراجل مدون وصاحبه، وصاحب سلاح وقوت وبنّاء وتابعه، ما يزيد على ألف وخمسمئة راجل، وهذه عدة لم يسمع من قبل بانحصارها في طرف لمرام النوب ولا بانحشارها في هدف لمرامي الطلب. وفيه من الجروخ[٣]الوثيقة ما يزيد على وطأة المجانيق الشديدة الأثر، السديدة الحجر من كل سهم يتصل بحديد يزيد على أربعة أرطال

---

[٢] صبح الأعشى: ٢٨/٧.

[٣] أطلق العرب هذه التسمية في عصر الحروب الصليبية على طائفة من الفرسان الدينيين ، وكانت الدار التي يسكنها هؤلاء الرهبان تتخذ مأوى للحجاج والمرضى من المسيحيين، وتشبه هذه الطائفة إلى حد كبير فرسان المعبد التي عرفها العرب باسم (الداوية).(سيرة صلاح الدين:٧٧- حاشية رقم (٥)

[١] الروضتين، بيروت:١٣٦/٢ .

[٢] الروضتين، بيروت: ٥٥/٢. والفاضل من كلام الفاضل (مخطوط): ورقة:٢٥.

[٣] نوع من القسي يرمى عنه النشاب أو النفط ، وهي من أصل فارسي ، وجمعها جروخ: (سيرة صلاح الدين :٤٢.)

بالبغدادي وزنة، ويمضي في الجبل فلا يثبت له متنه، بل يتقعقع شنه، بل يقلع به سنه، وقد نصبت عليه مجانيق يروع خاطر الجسارة منظرها، وتلتهم الحصون، فكيف الخيام حجرها؟ ويسري إلى الأجساد بالروع خبرها وحفر له خندق أحاط بالمدينة سرادقه، وفتحت أبوابها ثقة بما صانته مغالقه. وقد بنوه حتى لا تنهار حروفه، ووسعوه حتى لا تنهار جروفه، وأقرت على جوانبه رجال تتوفر قسيهم القاسية سهامها "[٤].

ثم نرى صورة الجيش الإسلامي وهو محيط بالحصن من كل جانب، والسلطان بين رجاله يطوف حول الحصن، من أجل معاينته واكتشاف ثغراته، لكي يحددوا للنقابين والرماة مواقعهم، ثم يصدر أوامره بالهجوم بعد أن يضع خطة الهجوم، فتبدأ عمليات النقب، ويدك المقاتلون أسوار الحصن وأبراجه بالمجانيق، ويرمونه بالسهام من كل ناحية، حتى يشلوا حركة من فيه، ويرغموهم على التواري داخل حصونهم التي لم تعد قادرة على حمايتهم، ومن الأمثلة على ذلك قوله حين هاجم صلاح الدين حصن بيت الأحزان: " وفي الحال أطافت به المقاتلة من جميع أقطاره، ولبوا تلبية الحجيج، وكل يرمي جمرة سهمه، وعبرت الآجال المسماة على قناطر القسي المحنية وقدحت زنودها البيض شرار جمر المنية، فصارت الأبرجة كأنها مستلئمة بسلاحها أو كأنها لكثرة ريش السهام طائرة بجناحها، أو كأنها صدور قد أظهرت حسك الضغائن، أو كأن أبرجتها لازدحام السـهام بها كنائن. فتجـدد عليهم حصر بان في البيوت بعد الحصر في المدينة، وضاق مجال اليد عن إنجاد خواطرها العينة المهينة "[١].

ثم يقدم لنا صورة متحركة للهجوم على هذه التحصينات المنيعة وامتلاكها بعد نقب أسوارها وتهدم أبراجها إثر ضربها بالمجانيق، ويعبر بعد ذلك عن فرحته الغامرة بسقوط ذلك الحصن بأيدي المسلمين، ويعلن نبأ استباحته على الأمة الإسلامية. ومن ذلك قوله في مهاجمة حصن الداروم: " وصابحنا الدير بقتال جعل كل من في حصن الدير راهبا، ونصبنا عليه منجنيقا لا يزال شهاب القذف ضاربا. فلما تعالى النهار ملكنا ربضه، وأطلقنا فيه النيران، ورملنا الرجال بالدم، وأرملنا النساء "[٢].

قدم الفاضل وصفا دقيقا للأسوار والأبراج الشامخة، إثر قذفها بالمجانيق بقوله: " وأخذنا نقوبا في باشورتها[١] فهدمناها، وما لمحناها مع شدة بأسها حتى محوناها، وصلت منجنيقاتنا في قبلة أسوارها، فما زالت سهامها

[٤] الرسائل الأدبية للقاضي الفاضل (مخطوط):١٢٦-١٢٧.
[١] الرسائل الأدبية للقاضي الفاضل (مخطوط):١٢٩.
[٢] الروضتين، حلمي:ج١ ـق٤٨٩/٢.

[١] الباشورة: الحائط الخارجي للحصن الذي يختبىء خلفه الجند عند القتال للدفاع عن الحصن (سيرة صلاح الدين:١٥٣.)

تركع، وأحجارها تسجد، ونجوم رجومها لشياطين الكفر يقذف ويطرد، حتى هدمنا الباشورة الصغرى التي تحت سورها، ودمرناها وخربنا أبراج السور وأبدانه، وثغرناها، واستبحنا المعقل، وإن كان منيعا حصنه، رفيعا تله، حديدا حده، وطالما أعجز الأيام والأنام فله "[٢].

تعمد الفاضل التركيز على انهيار العدو أمام جنود المسلمين، فهاهو ذا يقول: " فأطفنا بها متبصرين ونزلنا من ناحية البر بها مفكرين، وبينا نحن نأمر بالحرب أن يشب أوارها، وبالخيل أن تسير أسرارها، وبنار اللقاء أن يستطير شرارها، وبقناطير الموت من القسي أن تعقد أوتارها، بالمجانيق أن تعقد حناياها، وتحلّ أوزارها، وبالكواكب أن تذيقهم طعم الصغار كبارها؛ إذ نادى مناد من أعلى قمتها، ورأس قلتها [٣]معلنا بالأمان ناسخا لآية الكفر بآية الإيمان "[٤]

والجدير بالذكر أن الفاضل لم يذكر النساء من الأعداء، وذلك يعود إلى أن الجهاد كان الهدف الأسمى لهم في تلك الآونة، ولا هم لهم في السبي وغيره، ولكننا نرى الفاضل يفصل الحديث عن الأحوال الجوية القاسية التي رافقت المعارك، ومن ذلك قوله في بشارة وجهها إلى سيف الإسلام، صاحب اليمن أخي صلاح الدين بقوله: "

وكان نزولنا على كوكب والشتاء في كوكبة وقد طلع من الأنواء موكبه، والثلوج تنشر على الجبال طي ملائها، والأودية قد عججت بمائها وفاضت عند امتلائها فشمخت أنوفها سيولا، وخرقت الأرض وبلغت الجبال طولا، والأوحال اعتقلت الطرقات، ومشى المطلق فيها مشية الأسير في الحلقات، فتجشمنا العناء نحن ورجال العساكر، وكابرنا العدو والزمان وقد تحرز الحظ المكابر، وعلم الله النية فأنجدها بفعلها، وضمير الأمانة فأعان على حملها، ونزلنا من رؤوس الجبال منازل كان الاستقرار عليها أصعب من ثقلها "[١]

وإثر سقوط عكا بأيدي الفرنجة أصاب السلطان حزن شديد صوره الفاضل، وحاول التخفيف عن صديقه ومولاه بقوله: " فلا تعظم هذه الفتوق على مولانا فتبهر صبره، وتملأ صدره، فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون، والله معكم، وهذا على دين ما غلب بكثرة، ولا نصر بثروة، إنما اختار الله تعالى له أرباب نيات، وذوي قلوب معه وحالات، فليكن المولى نعم الخلف لذلك السلف، لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة (واشتدي أزمة

---

(٢) الرسائل الأدبية للقاضي الفاضل (مخطوط):١٤٨-١٤٩.

(٣) القلة: أعلى الرأس والسنام، والجبل وكل شيء (اللسان:قلل).

(٤) صبح الأعشى: ٢٨/٧

(١) الروضتين، بيروت:١٣٦/٢.

تنفرجـي)، والغمـرات تـذهب ثـم لا تجـيء، والله تعـالى يـسمع الأذن مـا يـسر القلب، ويصرف عن الإسلام وأهله غاشية هذا الكرب "[٢].

وبوصف الفاضل لمهارة الفرنج فـي إقامـة حصونهم، يدلل علـى مهـارة المقاتلين المسلمين فـي اختيار أساليب تدمير هذه الحصون واستباحتها، كما هو الحال في حصن الشوبك الذي استعصى عليهم لسعة خندقه [٣].

٢- صلاح الدين الأيوبي في رسائله:

كان نور الدين محمود أحد الشخصيات الإسلامية التي خلدها التاريخ ، وهو الحـاكم الـذي : " كـان يمثـل أمـل أمـة ، وتطلعـات جماعـة إذ رأوا فيـه إحيـاء لشخصية الخليفة الراشدي ، في وقت اشتدت فيه حاجة المسلمين إلى مثل هذا الحـاكم ، بعـد أن بلـوا مـن سـوء الحكـام وأنـانيتهم مـا أذلهـم وأفقـدهم أرضـهم وأوطانهم "[١] .

وظل المسلمون يتطلعون إلى قيادة تملأ الفراغ الكبير الذي تركـه نـور الدين ، إلـى أن تـولى الأمـور صـلاح الـدين الأيـوبي ، وعمـل ثانيـة علـى توحيد الصفوف وتوجيـه الطاقـات إلـى مقاومـة الـصليبيين ،ممـا جعلـه موضـع إعجـاب وتقدير من شعراء عصره وكتّابه عموما، وفـي مقدمتهم القاضـي الفاضـل الـذي رأى في صلاح الدين الحاكم الذي تجسدت فيه مزايا القائد الإسلامي من تقوى وعدل ، وحكمة وشجاعة وحسن قيادة ، وغير هذه من الفضائل والصفات التـي أثبتهـا الـذين تحـدثوا عنـه ، كـابن شـداد ، والعمـاد الأصـفهاني ، وغيرهمـا مـن المؤرخين اللاحقين ، فلا عجب أن تصبح شخصية صلاح الدين هي الشخصية المحورية فيما كتبه القاضـي الفاضـل فـي مواكبـة الحـروب الـصليبية فـي تمجيد بطلـه المقاتـل فـي سـبيل الله لإعـلاء كلمتـه فـي الأرض ، ومـن ذلـك قولـه : " والذي أجراه الله على يد المملوك من الممالك من التي دوخهـا ، وسـنن الـضلال التـي نـسخها ، وعقـود الإلحـاد التـي فسخها ،ومنـابر البطـل التـي رحـضها[٢] ،

---

[٢] الرسائل الأدبية للقاضي الفاضل (مخطوط): ١٢٥.

[٣] الروضتين، بيروت: ٥٦/٢

[١] صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني: ١٥٦.

[٢] الرحض: الغسل والتطهير(اللسان، رحض)

وحجج الزندقة التي دحضها ، فلله عليه المنة فيه ، إذ أهّله لشرف مشهده ، وما فعله إلا لوجهه "[٣] .

والمعروف أن صلاح الدين ضحى براحته ، وهجر أهله ووطنه ، مؤثرا حياة الخشونة والجهاد على الراحة والدعة ، وزهد في الدنيا ، حتى إنه حينما انتقل إلى جوار ربه مع سعة ملكه لم يخلف مالا ولا عقارا وفي هذا يقول الفاضل أيضا عن صلاح الدين في إحدى رسائله إلى الخليفة في بغداد : " وقد علم أن الخادم بيوت أمواله بيوت رجاله ، وأن مواطن نزوله مواقف نزاله ، ومضارب خيامه لا أكنة ظلاله وأنه لا يدخر من الدنيا إلا شكّته[١]، ولا ينال من العيش إلا مسكته "[٢] .

وفي معرض حديث الفاضل عن الحوافز العظيمة لصلاح الدين في سبيل جمع الصف ومواجهة المحتلين ، يؤكد أن المكاسب الدنيوية ، وسعة الملك ليست هدفا يسعى إليه من وراء جهاده . وهذا واضح في إحدى رسائله إلى الخليفة إذ يقول : " ولو اتسع ما ساقه هذا الصدر أخيرا من النزول عما فتحه من البلاد التي هو متقلدها ،واستخلصه من الأعمال التي ما زال يطلب ضالتها ، وينشدها لإجابة الخادم ، ولكنه مدفوع إلى إرادة التكثير بالرجال لا بالأعمال وبأيدي الجهاد لا برقاب البلاد ، فسبيل الخادم أن يبني ولا يهدم ، وتوفر جوانبه ولا تثلم"[٣] .

ويؤكد الفاضل أن بطله صلاح الدين قد تحمّل عبء الجهاد وحده دون غيره من الحكام المسلمين الذين وقفوا منه موقف المتفرج المراقب من بعيد في وقت كانت الحاجة فيه ملحة لوقوفهم إلى جانبه في مواجهة الفرنج والتصدي لهم. فيقول في إحدى رسائله إلى صلاح الدين وهو على عكا : " وليس لك من المسلمين كافة مساعد إلا بدعواه ، ولا مجاهد معك إلا بلسانه ، ولا خارج معك إلا بهمّ ، ولا خارج بين يديك إلا بالأجرة ، ولا قانع منك إلا بزيادة تشتري منهم الخطوات شبرا بذراع ، وذراعا بباع ، تدعوهم إلى الله ، وكأنما تدعوهم إلى نفسك وتسألهم الفريضة وكأنك تكلفهم النافلة وتعرض عليهم الجنة وكأنك تريد أن تستأثر بها دونهم " [٤] .

ولكي يعلي الفاضل من شأن بطله ، كان يقارن بينه وبين من يتفرد عنهم من الحكام المسلمين الذين تخاذلوا عن مواجهة الغزاة ونصرة الدين . ومن ذلك قوله : ولو أن أحدا ممن يدعي الملك ميراثا ، ويعد البلاد له تراثا ، دفع إلى مدافعة هذا العدو الكافر ، وإلى منافرة هذا الفريق النافر ، لعرّفته الأيام ما هو

---

[٣] الروضتين، حلمي: ج١ق٦٢٣/٢.

[١] الشكة: ما يلبس من السلاح أو يحمل، (اللسان: شكك).

[٢] الرسائل الأدبية للقاضي الفاضل (مخطوط):٦٧.

[٣] المصدر نفسه : ٦٦-٦٧.

[٤] الروضتين، بيروت:١٦٨/٢.

جاهله ولقلدته الحرب ما هو قائله ، ولحمّلته الأحوال ما تخور تحته محامله "[١]

وصلاح الدين ، كان كما يرى الفاضل الرجل الذي يمثل تطلعات الأمة الإسلامية وآمالها التي عاشت معها طوال الاحتلال الصليبي للبلاد . ومن أجل ذلك استحق أن يتولى قيادة المسلمين في حربهم ضد الغزاة، لأن مزايا الحاكم والقائد قد اجتمعت فيه دون غيره من حكام العصر .

ولا ينسى الفاضل وهو يتحدث عن بطله أن يتوقف عند شجاعته وإقدامه فيقدمه لنا شجاعا ، يتقدم الجيوش بنفسه في ميادين القتال ، حتى كان الرعب منه مظهرا من مظاهر شجاعته وهيبته ، وهو رعب كان يبعث الخوف في نفوس أعدائه ، قبل أن يلتحم معهم في معركة . ولذا فإن المدن الصليبية قد تسلّم إليه أبناءها وتنضوي تحت رايته ، تخوفا وتهيبا كما يتراءى للفاضل : " فالحمد لله الذي جعل النصر لائذا بأعطاف اعتزامه ، وأنامل الرعب السائر إلى الأعداء محرّكة عذبات أعلامه " [٢] ؛ وذلك لأنه جمع إلى التقوى والاعتماد على الله الشجاعة والإقدام في معاركه ، وحين تجتمع هذه العناصر معا ، فلا بد من بلوغ النصر ، كما صوّر ذلك الفاضل في حديثه عن مهاجمة صلاح الدين لحصن بيت الأحزان المنيع ببنائه وبمن فيه ، إذ يقول : " وعلم أن أمرا أوّله الاستخارة وأوسطه الاستثارة ، وخاتمته الجسارة ، فإن الجامع بينها لا يندم "[٣].

ويشيد الفاضل بإرادة بطله صلاح الدين ، فيقدمه لنا ماضي العزم ، قوي الإرادة ، وذلك حين يقول إثر فتح بيت المقدس من رسالة إلى بغداد : " وهو مجد في استفتاح بقية الثغور، واستشراح ما ضاق بتمادي الحرب من الصدور "[١] ، ولم تكن المصائب تنال من عزمه وقوة إرادته ؛ إذ كان يحتملها برحابة صدر ، وثقة مطلقة بنصر الله في النهاية ، ومن مظاهر صبره وقوة عزيمته وثقته بالنصر حتى بعد تعرضه لنكسات خطيرة ما قام به بعد هزيمة الرملة بفترة وجيزة ، إذ أعاد تنظيم صفوفه ، وأغار على مدن الصليبيين وقلاعهم الحصينة في عمق الأرض المحتلة . يقول الفاضل في ذلك : " وأما نوبة العدو في الرملة ،فقد كانت عثرة ، علينا ظاهرها ،وعلى العدو باطنها ، ولزمنا ما نسي من اسمها ، ولزمهم ما بقي من عزمها ، لا دليل أدل على القوة من المسير بعد شهرين من تاريخ وقعتها إلى الشام ، نخوض بلاد الفرنج

---

[١] الرسائل الأدبية للقاضي الفاضل (مخطوط):٦٧.
[٢] صبح الأعشى: ٥١٥/٦.
[٣] الرسائل الأدبية للقاضي الفاضل (مخطوط): ١٢٨.

[١] الرسائل الأدبية للقاضي الفاضل (مخطوط):١٧٤ .

بالقوافل الثقيلة والحشود الكثيرة ، والحريم المستور ، والمال العظيم الموفور "[٢] .

ومما له قيمة خاصة في حديث الفاضل عن صلاح الدين ، أنه كان يصدر فيه عن واقع وحقيقة ، لا عن أوهام ومبالغات ، وهو الإنسان القريب منه، المطلع اطلاعا وثيقا على أعماله وتحركاته . ولم يبتعد الفاضل عن الحقيقة حين تحدث عن صبر صلاح الدين على مواصلة القتال رغم كثرة الأعداء ، وقلة موارده المادية والعسكرية ، وضجر جنده في حصار عكا . فهو يقول في رسالة له كتبها إلى الخليفة العباسي في تلك الظروف الصعبة :" ولو أن في التصريح ما يعود على عدالته بالتجريح ، لقال ما يبكي العين ، وينكي القلوب، وتنشق له المرائر ، وتشق له الجيوب ، ولكنه صابر محتسب ، منتظر لنصر الله مرتقب ، قائم من نفسه بما يجب : رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي"[٣]. وصورة صلاح الدين في نثر الفاضل ليست صورة القائد العسكري الشجاع فحسب ، إذ هو كذلك رجل حكم وسياسة وحسن تأت للأمور في علاقاته مع القوى السياسية الأخرى ، كما يتضح من عمله في فترة من الفترات على إقامة علاقات طيبة مع المدن الإيطالية ، بغية توقف هذه المدن عن دعم الصليبيين في بلاد الشام قبيل معركة حطين . ومن مظاهر هذه الحنكة السياسية أنه استغل سوء العلاقات بين الدولة البيزنطية والفرنج ، فحسّن علاقاته مع البيزنطيين، حتى صاروا عيونا له عليهم يطلعون على تحركاتهم وخططهم قبل تنفيذها ، وقد استغل الخلافات الداخلية في صفوف الفرنج من أجل أن يفرق كلمتهم ، ويضعف جبهتهم الداخلية . وفي هذا يقول الفاضل : " فإن في تخاذلهم نصرة للإسلام ، وشغل بعضهم بعضا وافتراق كلمتهم المجموعة، وقطعا للميرة عن الشام ، وأمنا لجانب كثير من جوانب البحر "[١]، ويقول أيضا مشيدا بحنكة بطله السياسية وحسن تدبيره للأمور : " ولقد سخر الله سبحانه في صدره بحر الحكمة ، وسنح على لسانه جوهره ، فهو إن سلك سلك جددا[٢]، وإن أشار أشار سددا ، وإن قال قال رشدا ، وإن تفاوتت رتب أعضاء الخلق ، فقد ظهر قلبا و لسانا ويدا "[٣] ومن مظاهر سداد رأيه وحكمته خطته التي رسمها لتحرير بيت المقدس ، يقول الفاضل في بشارته القدسية التي بعثها إلى الخليفة : " ولما لم يبق إلا القدس وقد اجتمع إليها كل شريد منهم وطريد ، واعتصم بمنعتها كل قريب منهم وبعيد ، وظنوا أنها من الله مانعتهم ، وأن كنيستها إلى الله شافعتهم . فلما نازلها رأى بلدا كبلاد ، وجمعا كيوم التناد ،

---

[٢] مفرج الكروب: ٦٥/٢.

[٣] صبح الأعشى:١٢٩/٧.

[١] الروضتين، بيروت: ١٧٨/٢.

[٢] الجدد: الأرض المستوية ، اللسان: جدد)

[٣] الرسائل الأدبية للقاضي الفاضل (مخطوط): ٦٧-٦٨.

وعزائم قد تألبت وتولفت على الموت فنزلت بعرصته ، وهان عليها مورد السيف وأن تموت بغصته "[٤].

ولقد أدرك كثيرون من رجال الفرنج أنفسهم ما تميز به صلاح الدين من صفات ، كما يتضح من قول مؤرخهم وليم الصوري : " إن كل زيادة في قوة صلاح الدين تثير فينا الخوف و الرعب ، لأنه كان رجلا حكيما إذا أشار ، مقداما في الحرب إذا نهض لها ، بالغ السخاء إذا أعطى "[٥]

الفصل الثالث - عوامل تأثير مذهبه الفني في عصره:

امتد أثر طريقة القاضي الفاضل الكتابية إلى عصور تالية لعصر كاتبنا؛ فقد لاقت هذه الطريقة قبولا من معاصري القاضي الفاضل، وممن جاء بعده .

وتبين من البحث أن عوامل ذيوع الطريقة الفاضلية متنوعة ومتداخلة ؛ فمنها ما كان له صلة وطيدة بالمكانة السياسية التي تبوأها القاضي الفاضل في الدولة الأيوبية ، ومنها ما يتصل بمكانته الأدبية والثقافية، ومنها ما كان وثيق الصلة بسلوكه الاجتماعي وأخلاقياته، ومنها ما كان للمجتمع فيه دور بارز . وسأتناول هذه العوامل بالتفصيل :

-مكانته السياسية والأدبية:

افتتح القاضي الفاضل أنصع صفحات حياته يوم اتصل بصلاح الدين الذي فوّض إليه الوزارة وديوان الإنشاء ، واتّخذه ساعده الأيمن فيما أراده من إصلاحات مالية وحربية ، وقد كان صلاح الدين يعرف للقاضي الفاضل منزلته في نفسه وبين الناس ، وقد رأينا ما قاله صلاح الدين له حينما أراد التوسط للعماد الكاتب ليلحقه بكتاب الإنشاء ، وقد أوردت أمثلة كثيرة على منزلة القاضي الفاضل عند صلاح الدين.

وفي النظر إلى أبرز من اتبع طريقة القاضي الفاضل الكتابية يمكن ملاحظة أنهم كانوا يدينون له بإلحاقهم بالعمل في أعلى المناصب في الدولة الأيوبية؛ مما جعلهم يعبرون عن ولائهم له بالسير على طريقته الكتابية ، من مثل : العماد الأصفهاني ، وابن سناء الملك ، وابن الأثير .

أما العماد فإن القاضي الفاضل ألح على صلاح الدين في استكتابه : " هذا يحل التراجم ، وربما غبت أنا ، ولا أقدر على الكتابة عنك ، فإذا غبت قام العماد الكاتب مقامي ، وقد عرفت فضل العماد وخدمته للدولة النورية "[١].

---

[٤] المصدر نفسه:١٦٨.

[٥] الشرق الأدنى في العصور الوسطى: ٥٢-٥٣.

[١] النجوم الزاهرة : ٧٤/٦ .

وقد اعترف العماد صراحة في كثير من رسائله بفضل القاضي الفاضل عليه في هذا الشأن من ذلك قوله : " فأنا ممتثل أمره المطاع ، ملتزم له بقانون الاتباع، وأضع أذني لأذنه ، قابض يمني على يمنه ، راكن بأمله إلى ركنه ، قاطن برجائه في ظل فيئه أقترض رضاه ، ولا أحكم على ما يحكم به ويراه ، ولا أقوم إلا حيث يقيمني ، ولا أسوم إلا ما يسومني ، ولا أعرف يدا ملكتني غير يده ، ولا أتصدى لما جعلني بصدده ، وأسأل الله التوفيق للثبات على هذا السنن وانتهاج حده "[١] .

أما ابن سناء الملك فإن القاضي الفاضل هو الذي ألحقه بخدمة صلاح الدين أيضا ، لذلك خصّه بسبع وثلاثين قصيدة من قصائده المدحية التي بلغت خمسا وسبعين [٢]، وكان القاضي الفاضل أثيرا لديه لأنه كان له أستاذا وموجها ، ولوالده صديقا ومحبا ، مما جعل ابن سناء الملك مدينا له بشهرته الأدبية ، ومناصبه المهمة التي خلقت منه شاعرا يحتل مكانة مرموقة بين شعراء عصره ، بعد أن صادف في بداية أمره من المتاعب ما جعله يعرض بمن يمدحهم ، وقد اعترف ابن سناء الملك بمعاونة القاضي الفاضل له ؛ حيث قال : " إنه كثّر قليلي، وسمّن هزيلي ، وفخّم ضئيلي ، وأعطاني من المدح ما لا أستحقه ، ومنحني من الوصف ما لا أستوجبه ، ورفع أقوالي فوق قدرها ، ودفع لعقائلي فوق مهرها ، فضلا منه ومنا وإحسانا وحسنا ... وهو الغني وأنا المحتاج إليه، وهو المعطي وأنا الآخذ منه، وهو الأستاذ وأنا التلميذ له والمتعلم منه " [٣].

وأما ضياء الدين ابن الأثير فقد كان القاضي الفاضل أيضا هو وسيلته للعمل بخدمة صلاح الدين كسابقيه ، وقد أشار إلى ذلك ابن خلكان [٤]، وإن كان ابن الأثير لم يعترف باتباعه للقاضي الفاضل ، وتأثره به لعوامل شخصية تتعلق بابن الأثير ، فإنه تأثر به ، وحاول أن يعارضه ويعلو عليه ، ولكنه لم يستطع التخلص من تأثير فنه الكتابي[١] ، وما دفع القاضي الفاضل إلى إلحاق ابن الأثير بخدمة صلاح الدين إلا حبه للأدباء وعطفه على ناشئتهم .

وقد هيأت المنزلة الرفيعة للقاضي الفاضل في الدولة الأيوبية أن يباري سلطانه في حماية العلوم وأربابها ، والتشجيع على النهوض العلمي والأدبي ؛ إذ إنه كان يبذل مساعداته المادية والأدبية ، فيبسط سيطرته على الأدباء والمؤلفين ، وقد سبق أن رأينا أمثلة على ذلك . ولم يكن القاضي الفاضل

---

[١] خريدة القصر وجريدة العصر (قسم شعراء مصر) :١/٣٦-٣٧ .
[٢] ابن سناء الملك : حياته وشعره ، محمد إبراهيم نصر :٥٧ .
[٣] فصوص الفصول : ٣.
[٤] وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان : ٥/٣٩٠ .
[١] ضياء الدين ابن الأثير وجهوده في النقد :٤٣

بوصفه أديبا يبذل تلك الرعاية الكبيرة إلا لأصحاب المواهب الذين يرى أنه يرجى منهم أطيب الثمرات إذا مهدت أمامهم طرق الحياة ؛ فهو لم يرفع من شأن العماد إلا لأنه كان يراه كالزناد الوقاد [٢]، ولم ينبه على فضل ابن مماتي إلا بعد أن رأى نبوغه في التأليف مما جعله يقول عن كتاب ألفه ابن مماتي وسماه كتاب (حجة الحق على الخلق) ؛ في التحذير من سوء عاقبة الظلم : " على ما لا تحصى عدته ، فما رأيت والله كتابا يكون قبالة باب منه ، وإنه والله من أهم ما طالعه الملوك "[٣]، وما رفع ابن سناء الملك إلى ما وصل إليه إلا لما رآه فيه من ذكاء مما جعله يقول عنه : " نعم الصاحب الذي لا تخلفه الأيام ، ولا يعرف له نظير في الأقوام ... وكان حافظا لكتاب الله ، مشتغلا بالعلوم الأدبية "[٤] .

ولما عرف العلماء فيه حبه للأدب والأدباء أخذوا يؤلفون الكتب باسمه ويهدونها إليه ، ومثال ذلك ما فعله محمد بن هبة الله البرمكي الحموي أحد فقهاء عصره الذي ألف أرجوزة في الفرائض وسماها: (روضة المرتاض ونزهة الفرّاض) وأهداها إليه ، وقد جاء في هذه الأرجوزة قول مؤلفها :

جمعتها لجامع الفضائل الأوحد القاضي الأجل الفاضل[٥]

كما أهدى إليه جعفر بن شمس الخلافة الأفضلي كتاب: (الآداب النافعة) ذلك الكتاب الذي يقول عنه مؤلفه : " عنونته بكتاب الآداب وأرجو أن يصير ذكره ببرودة من ألف برسمه ، وشرف باسمه القاضي الأجل عبد الرحيم " [١] .

والأمثلة على ذلك كثيرة جدا تدل على تولي القاضي الفاضل أمر العلم والعلماء، والأدب والأدباء في عصره.

ومما يجدر ذكره في هذا المقام أن القاضي الفاضل كان له دور كبير في توسيع الرزق على القائمين بشؤون العلم والأدب في عصره حتى صار كما يقول هو : " أرزاق أرباب العمائم إقطاعا وراتبا يتجاوز مائتي ألف دينار ، بشهادة الله، وربما كانت ثلاثمئة ألف دينار "[٢] .

وما كان للقاضي الفاضل أن يهتم بالعلوم هذا الاهتمام لولا مكانته السياسية التي سبقت الإشارة إليها وحبه للأدب ورجاله كما -سبق ذكره في البحث- واتساع ثقافته النابع من معرفته مما كان على الأديب معرفته لتبوء المناصب

---

[٢] النجوم الزاهرة : ٧٤/٦ .
[٣] السلوك لمعرفة دول الملوك : ٢٥/١ .
[٤] المصدر نفسه : ١٣٩/١ .
[٥] طبقات الشافعية- السبكي : ١٩٦/٤ .
[١] الآداب النافعة بالألفاظ المختارة الجامعة :٣ .
[٢] خطط الشام :٣٩/٤ .

العليا فـي الدولـة ؛ ومما يؤكد اهتمام القاضـي الفاضل بـالأدب ، ومـا كـان ينبغـي للأديب أن يتزود به من علـوم أخرى تؤهلـه للعمل بديوان الإنشاء تلك الكتب الكثيرة التي جمعها في مختلف علوم عصره مما جعل المقريزي يقول عنـه فـي هذا الشأن :" كان يقتني الكتب من كل فن ، ويجتلبها من كل ناحيـة، وإن عدد كتبه بلغ مائـة ألف وأربعة وعشرين ألفا ، وذلك قبل موتـه بعشرين سنة"(٣)، وخليق برجل كالقاضـي الفاضل أن يهيئ لنفسه ثقافة عريضة تناسب مكانتـه الممتازة فـي الدولـة على حد قول الدكتور أحمد بدوي ؛ في وجود كثير من العلماء والأدباء كأسامة بن منقذ والعماد الكاتب ، وابن سناء الملك، وغيرهم فلا يليق به أن يكون أقل منهم ثقافة وعلما أو مثلهم .

- أثر سلوكه الاجتماعي في انتشار مذهبه الفني:

من العوامل التـي كـان لهـا دورهـا فـي الإقبـال علـى القاضـي الفاضـل وأدبـه والتأثر بطريقته الكتابية بالإضافة إلى مكانته السياسية والأدبيـة سلوك القاضـي الفاضل الاجتماعي ؛ حيث كان دمث الأخلاق لين الجانب مما كان لـه أثره في أن يحبه ويقبل على طريقته كل من عرفه أو سمع عنه ، وخير شاهد علـى ذلـك ما قاله عنه صاحب شذرات الذهب بأنـه :" كـان نزيهـا عفيفـا قليل اللذات كثيـر الحسنات ، دائـم التهجد ، مـلازم القرآن والاشتغال فـي علـوم الأدب ... وكـان لباسه لا يساوي دينـارين – رغم ثرائـه – وثيابـه البيـاض ولا يركـب معـه أحد ولا يصحبه سوى غلام له ويكثر زيارة القبور ويشيع الجنائز ويعود المرضـى، وكان لأصحاب الفضائل عنده موقع يحسن إليهم ولا يمن بهم ، ويؤثر أربـاب البيوت ومن كان خملا من ذوي النباهة ويحب الغرباء ، ولم يكن لـه انتقـام من أعدائه بل يحسن إليهم " (١)، وقد رأينا الكثير من الأمثلة لكثير من أخلاقه ، في معاملاته مع الناس جميعا ، ومع الأدباء ولاسيما المبدعين منهم ، ومساعدتهم للتـدرج بمراقـي الأدب والـسياسة حتـى صـاروا مـن رجـالات ذلـك العـصر، وصنّاع القرار فيه.

-انسجام مذهبه الفني مع الذوق العام للعصر الأيوبي:

إذا كانـت العوامـل التـي سبق تناولهـا مـن ذيـوع طريقـة القاضـي الفاضـل الكتابية معظمها وثيق الصلة بمعاصري صاحب الطريقة ،فإن هذا العامل الذي نحن بصدده كان له كبير الأثر في هذه الطريقة فـي العصر الذي تـلا عصر القاضي الفاضل ؛ وذلك لأن التغيّر السياسي والاجتماعي فـي العصر المملوكي لـم يظهـر تـأثيره فـي الأدب ظهـورا واضـحا إلا فـي الـصف الثـاني مـن هذا

---

(٣) الخطط (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) : ١٩٩/٤ .

(١) شذرات الذهب في أخبار من ذهب : ٣٢٤/٤-٣٢٦ .

العصر ،وإن كان التأثير الأيوبي لم يختف منه تماما. أما النصف الأول منه فيمكن عده امتدادا للعصر السابق له وهو العصر الأيوبي ؛ لأن التكوين النفسي لأدبائه كان قد اكتمل ،فلم يكن من المعقول أن يضعف أدبهم لمجرد تغير الحاكم الأيوبي إلى مملوكي ،ويمكن القول : إن الأدب في هذه الفترة قد سار بقوة دفع العصر السابق له ،ونحن نعلم أن الظواهر الأدبية بطيئة ،ومتأنية ؛ فهي لا تتغير بل تحتاج -كي تتحول وتتبدل -إلى بعض الوقت . ومما يؤكد أن طريقة القاضي الفاضل الكتابية القائمة على الزخرفة الشكلية كانت مناسبة تماما للعصر المملوكي هو أن هذا العصر يعد صفحة زاهرة في تاريخ الفن العربي ؛ فقد كان سلاطين المماليك من محبي الفنون الجميلة ،وآية ذلك واضحة في عمائرهم ومبانيهم الدينية والمدنية بل في لباسهم وفراشهم .

وها هو ذا أحد الباحثين في مجال الفنون الإسلامية يسجل ذلك بقوله:"لا ريب في أن عصر دولتي المماليك فيما بين عامي ٦٤٨-٩٢٣ه ، ١٢٥٠-١٥١٧م هو العصر الذهبي في تاريخ العمارة الإسلامية في مصر ؛ فقد كان الإقبال عظيما على تشييد العمائر ،من جوامع ومدارس وأضرحة وحمامات ووكالات و أسبلة . كما ظهر التنوع والإتقان والأناقة في شتى العناصر المعمارية : من وجهات ومنارات وقباب وزخارف جصّية ورخامية "[١].

وإلى جانب هذا الاهتمام بالعمارة يعدّ العصر المملوكي أزهى العصور في فن الكتابة العربية بصورها المختلفة ؛ فقد اهتمّ السلاطين بالخط العربي ، وأنشؤوا المدارس لتعليمه وتحسينه .

وما الإعجاب الذي قوبلت به كتابات أتباع طريقة القاضي الفاضل في العصر المملوكي من قبل المثقفين إلا دليلا على مناسبة طريقة القاضي الفاضل الكتابية لذوق أبناء ذلك العصر ، ويمكن القول بأن التوافق الشكلي الذي رأيناه في فنون العمارة والكتابة لذوق أبناء ذلك العصر المملوكي ماهو إلا صدى للتوافق الشكلي الذي رأيناه في كتابة العصر الأيوبي التي كان القاضي الفاضل رائدها والتي وجدت صداها أيضا عند كتاب العصر المملوكي .

ومما يؤكد هذه الحقيقة ما جاء على ألسنة أدباء أتوا بعد عصر القاضي الفاضل من إطراء له ولطريقته من ذلك ما جاء على لسان النويري في نهاية الأرب فقد قال عنه : " إليه انتهت صناعة الإنشاء ووقفت ، وبفضله أقرّت أبناء البيان واعترفت ، ومن بحر علمه رويت ذوو الفضائل واغترفت ، وأمام فضله ألقت البلاغة عصاها ، وبين يديه استقرت بها نواها ، فهو كاتب الشرق والغرب في زمانه وعصره ، وناشر ألوية الفضل في مصره ، ورافع علم البيان لا محالة ، والفاضل بغير إطالة ، وقد أنصف بعض الكتّاب فيه ، ونطق

---

[١] فنون الإسلام.:٧١ .

من تفضيله فيه حيث قال : كل فاضل بعد الفاضل فضلة ، وكل قد عرف فضله " [١] .

كما قال عنه ابن حِجّة : " ولعمري إن الإنشاء الذي صدر في الأيام الأموية والأيام العباسية نسي وألغي بإنشاء القاضي الفاضل ، وما اخترعه من النكت الأدبية والمعاني المخترعة للأنواع البديعية ، والذي يؤيد قولي قول العماد الكاتب في الخريدة أنه في صناعة الإنشاء، الشريعة المحمدية نسخت الشرائع " [٢] . كما قال عنه ابن خلكان إنه : " برز في صناعة الإنشاء ، وفاق المتقدمين ، وله فيه الغرائب مع الإكثار " [٣] ، واستشهد على صدق ما وصف به الفاضل بما بقول العماد الأصفهاني في حقه من الإطراء الذي يعكس مبالغة العماد الشديدة في ذلك ، حيث يقول : " رب القلم والبيان ، واللسن واللسان ، والقريحة الوقادة، والبصيرة النقادة، والبديهة المعجزة ، والبديعة المطرزة ... فهو كالشريعة المحمدية التي نسخت الشرائع ، ورسخت بها الصنائع ، ويخترع الأفكار ، يفترع الأبكار ، ويطلع الأنوار ، ويبدع الأزهار ، وهو ضابط الملك بآرائه ، رابط السلك بآلائه ، إن شاء أنشأ في يوم واحد ، بل في ساعة واحدة ما لو دون لكان لأهل الصناعة خير بضاعة ، أين قس من فصاحته؟ وأين قيس في مقام حصافته ؟ ومن حاتم وعمرو في سماحته وحماسته ؟ ... "[٤]

الفصل الرابع-تأثير مذهبه الفني في نثر معاصريه:

أثبت البحث أن من بين كتاب العصرين الأيوبي والمملوكي من اقتدى بطريقة القاضي الفاضل الكتابية اقتداء يعكس تأثره بهذه الطريقة ، وقد أشار الباحثون الذين تناولوا التأريخ للنثر الفني في هذين العصرين إلى ذلك ، ومنهم الدكتور عبد اللطيف حمزة [١]، والدكتور أحمد بدوي[٢]، والدكتور شوقي ضيف[٣]، والدكتور محمد زغلول سلام [٤]،فلما كان القاضي الفاضل من أشهر الكتّاب في عصره أعجب به معاصروه، وحاولوا معارضته وتقليده ؛ من ذلك ما جاء على لسان ابن الأثير حيث قال : " سألني بعض الإخوان أن أنشىء في

---

[١] نهاية الأرب في فنون الأدب في فنون الأدب: ١/٨-٢ .
[٢] ثمرات الأوراق في المحاضرات : ٥١.
[٣] وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان : ١٥٨/٣ .
[٤] خريدة القصر وجريدة العصر وجريدة العصر (قسم شعراء مصر) :٣٥/١ .

[١] الأدب المصري من قيام الدولة الأيوبية إلى مجيء الحملة الفرنسية:١١٣ ، وأدب الحروب الصليبية :١٧٩ .
[٢] الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام :٣٦٩-٣٧٦ .
[٣] الفن ومذاهبه في النثر العربي : ٣٧٩ .
[٤] الأدب في عصر صلاح الدين الأيوبي :٢٢٥ .

ذلك[٥]كتابا إلى ديوان الخلافة معارضا الكتاب الذي أنشأه عبد الرحيم بن علي رحمه الله فأجبته إلى سؤاله"[٦]. وذكر ابن خلكان أن ابن الأثير كان يعارض القاضي في رسائله ؛ فإذا أنشأ رسالة أنشأ مثلها ، وكان بينهما مكاتبات ومجاوبات[٧]،وقد تأثر به ونهج على طريقته من الكتاب المصريين ابن نباتة المصري الذي قال عنه ابن حجة " وتفقه في الطريقة الفاضلية "[٨] ، وقال ابن نباتة: " كان شهاب الأدب الثاقب ، وعقيل إحياء الكلام الذي ما برحت نيران ذهنه تتوقد على المراقب ، الذي تتحدث الأقلام عن بحر خاطره ولا حرج ، وتدل كلماته الفليحة على غزارة فضله ، كما يستدل على الروض بالأرج ... "[٩]، وقال في فضله أيضا: " انتهت إليه أعزه الله رياسة الأدب ، وطائفته فانتهت إلى حاميها، وأخذ كتابها بقوة فلولا أنها أعظم من القوس ، وهو أعظم من الرامي لقلنا أخذ القوس راميها فتنبه خامل كتابها بعدله ، وتحلّى عاطلهم بفضائله وفضله ، واجتمع منهم كل شمل مفرق بسابغ ظله

فكأنه الدهر المحيط عليهم وكأنهم من حوله الأيام "[١]

كما قال ابن حجة أيضا عن ابن سناء الملك وغيره من الكتاب الذين عاصروه : " ولم يزل هو ومن عاصره على ذلك النهج في ذلك الأوان ، ومن جاء بعدهم من التابعين " [٢] .

وممن سلك طريقة القاضي الفاضل في الكتابة أيضا القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر الذي قال عنه صاحب الخزانة هو وغيره من الكتاب الذين اتبعوا القاضي الفاضل : " فهؤلاء هم الفحول الذين جاؤوا بعد القاضي الفاضل إلى هذه الغاية ، ورفعوا راية هذا النوع ، وكان من عرابه[٣] تلك الراية ، تسابقوا جيادا والديار المصرية لهم حلبة ، وتلاحقوا أفرادا وهم في شرف هذا الفن من هذه النسبة "[٤]

---

(٥) يعني التبشير بفتح بيت المقدس .
(٦) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر : .....
(٧) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان : ٣٩٦/٥ .
(٨) خزانة الأدب : ٩٣ .
(٩) الفاضل من إنشاء الفاضل (مخطوط) : الورقة ٢ .
(١) الفاضل من إنشاء الفاضل (مخطوط) : الورقة ١ .
(٢) خزانة الأدب : ٥٤ .
(٣) إشارة إلى بيتي الشماخ اللذين يقول فيهما :
رأيت عرابة الأوسي يسمو إلى الخيرات منقطع القرين
إذا ما راية رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمين
(لسان العرب : مادة عرب .)
(٤) خزانة الأدب : ٥٤ .

وحتى يزداد موضوع أثر طريقة القاضي الفاضل الكتابية على النثر الفني وضوحا سأتتبع أثر هذه الطريقة بالتفصيل في كتابة ثلاثة: اثنين ممن عاصروه ، وواحد ممن جاؤوا بعده ، أما المعاصران فهما : العماد الكاتب ، وضياء الدين ابن الأثير ، وأما من جاء من بعده فهو : ابن عبد الظاهر .

١- العماد الأصفهاني :

أما العماد الكاتب فيمكن البرهنة على اقتدائه بطريقة القاضي الفاضل الكتابية عن طريقين :

أولاً - اعتراف العماد نفسه باقتدائه بهذه الطريقة الكتابية وملاحظة الباحثين لهذا الاقتداء . أما اعترافه فقد جاء في رسالة له بعث بها إلى القاضي الفاضل أخبره فيها أنه التزم الطريقة الفاضلية في كتابته سنعرض لها بشيء من التفصيل قبل الانتهاء من الحديث عن العماد الكاتب . وأما فيما يتعلق بما جاء على ألسنة الباحثين حول هذا الموضوع فمنه قول الدكتور نظير حسان : " واختلفت أحوال العماد بعد وفاة السلطان صلاح الدين ، ولم يجد في وجهه بابا مفتوحا ، فلزم بيته في دمشق كما لزم أستاذه القاضي الفاضل بيته في القاهرة"[١].

وقول الدكتور عبد اللطيف حمزة : " إن العماد كان أكثر تعلقا بالطريقة الفاضلية ، وأشد إخلاصا لها "[٢] .

وأما الطريق الثاني والأهم الذي بواسطته يمكن البرهنة على اقتداء العماد الكاتب بطريقة القاضي الفاضل الكتابية فهو كتابات العماد نفسها التي منها قوله في التبشير بفتح عكا : " والخادم يشرح من نبأ هذا الفتح العظيم ، والنصر الكريم ، ما يشرح صدر المؤمنين ، ويمنح الحبور لكافة المسلمين ، ويورد البشرى بما أنعم به في يوم الخميس الثالث والعشرين من شهر ربيع الآخر إلى يوم الخميس منسلخة ، وتلك سبع ليال وثمانية أيام سخرها الله على الكفار ، ﴿ترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية﴾ ... "[٣] .

وأول ما يسترعي الانتباه في هذا النص إكثار العماد من الاقتباس من القرآن الكريم هذه السمة من أبرز سمات القاضي الفاضل الكتابية ، ويظهر ذلك في قوله : " وتلك سبع ليال " حيث أراد الاقتباس من قوله تعالى : ﴿ وأما عاد

(١) المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين الأيوبي : ٢٣ .
(٢) أدب الحروب الصليبية : ١٩٣ .
(٣) الفيح القسي في الفتح القدسي : ص ٤٣

فأهلكوا بريح صرصر عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما ، فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية فهل ترى لهم من باقية ﴾[١] ، وقوله تعالى أيضا: ﴿ وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا ﴾[٢] ،فأورد هذه الجمل القرآنية لمناسبتها اللفظية التي يظهرها ذكره لكلمة خاوية مرتين جاءت كل مرة في نهاية فاصلة؛ مما أتاح له صناعة السجع الذي نراه يسيطر على النص كله، والتزام السجع في الكتابة التزاما شديدا كان أيضا من أهم السمات التي ميّزت كتابة القاضي الفاضل .

وإذا نظرنا إلى نص آخر من كتابات العماد رأينا فيه وجوه الشبه بينه وبين كتابة القاضي الفاضل ما يؤكد أن العماد كان ممن يلتزمون الطريقة الفاضلية في الكتابة . يقول العماد : " ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم و ليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ﴾[٣] الحمد لله الذي أنجز لعباده الصالحين وعد الاستخلاف ، وقهر أهل التوحيد أهل الشرك والخلاف ، وخصّ سلطان الديوان العزيز بهذه الخلافة ، ليمكّن دينه المرتضى،وبدل الأمن من المخافة ، وذخر هذا الفتح الأسنى ، والنصر الأهنى ، للعصر الإمامي النبوي الناصري ، على يد الخادم أخلص أوليائه، والمختص اعتزازه باعتزائه إليه انتمائه، فهذا الفتح العظيم ، والمنح الكريم ، قد انقرضت الملوك الماضية والقرون الخالية على حسرة تمنيه ، وحيرة ترجيه ، ووحشة اليأس من تسنيه ، وتقاصرت عنه طوال الهمم ، وتخاذلت عن الانتصار له أملاك الأمم .

الحمد لله الذي أعاد القدس إلى القدس ، وأعاذه من الرجس ، وحقّق من فتحه ما كان في النفس ، وبدل وحشة الكفر من الإسلام بالأنس ، ... وأسكنه الفقهاء والعلماء ، بعد الجهال والضُّلال من البطرك والقس ، وعدة الصليب ومستقبلي الشمس ، وقد أظهر الله على المشركين الضالين جنوده المؤمنين العاملين ، وقطع دابر القوم الظالمين . والحمد لله رب العالمين ، فكأن الله شرف هذه الأمة ، وقال لهم اعزموا على اقتناء هذه الفضيلة التي بها فضلكم ، وحقق في حقهم امتثال أمره في قوله الكريم: ﴿ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ﴾" [١] .

وأول ما يلفت النظر في هذا النص من أسلوبه : حرص كاتبه على أن يوفر له من ألوان الجناس ما وسعه الجهد ، وأن يصوغه في أسلوب من السجع الذي يعكس رغبته الملحة في أن يأتي هذا النص مسجوعا ، وبالإضافة

---

[١] سورة الحاقة :٦ -٨ .
[٢] سورة الإنسان :٢٠ .
[٣] سورة النور:٥٥
[١] الروضتين :٩٦/٢ .

للجناس والسجع نستطيع ملاحظة اعتماد كاتبه على المقابلة في إظهار الخير الذي غنمته القدس من هذا الفتح . وإذا ما نظرنا إلى كلامه عن الصخرة المباركة لفت نظرنا في قرب شبهه بما جاء في رسالة القاضي الفاضل (القدسية) عن الصخرة ، وكل السمات الفنية التي لوحظت في نص العماد هذا بالإضافة إلى أن طريقة استخدامه لآي القرآن الكريم اقتباسا وتضمينا وإشارة دليل على أن العماد الأصفهاني كان حريصا على السير في الطريق الذي اختطه القاضي الفاضل للكتاب .

وأكثر كتابات العماد اقتداء بطريقة القاضي الفاضل رسائله التي كان يبعث بها إلى القاضي الفاضل نفسه ؛ وكأن العماد يريد أن يقول له إنه جد ملتزم بطريقته الكتابية التزاما كبيرا، ومن ذلك أنه كتب إليه عندما حج سنة أربع وسبعين وخمسمئة من الهجرة قائلا : " طوبى للحجر والحجون من ذي الحجر والحجا ، منيل الجدا ، ومنير الدجى ، ولندى الكعبة من كعبة الندى ، وللهدايا المشعرات من مشعر الهدى ، وللمقام الكريم من مقام الكريم ، ومن حاطم فقار الفقر للحطيم ، ومن رأى هرم في الحرم ، وحاتم ماتح زمزم ، ومتى ركب البحر البحر ، وسلك البر البر ، لقد عاد قس إلى عكاظه ، وعاد قيس لحفاظه، ويا عجبا لكعبة يقصدها كعبة الفضل و الإفضال ، وقبلة يستقبلها قبلة القبول والإقبال والسلام " [١].

ومما لا شك فيه أن هذه الرسالة مغرقة في الصنعة البديعية إغراقا لم ير مثله قبل القاضي الفاضل ؛ ومن أمثلة البديع الذي غصّت به هذه الرسالة السجع الذي لم يتخل عنه العماد فيها من ألفها إلى يائها ، والجناس الذي حشده والذي من أمثلته المجانسة بين: (الحجر و الحجون ،والحجر والحجا)، وبين: (المشعرات ومشعر) ؛ وقد بلغ الجناس في هذه الرسالة قمة التكلف في قوله (ولقبلة يستقبلها قبلة القبول والإقبال)؛ حيث نراه يكرر القاف والباء واللام في خمس كلمات متوالية مما جعل النطق بها متوالية فيه شيء من الثقل ، ولم يكتف العماد بصنعة الجناس الناقص والتام في رسالته هذه، بل نراه يعمد إلى الجناس المعكوس فيها مما يؤيد شدة تكلفه ، ومن أمثلة ذلك: (ندى الكعبة وكعبة الندى)، و(الهداية المشعرة، ومشعر الهدى) ، بالإضافة للسجع والجناس وفر العماد لرسالته هذه ألوانا بديعية عدة أخرى من مثل : الموازنة التي توضحها وحدة الوزن بين كل من: (منيل ، ومنير) ، و(الجدى ، والدجى) و(هرم وحرم)، و (حاتم و ماتح) ، و (كعبة وقبلة) .

ومراعاة النظير التي من أمثلتها في هذه الرسالة مراعاته النظير بين: (الحجر و الحجون) ، وبين: (منيل ،و الجدا) ، وبين: (منير، والدجى) ، وبين: (هرم، وحاتم)، وبين: (الحرم وزمزم)، وبين: (قس، وعكاظ) .

---

[١] وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان :١٥١/٥ .

والجناس التام الذي من أمثلته في نصنا هذا قوله : (ركب البحر البحر) أراد بالبحر الأول القاضي الفاضل ، وبالبحر الثاني البحر الحقيقي ، وقوله(وسلك البِرُّ البَرَّ) أراد بالبر الأول القاضي الفاضل ، وبالبر الثاني الطريق الجاف ، وقوله: (ويا عجبا لكعبة يقصدها كعبة)حيث أراد بالكعبة الأولى الكعبة الحقيقية والكعبة الثانية القاضي الفاضل، وقوله: (قبلة يستقبلها قبلة)، حيث أراد بالقبلة الأولى القبلة الحقيقية ، وبالثانية القاضي الفاضل .

وكل ذلك يدل على أن العماد كان حريصا على أن يودع كتاباته كل ما استطاع من البديع باذلا في ذلك قصارى جهده ، وقد ذكر ذلك صراحة عادّا البديع من الأسس التي لا بديل للكتابة من الاعتماد عليه ؛ وهذا يظهر من وصفه لرسالة كتبها للقاضي الفاضل في رده على رسالة له بعثها إليه ، وكان القاضي الفاضل قد أهدى إليه تسعة مجلدات من الكتب النفيسة التي تشتمل على أشعار أهل العصر المغربيين . يقول العماد : " وهذه الرسالة قد وفيتها حقها من التجنيس والتطبيق ، والترصيع ، والمقابلة ، والموازنة ،و التوشيح " [١]

ويفهم من هذا النص أن العماد كان يعد البديع غايته من الكتابة قبل أية فكرة كالفاضل.

أما الرسالة التي عناها العماد فهي التي يقول فيها : " ما أقبل الخادم وهو مخدوم الإقبال ، بإقبال المولى الفاضل عليه لخلوص موالاته بخصوص مولاة الأفضال " [٢]،ولم يقتصر اتباع العماد للطريقة الفاضلية في الكتابة على كتابة الرسائل،بل تعداها إلى كتابة المؤلفات ، مثل: كتابه : (الفيح القسي والفتح القدسي) الذي بدأه بتأريخ الحوادث التي بدأت في عصر صلاح الدين الأيوبي منذ السنة التي فتح فيها بيت المقدس إلى السنة التي توفي فيها السلطان ؛ فقد التزم العماد في هذا الكتاب البديع من ألفه إلى يائه ، وفي مقدمته السجع الذي التزمه التزاما لم يتخل عنه ، فنراه يعرض أحداث التاريخ عرضا أدبيا ، وقد ذكر المؤلف في أوله الخطة التاريخية الأدبية التي انتهجها في كتابه ، إذ يقول : " هذا كتاب أسهمت فيه بين الأدباء الذين يسعون إلى الغرر المتجلية ، وبين المتخيرين الذين يستشرفون إلى السير المتحلية على قدر القرائح والعقول ويكون حظ المستخبر أن يسمع والأديب أن يقول ، فإن فيه من الألفاظ ما صار معدنا من معادن الجواهر التي نولدها ، ومن الوقائع ما صار به لسانا من ألسنة العجائب التي نوردها "[١] ،وقد عرض المؤلف في كتابه هذا حوادث التاريخ

---

[١] خريدة القصر: (قسم شعراء مصر) :٤٤/١ .

[٢] ويسير في رسالته هذه على هذا المنوال من البديع المعقد ، الخريدة (قسم شعراء مصر) : ٤٤/١-٤٨ .

[١] الفيح القسي في الفتح القدسي :٤٣ .

عرضا أدبيا مزج فيه الوقائع التاريخية بعواطفه وأحاسيسه ، ومما جاء في هذا الكتاب عن فتح طبرية : " ونزل طبرية بخواصه وذوي استخلاصه ... ودخل الليل وصباح الفتح مسفر ... ولما سمع بفتح طبرية وأخذ بلده ، سقط في يده ، وسمع للفرنج بسبده و بلده ، وقال لهم : لا قعود بعد اليوم ، ولا بدمن رقمة القوم ، وإذا أخذت البلاد وذهبت الطراف و التلاد ، وما بقي إلا الصبّ ، وما بعد الكسر جبر ، وكان الملك قد حالفه ، فما خالفه ، ووافقه ، فما نافقه ، وماحضّه ، فما دقّه ، و وادده ، فما رادده، وواعده ، فما عاوده ... فمادت الأرض بحركته، و غامت السماء من غبرته ..."[٢]، و نرى في هذا النص أن العماد قيد نفسه في التعبير عن الحقائق التاريخية بقيود البديع التي لازمته في كتابه كله، والتي كان في مقدمتها السجع والجناس والموازنة، وقد جعل ذلك أبا شامة يتعامل مع النصوص التي يستعين بها في كتابه: (الروضتين) من كتابات العماد ؛ حيث كان يختصرها اختصارا شديدا، حتى إنه في بعض الحالات كان لا يبقى إلا على السطر أو السطرين من الصفحة الكاملة . وقد أفصح أبو شامة عن السبب الذي جعله يقف هذا الموقف من كتابات العماد ؛ وذلك حيث يقول : " إن العماد في كتابيه[٣]طويل النفس في السجع والوصف ، يمل الناظر فيه ، ويذهل طالب معرفة الوقائع عما سبق من القول وينسيه ، فحذفت تلك الأسجاع إلا قليلا منها، استحسنته في مواضعها ، ولم تك خارجة عن الغرض المقصود من التعريف بالحوادث والوقائع ... وانتزعت المقصود من الأخبار من بين تلك الرسائل الطوال، فأردت أن يفهم الكلام الخاص والعام "[٤] .

٢-ضياء الدين ابن الأثير:

وأما ضياء الدين ابن الأثير فإنه اقتدى بالقاضي الفاضل ، ونسج على منواله في جانب من كتاباته[١] ، ولا نجد اعترافا مباشرا أو غير مباشر منه

---

[٢] المصدر نفسه : ٧٦-٧٧ .

[٣] يعني : الفيح القسي في الفتح القدسي ، وخريدة القصر وجريدة العصر .

[٤] الروضتين : ٣٨/١ .

[١] اتبع ابن الأثير في كتابته طريقتين : الطريقة الأولى التي استخدمها في الرسائل والإنشاء ، وهي التي حذا فيها حذو القاضي الفاضل، فأكثر من استخدام السجع والجناس والمحسنات البديعية بصفة عامة . أما الطريقة الثانية ، فهي طريقة النثر المرسل التي لا تعتمد على البديع ، ولا تتمسك بقيوده ، وفيها تحرر ابن الأثير وضاق بالبديع ، ولم ير الإكثار منه ، إنما فضل الأخذ منه بحذر وبقدر ما يزين الكلام ، كالحلي قليل منه يزين ، وإذا كثر ثقل وناء به الجيد ، وهذه الطريقة الثانية استخدمها في التأليف ؛ فكتبه كلها بأسلوب مرسل غير المقيد بالسجع ،

بأستاذية القاضي الفاضل له ، و اتباعه لطريقته كما رأينا ذلك عند العماد ؛ وذلك لأن ابن الأثير كان رجلا معتدّا بنفسه غير معترف بفضل أحد عليه . ومما يؤكد ذلك مسلكه في كتابه المثل السائر ؛ إذ أعرض فيه إعراضا يكاد يكون تاما عن أن يأتي للقارىء بنماذج إنشائية لغيره ، وجعل كتابه هذا معرضا لنماذج إنشائية لنفسه، ولم يكتف بذلك ، بل راح يعرض بالقاضي الفاضل تعريضا ينم على سوء القصد ونكران الجميل [٢]

وقد سبقت الإشارة إلى أن ابن الأثير كان يعارض بعض رسائل القاضي الفاضل ؛ ومن المعروف أن من أراد معارضة أي عمل أدبي لا بد له من الاطلاع عليه اطلاعا فيه من التدبر والتروي ما يؤهله لمعارضته ، سواء أكان الأديب الذي تقع منه المعارضة معجبا بمن يعارضه ، أم حانقا عليه ، فالمعول هنا ليس على الرضا وعدمه عند المعارض ، وإنما المعول على التأثر بالعمل الذي يعارضه،وقد لاحظ الدكتور محمد زغلول سلام تأثره بالقاضي الفاضل ، وقال في ذلك:" واتصل في تلك الحقبة بالقاضي الفاضل وتأثر به و بطريقته في الكتابة ، وحاول أن يعارضه ، وأن يعلو عليه ، ولكنه مع ذلك لم يستطع التخلص من تأثير فنه الكتابي "[١] .

ويؤيد كلام الدكتور محمد زغلول سلام ما جاء على لسان ابن الأثير نفسه في مثله السائر ، حيث يقول في الفصل الذي عقده لتعلم الكتابة : " وجدت الطريق ينقسم إلى ثلاث شعب ، الأولى : أن يتصفح الكاتب كتابة المتقدمين ، ويطلع على أوضاعهم في استعمال الألفاظ والمعاني ثم يحذو حذوهم، وهذه أدنى الطبقات عندي .

الثانية : أن يمزج كتابة المتقدمين بما يستجيده لنفسه من زيادة حسنة ، إما في تحسين ألفاظ أو في تحسين معان . وهذه هي الطريقة الوسطى . وهي أعلى من التي قبلها .

الثالثة : أن لا يتصفح كتابة المتقدمين ولا يطلع على شيء منها ، بل يصرف همه إلى حفظ القرآن الكريم ، وكثير من الأخبار النبوية ، وعدّة من دواوين فحول الشعراء ... ثم يأخذ في الاقتباس من الثلاثة "[٢] ، ولعل ما قاله ابن الأثير عن كيفية تعلم الكتابة لا يختلف عما سلكه القاضي الفاضل نفسه عندما أراد العمل بالكتابة، ولا يختلف أيضا عما سلكه هو في تعلمه إياها ؛ لأنه كان دقيقا في ضرب الأمثلة من كتاباته مما يؤكد أنه سلك إلى الكتابة الأدبية الشعب

وبهذا يختلف عن العماد الذي كان أسلوبه في الإنشاء وكتابة الرسائل ، وهو أسلوبه نفسه في التأليف ، ويظهر ذلك من خلال كتبه .

[٢] المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر :١٢٥/٢ .

[١] ضياء الدين ابن الأثير وجهوده في النقد :٤٣ .

[٢] المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر : ١٢٥/١-١٢٦ .

الثلاث التي أصّلها في الفصل العاشر تحت عنوان: (في الطريق إلى تعلم الكتابة[٣] ، ومما يزيد الأمر وضوحا اهتمام ابن الأثير اهتماما كبيرا بحل الأبيات الشعرية الذي قسمه ثلاثة أقسام ، أولها وأدناها : أن يأخذ الناثر بيتا من الشعر فينثره بلفظه من غير زيادة . وثانيها : وهو الوسط : أن ينثر المعنى المنظوم ببعض ألفاظه، ويعبر عن بعضها الأخر بألفاظ أخرى . وثالثها وأعلاها : أن يأخذ الناثر المعنى فيصوغه بألفاظ غير ألفاظه ، مما يظهر حذقه في صياغته ، ويعلم مقدار تصرفه في صناعته [١]وقد استشهد ابن الأثير على حل معاني الشعر بأرقى طريقة، وهي القسم الثالث بنثره لمعاني قول أبي الطيب :

إن القتيل مضرجا بدموعه   مثل القتيل مضرجا بدمائه

حيث قال: " أخذت هذا المعنى فنثرته ؛ فمن ذلك قولي : القتيل بسيف العيون ، كالقتيل بالمنون . غير أن ذلك لا يجرد من غمده، ولا يقاد صاحبه بعمده "[٢].

كما نثر قول أبي الطيب المتنبي :

لاتعذل المشتاق في أشواقه   حتى يكون حشاك في أحشائه

وذلك حيث قال : " وقد نثرت هذا المعنى ، فمن ذلك قولي : لا تعذل المحب بما يهواه ، حتى تطوي القلب على ما طواه "[٣].ومما نثر أيضا بيت أبي تمام الذي يقول فيه:

تردى ثياب الموت حمرا فما أتى   لها الليل إلا وهي من سندس خضر

وذلك حيث قال : " قلت في نثره : (لم تكسه المنايا نسج شفارها ، حتى كسته الجنة نسج شعارها ، فبدل أحمر ثوبه بأخضره ، وكأس حمامه بكأس كوثره) ، وهذا من الحسن على غاية يكون كمد حسودها من جملة شهودها"[٤]، ومما يلفت النظر إعجابه بنثر الشعر . ويتضح الإعجاب أكثر في تعليقه على نثره هو لبيت من شعر أبي الطيب المتنبي بقوله : " وفي هذا من الحسن ما لا خفاء به، فمن شاء أن ينثر شعرا فلينثر هكذا وإلا فليترك "[٥].

وإذا ما تركنا نثر الشعر الذي رأينا ابن الأثير يضعه في مقدمة وسائل الأديب لتعلم الكتابة، وانتقلنا إلى الوسيلة الثانية لتعلمها عنده ، وهي حل آيات

---

[٣] المصدر نفسه :١٢٥/١ .
[١] المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر :١٢٩/١-١٣٢ .
[٢] المصدر نفسه : ١٣٢/١ .
[٣] المصدر نفسه : ١٣٣/١.
[٤] المصدر نفسه :١٣٥/١ .
[٥] المصدر نفسه :١٣٥/١ .

القرآن الكريم رأيناه يقول عنه: " وأما حل آيات القرآن العزيز فليس كنثر المعاني الشعرية ؛ لأن ألفاظه ينبغي أن يحافظ عليها لمكان فصاحتها ... على أنه قد يؤخذ معنى الآية والخبر يكسى لفظا غير لفظه، وليس لذلك من الحسن ما للقسم الأول... ومن آتاه الله في القرآن بصيرة فإنه يسبك ألفاظه ومعانيه في كلامه، ويستغني به عن غيره إلا أنه ينبغي أن يكون فيه صوّاغا يخرج من ضروب المصوغات، أو صرافا يتجهبذ في نقوده المختلفة من الذهب المختلف الألوان ... أو يكون فيه تاجرا يديره على يده ، ينصرف في رباحه ، ويخرج من الأمتعة المجلوبة من مناسجه كل غريبة عجيبة "[١].

وكما كان ابن الأثير يستشهد على كيفية الاستعانة بنثر الشعر بكتاباته ، نراه يستشهد بكتاباته أيضا على حل معاني القرآن الكريم ؛ وذلك في قوله : " وهذا شيء جربته ، وخبرته فإني كنت آخذ سورة من السور ، وأتلوها وكلما مر بي معنى أثبته في ورقة مفردة، حتى أنتهي إلى آخرها ، ثم آخذ في حل المعاني التي أثبتها واحدا بعد واحد، ولا أقنع بذلك حتى أعاود تلاوة تلك السور، وأفعل مثلما فعلته أولا ، وكلما صقلتها التلاوة مرة بعد مرة يظهر في كل مرة من المعاني ما لم يظهر في المرة التي قبلها ، و سأورد في هذا موضع سورة من السور ، ثم أردفها بآيات أخرى من سور متفرقة حتى يتبين لك أيها المتعلم ما فعلته، فتحذو حذوه " [٢]، ثم يأخذ في استعراض المعاني التي وردت بسورة ، فيقول : " وصل كتاب الحضرة السامية، أحسن الله أثرها ، وأعلى خطرها ، وقضى من العلياء وطرها ، وأظهر من يدها آيات المكارم وسورها ، وأسجد لها كواكب السيادة وشمسها وقمرها "[٣].

وهذا النص تستوقفنا فيه سمات كتابة عدة رأيناها من قبل في كتابة القاضي الفاضل في التزام السجع الذي يظهر من اتحاد نهايات الفواصل ، ومنها مراعاة النظير التي نجدها في قوله : (آيات وسور) ، ومنها كثرة الجمل الدعائية، حيث اشتملت هذه الفقرة على خمس جمل دعائية هي جمل: (أحسن، وأعلى ، وقضى ، وأظهر ، وأسجد) ، هذا بالإضافة إلى حل المعاني التي جاءت في سورة يوسف ، والتي جاءت في قوله تعالى : ﴿ إني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين ﴾ [١].

وقد صرح ابن الأثير نفسه بحله لهذا المعنى القرآني، حيث قال: " وهذا أول معنى في السورة، وقد نقلته من قصة المنام إلى الدعاء "[٢].

---

[١] المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ١٧٠/١-١٧١ .
[٢] المصدر نفسه :١٧١/١-١٧٢ .
[٣] المصدر نفسه : ١٧٢/١ .
[١] سورة يوسف :٤ .
[٢] المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر :١٧٢/١ .

وقد ساقه ولعه بحل معاني القرآن الكريم إلى تناول المعنى القرآني الواحد في غير ما رسالة ، مما يؤكد أن سمة حل معاني آيات القرآن الكريم التي كانت من أبرز خصائص كتابات القاضي الفاضل كانت عند ابن الأثير من أبرز خصائص كتابته أيضا . وهاهو ذا يقول عن المعنى القرآني الخاص بسجود الشمس والقمر والذي نثره من قبل : " ثم أبرزت هذا المعنى في صورة أخرى وهو : أكرم النعم ما كان فيها ذكرى العابدين ؛ وتقدمه أني رأيت أحد عشر كوكبا، والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين، فهذه النعمة هي التي تأتي بتيسير العسير، وتجلو ظلمة الخطب بالصباح المنير، فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها ، إن ذلك لمحيي الموتى، وهو على كل شيء قدير "[٣] .

فهذا النص لم يكتف فيه ابن الأثير بأن اقتبس من القرآن الكريم مرة واحدة، بل اقتبس مرتين؛ أما المرة الأولى فجاءت في قوله من(إني رأيت... إلى ساجدين)، وهي مقتبسة من قوله تعالى : ﴿ إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين ﴾، وأما المرة الثانية، فجاءت من قوله: (انظر ... إلى آخر النص) وما هذه الاقتباسة إلا إحدى آيات القرآن الكريم كما هي دون زيادة أو نقصان [١] .

هذا بالإضافة إلى أن كلا الاقتباسين كان دافع ابن الأثير إليه لفظيا؛ حيث إن كلمة (ساجدين) على وزن (عابدين) ونهاية كل منهما متحدة مما سوغ له تكوين جناس، وموازنة في آن واحد. كما أن كلمة (قدير) التي جاءت في آخر الاقتباس الثاني توافق كلمة (منير) التي جاءت في نهاية الفاصلة التي قبل الاقتباس من حيث تكون كل منهما من أحرف متشابهة هذا بالإضافة إلى وحدة نهايتهما في الحروف مما سوغ لابن الأثير صناعة جناس وسجع في وقت واحد .

وهذه الأغراض البديعية التي تدفع الكاتب إلى اقتباس آيات القرآن الكريم تمثل أهم سمات كتابة القاضي الفاضل؛ مما يؤكد اقتداء ابن الأثير بهذه الطريقة الكتابية ، اعترف بهذا أم لم يعترف .

---

[٣] المصدر نفسه : ١٧٢/١

[١] سورة الروم :٥٠ .

٣-محيي الدين بن عبد الظاهر:

وإذا نظرنا إلى أثر طريقة القاضي الفاضل الكتابية في الكتاب من بعده استوقفنا الكاتب الأديب (محيي الدين بن عبد الظاهر المصري) الذي ولد سنة عشرين وستمئة للهجرة ، وتوفي سنة اثنتين وتسعين وستمئة للهجرة، والذي تدرج بديوان الرسائل حتى تولى الإنشاء في عهد الظاهر بيبرس، والذي عرف معاصروه قدره فقرظوه ؛ قال ابن كثير : " آخر من برز في هذا الفن – يعني فن الكتابة – على أهل زمانه ، وسبق سائر أقرانه "[١]

وقال ابن تغري بردي : " وكان من سادات الكتاب ورؤسائهم وفضلائهم، وهو صاحب النظم الرائق ، والنثر الفائق "[٢]

ولم يختلف القدماء والمحدثون على تلمذته على القاضي الفاضل واقتدائه به، كما أنه نفسه لم ينكر ذلك . ومن القدماء الذين لاحظوا تأثر ه بطريقة القاضي الفاضل الكتابية صاحب خزانة الأدب الذي سبق الوقوف على رأيه في هذا الموضوع ، وصاحب فوات الوفيات الذي قال عنه : " الكاتب الناظم ، الناثر، وشيخ أهل الترسل ومن سلك الطريقة الفاضلية في إنشائه "[٣] .

وأما المحدثون الذين لاحظوا اقتداءه بالقاضي الفاضل في كتابته فمنهم الدكتور عبد اللطيف حمزة الذي قال عنه: " وكان في طريقته الكتابية تلميذا مخلصا للقاضي الفاضل ؛ يلتزم السجع ويكلف بالطباق والمقابلات وغير ذلك من المحسنات البديعية، وأهمها التورية، وكان محيي الدين هذا رئيسا لديوان الإنشاء في عهد الظاهر بيبرس، وقيل إنه وضع كثيرا من اصطلاحات الإنشاء ، ومن النظم الديوانية التي ظل معمولا بها في مصر والشام إلى الفتح العثماني "[٤] .

---

(١) البداية والنهاية : ٣٣٤/١٣.

(٢) النجوم الزاهرة : ٣٩/٨ .

(٣) فوات الوفيات :٤٥١/١ .

(٤) الأدب المصري من قيام الدولة الأيوبية إلى مجيء الحملة الفرنسية :١٨٦ .

والدكتور محمد زغلول سلام الذي يقول في هذا الصدد : " والتزم محيي الدين في كتاباته شكل السجع ، واتبع المحسنات البديعية ولاسيما التورية ، ووضع كثيرا من صيغ الكتابة الرسمية التي ظل الكتاب محافظين عليها طوال عصر المماليك إلى العصر العثماني . وتأثر في كتاباته بالقاضي الفاضل، وقد تتلمذ على طريقته وكان مخلصا لها "(١) .

وقد رأينا ابن عبد الظاهر يهتم بإنشاء الفاضل ويعجب به فيعبر عن ذلك بجمع كثير من رسائله في كتاب سمّاه: (الدر النظيم من ترسل عبد الرحيم)، وقد صرح في مقدمته لهذا المجموع بما ينم على إعجابه هذا بطريقة القاضي الفاضل الكتابية وسعيه إلى اتباع الكتّاب لها . ولعل في تسميته هذا المؤلف الذي لا يضم بين دفتيه إلا كلام القاضي الفاضل خير دليل على إعجاب ابن عبد الظاهر الشديد بهذه الطريقة الكتابية حتى إنه لم يتخلَّ عنها في صياغة اسم المؤلف ؛ إذ نراه يجعل الاسم مسجوعا وقد سلك هذا المسلك في أسماء كل مؤلفاته مثل : (تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور) ،و: (النجوم الدرية في الشعراء المصرية)، و: (الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة) .

ومن يقرأ هذه المؤلفات يلاحظ أن ابن عبد الظاهر لم يستطع التخلص من أسلوب القاضي الفاضل تماما . ولكنه التزم بالطريقة الفاضلية التزاما شديدا في كتاباته الإنشائية ديوانية كانت أم غير ديوانية . وسوف أقتصر للتدليل على صدق ما ذهبت إليه بنصين إنشائيين من كتاباته ؛ أحدهما من بين كتاباته الديوانية ، والآخر من كتاباته غير الديوانية .

كتب عن السلطان الملك الناصر قلاوون إلى صاحب اليمن يبشره بفتح مدينة (صافيتا) : " فمن ذلك حصن الأكراد الذي تاه بعطفه على المماليك والحصون ، وشمخ بأنفه عن أن تمتد إلى مثله يد الحرب والزبون ، وغدا جاذبا بضبع الشام، وآخذا بمخانق بلاد الإسلام ، وشللا في يد البلاد وشجا في صدر العباد، تنقض من عشه صقور الأعداء الكاسرة، وترتاع من سطوتها قلوب الجيوش الطائرة ، وتربض بأرباضه آساد تحمى تلك الآجام وتفوق من قسيه سهام تصمي مفوقات السهام تعطيه الملوك الجزية عن يد وهم صاغرون ، ويصطفي كرام أموالهم وهم صابرون لا مصابرون . كم شكت منه حماة قلة الإنصاف ،وكم خافته (معرة) وما من معرة خاف ، ما زالت أيدي الممالك تمتد إلى الله بالدعاء عليه تشكو من جور جواره تلك الحصون، وتبكي بدمع نهرها من تأثير آثاره مع عصيانها ، وناهيك بمعرة العاصي ؛ حتى نبه الله ألحاظ سيوف الإسلام من جفونها ، وفي النصرة ما وجب من ديونها ،

---
(١) الأدب في العصر المملوكي :٤٦/٢ .

وذاك بان قصدنا فسيح ربعه ، ونزلنا ونازلنا محمى صقعه وختمنا بنصالنا على قلبه وسمعه ، وله مدن حوله خمس هو كالراحة ، وهي كالأنامل ، وتكاد بروحه ترى كالمطايا المقطرة وهي فيها بمنزلة الزوامل ما خيمنا به حتى استبحنا محمي تلك المدائن المكنى عنها بالأرباض ، وأسحنا بساحاتها بحرا من الحديد ما لنفع حتى فاض وأخذنا الثقوب في أسوار لا تنقض ولا ينقض بنيانها المرصوص ، ولا تقرأ المعاول ما لخواتم أبراجها من نقوش الفصوص ؛ ونصبنا عليها عدة مجانيق حملت في شواهق الجبال على رؤوس الأبطال ، فتغيظت السمهرية أن الذي تقوم به هذه تلك به لا تقوم ، وإن منها إلا له من الأيدي والرؤوس مقام معلوم ، وصار يرمي بها كل كمي ومختلس ، وأروع منتهس وكل ليث غابة يحميها وتحميه ... إلى أن جثت أسوارها على الركب ، وكانت سهام مجانيقه تميل من العجب فصارت تميد من العجب "(١)

فأسلوب ابن عبد الظاهر يشبه ما كان يكتب به القاضي الفاضل في وصف الحصون الصليبية التي كانت قد استعصت على الفاتحين قبل صلاح الدين مثل قلعة حمص ، وقلعة الكرك، وقبل ذكر بعض ما كتبه القاضي الفاضل في هذه الحصون ، نبين الخصائص الفنية لابن عبد الظاهر من خلال هذا النص :

فأول ما يطالعنا من هذه الخصائص حرص الكاتب على السجع والجناس والموازنة ومراعاة النظير والتورية من أول العبارة إلى آخرها ، كما يظهر ميله الشديد إلى الإكثار من الصور البيانية التي تجعل من الجمادات أشخاصا تشعر وتحس، ويأتي من السلوك بما يأتي به الشخص ؛ فهذا الحصن الذي وصفه الكاتب له عطف يميل به تيها ، وأنف يشمخ بها من الدخول في الحرب ، ويد يقبض بها الشام ، ويمسك بها في خناق الإسلام ، بل إن الحصن ليشبه ملكا كبير السطوة تأتي إليه الملوك لدفع الجزية ، وهم خاضعون ، ويختار من أموال أولئك الملوك ما يريد ، ويدع لهم ما لا يريد .

ثم إن هذا الحصن لا يقف به الأمر عند هذا الحد ، بل إنه يعد مصدر خوف دائم لجميع البلاد والحصون المجاورة ؛ فهذه (حماة) لا تستطيع أن تحمي نفسها من جوره ، وهذه (المعرة) لا تجد من المعرة عليها أن تظهر الخوف منه. وفي هذه العبارة الأخيرة جناس بالاشتقاق، وهو جناس تام بين (المعرة) اسم لبلد، و(المعرة) مصدر ميمي من العار .

ومما جاء من البديع في هذه العبارة أيضا التورية في قوله (وناهيك بدمع العاصي)؛ فالعاصي لفظ له معنيان : أحدهما قريب ، وهو اسم لنهر معروف في سوريا ، وهو ما لم يرده الكاتب ، والآخر بعيد ، وهو اسم

(١) صبح الأعشى في صناعة الإنشا:٣٥٥/٧ .

للعاصي الذي هو ضد المطيع أو الخاضع وهو ما أراده ، وهذه الخصائص كلها رأيناها في كتابات القاضي الفاضل .

ومما يظهر اعتماد ابن عبد الظاهر في كتاباته رسالته هذه على التجنيس قوله: (أسحنا بساحتها)، و: (نزلنا ونازلنا)، و: (تنقص وينقض)، و: (العجب والعجب).

ولقد حفلت هذه العبارة بالعديد من الصور البيانية ، على نحو لافت للنظر؛ مثل: صورة السيوف التي لها ألحاظ تستيقظ من جفونها ،وصورة الحصن الذي حوله مدن خمس تتصل به كاتصال الأصابع الخمس براحة اليد ،وصورة الأبراج المتلاحقة ،كتلاحق الإبل في القافلة ،وصورة المعاول التي لا تستطيع أن تقرأ ما على خواتم الأبراج وفصوصها من الكتابة ،وصورة الرماح التي تغار من المجانيق، وصورة الأبراج والأسوار التي تجثو على ركبها وتبدي عجبها بعد أن كانت تبدي عجبها ؛ كل ذلك مذهب فاضلي في الكتابة لا يحيد عنه الكاتب، ولا يؤثر عليه مذهبا آخر أو يزاوج بينهما بطريقة من الطرائق على حد قول الدكتور عبد اللطيف حمزة[١] .

ومما يلاحظ على هذه الرسالة تأثرها بما كتبه القاضي الفاضل في وصف حروب صلاح الدين ؛ لا في الأسلوب فقط ،بل في الصور والأفكار أيضا؛ فكتابات الفاضل في هذا الشأن توضح أن صاحبها كان يسلك في الوصول إلى وصف بأس جيش صلاح الدين مسلك التهويل من شأن الحصون التي كان يفتحها؛ وذلك مثل قوله في وصف حصن الكرك:**"هو شجا في الحناجر،وقذى في المحاجر،قد أخذ من الآمال بمخنقها، و قعد بأرصاد العزائم وطرقها،وصار ذنبا للدهر في ذلك الفج،وعذرا لتارك فريضة الله من الحج... "**[٢]، ثم يستطرد في وصف الدمار الذي ينزله الجيش بهذه الحصون وما خلفها : "وقد جمعت الحجارة في الإسقاط بين رؤوس الأبراج ورؤوس الأعلاج فرمت الشرائف والواقفين عليها لحمايتها ،وأرت الإفرنج باهتدائها إلى أندائها غاية غوايتها، فما أخرج أحد منهم رأسا إلا دخل في عينيه نصل، وما هجر قراب الإسلام سيف إلا وله في رقاب الكفر غمد قطعها وصل،وما على الحجر من الإسراف والتبذير حجر،ولكل ليلة من وقع الحوافر ومن سنا الأسنة فجر،ولقد أخذنا من العدو بالمخنق،وشرعنا في ضم الخندق،والحائط واقع،والواقعة بهم محيطة ،والدروع بالسيوف مفصلة وبالجروح محيطة**"**[٣].

---

(١) الأدب المصري من قيام الدولة الأيوبية إلى مجيء الحملة الفرنسية : ١٩٢ .
(٢) الروضتين :٥٥/٢.
(٣) المصدر نفسه :٥٦/٢ .

الباب الرابع

الخصائص الفنية
لمذهب القاضي الفاضل الكتابي

الفصل الأول : ثقافة القاضي الفاضل في رسائله:

-القرآن الكريم، والموروث الديني:

اتّكأ القاضي الفاضل اتّكاء واضحا على المادة القرآنية في كتاباته ، لكي يعبر عما يعتمل في نفسه من مشاعر وأفكار، وهذا أمر طبيعي لكاتب كان يحفظ القرآن الكريم ، ويكثر من قراءته وتدبر ما فيه من بيان وجمال . يضاف إلى هذا أن القرآن الكريم كان من المواد الأساسية التي ينبغي للكاتب في ذلك العصر أن يلم بها، قبل أن يقحم نفسه في ميدان الكتابة وعالم الكتّاب . يقول القاضي الفاضل حينما دخل مصر وقدم نفسه للموفق بن الخلال، صاحب ديوان الإنشاء بمصر: "... فلما حضرت الديوان ومثلت بين يديه، وعرفته من أنا وما طلبي، رحب وسهل، ثم قال لي: ما الذي أعددت لفن الكتابة من الآلات

؟ فقلت: ليس عندي شيء سوى أني أحفظ القرآن الكريم، وكتاب الحماسة، فقال: في هذا إبلاغ، ثم أمرني بملازمته " [١] .

يقول سبط بن الجوزي: " ... وقد استعان بآيات القرآن الكريم في كثير من رسائله " [٢] ، ويقول عبد اللطيف حمزة : " ... وهذه الخاصية التي تلفت النظر إليها، هي خاصية نثر القرآن، على طريقة ابن العميد في نثر الأشعار ، وبيان ذلك، أن القاضي الفاضل كان يستطيع بهذه الطريقة أن يدمج القرآن في كلامه، فكأنه جزء من هذا الكلام، ولا تقل إنها طريقة بسيطة أو مسبوقة، فالقول ببساطتها أو مكانها مردود بمحاولتك تقليدها، وعجزك كل العجز عن ذلك، والقول بأنها مسبوقة مردود كذلك ببحثك في آثار الكتّاب جميعهم قبل الفاضل ، وانعدام هذه الخاصية في تلك الآثار . وهكذا استطاع الفاضل أن يستغل القرآن لنفسه استغلالا فنيا صرفا ، وأن يتخذ منه صبغا من أجمل أصباغه الفنية التي ألف بينها بطريقة فاتنة " [٣] .

على أن وجود هذه الظاهرة في كتابات القاضي الفاضل ، لم يكن لغايات التجميل والتزيين فحسب، وإنما كان الفاضل يهدف من وراء استعمالها إلى غاية أبعد من ذلك ، فهو يسعى إلى استثارة ذكريات ومواقف وألفاظ ذات أثر في وجدان الإنسان المسلم ومشاعره ؛ إذ كان يستقي من المادة القرآنية ما يتلاءم مع الغرض الذي يريد أن يعبر عنه. وقد توصل إلى ذلك بطريقة تنم على براعته ودقته في تخير الآية الملائمة وإدخالها في تضاعيف رسائله ، فتأتي الآية في موضعها الصحيح ، وكأنها جزء يتكامل مع عبارته ، ويتواءم معها ، ومن ذلك قوله في أسرى حطين : " ... فلله هو من يوم تصاحب فيه الذئب والنسر ، وتداول فيه القتل والأسر ، وبات الكفار فيه مقرنين في الأصفاد [١]، ممتطين الأداهم[٢] إلا أنها غير المطهمة الجياد " [٣]، وقوله في رسالة وجهها إلى صلاح الدين مطمئنا باعثا الأمل في نفسه ، حينما حصر الفرنج عكا ، وضيقوا على من فيها الخناق: " الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن ، وأولى من النعمة ما اشترى الحمد بلا ثمن ، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ، ووعد الله سبحانه منتظر ؛ إذ يقول في كتابه : ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، و ليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا﴾[٤] "[٥].

---

[١] الوشي المرقوم : ٩ . والروضتين :٤٨٨/١ .
[٢] مرآة الزمان في تاريخ الأعيان : ٤٧٢/٨ .
[٣] أدب الحروب الصليبية :١٨٥-١٨٦ .
[١] سورة إبراهيم :٤٩ . وسورة ص : ٣٨ .
[٢] الأدهم : الفرس الأسود ، والقيد . و المعنى الثاني هو المقصود (اللسان دهم).
[٣] الرسائل الأدبية للقاضي الفاضل (مخطوط) :٤٣ .
[٤] سورة النور :٥٥ .
[٥] صبح الأعشى في صناعة الإنشا: ١١٢/٧ .

وكثيرا ما كان الفاضل يعمد إلى تخيّر ما يتفق من آي القرآن الكريم مع أحداث عصره ووقائعه ، وينثره في تضاعيف رسائله التي رفعها إلى الخليفة وأمراء المسلمين ، بطريقة متميزة في استغلال المادة القرآنية والربط ما بينها وبين عباراته ربطا محكما، وذلك كما في قوله في وصف جند المسلمين المعسكرين خارج عكا في رسالة وجهها إلى بغداد : " ... فشمر من كان قد أسبل، وانتهى من كان قد أجبل، وكأنما أعطوا كتابا من الدهر بالأمان، أو سمعوا مناديا ينادي للإيمان أن آمنوا، وقالوا : سمعنا وأطعنا [١]وعلينا من الخدمة ما استطعنا " [٢]، وقوله في معركة حطين أيضا : " ... وكان اليوم مشهودا [٣]، وكانت الملائكة شهودا ... "[٤] .

والجدير ذكره ، أن الفاضل كان يكثر من إيراد القرآن الكريم وألفاظه حينما يتحدث عن هزائم الفرنج وما حل بهم من يأس وقنوط إذ كان يضمن في العبارة الواحدة عددا من الآيات القرآنية . يقول إثر هزيمة الفرنج في بيت المقدس : " ... وتبرأ بعض الحجارة من بعض ، وأخذ الخراب عليها موثقا، فلن تبرح الأرض [٥]، وفتح من السور باب سد من نجاتهم أبوابا ، وأخذ يفت في حجره ، قال عنده الكافر : يا ليتني كنت ترابا [٦]، فحينئذ يئس وغرهم بالله الغرور " [٧] .وقد تجلت مهارة الفاضل في الإفادة من المادة القرآنية في الإشارة والتلويح فهو يستخدم القصص القرآنية الموحية المعبرة، لكي يعبر عن الموقف الذي يريد بأقل الكلمات، من ذلك إشارته إلى قصة آدم – عليه السلام – وخروجه من الجنة ليصور خروج المسلمين من بيت المقدس ، حينما سقط بأيدي الفرنج في بداية الغزو الصليبي ،إذ يقول في إحدى رسائله لصاحب المغرب : " ... وما كان إلا جنة إسلام ، فخرج منها المسلمون خروج أبيهم آدم من الجنة [٨]، وأعقبهم فيها إبليس الكفر ، وما أجارته مما أعقبه اللعنة "[١]، ومن ذلك إشارته إلى قصة موسى - عليه السلام -وأخيه هارون مع بني إسرائيل ، الذين قعدوا عن القتال وتخلوا

---

[١] مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ﴾ سورة البقرة :٢٨٥ .

[٢] صبح الأعشى في صناعة الإنشا:١٢٧/٧ .

[٣] مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ ذلك يوم مجموع له الناس ، وذلك يوم مشهود ﴾ سورة هود : ١٠٣ .

[٤] الرسائل الأدبية للقاضي الفاضل (مخطوط) : ١٦٥ .

[٥] إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي ﴾ . سورة يوسف :٨٠ .

[٦] إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا ﴾ . سورة النبأ :٤٠ .

[٧] الرسائل الأدبية للقاضي الفاضل (مخطوط) :١٧٠ – ١٧١ .

[٨] وهو يشير إلى قصة خروج آدم من الجنة في القرآن الكريم: ﴿ فأزلهما الشيطان فأخرجهما مما كانا فيه ، وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾: سورة البقرة :٣٦

[١] صبح الأعشى في صناعة الإنشا:٥٢٧/٦ .

عنهما ليشبه بها حال صلاح الدين مع أمراء المسلمين الذين لم يقفوا إلى جانبه في حربه مع الفرنج . يقول في رسالة بعثها إلى الخليفة في حصار عكا مصورا الموقف: " ... ولولا أن في التصريح ما يعود على عدالته بالتجريح؛ لقال ما يبكي العين وينكي القلب، وتنشق له المرائر ، وتشق له الجيوب ، ولكنه صابر محتسب ، منتظر لنصر الله مرتقب ، قائم من نفسه بما يجب ، ﴿ رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي ﴾ [٢]، وهاهو ذا قد هاجر إليك هجرة يرجوها عندك مقبولة [٣] ، ويستثير في أذهان المسلمين قصة الافتراء على النبي يوسف،وهو يتحدث عن علاقة صلاح الدين بالخارجين على الوحدة الإسلامية ، وغيرها من القصص كقصة إبراهيم مع الأصنام ، وسليمان مع النمل [٤].

ومما تقدم ، يمكن ملاحظة أن القاضي الفاضل قد افتنّ في استخدام المادة القرآنية في كتاباته التي تحدث فيها عن الحروب التي خاضها المسلمون مع الفرنجة ، فهو مرة يورد الآية بلفظها ومعناها ، وثانية ينثرها في رسائله ، وقد يشير ويلوح وفقا لطبيعة الموقف الذي يتحدث عنه ،إذ كان القرآن الكريم منهلا لا ينضب لمعاني الفاضل وألفاظه والواقع أنني لم أكد أظفر بنص من نصوصه يخلو من اقتباس مباشر أو غير مباشر لآي القرآن الكريم .

ومن مظاهر تأثر الفاضل بالثقافة الدينية القدرة على التصرف والتعامل مع الألفاظ وتطويعها في قضيته وفنه، ومن ذلك قوله في رسالة وجهها إلى دار الخلافة في بغداد ، يصف فيها حال جند الإسلام المحاصرين لعكا : " وكل من يعرفهم من أهل المعرفة ، ويراهم بالعين ، فما هم مثل من يراهم بالصفة ، يناشد الله المناشدة النبوية ، في الصيحة البدرية ، (اللهم إن تهلك هذه العصابة)[١] ويخلص الدعاء ، ويرجو على يد أمير المؤمنين الإجابة " [٢]، وقوله حينما تمكن صلاح الدين من ضم بلاد النوبة إلى الصف الإسلامي : " ... الحمد لله الذي صدق وعده ، وأورثه الأرض وحده ، وجدد علاه ، وأعلى جده " [٣].

---

[٢] وهو هنا يشير إلى قوله تعالى: ﴿ وقالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبدا ماداموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون. قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين ﴾ سورة المائدة : ٢٤ .

[٣] صبح الأعشى في صناعة الإنشا:١٢٩/٧ ، وانظر : حسن التوسل إلى صناعة الترسل :٧٧.

[٤] صبح الأعشى في صناعة الإنشا: ١٢٩/٦ ، والرسائل الأدبية للقاضي الفاضل (مخطوط) :١٤٨، والبداية والنهاية : ٢٨٩/١٢.

[١] وهذا من قوله – ﷺ في معركة بدر : " اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد " . السيرة النبوية : ١٩٨/٢.

[٢] صبح الأعشى في صناعة الإنشا:١٢٨/٧.

[٣] المصدر نفسه :٥١١/٦. ، وفي العبارة إشارة إلى قول الرسول – ﷺ : " لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده " .

وفي عملية توحيد القوى الإسلامية المتناحرة مع وجود الفرنج على أرض الإسلام كان الفاضل في بعض رسائله إلى الأمراء المسلمين ، يستثير في أذهانهم قول الرسول – عليه السلام - : " بدأ الإسلام غريبا ، وسيعود كما بدأ غريبا، فطوبى للغرباء "[٤] ، وهذا واضح في قوله من رسالة بعثها إلى نور الدين إثر إحباط مؤامرة عمارة اليمني : " ... فالإسلام ببركاته البادية، وفتكاته الماضية ، قد عاد مستوطنا بعد أن كان غريبا "[٥]، وقوله إثر تحرير بيت المقدس : " ... وكان الدين غريبا فهو الآن في وطنه "[٦].

ويتصل بثقافته الدينية أيضا إشارته الكثيرة إلى الاعتقادات والديانات الأخرى كالنصرانية، والوثنية، وغيرها.

-الثقافة الأدبية واللغوية:

وتأتي ثقافته الأدبية الواسعة فتكون رافدا آخر من روافد ثقافته التي عملت على تكوينه العقلي والبياني، وأمدته بالكثير من الألفاظ والمعاني. فنستطيع أن نتلمس مظاهر الثقافة الأدبية مثلا في قوله متوعدا الفرنج إثر هدم حصن بيت الأحزان : " ... والبلاء ينادي طبرية بلسان مصابها : إياك أعني واسمعي ياجارة " [١]، وفي قوله أيضا بعدما لحق الفرنج في معركة غزة من ذل وهوان : " والعدو قد غزي في عقره وعقر ، وأذل في دار ملكه واحتقر "[٢] . وهو في قوله : "... وهو الطاعم الكاسي المحمي بالمناصل لا الحامي ، والمكفي لا الكافي ،... " يلتفت إلى قول الحطيئة في هجاء الزبرقان بن بدر :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها ... واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي[٣]

---

[٤] صحيح مسلم :١٧٦/٢.

[٥] الروضتين : ٢٦٣/١.

[٦] الرسائل الأدبية للقاضي الفاضل (مخطوط) : ١٥٩.

[١] الرسائل الأدبية للقاضي الفاضل: ١٣٣. وهو يستمد فكرته من قول سهل بن مالك الفزاري:

يا أخت خير البدو والحضارة ... كيف تـــرين في فتى فزارة

أصبح يهوى حـــــــرة معطارة ... إياك أعني واسمعي يا جارة

مجمع الأمثال :٤٩/١.

[٢] الروضتين : ٤٩١/١. . وهو هنا يستمد معناه ، وبعض ألفاظه من خطبة للإمام علي كرم الله وجهه ، إذ يقول : " ... ألا وإني قد وعدتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلا ونهارا ، سرا وإعلانا ، وقلت لكم : اغزوهم قبل أن يغزوكم ، فو الله ما غزي قوم قط في عقر دارهم إلا ذلوا ، فتواكلتم وتخاذلتم ، حتى شنت الغارة عليكم ، وملكت عليكم الأوطان . البيان والتبيين :٥٣/٢-٥٤.

[٣] ديوان الحطيئة : ٢٨٤.

وقد أكثر الفاضل من التضمين في كتاباته، ولاسيما في رسائله التي كتبها إلى السلطان صلاح الدين في حصار عكا. فهو يتخير من الأمثال المنظومة ما يخدم غرضه الذي يريد، وذلك لكي يزيد في عزم سلطانه على القتال، ويستحثه على الصبر وقد كشف لنا بذلك عن سعة حفظه لأشعار العرب وأقوالهم ، وقد يعمد إلى حلها ونثرها في طيات رسائله مما حمل محمد زغلول سلام على القول: إن " الاقتباس وحل المنظوم من أهم عناصر كتابته "[٤] .

وأما الحروب، فقد كانت منهلا عظيما استقى منه القاضي الفاضل الكثير من ألفاظه ومعانيه وصوره، وذلك أمر طبيعي لكاتب كان على صلة وثيقة بهذه المعارك والحروب، نظرا لمكانته من صلاح الدين، وبحكم بيئته الحافلة بالحروب، والفترة التي عاش فيها، ومن ذلك قوله : " ... وأدار فيها كأس المنون دهاقا ، وحل الرؤوس ضربا ، وشد الأعناق وثاقا ، وطحن الحصون القائمة بكلكل الجيش ، وحل حتى البروج المشيدة بهدم يكسب حلم أعطافها معنى الطيش "[١]، ويبدو أثر الثقافة الحربية أيضا في قوله بعد هزيمة حطين ": " ... فكسرهم كسرة ما بعدها جبر ، وصرعهم صرعة لا يعيش معها بمشيئة الله كفر ، وأسر منهم من أسرّت به السلاسل ، وقتل منهم من فتكت به المناصل"[٢] . وقد تجلت آثار ثقافته الحربية المستمدة من أجواء المعارك في استعماله المصطلحات والألفاظ ذات الدلالات العسكرية والحربية التي عرفها وتمرّس بها، كالمجانيق والدبابات ، والكباش ، وغيرها من أدوات القتال الثقيلة والخفيفة التي استعملها الطرفان المتحاربان إبّان الحروب .

ومن الروافد الثقافية الأخرى التي أفاد الفاضل منها في رسائله ، ثقافته التاريخية الواسعة، فهو يستمد من الأحداث التاريخية المرتبطة بعصره ، ويشير إلى الشخصيات الإسلامية التي لها شأن في تاريخ الإسلام؛ ليربط الشخصيات المعاصرة له بها[٣] . وفي كتاباته ما يدل على صلته الوثيقة بأحداث عصره ، ولا سيما ما يتعلق بتاريخ السلاجقة والأيوبيين والفاطميين ، وغيرهم من حكام البلاد الإسلامية في عصره ،والجدير ذكره أن ثقافة الفاضل التاريخية ، لم تقتصر على التاريخ العربي والإسلامي ، وإنما تجاوزت ذلك إلى الاطلاع على تاريخ الدولة الرومية ، والمدن الإيطالية ، وغيرها من الأمم والشعوب التي كانت على علاقة بالفرنج الذين يحاربهم سلطانه [٤].

ومما تقدم ، يستطيع الباحث أن يرى أشكال المعاني التي طرقها الفاضل في كتاباته فقد تنوعت ما بين قديم وجديد ، فمنها القديم الذي استوحاه من

---

[٤] الأدب في العصر الأيوبي :١٩٣.
[١] الرسائل الأدبية للقاضي الفاضل (مخطوط) : ١٣٥.
[٢] المصدر نفسه : ١٦٤.
[٣] المصدر نفسه : ١٤٨.
[٤] المصدر نفسه: ١٠٢-١٠٤.

مخزونه الثقافي الغزير، بعد أن ملأ عليه نفسه إعجابا، فأعاد صياغته من جديد وصبّه في قوالب جديدة تتفق وأحداث عصره، بعد أن أضفى عليه الكثير من خصائصه الذاتية، ومنها الجديد المبتكر الذي لم يسبق إليه . فمن المعاني الموروثة التي استوحاها من ثقافته الواسعة، وأعاد صياغتها من جديد قوله في قلعة نجم : " ... وأما قلعة نجم ، فهي نجم في سحاب، وعقاب في عقاب، وهامة لها الغمامة عمامة ، وأنْمُلة إذا خضبها الأصيل كان الهلال لها قلامة "[١] . وهو يلتفت إلى قول ابن المعتز في دير عبدون[٢]:

ولاح ضوء هلال كاد يفضحنا مثل القلامة قد قدت من الظفر[٣]

وقد علّق صاحب الخزانة على ذلك معبرا عن إعجابه بقول الفاضل، وتفوقه على غيره، فقال: " ... وهذه غاية فاضلية لا تدرك "[٤]، ويقول في قلعة حمص : " ... وفتحت الأبراج فكانت أبوابا ، وسيرت الجبال بها فكانت سرابا . فهناك بدت ثقوب يرى قائم من دونها ما وراءها ، وحشيت فيها النار ، فلولا الشعاع من الشعاع أضاءها "[٥] . وهو هنا يستمد معناه من قول قيس بن الخطيم :

طعنت ابن عبد القيس طعنة ثائر لها نفذ لولا الشعاع أضاءها

ملكت بها كفي فانهرت فتقها يرى قائم من دونها ما وراءها[٦]

ولئن استقى الفاضل بعض معانيه وألفاظه من حصيلته الثقافية الموروثة كما هو واضح ،أنه تأثر أكثر ما تأثر بألفاظ القرآن الكريم ومعانيه ، دون أن يطغى ذلك على شخصيته الأدبية ، إذ لم يسمح للموروث أن يطمس هذه الشخصية، بسبب قدرته على الاستمداد الذكي من ثقافته الواسعة المتنوعة، ولم يكن الفاضل في كتاباته يمتح أفكاره وألفاظه من مخزونه الثقافي دون غيره؛ إذ كانت له كذلك ألفاظه ومعانيه الخاصة به، كما يستبين ذلك لكل من يتصل بكتاباته اتصالا يقوم على الاستقراء الداخلي لها، ومن ذلك قوله في قلعة غزة : " ... قلعة أنفها شامخ في الهواء، وعطفها جامح عن عطفة اللواء، قد أوغلت في الجو مرتفعة، وأومضت في الليل ملتمعة، وبرداء السحاب ملتفعة، وقد صافحتها أيدي الأنام بالسلامة من قوارعها، وهادنتها حوادث الأيام على الأمن من روائعها، إلى أن أتيح لها الحين، وقيض لها من اقتضى منها الدين فصبّحها

---

[١] خزانة الأدب :١٧٥.وانظر ما قاله أيضا في قلعة حمص : الروضتين :٢٣٩/١.

[٢] دير قرب جزيرة ابن عمر وبينهما دجلة، وقد خرب الآن وكان من أحسن متنزهاتها، معجم البلدان:٥٢٢/٢.

[٣] ديوان ابن المعتز : ٢٤٧.

[٤]) خزانة الأدب : ١٧٥.

[٥] الروضتين :٢٣٩/١.

[٦] ديوان قيس بن الخطيم :٧-٨.

بما أساء صباحها، وزعزعتها بالزئير الذي أخرس نباحها "[١]، وقوله في بني أيوب : " ... يا بني أيوب ، لو ملكتم لامتطيتم لياليه أداهم ، وقلدتم أيامه صوارم ، وأفنيتم شموسه وأقماره في الهبات دنانير ودراهم، وأيامكم أعراس ومآتم فيها لا على الأموال مآثم ، والجود في أيديكم خاتم ، ونفس حاتم في نقش ذلك الخاتم "[٢]، وقد استطاع الفاضل بهذه اللغة المتأنقة أن يستحوذ على إعجاب من قرؤوا له . يقول القلقشندي معبرا عن إعجابه بمعاني الفاضل وألفاظه : " ومعاني القاضي الفاضل هي التي ترقص لها القلوب، وتطرب لها الألباب، ويهجم قبولها على النفوس من غير حاجب ولا بوّاب ، ... و هذا هو السحر الحلال والمعاني التي تخضع لها شم الجبال ، ولا يقال فيه قيل وقال . "[٣]

-الشعر في رسائله:

كان للشعر في رسائل القاضي الفاضل نصيب الأسد في الاستشهاد والتضمين، وللتدليل على أهمية الشعر في كتابات الفاضل، فإن القلقشندي في كتابه صبح الأعشى لم يعتمد في حديثه عن الاستشهاد بالشعر في الكتابة إلا على كتابات الفاضل؛ وذلك لكثرة استعماله للشعر في كتاباته، وقد كان القلقشندي محقا في ذلك؛ لأن الفاضل إذا استشهد بالشعر في رسائله لم يكن يستشهد بالبيت أو البيتين أو الثلاثة شأن كثير من الكتاب المعتدلين في استشهاداتهم بالشعر، بل تعدى ذلك إلى ما يجاوز سبعة الأبيات.

ومن أمثلة ذلك رسالة له يتشوق فيها إلى إخوانه ومحبيه:

أأحبابنا هل تسمعون على النوى	تحـية عان أو شكـية عاتب
ولو حملت ريح الشمال إليكم	كلاما طلبنا مثله في الجنائب[١]

أصدر العبد هذه الخدمة وعنده شوق يغور به وينجد، ويستغيث من ناره بماء الدمع يصيب وينجد؛ ويتعلل بالنسيم فيغرى ناره بالإحراق، ويرفع النواظر

---

[١] صبح الأعشى في صناعة الإنشا:٢٢/٧.، انظر: أمثلة أخرى في الروضتين : ١٣١/٢ ، ١٣٢.

[٢] صبح الأعشى في صناعة الإنشا:١٩٨/٢. وانظر ثمرات الأوراق في المحاضرات : ٢٢٣-٢٢٤.

[٣] صبح الأعشى في صناعة الإنشا: ١٩٨/٢. ، وثمرات الأوراق في المحاضرات : ٢٢٣.

[١] هذان البيتان من شعر القاضي الفاضل: ديوان القاضي الفاضل:٤٨٢/٢

إلى السلوان فيعيدها الوجد في قبضة الإطراق، أسفا على زمن تصرم، ولم يبق إلا وجدا تضرم...

ليالي نحن في غفلات عيش　　　كأن الدهر عنا في وثاق[٢]

فلا تنفس خادمه نفسا إلا وصله بذكره، ولا أجرى كلاما إلا قيده بشكره، ولا سار بقفر إلا شبهه برحيب صدره، ولا أطل على جبل إلا احتقره بعلي قدره، ولا مر بروضة إلا خالها تفتحت أزهارها عن كريم خلقه ونسيم عطره، ولا أوقد المصطلون نارا إلا ظنهم قبسوها من جمره، ولا نزل على نهر إلا كاثر دمعه ببحره:

سقى الله تلك الدار عودة أهلها　　　فذلك أجدى من سحاب وقطره
لئن جمع الشمل المشتت شمله　　　فما بعدها ذنب يعد
فكيف ترى أشواقه بعد علمه　　　إذا كان هذا شوقه بعد شهره
بعيد قريب منكم بضميره　　　يراكم إذا ما لم تروه
ترحل عنكم جسمه دون قلبه　　　وفارقكم في جهره دون
إذا ما خلت منكم مجالس وقده　　　فقد عمرت منكم مجالس جمره
فيا ليل لا تجلب عليهم بظلمة　　　فظلمة بدر الدين طلعة[١]

ونسأل الله أن يمن بقربه ورحاب الآمال فسائح، وركاب الهموم طلائع، ومن المناظر بالقرب مسامح؛ هنالك تطلق أعنة الآمال الحوابس، ويهتز مخضرا من العود عود يابس.

وما أنا من أن يجمع الله شملنا　　　بأحسن ما كنا عليه بآيس[٢]

وقد كان الواجب تقديم عتبه، على تأخير كتبه؛ ولكنه خاف أن يجني ذنبا عظيما

ولست براض من خليل بنائل　　　قليل ولا راض له بقليل [٣]

وحاشى جلاله من الإخلال بعهود الوفاء، ومن انحلال عقود الصفاء، وما عهدت عزمة القوى في حلبة الشوق إلا من الضعفاء، وحاشية خلقه إلا أرق من مدامع غرماء الجفاء

من لم يبت والبين يصدع قلبه　　　لم يدر كيف تقلقل الأحشاء [٤] [٥]

---

[٢] البيت للقاضي الفاضل، وهو قريب جدا من بيت أبي تمام الذي يقول فيه:

سنبكي بعده غفلات عيش　　　كأن الدهر منها في وثاق: ديوان أبي تمام:٤١ بشرح د. شاهين عطية

[١] هذه المقطوعة بأبياتها السبع من شعر القاضي الفاضل: ديوان القاضي الفاضل: ٢ / ٤٢١

[٢] هذا البيت من شعر القاضي الفاضل: ديوان القاضي الفاضل: ٤٩٠/٢.

[٣] هذا البيت للقاضي الفاضل: مسالك الأبصار: ج٧ ق٢ - ٣٢٥.

[٤] هذا البيت من شعر القاضي الفاضل: ديوان القاضي الفاضل: ٤٨١/٢.

[٥] نهاية الأرب: ١٨/٨-٢٠.

فمما لا جدال فيه أن القاضي الفاضل قد أكثر في نصه هذا من الاستشهاد بالشعر بكثرة تجاوزت ما اعتاده الكتاب قبله، حيث إنه أورد في هذه الرسالة ثلاثة عشر بيتا، مما جعل الشعر يطغى على النص؛ لذا لاحظنا أن الكتاب الذين قاموا بجمع كتابات القاضي الفاضل الأدبية مثل: (ابن نباتة، وابن عبد الظاهر، و النويري) أكثروا من الرسائل التي استشهد فيها بالشعر، مما يدل على أن هذه السمة حقيقة من أهم سمات كتاباته.

وإذا ضمن الفاضل البيت الكامل من الشعر أو نصفه لبعض القرينة، أو إذا ضمن نصف البيت للقرينة الكاملة أكثر من هذا التضمين كثرة جعلت القلقشندي يتخذه عمدته الوحيد في هذا الشأن - كما أشرت سابقا -وذلك راجع لما تميز به القاضي الفاضل من إلحاحه الكبير على السمة الكتابية، حتى يجعلها كأنها هدفه من الكتابة.

ولكي تتضح هذه السمة في كتابات الفاضل أسوق بعض الشواهد عليها من رسائله؛ فمما ضمن فيه البيت الكامل لبعض القرينة، قوله:

وصل من الحضرة

كتاب به ماء الحياة ونقعه الـــ ـــحيا فكأني إذ ظفرت به الخضر

ووقفت عبدها من على

عقود، هي الدار الذي أنت بحره وذلك مالا يدعي مثله البحر

ورتعت منه في

رياض يد تحني وعين وخاطر ي تسابق فيها النور الزهر والثمر

وكرعت منه في حياض

تسر مجانيها إذا ما جنى الظما وتروى مجاريها إذا بخل القطر

وما زلت منه أنشده

كأني ســـــــــار في سريرة ليلة فلما بدا كبرت إذ طلع الفجر

ووافى على ما كنت أعهد

أما تضمينه أنصاف الأبيات فمن أمثلته:

وكررته،... .... فمن حيث ما واجهــته قد تبسما

وقبلته ،... .... فقبــلت دارا في العقــــود منظما

وأخلصت لكاتبه..... ... . وليــس على حكم الحوادث محكما

ولم أصدقه، .... ولكــنه قـــــــد خالط اللحــم والدما

وأرخت وصوله، .... فكـــان لأيام المــــــــــواســـم موسما
وشفيت به غليل،... .... فــــــــؤاد أمنـّيه وقد بلـغ الظما
وداويت عليل ،... .... حشا ضـر ما فيه من النار ضرما
وما تلك الأيام التي ،... ..... . حماها على اللوم المقام على الحما
والليالي العذاب التي ،... ..... . ملأت بحـــــــور الليل بيضـــا وأنجما
وأرسلت الزفرة ،... .... فلو صافحـــت رضوى لرض وهدما
وأسبلت العبرة ،... .... كـما أنشـأ الأفق السحاب المديما
وخطبت السلوة،... .... فأســأل معـــــــــــــدوما وآمل معدما
فأما الشكر فإنما ،... .... أفـــــــــــــض به مســـكا عليه مختما
وأقوم منه بفرض،... .... أرانــــــــــــــــي به دون الـــبرية أقوما
وأوفي واجب فرض،... .... وكيف تـوفـي الأرض فرضا من السما[1] [2]

أما فيما يتعلق بما ضمن فيه نصف البيت للقرينة الكاملة، فمنه قوله:
" ورد كتاب الحضرة بعد أن عددت الليالي ليلة بعد ليلة لطلوع صديعه وقد عشـــت دهرا لا أعد اللياليا
وبعد أن انتظرت القيظ والشتاء لفضل ربيعه فما للنـوى ترمى بليلي المراميا
واستروحت إلى نسيم سحره ... ... إذا الصيف ألقى فـي الديار المراســـيا
ومددت يدي لاقتطاف ثمره ... ... فلله ما أحـــــلى وأحمـى المحانيا
ووقفت على شكواه من زمانه... ... فبت بشكـواه من الدهر شاكيا

[1] أنصاف هذه الأبيات للقاضي الفاضل: ديوان القاضي الفاضل:٢/٤٩٧-٤٩٩.
[2] صبح الأعشى:١/٢٧٧-٢٧٨، ونهاية الأرب:٨/٤٧-٤٩.

ورفعت له دولة يعلو بها الفضل... ... إذا هـز من تلـك اليراع مواليا
ورتبة يرتقي صهوتها بحكم العدل... ... فرب مـــراق يعتددن مهـاويا
إلى الله أرغب فـي اطلاع سعوده... ... زواهـر فـي أفق العـلاء زواهـيا
وفـي إنهاض عثرات جدوده ... ... فقد عثرت بعد النهوض العواليا[٣]

ومما لا يخفى على الناظر في هذه النصوص التكلف الشديد؛ لأن القاضي الفاضل جعل التضمين فيها هدفه الوحيد وغايته التي يرمي إليها من الكتابة، وكأنه يريد أن يثبت للمتلقي مهارته التي لا مثيل لها في هذا الشأن متناسيا أن التضمين شأنه شأن الاقتباس وغيره من ألوان البديع إذا استهدفت لذاتها كانت باعثا على عكس ما يجري بين يديه من الجمال الفني.

ومما يلاحظ أن جمهرة الاستشهادات، والتضمينات تكاد تقتصر على الرسائل الإخوانية؛ لأن الشعر يناسب الكتابات الذاتية على وجه الخصوص؛ وخير شاهد على ذلك ما جاء في قول القاضي الفاضل:

فيا رب إن البين أضحت صروفه علي، ومالي من معـــين فكن معي
على قرب عذالي وبعد أحبتي وأمـواه أجفانـــــــي ونيران أضلعي[١]

هذه تحية القلب المعذب، وسريرة الصبر المذبذب، و ظلامة عدم السلو المكذب، أصدرتها إلى المجلس وقد فلى الحشا نارها، و الزفير أوارها والدموع شرارها، والشوق آثارها، وفي الفؤاد ثارها:

لو زارني منكم خيال هاجر لهدته في ظلمائه أنوارها

أسفا على أيام الاجتماع التي كانت مواسم السرور والأسرار، ومبسم الثغور والأوطار؛ وتذكرا لأوقات عذب مذاقها، وعذب فراقها، وامتد بالأنس رواقها...

والله ما نسيت نفسي حلاوتها فكيف أذكر أني اليوم أذكرها؟[٢]

ولم يكن استخدام القاضي الفاضل للشعر في رسائله مقصورا على الاقتباس والتضمين، بل كثيرا ما يقوم بنثر الأشعار خلال رسائله، ولعل هذا راجع إلى تأثره بالمنهج الذي اتبعه أستاذه ابن الخلال معه في بداية إعداده للعمل بديوان الإنشاء، إذ أمره بحل معاني ديوان الحماسة غير مرة.

---

(٣) أنصاف الأبيات هذه من نظم القاضي الفاضل: ديوان القاضي الفاضل:٥١٥/٢.انظر: صبح الأعشى: ٢٧٩/١، ونهاية الأرب:٤٩/٨

(١) صبح الأعشى: ٢٧٩/١، ونهاية الأرب:٤٩/٨.

(٢) صبح الأعشى:٢٤٧/١، ونهاية الأرب:٣٠/٨.

ومن الشواهد على حله لمعاني بعض أبيات الشعر قوله واصفا الدمار الذي أصاب قلعة حمص على يد صلاح الدين: "... ولم تصل إلى السابعة إلا والبحر مؤذن بنقبها، واتسع الخرق على الراقع، وسقط على الطالع، إلى مولد من هو إليها طالع... لذلك بدت ثقوب يرى قائم من دونها ما وراءها، وخشيت فيها النار فلولا الشعاع بالشعاع أضاءها " [1].

وهنا أكثر من معنى من المعاني التي وردت في الشعر: أولها قوله: " اتسع الخرق على الراقع "؛ أي أن المصيبة التي حلت بهذه القلعة لا يمكن الفكاك منها كالثوب الذي أصابه البلى لا يجد الراقع له حيلة في إصلاحه، وهذا المعنى جاء في قول الشاعر:

لا نسب اليوم ولا خلة   اتسع الخرق على الراقع[2]

وأما ثانيها، وثالثها، فقد أورده القاضي الفاضل في قوله: " فهنالك بدت ثقوب يرى من دونها من وراءها، وخشيت فيها النار فلولا الشعاع من الشعاع أضاءها "؛ أي إن قلعة حمص ظهر عليها من الثقوب الكبيرة نتيجة ضرب منجنيقات جيش صلاح الدين لها مما جعل الواقف أمامها يستطيع أن يرى ما بداخلها. وقد أحرقت هذه القلعة بالنيران حتى إن النار كادت تضيئها، لولا الدخان الذي حجب هذا الضوء، وقد جاء هذان المعنيان في قول الشاعر:

طعنت ابن عبد القيس طعنة ثائر   لها نفذ لولا الشعاع أضاءها
ملكت بها كفي فأنهرت فتقها   يرى قائم من دونها ما وراءها[3]

مما تقدم يتضح لنا مدى إكثار القاضي الفاضل من الشعر في رسائله، ويزداد هذا الأمر وضوحا إذا عرفنا أن شعر رسائل القاضي الفاضل قد بلغ تسعة وثمانين بيتا، ومائتي بيت، وقد وزّع هذا الكم الكبير من الشعر في رسائله على الأغراض الآتية:

١- الشوق: ستة وستون بيتا ومائة بيت.
٢- المدح: ثلاثة وثمانون بيتا.
٣- الفخر: عشرة أبيات.
٤- الحكمة تسعة أبيات.
٥- الهجاء تسعة أبيات.
٦- الاعتذار: خمسة أبيات.
٧- الشكوى: أربعة أبيات.
٨- العتاب: بيتان.
٩- الرثاء: بيت واحد[1] .

---

[1] الروضتين: ٢٣٩/١.
[2] البيت لأنس بن العباس، وقيل إنه لأبي عامر جد العباس بن مرداس: شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك: ١٢/٢.
[3] البيتان لقيس بن الخطيم

ومما سبق يتبين أن الشوق والمدح قد طغيا على غيرهما من الأغراض، مما يدلل على ما ذكرته في بداية هذا الفصل أن الاستشهاد بالشعر كان أكثر في الرسائل الإخوانية، منه في الرسائل الديوانية.

الفصل الثاني: وظائف التداخل بين النصوص في رسائله:

يمكن للباحث أن يستخلص من إدراج النصوص المحفوظة في الرسائل إدراجا صريحا أو ضمنيا، ومن تحويل الأجناس الأدبية جملة من الوظائف أبرزها:

١- الوظيفة البيانية التعليمية:

هي وظيفة أساسية، تظهر في مستوى الجملة الأدبية النثرية القائمة على التخييل، حيث يعمل التداخل على إثراء الجانب الوصفي والتصويري. إلا أن الكتّاب لا يستمدون في هذا المستوى صورهم وتعابيرهم من تجاربهم الذاتية، ومن إحساسهم بالموضوع الذي يطرقون، وإنما يعولون على مراجعهم ومخزونهم الثقافي و يأخذون بالاعتبار الرصيد الأدبي المشترك بينهم وبين القراء، ويراعون كفايتهم في القراءة، فيضمنون حدا أدنى من التأثير فيهم. وإن الفرق بين الصورة التي تستمد عناصرها من المرجع المادي المحسوس، والصورة التي تُستقى مادتها من الرصيد الثقافي؛ هو أن النوع الأول يكشف لنا عن إحساس الكاتب بالأشياء أولاً ويكشف عن ثقافته الأدبية بدرجة ثانية. وأما النوع الثاني فإنه يطلعنا على معارف الكاتب وشخصيته الثقافية، وذوقه الأدبي

---

(١) ديوان القاضي الفاضل: ٥٦٧/٢.

أولاً، ولا شك في أنه يكشف لنا بدرجة ثانية عن إحساسه بالمعنى الذي يكتب فيه باعتبار الاختيار لا يخلو من أثر الذات، ولعل اعتماد الشاهد في تركيب الصورة تحول عند كثير من كتّاب الرسائل إلى سنة أدبية كَبَحَتْ إلى حد ما جماح الإبداع، وحدّت من تطور الجانب الوصفي في كثير من النصوص، إذ جعلتهم يتكلون على رصيدهم الأدبي الذي عبّر عنه غيرهم قبلهم، وينصرفون عن خوض مغامرة البحث عن علاقات جديدة بين لغة النثر والمعاني والأشياء التي يصورون؛ وذلك لأن التعبير بالشاهد، وهو يرد في كثير من الأحيان ركنا ثانياً في الصورة، إنما هو اطمئنان إلى التعبير المألوف، وإن كان اختياره، في حد ذاته، وجها من وجوه الاجتهاد الأدبي.

بلغت نزعة تغليب الاستحضار على الابتكار ذروتها في رسائل العصر الأيوبي، إذ نرى القاضي الفاضل مثلا لا يكتفي بالشاهد الأدبي، بل يكوّن صوره من المادة النحوية والعروضية واللغوية عامة، ومن أمثلة تمثله للنحو في رسائله قوله: " ... وأما تأسف المولى على أوقات تنقضي عاطلة من الفريضة التي خرج من بيته لأجلها، وتجدد العوائق التي لا يوصل إلى آخر حبلها، فللمولى نية رشده، أو ليس الله العالم بعبده، وهو سبحانه لا يسأل الفاعل عن تمام فعله ؛ لأنه غير مقدر له، ولكن عن النية؛ لأنها محل التكليف، وعن مقدور صاحبها من الفعل وفق الاستطاعة ..." (١)

ولعل هذا الحرص على اعتماد الرصيد الثقافي مادة لتكوين الصورة ينزع بالترسل الأدبي منزعا تعليمياً، ونعني بالمنزع التعليمي أن يتخذ المترسل من الغرض الأدبي سياقاً لتزويد القارئ المتعلم بشاهد يختاره من محفوظه أو يتخذه سياقاً لتفسير قاعدة لغوية وتركيزها في ذهن المخاطب. ونضرب لهذا المنزع مثالاً آخر من رسالة للقاضي الفاضل يستخدم بها مجموعة من مصطلحات العلوم بقوله:

"... وتبوأ بها صدرا لا تتطلع إليه عيون الصدور، واعتلّ منها درجة على مثلها تدور البدور، واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور، وقل الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور، وباشر مستبشرا، واستوطن متديرا، وابسط يدك فقد فوّض إليك أمير المؤمنين بسطا وقبضا، وارفع ناظرك قد أباح لك رفعا وخفضا ... وصرف أمور المملكة فإليك الصرف والتصريف، وثقف أود الأيام فعليك أمانة التهذيب والتثقيف..."(٢)

فقد حشد الكثير من موروثه الثقافي، ومن مصطلحات العلوم على اختلافها، من الفقه، والنحو، والصرف، وعلم الفلك وإننا نلاحظ أن السياق يوضح القاعدة و يجسمها ويركزها في ذهن القارئ، فإدراج القاعدة لا يرمي

---

(١) القاضي الفاضل دراسة و نماذج - ص ١٠٤
(٢) المرجع نفسه ...ص١٢٢

إلـى توضـيح صـورة العلاقـة بينهـا وبـين الـسياق الـذي وردت فيـه فحـسب، بـل يرمي إلى تعليم قاعدة مجردة من خلال سياق محسوس.

٢-الوظيفة الإيحائية:

يمكـن للباحـث ملاحظـة أن الـشاهد الأدبـي يمكـن أن يكـون قطعـة مـن نـص يحيل عليه الكاتب، وأن فهم المرسل إليه للنص الجديد ودلالة الـشاهد فيـه يكـون رهين معرفته للسياق الأصـلي الـذي أخذ منـه ذلـك الـشاهد؛ فإنتـاج المعنـى فـي النص الذي يدرج فيه الشاهد يمكن أن يتم عبر إيحاء ذلك الشاهد بالمعـاني التـي يتضمنها سياقه الأصلي، فهو يخفي نصّا يعرفـه القـارئ، ويستحضره فـي ذهنـه فـي أثنـاء القراءة،ويصبح التداخل فـي هذا المستوى أسلوباً مـن أسـاليب الإشـارة والتلميح وطريقة فـي الإضمار، ووسيلة من وسائل الإيجاز فـي الكتابـة، وإنّ وظيفة التداخل الإيحائية أكثر ملاءمـة لمقام الترسل من الوظيفـة البيانيـة؛ لأن من خصائص هذا المقام كما لاحظنا سابقا تناسب التخاطب وتكافؤ المتخطابين فــي المنزلـة الثقافيـة، فاسـتخدام الـشواهد عناصـر مـن نـصوص يحـال عليهـا القارئ يدل على تسليم الكاتب بقدرة مخاطبه على النفاذ إلى ما وراء النص من دلالات كامنـة فــي الـسياق الأصـلي. ويبـدو فــي التـداخل ذي الوظيفـة البيانيـة أحيانـاً خـلاف ذلـك؛ إذ يحـرص الكاتـب علـى تقديم الـشاهد كـاملاً مفيدا بذاتـه، وعلى إغناء المخاطب عن العودة إلى السياق الأصلي، على غـرار مـا جـاء فـي حديثنا عن استخدام الشعر والقرآن وغيره فــي الرسـائل، ولعـل خـروج الكاتـب من التلميح إلى التصريح يخل بأحد الأركان التي ينبغي عليها التخاطب في هذا النـوع مـن الترسـل، وهـو التكـافؤ الثقـافي، ولا يراعـي منزلـة المخاطـب الأدبيـة ونجد ذلك في قوله في كتاب إلى بعضهم يتشوق إليهم:

أأحبابنا هل تسمعون على النوى ⠀⠀⠀ تحيـــــــة عـانٍ أو شـــــــكية عاتب

ولو حملت ريح الشمال إليكم ⠀⠀⠀ كلاما طلبنا مثله فـي الجنائب

أصدر العبد هذه الخدمة، وعنده شوق يغور بـه وينجد، ويستغيث مـن نـاره بمـاء الـدمع فيجيـب وينجـد، ويتعلـل بالنـسيم فيغـري نـاره بـالإحراق، ويرفـع النواظر إلى السلوان فيعيدها في قبضة الإطراق..."[١]

وقد ذكـر البيتـين، علـى شـهرتهما فحـد بـذلك مـن اهتمـام القـارئ ومـن تـأثير الصورة فيه، ولعل الوظيفة الإيحائيـة بعكس الوظيفـة البيانيـة تحقق للترسـل مـا تحققه وظائف المجاز فـي الشعر كالاستعارة، ذلك أن الوظيفـة البيانيـة فــي هذا المقـام تكـاد تنحـصر فــي الـصورة، فـلا تخـرج مـن الحقيقـة إلـى المجاز،ولعـل أقصى مراتب الوظيفـة الإيحائيـة التـي بلغهـا اسـتخدام الـشاهد الأدبـي إنمـا هـي تحويل الـسياق الـذي يتضمن ذلك الـشاهد إلـى مجـال مـن الـدلالات الحافـة غيـر المحدودة بنص وإنما تتسع لتستوعب جنساً من أجناس الكـلام كـاملاً. بمـا يمكـن

---

[١] القاضي الفاضل دراسة ونماذج : ١٢٧.

أن تتحول إلى علامة دالة على الجنس الذي ينتمي إليه نص الشاهد، وقد تجسد ذلك في حلّ الشعر، وقد وضعنا أمثلة على ذلك في فصل الشعر في رسائل القاضي الفاضل.

٣-الوظيفة التكوينية:

تتجلى هذه الوظيفة في توليد المعاني الأدبية من الشواهد المدرجة في الرسائل، وتبرز كذلك في استمداد بنية الرسالة بأكملها من العناصر الأسلوبية أو المعنوية التي يتضمنها الشاهد الأدبي، وتتمثل أخيراً في توليد جنس أدبي في سياق الرسالة يكون مختلفاً عن الجنسين اللذين ينتمي إليهما النصان المتداخلان. أما توليد المعاني فيقوم، كما لاحظنا في تحليل بنية المفاخرة، على قراءة الكاتب للشاهد قراءة تلائم السياق الذي يدرجه فيه، وتقتضي وظيفة الاستشهاد هذه في أكثر الأحيان قلباً لمعنى الشاهد، أو نقدا لصاحبه، ويتعمد الكاتب ذلك فيغض الطرف عن السياق الأصلي الذي أخذ منه الشاهد بغية توليد المعنى الجديد، فالشاهد في هذا السياق، وفي غيره من السياقات التي تشبهه، لا يرد أداة لإخراج المعنى الأدبي بعده ملائماً للدلالة السيّاقية الجديدة على نحو ما رأينا في الوظيفة البيانية، ففي مستوى تلك الوظيفة يتبنى الكاتب مضمون الشاهد ولا يحوره إلا ليلائم مقتضيات السياق النحوية والبلاغية، وإنما يرد لتكوين دلالة جديدة، فهو يقتضي من الكاتب موقفا نقدياً من قول سابق، ولكنه ليس بموقف نقدي في المعنى الاصطلاحي، وإنما هو خطة فنية في الكتابة يقتضيها إدراج الشاهد وتوليد المعنى الجديد.

وأما المستوى الثاني في الوظيفة التكوينية فيتضح في علاقة مقدمات بعض الرسائل بسائر أقسامها، فقد عمد كثير من الكتّاب إلى وضع الشاهد في مقدمة الرسالة قصد توليد معانيها وبنيتها منه، وتبرز هذه السنة التكوينية على نحو خاص في الرسائل القصيرة التي تكتب في غرض واحد؛ إذ يقتصر الكاتب على تحليل المعاني التي يتضمنها الشاهد، وعلى توضيح ما جاء فيه مجملا، يقول القاضي الفاضل في رسالة له: ولم تصل إلى السابعة إلا والبحر مؤذن بنقبها، واتسع الخرق على الراقع، وسقط على الطالع، إلى مولد من هو إليها طالع... لذلك بدت ثقوب يرى قائم من دونها ما وراءها، وخشيت فيها النار فلولا الشعاع بالشعاع أضاءها " [١].وهنا أكثر من معنى من المعاني التي وردت في الشعر: أولها قوله: " اتسع الخرق على الراقع "؛ أي أن المصيبة التي حلت بهذه القلعة لا يمكن الفكاك منها كالثوب الذي أصابه البلى لا يجد الراقع له حيلة في إصلاحه، وهذا المعنى جاء في قول الشاعر:

لا نسب اليوم ولا خلة   اتسع الخرق على الراقع[٢]

---

[١] الروضتين: ٢٣٩/١.

[٢] البيت لأنس بن العباس، وقيل إنه لأبي عامر جد العباس بن مرداس: شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك: ١٢/٢.

وتنتمي هذه الرسالة وغيرها مما يشبهها إلى الصنف الذي سميناه الرسائل ذات البنية البسيطة لأنها تقوم على وحدة نحوية (تركيب الشرط) وبلاغية (التقسيم)، وغرضية (المدح)، وهي نموذج من صنف تطرد الكتابة فيه ويمثل إحدى البنى الفنية التي تصاغ فيها الرسائل، ولا نجده في النماذج التي تستخدم الشواهد فحسب، بل نجده كذلك في عدد كبير من الرسائل التي يتوخى كاتبها سبل الإيجاز، واستعمال أسلوب التقسيم، ولكننا نلاحظ أن علاقة الشاهد بالمتن ليست تكوينية في السياقات جميعها، إذ يمكن أن يكون الشاهد الوارد في مقدمة الرسالة قابلا لأن يعوّض بشاهد آخر شبيه به دون أن تختل صلته بالمتن وذلك إذا اقتصر الكاتب على استخدام معناه العام، ولم يذكر في المتن من القرائن اللغوية ما يجعل تعويضه بآخر غير ممكن.

٤-الوظيفة الإقناعية:

تبرز وظيفة التداخل بين النصوص الإقناعية في استخدام الشاهد الأدبي استخداماً صريحاً، وذلك بتضمينه وبنسبته إلى قائله، أو بتحويره وتنبيه القارئ إلى مصدره، فالشاهد الأدبي ذو الوظيفة الإقناعية يمثل نوعاً من أنواع الأدلة في الحجاج، وقد عرّفه أرسطو بكونه نوعاً من الاستقراء قائماً على إحداث علاقة بين جزئي وجزئي: "فالمثال لا يمثل العلاقة بين الجزئي والكلي، ولا العلاقة بين الكلي والجزئي، ولا هذه التي تكون بين الكلي والكلي، وإنما يمثل العلاقة بين الجزئي والجزئي فقط، وبين المثيل والمثيل عندما يضمهما جنس واحد"[1]، ويرمي المتكلم باستعمال الشاهد إلى إشراك المخاطب في نفس الرأي الذي يعبّر عنه، ونظراً إلى ما بينهما من ثقافة وقيم مشتركة، يمثل الشاهد جزءاً منها،وقد بينا في تحليل خطاب المفاخرة أن المتكلم ينوّع الشواهد الممثلة لثقافة المخاطب، ويمكن أن نستنتج من هذا التنويع. أنه وجه من وجوه توسيع مجال الاشتراك بين المتكلم ومخاطبه،فنظام الاستشهاد يمثل، في نهاية المطاف، سلطة الماضي في جميع أصواتها،و لا تختلف الرسائل الأدبية عن سائر أجناس الكتابة من حيث توظيف الشاهد الأدبي للإقناع والاستمالة. إلا أن الرسائل تختلف من حيث درجة استخدام الشاهد لتحقيق هذه الوظيفة، ويتجلى هذا الاختلاف بين الرسائل البسيطة والرسائل المركبة، وتكاد البسيطة منها تخلو من الشاهد ذي الوظيفة الحجاجية، ويتلاءم هذا المنزع أي عدم استخدام الشاهد للإقناع والمقاصد العامة في هذا الصنف من الرسائل؛ إذ إن جانبا منها يتصل بآداب المجاملة، وبأحداث مخصوصة تتعلق بالمرسل أو المرسل إليه، نجدها في مراسلات الأصدقاء، والآباء والبنيين، وغيرها من الرسائل الإخوانية، وينزع كتّابها إلى استخدام أساليب الدعاء والطلب والاستخبار عن حال المرسل إليه والإخبار عن حال المرسل. كما أن جانباً آخر منها

[1] كتاب الخطابة - ص ١٠٨...

يتصل بموضوعات التقرب من المخاطب كالمدح وطلب الشفاعة، والاستعطاف، وهي موضوعات لا يلائمها استعمال الشاهد الحجاجي أيضاً. ونجد طائفة أخرى من الرسائل البسيطة لا تتسع للاحتجاج، وقد سبق أن ذكرنا منها رسائل التهديد، وهي تضم كذلك رسائل التوصية بالأشخاص ورسائل العزل، وغيرها من النماذج التي يغلب عليه أسلوب الأمر والنهي، فأسلوب الرسائل البسيطة يقوم على تنسيق العبارة وتجويدها، كما أن حجمها يضيق عن خطة الاحتجاج بنوعيه. وكلما ازدادت الرسائل تنوعاً في الأساليب واتساعاً في الخطة ازدادت حاجة الكتّاب إلى استخدام الشاهد للاحتجاج والإقناع، ونجد صنفاً أول من الرسائل المركبة يكتب بمناسبة معينة، ولا يدرج فيه الشاهد ضمن خطة خطاب حجاجي استدلالي، وإنما يُستخدم أداة من أدوات التأثير النفسي، وليست الغاية من إدراجه سوى إقناع المخاطب بفكرة معينة، أو حمله على فعل مخصوص ومعالجة وضع شعوري يكون فيه المخاطب زمن قراءة الرسالة، ففي رسائل المواساة في أمر جلل يتمثل الكتّاب بالشعر ويقتبسون أي القرآن، ويضمنون الأشعار الزهدية والحكيمة للتخفيف من المصاب، كقول القاضي الفاضل من رسالة له إلى صلاح الدين يستشهد فيها بالقرآن الكريم ، والحديث النبوي الشريف ، والمثل السائر :" وما في نفس المملوك شائبة إلا بقية هذا الضعف الذي بجسم مولانا، فإنه بقلوبنا، ونفديه بأسماعنا وأبصارنا : (الطويل)

بنا معشر الخدّام ما بك من أذى   وإن أشفقوا مما أقول فبي وحدي[1]،

وفي رسالة أخرى يقول:" فهذه الأمور وإن كانت شدائد، وزائدات على العوائد، فقد ألهم الله مولانا فيها سعة الصدر، وحسن الصبر، ليشعره أن صبره يعقبه النصر... وغير مولانا يباشر النصرة و يحضرها، فليس إلا التجرد للدعاء، والتجلد للقضاء، فلابد من قدر مفعول، ودعاء مقبول، ومن الأمثال المنظومة:

نحن الذين إذا علوا لم يبطروا   يوم الهياج وإن عُلُوا لم يضجروا

و إن كان ما يقدم الله إليه المماليك قبل المولى لابد منه، وهو لقاء الله سبحانه، فلأن نلقاه، والحجة لنا خير من أن نلقاه والحجة علينا ، فلا تعظم هذه الفتوق على مولانا فتبهر، وتملأ صدره ﴿ فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون و الله معكم ﴾[2] . وهذا دين ما غلب بكثرة، ولا نصر بثروة، وإنما اختار الله تعالى له أرباب نيات، وذوي قلوب معه وحالات، فليكن المولى نعم الخلف لذلك السلف ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة

---

[1] الروضتين: ج٤- ص١٠٥

[2] سورة محمد : ٣٥.

﴾[1] ، واشتدي أزمة تنفرجي [2]، والغمرات تذهب ولا تجيء، والله تعالى يسمع الأذن ما يسر القلوب ..."[3]

وتتضح نجاعة الشاهد الأدبي في الإقناع حين يستنجد به الكتّاب في مواقف حرجة تحتاج إلى سند نقلي قيل في مقام مطابق للمقام الذي تكتب فيه الرسالة.

ونجد صنفاً ثانياً يضم الرسائل التي يمكن أن ندرجها ضمن النوع الخطابي، وهي تكتب من مقام مواجهة، وفيها يسوق الكتّاب الشواهد الأدبية ضمن خطة إقناعية دفاعية؛ لأن هذه الرسائل تكتب ردوداً على مواقف سابقة يعرفها الكاتب، فيعمل على إبطال سندها الفكري ودعائمها النقلية بحجج نقلية أيضاً.

ونجد صنفاً ثالثا يشمل الرسائل التي يتخذ فيها الكتّاب الإقناع بالشاهد أسلوباً من أساليب التندر كقول القاضي الفاضل في رسالة له:

" والأخ النظّام[4] - أدام الله انتظام السعد ببقائه ، وأعداني على الوجد بلقائه -مخصوص بالتحية إثر التحية ، و والهفي على تلك السجية ، وردته من البابلي[5] معتقا ، وظلت من أشهر الهموم بلقائها معتقا:

خلائق إما ماء مزن بشهده   أغادي بها أو ماء كرم مصفقا

وقد اجتمعت آراء الجماعة على هجراني، ونسوا كل عهد غير عهد نسياني:

وما كنتم تعرفون الجفا   فبالله ممن تعلمتم[1]

فقد كان التندر ناتجاً عن إخراج النص من الرمزية إلى الحقيقة، ولا يخفى أن هذه الحركة في الكتابة أحد الأساليب المولّدة للنادرة الأدبية.

---

(1) سورة الأحزاب : ٢١

(2) هو من حديث رسول الله ﷺ . أخرجه الذهبي في ميزان الاعتدال ٢٠١٣، وابن حجر في لسان الميزان ١٢١٤/٢، وغيرهم .
وهو أيضا مطلع القصيدة المنفرجة المشهورة أولها:
اشتدي أزمة تنفرجي   قد آذن ليلك بالبلج
والقصيدة المنفرجة قيل : هي ليوسف بن محمد بن يوسف التورزي ت (٥١٣هـ)، وقيل: هي ليحيى بن العطار القرشي الحافظ، والأول أرجح (انظر : كشف الظنون : ١٣٤٥/٢-١٣٤٧).

(3) الروضتين: ج٤- ص١٠٤-١٠٥

(4) وهو أمير حلب

(5) البابلي : الخمر

(1) القاضي الفاضل دراسة ونماذج : ص١٣٢.

الفصل الثالث- الخصائص الفنية العامة لمذهبه الفني:

اتسمت طريقة القاضي الفاضل الكتابية بخصائص عدة ميزتها من كتابات الكتّاب الذين سبقوه، وكان أثرها واضحا في كتابات تلاميذه من الكتاب الذين عاصروه والذين أتوا من بعده، وهذه الخصائص هي : طول العبارة مما تجاوز ما كان عند الكتاب قبله ، والتزام السجع في كل كتاباته التزاما لم ير من قبل عند أحد من الكتاب الذين سبقوه ، والإكثار من الجناس كثرة ملحوظة تكاد لا تخلو منها عبارة من عباراته ،و الإفراط في الموازنة ، ومراعاة النظير ، والتورية ، والإفراط في الاستشهاد بالشعر وتضمينه ونثره ، ولاسيما في الرسائل الإخوانية كما سيتضح ، وكثرة الاقتباس من القرآن الكريم، وحل معانيه كثرة تجاوزت كل ما جاء في هذا اللون البديعي عند الكتاب الذين سبقوه ، ولاسيما في الرسائل الديوانية كما سنرى ، فضلا عن الإكثار من الصور البيانية ومزجها بالألوان البديعية مزجا فيه كثير من التعقيد، وحتى تتضح هذه الخصائص في كتابة القاضي الفاضل سأتناولها بصفة عامة من خلال تحليل بعض النصوص من كتاباته ، وبعدها نفرد إثر الفراغ من ذلك وقفة خاصة للحديث عن كل من التورية ، والشعر ، والقرآن الكريم ، والصور البيانية أو الخيال في كتابات القاضي الفاضل .

جاء في جواب كتاب ورد عليه يخبر فيه بانتصار المسلمين : " يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين [١] ، وصلت بشرى المجلس السامي، أعلاه الله وشيده ، وأسعده وأصعده، وشكر مسهده، وأنجح مقصده، وملأ بالحسنات أمسه ويومه وغده ، وأهلك وعادى أعداءه

(١) سورة آل عمران: ١٧١ .

وحسده ، واجتث بسيفه زرع الكفار وذراه وحصده بما من الله سبحانه من نصرة المسلمين عند لقاء عدوهم ، وما وليهم الله من القوة والإظهار وما قذف في قلوب الكفر من الخوف و الحذار ، وشرح القضية لوحا للصدور، و استوى فيها الغياب مع الحضور ، فكانت البشارة منه وكانت المباشرة له، وما كل من بشر باشر ، وما كل من غار غاور، ولا كل من خبر عن السيوف لقيها بوجهه، ولا كل من حدث عن الرماح عانقها بصدره . فنفعه الله بالإسلام كما نفع الإسلام به ، وأتم النعمة عليه كما أتمها فيه ، وتقبل جهاده الذي جلى فيه الكربات ما ينبغي فيه القربات " (١)

أما هذا النص فيلفت النظر فيه من أسلوب القاضي الفاضل أكثر من سمة : إحداها اقتباسه من القرآن الكريم مرة ، حيث إنه استفتح مكاتبته هذه بآية كريمة ، وحل معانيه مرة أخرى ، وذلك بقوله : " وما قذف في قلوب الكفر من الخوف " ، وهذه المعاني قد جاءت في قوله تعالى: ﴿ وقذف في قلوبهم الرعب ﴾(٢)، وسوف تتضح هذه السمة في كتاباته أكثر بتحليل بعض النصوص فيما بعد في هذا الفصل .

والسمة الأخرى التي تظهر في هذه الرسالة من سمات الطريقة الفاضلية، كثرة الجمل الدعائية ، حيث إنها بلغت في هذا النص خمس عشرة جملة منها اثنتا عشرة جملة متتالية ، والباقي جاء متواليا ، ولكن بعد جمل عدة من الجمل الدعائية الأولى .

ويكشف هذا النص أيضا عما أغرم القاضي الفاضل به من ألوان البديع الأخرى، ألا وهو مراعاة النظير ؛ فمن الأمثلة التي راعى فيها النظير في هذا النص ما جاء في: (أمسه ويومه وغده) ، وما جاء في: (زرع وذراه وحصده)، و(السيوف والرماح)، و : (وجهه وصدره) .

هذا بالإضافة إلى السمة التي لازمت كتابات القاضي الفاضل ملازمة الظل لصاحبه، وأعني بها السجع الذي تذبذب فيه القاضي الفاضل بين الطول والقصر، ويلاحظ على هذا السجع التكلف الشديد.

وبالنظر إلى المعاني التي تضمنها هذا النص يمكن الوقوف على الإطناب الذي اتسمت به جمله؛ لأنها لا تحوي إلا معاني قليلة يمكن التعبير عنها فيما لا يزيد على خمسة سطور إذا ما نحيت هذه الجمل الدعائية الكثيرة ، وأضرب عن التعلق بالبديع الذي رأينا القاضي الفاضل يلتزم ببعض ألوانه التزاما شديدا دون مسوّغ .

وجاء في جواب كتاب آخر: "ورد كتاب المجلس –نصر الله عزمته،وشكر همته ،وأتم عليه نعمته،وصرف به وعنه كل دهر وملمته ومؤلمته، وأعان أولياءه على أن يؤدوا خدمته، ويستو هبوا له فضل الله

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب :١٥٠/٥-١٥١ .
(٢) سورة الحشر :٢ .

ورحمته، وأجزل قسمه من الخير الذي يحسن محبيه قسمته سافرا عن مثل الصباح السافر، متحدثا عن روض أفعاله بلسان السحري الساحر،حاملا حديث بيضه وسمره حديث السامر ، وهنئ بالفتح وهو يهنأ به ، وكيف لا يهنأ بالفتح من هو فاتحه،وكيف لا يشرح خبره من هو فاتح كل مصر وشارحه ،ولقد دعا له لسان كل مسلم، وساعدت لسانه جوارحه وعلم أنه باشر الحرب وتولى كبرها ، وأخمد جمرها ،ولقي أقرانها، وافترس فرسانها وجبن شجعانه،وشجع جبانها"[١].

ويتضح في هذه العبارة بعض خصائص أسلوب القاضي الفاضل،لأنه من عادته أن يمس الخاصية مسا خفيفا ثم يتعداها إلى غيرها،ولكنه يلح عليها إلحاحا يجعلها سافرة عن وجهها سفور الشمس لا يمكن إغفالها.

ومن خصائصه الكتابية في هذا النص الجمل الدعائية الكثيرة؛ إذ نراه يوردها من النص، ومنها تركيزه على العطف تركيزا يظهر مدى اعتماده عليه في إطالة عبارته وشاهد على ذلك ذكره أحد حروف العطف وهو الواو في هذه العبارة ما يقرب من عشرين مرة، ومن خصائصه الكتابية في هذه العبارة أيضا إكثاره من الجناس كثرة ملفتة.

ومن خصائصه أيضا في هذه العبارة: إفراطه في الموازنة التي أمثلتها في نصنا وحدة الوزن بين: (نصر وشكر)، وبين : (عزمته وهمته ونعمته وملمته وخدمته ورحمته وقسمته)، وبين: (السافر والساحر والسامر)، وبين: (فاتحه وشارحه)، وبين: (أقرانها وفرسانها، و شجعانها و جبانها).

هذا ولا يمكن إغفال السجع المتكلف الذي التزم به القاضي الفاضل في هذه القطعة شأنها شأن بقية كتاباته، وذلك السجع الذي أدى دورا كبيرا في إطالة العبارة إطالة تميز كتاباته عن غيره من الكتاب عدا تلاميذه ؛ لأنه يجهد نفسه للوقوف على السجع، ومن أمثلة هذا الجهد الواضح جريا وراء السجع قوله في هذه القطعة : " وأعان أولياءه على أن يؤدوا خدمته ، ويستو هبوا له فضل الله ورحمته ، وأجزل قسمه من الخير الذي من بين محبيه قسمته " فهذه السجعات الثلاث الأولى منها مكونة من ست كلمات ، والثانية من خمس ، وأما الثالثة فقد تكونت من تسع كلمات . ويؤيد قوله : " وهنأ بالفتح وهو المهنأ به وكيف لا يهنأ بالفتح من هو فاتحه، وكيف لا يشرح خيره من هو مع كل صدر شارحه " فهاتان السجعتان يلاحظ عليهما الطول الشديد؛ حيث الأولى قد تكونت من اثنتي عشرة كلمة ، والثانية تكونت من عشر كلمات، والسجع كلما كان قصيرا كان أخف على الأذن، وأكثر قبولا من جانب المتلقي ، وقد رأينا مصداق ذلك في سجع ابن العميد الذي كان أقصر من هذا السجع كثيرا"

---

[١] نهاية الأرب في فنون الأدب: ١٥١/٥-١٥٢ .

والفقرة السابقة من كلام الفاضل لا تحمل في طياتها كثير معنى،فهي جمل مرصوصة وعبارات مخطوطة تدور حول معنى محدود لا يتكافأ مع طول العبارة ، ومن أمثلة ذلك قوله : " وعلم أنه باشر الحرب وتولى كبرها ، وأخمد جمرها ، ولقي أقرانها ، وافترس فرسانها ، وجبن شجعانها ، وشجع جبانها"[١]، فهذه الجمل على كثرتها لا تحمل إلا معنى واحدا وهو شجاعة المتحدث عنه وقوته في الحرب ، وإيراده الجمل الدعائية الكثيرة التي لا تحوي إلا الدعاء للمرسل إليه بنصر الله كان من أهم الوسائل التي هيأت له إيراده جملا عدة في معنى واحد .

وثمة نص آخر يوضح بعض خصائص كتابته : " فالحمد لله الذي صدقه وعده ، وأورثه الأرض وحده ، وجدد علاه، وأعلى جده ، وأسعد نجمه وأنجم سعده ، ووعده نجحه وأنجح وعده ، وأورده وصفه وأصفى ورده "[٢]

فالناظر في هذه الفقرة من رسالة له يستطيع الوقوف فيها على ما يسمى العكس والتبديل ، أو الجناس المقلوب، أو المعكوس[١]، ذلك لأن القاضي الفاضل ألح على هذا اللون البديعي إلحاحا لافتا للنظر يظهر في قوله : (وعده نجحه، وأنجح وعده)، و(أورد وصفه ، وأصفى ورده) .

أورد الفاضل هذه الجمل في صورة دعاء، ولكنه حرص على أن يوفر لها هذه السمة البديعية إمعانا في الوصول بكتابته إلى الذروة في الكمال الفني كما يتصور، ولا يخفى ما لهذه السمة من دور في إطالة هذه العبارة دون فائدة، وساعده على ذلك كثرة العطف، حيث إن واو العطف ورد ذكرها في هذا النص تسع مرات .

وإذا كان العطف أحد وسائل القاضي الفاضل لتطويل عباراته فإن (الوصف) لا يقل أهمية في القيام بهذا الدور ومما يؤيد ذلك قوله : " وذكر من الله سبحانه وتعالى في الملأ الأعلى ورحمة الله وبركاته معلومة من النشأة الأولى على مولانا الإمام المستضيء بالله، المستضاء بأنواره، المستضاف بداره، الداعي إلى الحق وإلى طريق مستقيم، الراعي للخلق كما يرعى النسيم ، العام فضله، وعدله، المطروق مورد فنائه، المصدوق في مورد ثنائه ، المحقوق من كل ولي من أوليائه، ابن السادة الغر، والقادة الزهر، والذادة الحمس، والشادة للحق على الأرض، سقاة الكوثر وزمزم والسحاب، وولاة الموسم والموقف والكتاب، والموصول الأنساب، وإذا نفخ في الصور فلا أنساب، والصابرون على حساب أنفسهم فهم الذين يؤتون أمرهم بغير حساب "[٢] .

---

[١] نهاية الأدب في فنون الأدب : ٥ / ١٥١ ــ ١٥٢.
[٢] صبح الأعشى في صناعة الإنشا:٥١١/٦.
[١] الفن ومذاهبه:٣٧٤. ، وتطور الأساليب النثرية في الأدب العربي : ٢٩٦ .
[٢] صبح الأعشى في صناعة الإنشا: ٥٠٦/٦-٥٠٧ .

ولعل الوقوف على الوصف في هذه الفقرة لا يحتاج إلى طول نظر لكثرته وتأكيدا على هذه السمة سأكتفي بذكر بعض كلمات جاءت وصفا في هذه الفقرة من كتاب له ، وبعض الكلمات في الوصف من ذلك : (الملأ بالأعلى)، و(النشأة بالأولى)، و (المستضيء بالله) بعشر صفات ابتداء من قوله: (المستضاء بأنواره... إلى قوله ابن السادة ، ووصف هؤلاء السادة بأنهم : (غر ، وقادة ، وزهر ، وذادة ، وحمس وشادة للحق على الأرض)، وبأنهم: (سقاة الكوثر وزمزم والسحاب) ، وبأنهم: (ولاة الموسم والموقف والكتاب) .

وهذه الصفات كلها إذا جرد النص منها لا يبقى إلا سطور قلائل مما يوضح مدى اعتماد الفاضل على الوصف في إطنابه الذي عرف بالترسل في الأوساط الأدبية لعصره والعصور التي تلته .

ومن الوسائل التي استعان القاضي الفاضل بها على إطالة عباراته (الأسماء الموصولة) وما يتبعها من جمل صلتها. نلمح ذلك في إحدى رسائله ، حيث يقول : " وإلى اليقين الذي ظهرت شواهده ، والعلم الذي هبت بمذاكرتك رواكده، والفهم الذي تظاهرت مناظرتك مراشده، والنظر الذي ألقى فرسان الجدال بالجدالة، والأثر الذي يقضي عليك بالعدالة ، والمحاماة عن الحق بما يقضي لمخالفة بالإذالة ولمؤالفه بالإدالة ، والإرشاد الذي ما بدا لفهم الشاك إلا بدا له ، والفتيا التي ضربت شبح الباطل بسيوفها ، وحلت مسامع المستفيد بشنوفها ، والجلالة التي لا يملّ مسموع أوصافها ، والعدالة التي لا يمل مشروع إنصافها "[1].

فهذا النص الذي لا يتجاوز ستة الأسطر أورد القاضي الفاضل فيه من الأسماء الموصولة ما بلغ عددها اثني عشر اسما موصولا، وهذا خير شاهد على اتخاذه الاسم الموصول وسيلة ينسج عليها ما يريد من المعاني شريطة أن يكون هذا النسيج متضمنا لما يهدف إليه من الألوان البديعية : فأول ما يلفت النظر في هذا النص التزام القاضي الفاضل فيه بالسجع من أوله إلى آخره ، والشيء الثاني الذي لا يمكن إغفاله الموازنة التي تتجلى في وحدة الوزن بين كل من :(الجدالة والعدالة) ، و(الإذالة والإدالة) ، و(الجلالة) ، وبين كل من:(أوصافها وإنصافها) بالإضافة إلى ما وفره لهذا النص من الجناس الذي من أمثلته المجانسة بين كل من :(شواهد ، وشوارد)، وبين: (موارد ورواكد)، وبين : (سيوفها ، وشنوفها)، وبين: (مسموع ، ومشروع)، وبين: (أوصاف وإنصاف)

الفصل الرابع: البديع في رسائله:

١-التورية:

(١) صبح الأعشى في صناعة الإنشا :٤٢٧، ٤٢٨ .

ومن المحسنات البديعية التي أكثر القاضي الفاضل منها في مكاتباته، التورية التي عدت في عصره والعصور التي تلته : " من أغلى فنون الأدب ، ومن أرقها وأدقها بين مسالك التعبير، ومن أعلاها رتبة، وهي تنم بحسن اختيارها ولطف ابتكارها عن ذوق سليم، وطبع قويم، وحسن لطيف، وفهم دقيق؛ لأنها لفظ مفرد له معنيان أحدهما قريب غير مراد، والثاني: بعيد وهو المراد ، ودلالة الأول ظاهرة، ودلالة الثاني خفيفة ؛ لذا احتاجت لذوق رفيع ودقة في التصوير، وجمالها يظهر أكثر عندما يوازن السامع بين المعنيين ، ويبحث الرابط بينهما ، ثم يصل إلى المراد بعد كد وإعمال فكر .

ولا يكون لها هذا الجمال إلا إذا كانت في حسن سبك، وتعبير خال من التكلف والابتذال "[١].

ولما كان القاضي الفاضل مبرزا في هذا اللون البديعي أشاد به في هذا المجال أشهر من كتبوا عن التورية ؛ فها هو ذا الصفدي يقول عنه : " إن كثيرا من المتأخرين سلكوا سبيل التورية ، شعراء وناثرين ، وإن القاضي الفاضل هو الذي ذلل صعابها ، ومهّد لها بالأمن مخاوفها، فارتشف من هذه السلافة أهل عصره، ومن نزل ربوع مصره، فرفعوا لواء التورية، وجروا فيها إلى الغاية، وكانت الديار المصرية موطنهم الذي نسجوا فيه خيوطها وأعلوا فيه شأنها "[٢].

وقال عنه ابن حجة الحموي : وأظن أن القاضي الفاضل- رحمه الله تعالى-هو الذي ذلل منهما الصعاب -يعني فني الكناية والتورية -، وأنزل الناس بهذه الساحات والرحاب ، حتى ارتشف هذه السلافة أهل عصره وأصحابه الذين نزلوا بربوع مصره "[٣] .

ولم يكتف الصفدي، وابن حجة بالإشادة بالقاضي الفاضل في فن التورية، بل راحا يقدمانه على المتقدمين الذين حكما عليهم بأن خواطرهم بالتورية شحيحة ، وأفكارهم لا تقصد مظانها، وإن كانت سليمة تجيء عفوا، وأما المتأخرون فهم الذين سموا بأفق التورية ، وأظهروا شموسها في سماء الأدب شعرا ونثرا، وأن القاضي الفاضل هو من كشف عنها الستر بعد طول التحجب، وأنزل الناس ساحتها ورحابها، حتى انتظم في سلكه كثير ممن عاصروه، أو جاؤوا بعهده ، فتمسكوا بطيب أنفاسها، واشتهروا بها فصاروا فرسان ميدانها"[١] .

---

[١] فض الختام على التورية والاستخدام، الصفدي : ٥١ .
[٢] المصدر نفسه : ٤٩ .
[٣] خزانة الأدب : ٥٤ .
[١] كشف اللثام عن التورية والاستخدام : ١٤ – ١٥ .

وموافقة ابن حجة الصفدي على تقديم القاضي الفاضل على غيره في فن التورية أمر لافت للنظر؛ لأن ابن حجة نقد الصفدي في مواضع عدة، وذلك في كتابيه (كشف اللثام عن التورية والاستخدام)، و(خزانة الأدب) [٢].

وقد لاحظ الصفدي أن المتأخرين من أهل مصر والشام حصلت لهم اللطافة دون غيرهم من أهل الأمصار ؛ لأنه ثبت أن ماء النيل أجود المياه وهواء الشام أجود الأهوية، فانعكس ذلك على طباعهم، وجادت قريحتهم بما لم يجد به غيرهم، ويبرهن على ذلك بترسل القاضي الفاضل الذي صبغ بحلى البلاغة والحلاوة،حتى لتكاد ألفاظه يرشفها السمع راحا ، ويمد النسيم عليها من الرقة جناحا؛ لأنه من بيسان الغور إحدى بلاد الشام، ثم أحب مصر وتخيرها ، وسكن ربوعها، فحصل اللطف من هنا وهناك[٣].

وقبل مناقشة رأي الصفدي هذا أوضح السبب الذي دعاه إلى هذه المقولة فأقول : هذا الناقد حينما قرر أن المتأخرين من مصر والشام هم الذين سموا بالتورية فأعلوا رايتها حتى فاقوا المتقدمين فيها ، كان يعبر عن نظرة نقاد عصره الذين أولعوا بالتورية ، وعدوا الأديب الذي يكثر منها،ويحرص على إبداعها وابتكارها في محاوراته أو مراسلاته أو إنشاده الشعر في أي مجال؛ إنما هو من الأدباء المجيدين حيث تبارى أدباء العصر المملوكي في إيراد التوريات التي عبرت عن كثير من اتجاهات حياتهم ، وصورت بيئاتهم المختلفة.وقد تنافسوا في ذلك ليرضوا عصرهم[١].

أما فيما يتعلق بما ذهب إليه الصفدي من أثر هواء الشام وماء النيل على طباع أهل مصر والشام مما جعلهم يبدعون في فن التورية فيمكن القول إن كلا من ماء النيل العذب،وهواء الشام العليل سبب له قيمته وأثره في رقي التورية وازدهارها عند أهل هذين البلدين ،ولكنه ليس السبب الرئيس أو الأصلي في ذلك ،فلو قلنا : إن كلا منهما سبب رئيس أو أصلي في رقي التورية وازدهارها لكان لزاما علينا أن نحكم بأن فن التورية رقي وسما ليس فقط في عصر المماليك وإنما في عصور الأدب جميعها في مصر والشام ،ولحكم النقاد والأدباء بذلك؛ لأن السبب الرئيس وهو الماء والهواء موجود في كل العصور ،ولم يحكم بذلك أحد بل إن الموازنة بين نتاج عصور الأدب تدلنا على أن عصر المماليك كان العصر الذهبي لجمال التورية وما شاكلها كالطباق والتضمين والاقتباس ، أفضل من عصور سابقة أو تالية باستثناء ما جاء من ذلك ساذجا أو عاميا مبتذلا، أو مخالفا لقواعد لغوية، أو ما شابه ذلك .

إذًا هنالك سبب أو أسباب عدة ساعدت على ذلك، وتضافرت مع ماء النيل، أو هواء الشام حتى سما هذا الصبغ البديعي، وما شابهه.

---

[٢] المصدر نفسه :٣-٤٨-٦٩ .

[٣] فض الختام عن التورية والاستخدام : ٩ .

[١] فضّ الختام على التورية والاستخدام: ٥١-٢٤٨ .

وأعتقد أن من الأسباب التي ساعدت على ذلك سبب يتعلق بالحالة النفسية التي عاشها الشعب في حكم المماليك، بيان ذلك هو:
" إن التورية سمة كانت ظاهرة مبنية على المداعبة والمفاكهة ، ووسيلة للتنفيس عن النفوس المكبوتة، تعبر عن المعنى بالنكتة، وتصل إلى الغرض بالسخرية والنقدة، وفي هذا شفاء للنفوس الملتاعة، وعلاج لأزمات العصر التي لا مخرج منها إلا بالتلاعب بالألفاظ عن طريق التورية، فضلا عن أن التصريح قد أوقع صاحبه تحت طائلة بطش الحكام و عسفهم .

فالعصر المملوكي – كما نعلم – أذاق مصر والشام مرارة الحرمان ، وسلط عليهم سياط الظلم والقهر ، وفرض عليهم بالغلظة والشدة الضرائب والجبايات أضف إلى ذلك عدم عناية الحكام بإقامة مشروعات للنفع العام أو إصلاح لشؤون البلاد المختلفة، ونرتب على ذلك أن ملئت النفوس بالمرارة البالغة، ولم يستطع الأدباء أن يصوروا ذلك بأساليب التصريح ، فعمدوا إلى التورية، وجعلوها وسيلة للتعبير عما في النفوس، ومزجوها بالفكاهة ليتنفس الناس من خلالها، ويتسلوا ويتعزوا، ومما يؤكد صحة هذا السبب، أن المجتمع المصري مازال في وقت أزماته يصور حالته النفسية بنكتة لاذعة فيها تورية .

وأعتقد أيضا أن هناك سببا يتصل بالسبب السابق ، أسهم في ازدهار فن التورية وما شاكلها من أصباغ بديعية ، هذا السبب هو : فراغ كثير من الأدباء من العمل الجدي ، أو بعدهم عن المناصب الرفيعة في دولة المماليك ، وقد دعاهم هذا إلى الفراغ ، وعدم الرضا بالحياة، فداعبت نفوسهم التورية، ومازجوها بالهذر والمزاح، وظهرت المحاورات الأدبية في ذلك حتى يزيحوا عن أنفسهم المرارة والشعور بالحرمان، ولا يفهم من ذلك أن التورية في العصر المملوكي كانت للتعبير عن سخط الحكام وتصوير بطشهم فقط، وإنما انسحبت بطريق المنافسة والمداعبة والمحاورة بين الأدباء على أمور كثيرة ، وأغراض شتى كالغزل والمدح ، والهجاء و الشكاية من الحال ، والعتاب، والوصف والتورية بالمصطلحات ونحو ذلك كما دخلت أصباغ البديع المشهورة في التعبير عن نماذج التورية في إظهار المفاكهة والملاطفة .

هذا فيما يتعلق بشيوع التورية وسهولة تناولها في العصر المملوكي أما شيوعها في كتابة القاضي الفاضل و سهولتها، فيرجع إلى إعجابه بكل ما يحتاج إلى المهارة من ألوان البديع. تلك المهارة التي قد تخرج بالعمل الأدبي عن طبيعته كما فعل في شعره الذي أحال بعضه إلى قوالب منطقية تظهر فيها الهندسة اللفظية على حد تعبير الدكتور عبد اللطيف حمزة(١)، وذلك في مثل قصيدته التي نظمها في مدح العزيز عثمان (ابن السلطان صلاح الدين الأيوبي) والتي مطلعها :

الحسن جاد على الأحباب فازدادوا لكن أحبابنا بالوصل ما جادوا

(١) الأدب المصري من قيام الدولة الأيوبية إلى مجيء الحملة الفرنسية : ١١٣ .

والتي يقول فيها :

فيهن من شبه الغـــزلان أربعــة خفر وطيب وأحداق وأجياد
وقد بكت لـفتى العشاق أربعـة صب وفرش وســـمار وعوّاد
هيهات يصدق منك الظن أربعة عهد وود وأقـــوال وميعاد
له من الغصن الــريان أربعـــة عال وباه ومـيـــال ومـياد
ولي من الدهر فيما رمـت أربعة كد وصد وإقصاء وإقصــاد
وللعزيز مــن الملاك أربعـــة عزم وحزم وأفكار وأرصـاد
وفيه من صادقات السحب أربعة فيض وسيل وبـــراق وإرعــاد
يأوي إلى بابك المفـــتوح أربعـــة ضعفي ولهفي ووراد ورواد

وبهذه الطريقة نظم الفاضل أربعة وأربعين بيتا؛ في نهاية الشطر الأول من كل بيت منها لفظ (أربعة)، وفي الشطر الثاني بيان لهذه الأربعة، وبذلك تحول الشعر عند القاضي الفاضل إلى ضرب من ضروب الهندسة[١]، و سأعرض فيما يلي من كتابات القاضي الفاضل ما يظهر مدى اعتماده على التورية في تلوين كتاباته تلوينا فنيا راقه هو ومن اتّبعه من الكتاب .

جاء في إحدى رسائله التي كتبها في التبشير بفتح بيت المقدس:" واستطاعت له أنوار أبانت عندها أن الصبح حيان الحين ... فكم أهلت سيوف عارض الضراب بها حتى صارت كالعراجين ، وكم أنجم رماح تبادلت الطعان حتى صارت كالمطاعين ، وكم فارسية ركض عليها فارسها السهم إلى أجل فاختلسه ... وكل مشقة فهي بالإضافة إلى نعمة الفتح محتملة، وأطماع الفرنج فيها بعد ذلك مذاهبها غير مرجئة ولا معتزلة"[٢]

وجاء في رسالة له :" في يوم شديد المطر والبرد ، والخادم في رأس الجبل يتلقى الرحمة غضة قبل أن يبتذلها الناس ، ويصافح الرياح عاصفة قبل أن تقتسمها الأنفاس ، ويتلقى الرعد بالرعدة ، وإذا السماء انشقت استصحاها المملوك بالسجدة " [١] . وكتب يصف النيل :

" وأما النيل فقد ملأ البقاع ، وانتقل من الإصبع إلى الذراع ، وإنما غار على الأرض فغطاها ، وعار عليها فاستقعدها وما تخطاها . فما يوجد قاطع طريق سواه ، ولا مرغوب مرهوب إلا إياه " [٢] .

بالنظر إلى النص الأول يمكن ملاحظة أن القاضي الفاضل ورى فيه ست مرات: جاءت التورية الأولى في قوله : (استطاعت له أنوار)؛ حيث إن كلمة (استطاعت) تحمل معنيين : معنى قريب وهو: (تمكنت)، ولم يقصده

---

[١] ديوان القاضي الفاضل : ١٨٩/١-١٩٢ .
[٢] الدر النظيم من ترسل عبد الرحيم :١٨-١٣٣ .
[١] خزانة الأدب : ص ٢٤٣.
[٢] المصدر نفسه : ٢٤٣

القاضي الفاضل ، ومعنى بعيد وهو: (سطعت)، وهو الذي يعنيه، والذي رشّح المعنى الثاني جملة: (أبانت عندها) .

أما التورية الثانية في قوله : (حتى صارت كالمطاعين) ؛ إذ إن كلمة (مطاعين) ، تحمل معنيين : الأول : قريب وهو جمع مطعن ، وهو الكثير الطعن للعدو، وهو ما لم يعنه القاضي الفاضل، والمعنى الآخر بعيد وهو جمع مطعون، وهو المصاب بالطاعون، وهو ما أراده الكاتب .

أما التوريتان الثالثة والرابعة ففي قوله : (وكم فارسية ركض عليها فارسها السهم)؛ حيث إن كلمة (السهم) لها معنيان : أحدهما اسم لإحدى آلات الحرب، والآخر صفة تدل على السرعة وقوة الاندفاع، وهذان المعنيان يحتملهما سياق العبارة؛ لأن لكل منهما ما يرشحه في العبارة نفسها أن يكون المقصود بالتورية، أما السهم الذي هو اسم لإحدى آلات الحرب فيعينه أمران أولهما نصب كلمة: (السهم) على أنها مفعول للفعل وكفى، وثانيهما ذكر كلمة (فارسية) بقصد القوس الفارسية. وأما (السهم) الذي بمعنى صفة فيعينه أمران أيضا أحدهما رفعه بعده أنه صفة المرفوع ، وهو كلمة (فارس)، وثانيهما ذكر كلمة (فارسية) بقصد الخيل التي يركبها الفرسان ، ويرشح ذلك المعنى قوله كلمة (فارسها) .

وأما التوريتان الخامسة والسادسة ففي قوله : (مذاهبها غير مرجئة ولا معتزلة) ؛ حيث إن كلمة (مرجئة) وكلمة (معتزلة) لكل منهما معنيان أحدهما قريب، وهو اسمان لفرقتين من فرق المتكلمين، وهو المعنى الذي لم يقصده الفاضل، ومعنيان بعيدان، وهما اسم فاعل من إرجاء، واعتزال، وهما اللذان عناهما الكاتب .

وإذا نظرنا إلى النص الثاني لاحظنا أن الفاضل ورى فيه مرتين: جاءت التورية الأولى في قوله (وإذا السماء انشقت)؛ لأن هذه الجملة لها معنيان ، الأول قريب ، وهو نص آية قرآنية ، ويرشحه كلمة السجدة التي جاءت بعد ذلك، وهو ما لم يرده الفاضل ، والثاني بعيد وهو جملة شرطية ، وهو ما أراده .

أما التورية الثانية ففي قوله: (استصحاها المملوك بالسجدة) ؛ لأن كلمة (السجدة) لها معنيان أولهما قريب ، وهو اسم لإحدى سور القرآن الكريم والذي رشح هذا المعنى قوله قبلها : (وإذا السماء انشقت) ، وهذا المعنى القريب لم يقصده الفاضل ، أما المعنى البعيد لكلمة (السجدة)، فهو اسم لركن من أركان الصلاة وهذا ما قصده .

أما النص الثالث فقد ورى فيه مرتين : جاءت التورية الأولى في قوله: (غار على الأرض) ؛ لأن كلمة (غار) لها معنيان أحدهما قريب ، وهو من الغيرة، والثاني بعيد وهو من الغور ، وهو ما عناه ، وقد رشّح المعنى الأول قوله: (فاستقعدها) ، وهو ما لم يعنه .

أما التورية الثانية فهي فـي قوله (قاطع طريق)؛ حيث إن معناه القريب اللص الذي يقطـع الطريـق، والمعنـى البعيد مـا يترتـب علـى الفيضـان مـن قطـع الطريق، وهذا هو المعنى الذي أراده.

٢-السـجع:

التزم القاضي الفاضل السجع، و أكثر منه في رسائله؛ ذلك لأن السجع كـان أسلوبا عاما للكتابة في عصره، وقد التزمه معظم الكتاب في تلك الفترة فـي الشعر والنثر على حد سواء،وربما تجاوزوا ذلك إلى فنون الكتابة الأخرى ، وقد كانوا يدافعون عن استعماله والأخذ بـه أمام من يعيبون عليهم ذلك، ونجد ذلك في قول ابن الأثير : " وقد ذمه بعض أصحابنا من أرباب هذه الصناعة، ولا أرى لذلك وجها سوى عجزهم عن أن يـأتوا بـه "[١]، ثم أكد ذلك بما جاء فـي القرآن الكريم وحديث رسول الله -ﷺ- من سجع ، وهو يضع لاستعماله شروطا إذ يقول : " ينبغي أن تكون الألفاظ المسجوعة حلوة، حارة ، طنانـة، رنانة، لا غثة، ولا باردة ... "[٢].

وللسجع أهمية بالغة فـي إبراز المعنى، والوقع الموسيقي المؤثر، وهو:

" داخل في باب الألفاظ لا المعاني ؛ ذلك لأنه تعبير صوتي يهدف إلـى توقيع أواخر القرائن فـي الكلام توقيعا موسيقيا فيه أنغام ذات جرس واحد يطرب الأسماع عند الوقوف عليه، ويكون التشابه الصوتي فـي الحرف الأخير سر جمال هذا الفن"[٣]

علـى هذا فالسجع تعويض عن القوافي فـي الشعر ؛ لأن التقارب في مقاطع الفواصل، يجعل الإيقاع حسنا، مع انسجام في موسيقا الكلام، وهو كلام مسلم بحكم السمع، والذوق حتى قال عنه الأقدمون : " لا يحسن منثور الكلام ولا يحلو حتى يكون مزدوجا، ولا تكاد تجد لبليغ كلاما يخلو من الازدواج ، ولو استغنى كلام عن الازدواج لكان القرآن ؛ لأنه خارج من كلام الخلق، وقد كثر الازدواج فيـه حتـى حصل فـي أوساط الآيـات فضلا عما تـزاوج فـي الفواصل فيه "[٤].

ويقول أستاذنا الدكتور عمر موسى باشا : " لا شك أن تصنع السجع أبرز ما فـي النثر من فنون البديع، وعليه كان اعتماد جل الكتّاب، إذ كل كلام

---

[١] المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر : ١/١٩٥-١٩٧.
[٢] المصدر نفسه :١/١٩٧.
[٣] تاريخ الترسل النثري عند العرب في صدر الإسلام :٢٥٨.
[٤] بديع القرآن :٢٦٦.

يخلو منه، ولا يأخذ كاتبه منه بحظ قليل أو كثير ، خارج في عرف نقّاد هذا العصر عن أساليب البلاغة الصحيحة "(١).

وهنا ينبغي أن نستذكر أن القاضي الفاضل كان الناطق الرسمي باسم دولته، ويقع على عاتقه نقل أخبارها سلما وحربا إلى الخليفة في بغداد ، وإلى أمراء المسلمين . ولما كان للكتابة الديوانية نمط خاص متعارف عليه معمول به، و التزم الفاضل فيما التزم في رسائله بالسجع مراعيا بذلك ذوق عصره، لأنه كان ينطق بلسان الدولة الرسمي حين يكتب إلى حكام كانوا يرون التزام السجع وألوان البديع الأخرى من أهم مقاييس الجودة والإبداع الفني. ولذا لم يكن غريبا أن يلتزم الفاضل بالسجع في رسالته التي بشر بها الخليفة بفتح بيت المقدس بقوله :

" أدام الله أيام الديوان العزيز النبوي الناصري ، ولا زال مظفر الجد بكل جاحد غنيا بالتوفيق عن رأي كل رائد، موقوف المساعي على اقتناء مطلقات المحامد، مستيقظ النصر والسيف في جفنه راقد، وارد الجود والسحاب على الأرض غير وارد، متعدد مساعي الفضل وإن كان لا يلقى إلا بشكر واحد، ماضي حكم العدل بعزم لا يمضي إلا بنبل غوي وريش راشد ... وكتاب الخادم هذا وقد أظفر الله بالعدو الذي تشظت قناته، وطارت فرقه فرقا وفل سيفه فصار عصا، وصدعت حصاته وكان الأكثر عددا وحصى، فكلّت حملاته وكانت قدرة الله تصرف فيه العنان بالعيان، عقوبة من الله ليس لصاحب يد بها يدان ، وعثرت قدمه وكانت الأرض له حليفة ، وغضت عينه وكانت عيون السيوف دونها كسيفة ... وأوزع الخادم برد الأقصى إلى عهده المعهود ، وأقام له الأئمة من يوفيه ورده المورود ، وأقيمت الخطبة يوم الجمعة رابع شهر شعبان ، فكادت السموات يتفطرن للسجوم لا للوجوم، والكواكب ينتثرن للطرب لا للرجوم."(١)، وفي رسائله الديوانية الأخرى . وإذا استثنيت بعض ما كتبه الفاضل إلى صلاح الدين في حصار عكا، فقد لا أجد عبارة في رسائله الرسمية غير مسجوعة، ولعل تحلله بعض الشيء من السجع في رسائله المذكورة يعود إلى أنها كانت تحمل طابعا شخصيا في كثير مما ورد فيها، وقد يلاحظ الباحث أن حرص القاضي الفاضل على استخدام السجع يزداد ازديادا واضحا، حينما يتحدث عن ظفر المسلمين بالفرنج، ويصورّ مدنهم ومعاقلهم الحصينة التي سقطت في أيدي المسلمين، وكذلك عندما يكتب إلى الخليفة على لسان السلطان ، أو إلى الولاة والأمراء، وكأني به في هذه الجمل القصيرة المسجوعة يريد أن يهيئ أسماع قارئيه إلى ما يريد قوله لهم، بعد أن يحدث فيهم التأثير المطلوب؛ فكأنّ سجعاته في هذه

---

(١) أدب الدول المتتابعة :٨٥٠.

(١) صبح الأعشى في صناعة الإنشا:٦ /٤٩٦-٥٠٤.

الرسائل هتافات بشرى يعبر من خلالها عن فرحته العظيمة لما حققه المسلمون من إنجازات في ميادين القتال . ومن ذلك قوله إثر انتصار صلاح الدين على الفرنج في معركة غزة : " ... فألقت إلينا أفلاذ كبدها ، وذخيرة يدها ، فمن بين مواشي بخراب البلاد التي خرجت ، وخيول مسومة كأنها لركوبنا أسرجت وألجمت ، وحوامل أثقال و زوامل خففت عن عساكرنا وفرّجت، وميرة كثيرة تمكنت منها يد الأجناد وأفرجت "[٢]، وقوله في فتوح صلاح الدين في بشارة أخرى : " ... فأما الفتوحات الناصرية، فقد هطلت قطرا، بل جرت نهرا، بل جرت بحرا، بل درّت درا ... "[٣]

ومهما يكن من أمر، فإن السجع في رسائل الفاضل كان يأتي وفقا لطبيعة الموقف ومقتضيات الظروف . فهو مرتبط بحالته النفسية أشد ارتباط ، فبينا نراه يتأنق ويزخرف ويلتزم السجع، حينما يكتب بصفة رسمية إلى الخليفة وأمراء المسلمين كما أسلفت إذ نراه حينما يكتب إلى سلطانه وهو يحاصر عكا، ينطلق على سجيته وطبعه، مراعيا بذلك طبيعة الموقف الصعب التي لا تحتمل التأنق والزخرفة؛ إذ كان همه بالدرجة الأولى التخفيف عن سلطانه وحثه على الصبر و الثبات . ومن ذلك قوله : " ... يا مولانا ، هذه الليالي التي رابطت فيها والناس كارهون ، وسهرت فيها والعيون هاجعة ، وهذه الأيام التي ينادي فيها يا خيل الله اركبي ، وهذه الساعات التي تزرع الشيب في الرؤوس ، وهذه الغمرات التي تنقبض فيها الصدور بمائها ، بل بنارها ، هي نعمة الله عليك ، وغراسك في الجنة ، ومحملات محضرك يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وهي مجوزاتك على الصراط ، وهي مثقلات الميزان ..." [١] ، وقوله :

" ... وما تغلو الجنة بثمن ، ما ابتلى الله سبحانه ، من عبادة إلا من يعلم أنه يصبر، وأمور الدنيا ينسخ بعضها بعضا، وكأن ما قد كان لم يكن ، ويذهب التعب ويبقى الأجر ، وإنما يقظات العين كالحلم "[٢]، وهكذا فإن طبيعة الموقف جعلت الفاضل في هذا اللون من الرسائل ينطلق من قيود السجع. اللهم إلا ما جاء منه عفو الخاطر.

---

[٢] الروضتين : ج١،ق٢/٤٩٠-٤٩١.
[٣] الرسائل الأدبية للقاضي الفاضل (مخطوط) :٤٩.
[١] الروضتين :١٦٩/٢.
[٢] المصدر نفسه : ١٦٩/٢.

٣-الجـــنـــاس:

وأما الجناس فقد أكثر منه الفاضل مستغلا تماثل الألفاظ وتقاربها من أجل أن يدخل في بنائه الفني إيقاعا موسيقيا خاصا ذا أثر في النفوس. يقول محمد زغلول سلام مشيرا إلى ذلك: " الجناس والسجع هما الظاهرتان الأسلوبيتان اللتان يعتمد عليهما الفاضل في تلوين أسلوبه بالجرس الموسيقي المتتابع "[١].

وقد بدا لنا الفاضل من خلال ما وصل إلينا من كتاباته مفتونا بالجناس بنوعيه: التام والناقص، فمن الجناس التام قوله: " ... وعدنا عليهم عودة جان على جان ، وجردنا لهم عزمة عان بفكّ عان " [٢] ، وقوله أيضا إثر فتح بيت المقدس : " والشرق يهتدي بأنواره ، بل إن أبدى نورا هتف به الغرب بأن واره ، فإنه نور لا تكنّه أغساق السدف [٣]، وذكر لا تواريه أوراق الصحف "[٤]. حيث جانس هنا أيضا جناسا تاما بين لفظتي : (أنواره : أضوائه ، وأن واره : أي أخفه)، ونجد الجناس الناقص في قوله :" وقد بلي الإسلام منهم بقوم قد استطابوا الموت، واستجابوا الصوت، وفارقوا المحبوبين : الأوطان والأوطار، وهجروا المألوفين : الأهل والديار، وركبوا اللجج ، ووهبوا المهج "[٥]، وفي قوله من رسالة وجهها إلى الخليفة : " وما زالت غيوث فضله على الأولياء أنواء[٦] إلى المرابع، وأنوارا إلى المساجد ، وبعوث رعبه إلى الأعداء خيلا إلى المراقب[٧] ، وخيالا إلى المراقد[٨] "[٩].

ومما تقدم ، نلاحظ أن الألفاظ التي جانس بينها قد جاءت غير مستكرهة ولا متكلفة ؛ لأن النظام العام للتجربة هو الذي استدعى وجودها ، من أجل أن تعبر عما يريده تعبيرا موحيا، فرسم اللفظة وإيقاعها يقتضيان ما يناسبهما من

---

(١) الأدب في العصر الأيوبي :٢٠٣.
(٢) الرسائل الأدبية للقاضي الفاضل (مخطوط): ٨٥.
(٣) مفردها سدفة ، وهي ظلمة الليل : (اللسان : سدف)
(٤) صبح الأعشى في صناعة الإنشا:٤٩٧/٦.
(٥) الروضتين : بيروت : ١٦١/٢.
(٦) الأنواء : مفدها نوء ، وهو المطر : (اللسان : نوأ) .
(٧) المراقب : المكان المرتفع المشرف . (اللسلن : رقب) .
(٨) المراقد : مفردها مرقد ، وهو مكان الرقود والثبات . (اللسان ،: رقد) .
(٩) الرسائل الأدبية للقاضي الفاضل (مخطوط) :١٥٨.

الألفاظ، يضاف إلى ذلك أن ذوق عصره الأدبي كان يستحسن مثل هذا التداعي ويدعو إليه. ومع ذلك؛ فلا بد من القول إن الفاضل نفسه كان له اهتمام خاص بألفاظه مما دفعه إلى استعمال ألفاظ ترتد في جذورها إلى أصل لغوي واحد ؛ ولذا فإنه أكثر من الجناس الاشتقاقي في رسائله، وقدمه على غيره من صور الجناس ، كما في قوله مصورا إمدادات الفرنج المتواصلة على عكا، وقد استبد به الألم من موقف بعض المسلمين القاعدين عن نصرة دينهم وإخوانهم : " ... فإنه لم يبق لهم مدينة ولا بلدة ولا جزيرة، ولا خطة صغيرة ولا كبيرة إلا جهزت مراكبها، وأنهضت كتائبها، وتحرك ساكنها، وبرز كامنها، وثار ثائرها وسار سائرها، وطار طائرها، ... وتصلبت للصليب السليب، وتعصبت للمصاب المصيب، ونادوا في نواديهم بأن البلاد بلادهم ، وأن إخوانهم بالقدس أبارهم الإسلام وأبادهم ... "[1]، وكما في قوله مصورا هزائم الفرنج بعد حطين : " ... وقد كان الخادم لقيهم اللقاة الأولى فأمده الله بمداركته، وأنجده بملائكته، فكسرهم كسرة ما بعدها جبرة ، وصرعهم صرعة لا يعيش معها بمشيئة الله كفر، وأسر منهم من أسرّت به السلاسل ، وقتل منهم من فتكت به المناصل ... "[2] .

ولم يقتصر اهتمام الفاضل على ترديد ألفاظ متقاربة في رسمها وصوتها ترجع إلى أصل لغوي واحد ، بل تجاوز ذلك إلى ترديد حروف بعينها في ألفاظ جملة مما أكسبها اتساقا صوتيا، وجرسا موسيقيا خاصا فمن ذلك قوله : " ... إعلام مجلسه أن المجانيق هدّمت وهدّت ، و شدخت وسدّت ، ورضخت ورضّت ، وقوضت وأفضت ، وقدحت وفدحت ، ومحقت ومحت ، وقد آن أن لا يبقى لورد

السور سورا ، وأن يصير المحصور به محسورا "[1]، وقوله أيضا في جند صلاح الدين الذين هاجموا حصن بيت الأحزان : " ... واستدعاهم من كل حدب فنسلوا، و استدناهم من كل صوب فعسلوا، ودعاهم من كل أوب فآبوا وأقبلوا ..."[2]

ويبدو للباحث المحقق أن ذوق العصر الذي مثله القاضي الفاضل خير تمثيل في كثرة السجع والجناس قد أثرا على المعاني كثيرا ، وأظن أنه في كثير من سجعه أو جناسه قد جنى على المعنى ؛ لأنه كان يستدعي الألفاظ من أجل الموازنة والسجع والجناس لا من أجل المعنى ، وبذلك فإن الكثير من سجعه

---

[1] مفرج الكروب في أخبار بني أيوب: ٣٠٧/٢.
[2] الرسائل الأدبية للقاضي الفاضل (مخطوط): ١٦٤٠.
[1] الرسائل الأدبية للقاضي الفاضل (مخطوط) : ٥٨.
[2] المصدر نفسه : ١٢٤.

وجناسه مستثقل غير سائغ، وما ذلك إلا لأولوية اللفظ على المعنى عنده ، وكان كغيره من أتباع مدرسة النثر المقفى يستتر وراء بعض المسميات التي اخترعها أتباع هذه المدرسة مثل الترصيع والتوشيح والتفصيل وحل القريض، وغير ذلك من أشكال بديعية تبرز اغتصاب المعاني وتوشية إنشائهم بها، ومن جراء هذا الاحتفاء باللفظ ، وإيثاره على المعنى صار معيار التمايز الإبداعي بين كتاب هذه المدرسة يكمن في الصناعة اللفظية .

٤-الطباق والمقابلة:

وأما الطباق والمقابلة، فقد اتكأ الفاضل عليهما من أجل التوضيح وتأكيد المعنى المراد ؛ ذلك لأن الطباق بما فيه من اجتماع الأضداد من شأنه أن يوضح ويبين ويجلي . ولما كان القاضي الفاضل يسعى إلى نقل صورة واضحة موضحة عن عصره، فقد أكثر من استخدام الطباق والمقابلة في كتاباته، ولاسيما حينما كان يتحدث عن حروب صلاح الدين مع الصليبيين ومع الخارجين على الوحدة الإسلامية ، كما في قوله حين كتب إلى الخليفة العباسي عن الموصل التي وقف أصحابها في وجه وحدة الصف الإسلامي : " ... فلو انتظمت في السلك لانتظم جميع عسكر الإسلام في قتال الشرك ، وكان الكفر يكفّ يديه ، وينقلب على عقبيه ، ويغشاه الإسلام من خلفه ومن بين يديه ، ويغزى من مصر برا وبحرا ، أو من الشام سرا وجهرا ، ومن الجزيرة مدا وجزرا ... "[(١)] . ويلاحظ هنا، أن الفاضل كان يركز على الطباق والمقابلة، حينما كان يستعرض المواقف المتناقضة لبعض الحكام المسلمين إبّان الحروب الصليبية، ويقارن بين ما يقوم به صلاح الدين، وما يفعله الحكام المحليون من المسلمين الذين كانوا يعرقلون عمله، كما يتبين من قوله في صاحب الموصل من رسالة رفعها إلى الخليفة : " ... والعجب أننا نحامي عن قبر النبي - عليه السلام - مشتغلين بهمه، والمذكور ينازع في ولاية هي لنا ليأخذها بيد ظلمه ، وكم بين من يحارب الكفرة ويحمل إليهم قواصم الآجال ، وبين من يتخذهم

[(١)] مفرج الكروب في أخبار بني أيوب:١٣٨/٢.

بطانة دون المؤمنين ، ويحمل إليهم كرائم الأموال " [٢]. وهذا التركيز كان يظهر كذلك حينما يتحدث الفاضل أيضا عن موقف الفرنج في حروبهم مع المسلمين ، ومواقف بعض المسلمين المتقاعسين ، كما في قوله مخاطبا الديوان العزيز شارحا الموقف حول عكا : " ... وإن البابا الذي لهم برومية قد حرم عليهم مطاعمهم ومشاربهم ، وقال : من لا يتوجه إلى القدس مستخلصا فهو عندي محرم ، لا منكح له ولا مطعم ، فلأجل هذا يتهافتون على الورود ، ويتهالكون على يومهم الموعود ، بخلاف أهل الإسلام فإنهم يتضجرون ولا يصبرون ، بل يتفلتون و لا يجتمعون ، و يتسللون و لا يرجعون ، و إنما يقيمون ببذل نفقة ، و إذا حضروا فبقلوب غير متفقة"[١] ،و حينما كان القاضي الفاضل يأتي بهذه الصور المتقابلة بعد هزيمة تلحق بالفرنج ، كان يرى فيها متنفسا لانفعالاته القوية ، وإحساسه بالنشوة ، ولاسيما حين يقابل بين حال المسلمين المنتصرين ، وحال الفرنج المهزومين . فهو يقول في إحدى رسائله إلى الخليفة مبشرا بفتح بيت المقدس : " ... وفي الحال خرج طاغية كفرهم وزمام أمرهم ، سائلا أن يؤخذ البلد بالسلم لا بالعنوة ، وبالأمان لا بالسطوة، وألقى بيده إلى التهلكة وعلاه ذل الملكة بعد عز المملكة ، وطرح جبينه في التراب، وكان حينا لا يتعاطاه طارح"، مثلما كان يقابل بين حال الإسلام مع وجود الفرنج على أرضه وحاله بعد تطهيرها .[٢]

ولنا أن نجزم أن الفاضل لا يسعى من وراء استخدامه للطباق والمقابلة في كتاباتة إلى مجرد الزخرفة والتنميق أو التلاعب بالألفاظ ، من أجل إرضاء ذوق عصره، بل إنه كان يسعى كذلك إلى توضيح أفكاره ومعانيه وقد أسعفه في ذلك كله خياله الواسع، ومخزونه الثقافي، ومقدرته على استعمال الألفاظ وتطويعها .

ويستطيع الدارس أن يجد في رسائل الفاضل أيضا صورا أخرى من المحسنات اللفظية والمعنوية التي أتى بها لتلوين أسلوبه وتوضيح معانيه كالتورية[٣]، والتضمين، والتقسيم، ومراعاة النظير، وغيرها من ألوان البديع التي افتتن بها عصره .

---

[٢] المصدر نفسه : ٢/١١٠-١١٢.

[١] الروضتين ، بيروت : ٢/١٦٢.

[٢] انظر صبح الأعشى في صناعة الإنشا:٦/٤٩٩.

[٣] يقول ابن حجة : " ... وقيل إن القاضي الفاضل هو الذي عصر سلافة التورية لأهل عصره ، وتقدم على المتقدمين بما أودع منها في نظمه ونثره ، فإنه – رحمه الله – كشف بعد طول التحجب سترها ، وأنزل الناس بعد تكبيدها بساحاتها ورحابها " . : خزانة الأدب :١/٢٤١.

ومما يسترعي الانتباه هنا ، أن ألوان البديع والمحسنات اللفظية التي وردت في رسائل الفاضل التي وصفت الحروب لم تكن على حساب معانيه ؛ ولذا جاءت ألفاظه في معظم الأحايين معبرة بدقة عن معانيها التي استعيرت لها تعبيرا واضحا، وقد تنبه لهذه الظاهرة معظم الذين تحدثوا عن الطريقة الفاضلية[١]

الفصل الخامس- خصائص مذهبه الفني في مستوى الألفاظ والتراكيب:

اتّبع القاضي الفاضل في رسائله طرائق وأساليب عدة ، سعيا وراء الاستثارة العاطفية وإبراز المخاطر التي كانت تتهدد الإنسان المسلم وأرضه، ومن أجل ذلك اتسم أسلوبه بمجموعة سمات يدركها الدارس إذا دقق في رسائله التي كتبها في العهد الأيوبي كالمبالغة والتكرار، واستعمال المصطلحات، والاتجاه الخطابي، واصطناع أسلوب القصة، واستعمال أنماط مختلفة من الجمل ما بين إنشائية وخبرية ومعترضة، وقد يعمد في مواضع معينة في رسائله أن يجنح إلى المبالغة فيما يصفه أو يتحدث عنه، ولاسيما حينما يصور

---

[١] انظر مثلا : أدب الحروب الصليبية :٢٠١، والحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي :٢٠١، والأدب في العصر الأيوبي :٢٢١.

هزائم الأعداء ويتحدث عن حصونهم وقلاعهم القوية التي استباحها المسلمون، أو عندما يصف إمداداتهم المتواصلة وقوتهم ، وحين ينقل البشائر ، ويصف الفتوحات، وعودة المدن إلى الحمى الإسلامي، أو في الرسائل التي يصف فيها السلطان صلاح الدين أو أحد آل بيته، وقد لا نجد رسالة من رسائله في هذه الموضوعات تخلو من هذه السمة، ويكفينا للتدليل على ذلك أن نذكر قوله في بشارته إلى الخليفة بفتح القدس ؛ إذ يقول : " ... فإنها بحرفيه للأقلام سبح طويل، ولطف الحق للشكر فيه عبء ثقيل، وبشرى للخواطر في شرحها مآرب ويسرى للأسرار في إظهارها مسارب ... " [١]، وقوله أيضا في رسالة هنأ بها صلاح الدين بهزيمة الفرنج في حطين : " ... كتب المملوك هذه الخدمة ، والرؤوس إلى الآن لم ترفع من سجودها، والدموع لم تمسح من خدودها "[٢]، و هي فيما أرى استثارة عاطفية مقصودة أتى بها الفاضل لتصوير صدى النصر في نفوس المسلمين، ولاسيما من شارك منهم في معركة حطين وما بعدها، وربما أراد كذلك يستثير المسلمين عامّة من أجل التصدي للفرنج، ومتابعة مجاهدتهم بغية استخلاص ما تبقى من بلاد المسلمين في أيديهم، بعد أن تبين للناس من خلال تلك المعركة الحاسمة أن الانتصار على جيوش الفرنج مجتمعة أمر ممكن .

وأما الإطناب والتكرار ، فواضح في رسائله ومن ذلك رسالة بعث بها إلى تقي الدين عمر تتضمن الاشتياق وترجي التلاق: " أقام المملوك بهذه الخدمة رسم الشكر الذي هو سائر لا يقيم، وترجم بها عن جهة الشوق الذي هو مقيم لا يريم، وإنه لشوق جاهل لو لم يخف جهله الجفن الحليم والله لا يعدم الدين منه أي تقى ما ظهــرت التقوى في نعــته حتى بطنت في ضميره ، ولله أي سريرة في صدره وأي صدر على سريره "[١] .

ويمكن ملاحظة أن النص كله يدور حول فكرة واحدة، وهي بيان الشوق لتقي الدين عمر، ولكن الفاضل يقلب فكرته - كعادته - في قوالب لفظية متعددة، لكي تصل إلى القارىء واضحة جلية متكاملة، وكأني بالفاضل لشدة شوقه، وإحساسه بالفراق قد أحسّ أن الكلمات القليلة عاجزة عن التعبير عما في نفسه من مشاعر وأحاسيس؛ ولذا فإنه أطنب من أجل أن يؤكد إحساس الشوق الذي كان يخالجه، ووجد في معجمه اللغوي، وسعة ثقافته ما أسعفه في إطنابه، وهذه الطريقة التي رأيناها في هذه الرسالة، هي من أكثر طرائقه دورانا في رسائله، و بها نجد سعة ثقافته، وغنى معجمه اللغوي، ومصطلحاته، و اتكائه على العلوم كلها .

---

[١] صبح الأعشى في صناعة الإنشا:٤٩٧/٦ .

[٢]الروضتين ، بيروت :٨٣/٢.

[١] المختار من إنشاء القاضي الفاضل، (مخطوط): الورقة الثالثة.

ومن السمات الأسلوبية الأخرى التي ظهرت في رسائل الفاضل، استعمال المصطلحات الفلكية والحديثية والنحوية وغيرها، ويلاحظ الدارس أن الفاضل قد وفق في استخدامها؛ إذ جاءت معبرة عن المعاني التي يريد دون أن تثقل على النفس، وإن كان الأمر لا يخلو من إظهار معرفته بعلم من علوم العصر، ومن ذلك قوله : " ... وتبوأ أهل القرآن بعد أهل الصلبان للقتال عن دين الله مقاعد، ويقر عينه وعيون أهل الإسلام أنْ تَعَلَّقَ النصر منه ومن عسكره بجار ومجرور:"[٢]، وقوله أيضا : " ... ولا يقبل الله جمعا لا يكون لولائه جمع سلامة لاجمع تكسير "[٣]، وبهذه الصورة نجد استخدام الفاضل لمصطلحات النحو لأداء الغرض الذي كتب رسالته من أجلها ، فلم تكن مستثقلة ،بل إنها تعبر تعبيرا موفقا عما يريد الوصول إليه من معنى.

ومن استعماله لمصطلحات علم الفلك قوله في رسالة إلى عز الدين فرخشاه تتضمن وصف كرائم الإحسان، وسرحته في طلب صيد الغزلان : " أدام الله سعادته إدامة تستخدم الكواكب في شرفها، ولا تصل خواطر الغير إلى طرفها، ولا تزال الأيام تتبرع فيها بسعود تزيد على غابرها بحاضرها، وعلى ماضيها بمؤتنفها ... فكمل فضله على الخلق به وتم من شيم هي أنفع له من البوارق المشيمة، وأحسن من السحاب عائدة على الرياض الهشيمة، فقد نسأت أنوار أيامه أنوار القمرين ... "[١].

ومن كتاب له إلى الديوان النبوي بكسر الفرنج قوله مستدعيا بعض عناصر الطبيعة التي تشاركه في رسم صورة المعركة وهولها، ولاسيما العناصر التي تدل على علم الفلك منها :" أبرقت في جوانبها بروق من كل سيف صقيل... رمتهم سماء العَجاج بكواكبها، وردّت طيور النبال إلى أوكارها منح الجعاب، وتصوّبت عيون السُّمر إن أمثالها من النجوم تشكو ظماء الكعاب ،ز.. واشتاقت الأرض إلى وقع حوافرها التي تكسوها حلية السماء من الأهلة عند تجولها ..." [٢]

وقد حشد العديد من عناصر الطبيعة والفلك ليصور من خلالها هول المعركة ، ومنها: (أبرقت، وسماء، والعجاج، وكواكبها، والنجوم، والأهلة).

ومنها قوله في رسالة له إلى الملك العزيز يحشد فيها عناصر الطبيعة ليتكئ عليها في تصوير التجربة التي يسعى إلى إيصالها إلى متلقيه ، وفيها يستدعي تلك العناصر التي تدل على الكرم والسماحة في وصف خصال الملك العزيز :" ولا برحت ملائكة السماء من أنصاره وجنوده ، وملوك الأرض من خَوَله وعبيده ، والبحار والسحاب من منتجعي كرمه ووفوده . مثال شريف تقلد

---

[٢] صبح الأعشى في صناعة الإنشا: ٥٠١/٦.
[٣] المصدر نفسه : ٥١٥/٦.
[١] المختار من إنشاء القاضي الفاضل (مخطوط) : الورقتان : ٤-٥.
[٢] رسائل عن الحرب والسلام من ترسل القاضي الفاضل – ص ٤٠

منه صارما لا ينبو غراره ، واجتلى منه بدرا محا آية الليل إسفارُه ، وورد منه على ظمأ منه بحرا ما فارقته على البعد أمطاره ، وتناول منه الروض نضيرا ... " [١]

ومنها أيضا قوله في رسالة له يجمع فيها بين مصطلحات النحو ، ومصطلحات علم الفلك :" ولا زالت واوات الوصف في العطف تتكرر فيه حتى تستفرغ الواوات كل الاستفراغ؛ وحتى لا يفضل للخدود الملاح واو من واوات الأصداغ ، المملوك ينهى أنه إن أخر كتب ساداته فكما يؤخر المسك الختام ، والغسل بعد الطعام ، وليلة القدر في عقب الشهر ، وعيد النحر في أواخر العشر، وهو يمطر أيديهم قبلا عسى أن تعشب إليه كتبا ... " [٢]

ومن استعماله مصطلحات النحو قوله في رسالة له: " ... وهي كالاسم المنقوص الذي لا يتم إلا بصلة وعايدة..."[٣]

ويلحظ الدارس أيضا ميل الفاضل في بعض رسائله إلى استعمال الأسلوب الخطابي القائم على الوعظ . وقد تجلت هذه السمة بوضوح فيما كتبه عن السلطان صلاح الدين إلى نور الدين، وفيما كتبه إلى صلاح الدين في حصار عكا، ثم فيما كتبه إلى خلفاء صلاح الدين، ليحافظوا على وحدة الدولة، ويتصدوا للأعداء. ومن أجل ذلك أكثر من استعمال الجمل الإنشائية الطلبية ، كما في قوله مخاطبا نور الدين : " ... فالله الله أن تختلف القلوب والأيدي ، فتبلغ الأعداء مرادها ، وتعدم الآراء رشادها ، وتنتقل النعم التي تعبت الأيام فيها إلى أن أعطت قيادها . فكونوا يدا واحدة، وأعضادا متساعدة، وقلوبا يحميها ودّ ، وسيوفا يضمها غمد، ولا تختلفوا فتنكلوا، ولا تنازعوا فتفشلوا، وقوموا على أمشاط الأرجل، ولا تأخذوا الأمر بأطراف الأنّل ....."[٤]

وبهذه الطريقة الخطابية سارت بعض رسائله ، بالإغراء بالوحدة والحث عليها، وإسداء النصائح المبنية على الوعظ .

كما يلحظ ميله إلى الأسلوب القصصي، إذ سار في بعض رسائله على نهج قريب من نهج الحكايات، حتى غدت رسائله سلسلة من المواقف والأحداث المتصلة، فكل رسالة منها تروي لنا قصة الأعمال التي قام بها صلاح الدين وجنده، وتتبدى هذه السمة بوضوح فيما كتبه عن صلاح الدين إلى الخليفة العباسي، وإلى نور الدين، ولا سيما حينما كان يتحدث عن جهود صلاح الدين في توحيد القوى الإسلامية ومواجهة الفرنج والقضاء على الفتن والمؤامرات، ففي رسالته التي بعث بها إلى نور الدين إثر إحباط مؤامرة عمارة اليمني

---

[١] رسائل عن الحرب والسلام من ترسل القاضي الفاضل: ص٤٤.
[٢] المختار من إنشاء القاضي الفاضل (مخطوط) : الورقة ٢١
(٣) رسائل عن الحرب والسلام من ترسل القاضي الفاضل : ص ٧٧
[٤] الروضتين : ج١ق٥٨٧/٢.

وأعوانه، أسلوب قصصي واضح يروي قصة المصريين مع الفرنج وموقف صلاح الدين من المتآمرين، ثم يصوّر لنا النهاية المحتومة لكل متآمر يستعين بأعداء البلاد لتحقيق مطامحه .[1]

١-المفردات اللفظية:

تحتل اللفظة مكانة مهمة في الفن الأدبي، وتعدّ من أهم أركانه الأساسية التي يقوم عليها، وذلك لأن الكلمة كما يقول بعض المحدثين: " عنصر من عناصر العمل الأدبي، وعامل من أقوى العوامل التي تتوقف عليها قيمته الجمالية، والأداء الفني الجميل. وهذا الأخير أساسه الدقة في اختيار الكلمة، ووضعها في بيئتها وامتزاجها مع معناها إذ ليس هو في مجموعة إلا طائفة من الكلمات المؤتلفة المعبرة " [1]، ولما كان الفاضل في كتاباته التي واكبت المعارك الدائرة بين المسلمين و الفرنج، يسعى إلى التأثير ومخاطبة وجدان من يكتب إليهم من المسلمين، فقد اهتمّ بألفاظه اهتماما خاصا لكي يحقق من استعمالها ما يريد من التأثير في نفوس قرائه، وقد كان بارعا دقيقا في انتقاء كلماته ووضعها في مكانها المناسب لها؛ لتؤدي دلالاتها بقوة ووضوح ، بعد أن يشحنها بأحاسيسه وعاطفته القوية . يقول معاصره عبد اللطيف البغدادي، حينما التقى به في بيت المقدس بعد تحريره : " فدخلنا عليه، فرأيت شيخا

[1] انظر أمثلة ذلك في : الروضتين :ج١ق٢:٥٦٣-٥٦٦.، ومفرج الكروب في أخبار بني أيوب: ٢٦/٢-٢٩.، وصبح الأعشى في صناعة الإنشا: ٤٩٥/٦ ، وما بعدها .

[1] النثر الفني وأثر الجاحظ فيه : ٢١٤.

ضئيلا كله رأس وقلب، وهو يكتب ويملي على اثنين، ووجهه وشفتاه تلعب ألوان الحركات لقوة حرصه في إخراج الكلام، وكأنه يكتب بجملة أعضائه "[٢]. وفي هذا ما يدل على أن الفاضل كان يدرك عظم المسؤولية الواقعة على عاتقه في نقل أخبار الحروب، ودور الكلمة في التأثير ؛ ولذا كان يعمل كل حواسه في كتاباته، ويدقق في اختيار ألفاظه ؛ لأنها كانت موجهة إلى المسلمين كلهم حيثما كانوا. يقول القلقشندي في هذا اللون من الأدب : " والكاتب يحتاج إلى تصريف فكره فيها، وتهذيب معانيها ؛ لأنها تتلى من فوق المنابر على أسماع السامعين، وتجعل نصب عيون المتصفحين "[٣]. ويقول كاتب معاصر:" الصنعة الفنية صنعة مسؤولة يحكمها التواضع والشعور بخطر الكلمة التي يتعامل بها صاحبها؛ لذا فهو يحرص أن تخرج متقنة "[١]، ونكتفي للتدليل على هذه الخاصية في كتابات الفاضل بأن نورد قوله في رسالة له:" وهذه التحية الطيبة ، الكريمة الصّيبة، الواجبة الرّد، الموجبة للقصد، العذبة الورد، المتنفسة عن العنبر الورد، وقادة على دار الملك ، ومدار النسك ، ورجل الجلالة ، وأصل الأصالة ، ورأس الرياسة ، ونفس النفاسة ، وحكم الحكم ...أدام الله له النصرة ، وجهز به العسرة ، وعرفه في كل ما يعتزمه صنعا جزيلا جميلا ، ولطفا خفيا جليلا ، ويسّر عليه في سبيله كل ما هو أشد وطأ ، وأقوم قيلا.. "[٢]

وقوله في حصن برزية : وهو الذي تضرب به الأمثال ، وتعزب عنه الآمال، ويكاد يحرن إذا قادت أيدي السلاسل أزمة الجبال ، ويكاد يذم ساكنيه من خطرات الأوجال، بل من خطوات الآجال، وكان للكفر درعا حصينة طالما كانت تهزأ بالنصال ... "[٣]، وهذه مهارة لا يمتلكها إلا كاتب تمكن من لغته وفنه تمكنا قويا يمكنه من انتقاء ألفاظه الملائمة لغرضه، وتطويعها في الاستعمال لخدمة معانيه وأفكاره . يقول إليزابيث دور في التعامل مع الألفاظ : " لعمري إنها عملية شاقة فعلى الإنسان أن يغرق نفسه في الألفاظ، وأن يغوص فيها حقيقة لا مجازا، حتى يتشكل اللائق المناسب منها في الصورة المنشودة في الوقت المناسب "[٤].

وكان اهتمام القاضي الفاضل واضحا بألفاظه ودلالاتها، وغناها وتنوعها، ومناسبتها لطبيعة عصره وقربها من ثقافة القارئ في ذلك العصر ،

---

[٢] عيون الأنباء :٦٨٧.

[٣] صبح الأعشى في صناعة الإنشا: ٢٧٥/٨.

[١] البديع الشعري بين الصنعة والخيال ، عبد القادر الرباعي ، أبحاث اليرموك ،م٣،ع ٢ ١٩٨٥

[٢] صبح الأعشى في صناعة الإنشا: ٢٥/٧.

[٣] الروضتين : ١٣١/٢-١٣٢.

[٤] الشعر كيف نفهمه : ٢٤.

فتراه يقول في رسالة له :" البيت المقدس صار مقدسا ، وأصبح للإسلام معرّسا ، ورجع أهل التقوى إليه فقد كان بها مؤسسا، وخرس الجرس، وذهب الدنس ، وبطل الناقوس ، وخرج القسوس ، وزال الأذى بالأذان ، وصوفحت الصخرة بإيمان أهل الإيمان، وما صلّت في محراب المقدس التقاة ، حتى صلّت في محاريب رقاب الكفر المشرفيات..."[1]

وفي هذه الرسالة دلالتان : أحداهما دلالة المطابقة،وهي دلالة اللفظ على تمام مسماه ، وفيه يطابق اللفظ معناه ، في مثل قوله : " البيت المقدس صار مقدسا" ، فليس فيها إلا المعنى الذي يحمله اللفظ ، وأما الدلالة الثانية ، فهي دلالة التضمين ، وهي دلالة اللفظ على جزء المسمى ، ونجد ذلك في قوله : " خرس الجرس " ، والمقصود فيها غير المعاني التي يحملها اللفظ وحده ،وفيها إيحاء بتوقف عصر الصليبيين بفتح بيت المقدس، ومثل هذا كثير في أدبه.

وفي ألفاظه سهولة يدركها ابن عصره ، مع ما تحمله من ظلال نفسية عميقة ، مع علاقة وثيقة بثقافة العصر؛ فهي ابنة بيئتها ،وابنة الحالة الفكرية والثقافية والسياسية للعصر.

كانت عناية الفاضل بألفاظه واهتمامه بها قد دفعته إلى الاهتمام بجمله فهو يحرص على إقامة التعادل والتوازن فيها، ويهتم بائتلافها مع قرائنها التي تجاورها من أجل أن يحدث الإيقاع الموسيقي المطلوب داخل جمله ،ويضفي على أسلوبه رونقا وجمالا، فالجملة كما يرى بعض النقاد المعاصرين هي : " كالوحدة الموسيقية التي لا يمكن أن تحقق شيئا من الإمتاع الفني إلا بائتلافها مع الوحدات الأخرى ، وإذا كانت مهمة الأديب إنما هي الأداء والإمتاع ؛ فإنه من الواجب أن يوفر عنايته بتنسيق الجمل ، وإيجاد التعادل بينها ، حتى يستطيع أن يحقق عنصر الإمتاع من هذه المهمة " [2]

ومن أجل ذلك، أكثر الفاضل في كتاباته النثرية من استعمال الجمل المتقاربة في أطوالها وأنغامها الداخلية، وفواصلها الموسيقية، حتى أصبحت هذه الظاهرة سمة واضحة في نثره، ولاسيما الرسائل منه، ويستطيع الدارس أن يلاحظها في أي نص من نصوصه. فمن ذلك قوله: وأصبحت الأرض المقدسة الطاهرة وكانت الطامث، والرب الفرد الواحد وكان عندهم الثالث ، فبيوت الكفر مهدومة، و نيوب الشرك مهتومة "[1]، وقوله : " وقد صارت أمور الإسلام إلى أحسن مصائرها، واستتب عقائد أهله على بصائرها، وتقلص ظل رجاء الكافر المبسوط، وصدق الله أهل دينه فلما وقع الشرط حصل

---

(١) الروضتين – ج٣ – ص ٢٢٩.

(٢) النثر الفني وأثر الجاحظ فيه :٢٢.

(١) الرسائل الأدبية للقاضي الفاضل (مخطوط) :١٦٣

المشروط، وكان الدين غريبا فهو الآن في وطنه، والفوز معروضا فقد بذلت الأنفس في ثمنه"[٢].

وقد تجلت مظاهر اهتمامه بموسيقاه الداخلية في جمله من خلال اتّكائه على ألوان البديع، ولا سيما السجع والجناس والطباق وغيرها من المحسنات اللفظية والمعنوية التي طغت على أدب عصره طغيانا عظيما؛ ولذا فقد جاءت رسائله زاخرة بأنواع البديع المختلفة، حتى إنه ليتعذر على الدارس في كثير من الأحيان أن يجد عبارة تخلو من لون من ألوان البديع .

ولا يمكن أن نغفل في حديثنا عن العناية باللفظ عند القاضي الفاضل وأتباع هذه المدرسة أن رؤيتهم الجمالية التي حكمت مدرستهم تكمن في تنصيبهم الشعر معيارا لنثرياتهم ، وما ذلك إلا لإيمانهم بأن إصلاح النثرية لا يكون إلا بتحقيق الشعرية فيها.

وقد ترتب على ذلك أنه التزم كثيرا بالرؤية التي تقول : إن اللفظ هو منطلق المعنى ، وهو الذي يقود إليه وليس العكس ، فكثيرا ما كانت ألفاظه هي التي تقود إلى المعاني ، وتتحكم الزينة اللفظية بإيقاعاتها ، وتقودها إلى الضحالة المعنوية أحيانا ، ومثل ذلك في قوله في رسالة له إلى مؤيد الله بن منقذ[٣]:

" كتابنا إلى الأمير ما زال شديد القوى، بعيد المدى، مورية آراؤه سمتَ الهدى ، قاصرة بركة وجوده يد المكروه حاسرة رداء الرِّدى ، قاضيا تزيد سعده بنقص أعمار الحسّاد له و العدا، ونعم الله سابغة ، وشؤون استعلاء شأننا نابغة، وشرائع ما شرعه جودنا من الآلاء سائغة ، وقولب الخلق على ما هديت إليه موالاتنا غير سائغة ، وقلوب الخلق على ما هديت إليه من موالاتنا غير زائغة ..."[١]

ويمكن للباحث المدقق أن يرى التكلف في السجع ، وفي اختيار الألفاظ لمناسبة التوازن ، وكثرة دورانها في النص على نسق واحد ، وما ذلك إلا للمبالغة في مدح الأمير على عادة أهل هذا العصر .

وكان من أسباب ذلك أيضا أنه يريد إبراز مقدرته على اختيار المترادفات ، ولذا نجده يلجأ إلى تكرار الفكرة بأكثر من طريقة ، وذلك في مثل قوله في رسالة له:

" ولما كان الحكيم نسيج وحده، ووحيد عصره ، وواحد دهره في الفضيلة التي أبزَّ بها على مباريه، وقد حاز قصب السباق لها على مجاريه ، وتوحّد بعلم

---

[٢] صبح الأعشى في صناعة الإنشا: ٤٩٧/٦.

[٣] مؤيد الله بن منقذ : هو مهرف بن أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر الكناني الكلبي، أمير له علم بالأدب ، وشعر ، توفي بالقاهرة سنة ٩١٣هـ - الاعتبار ص٢٨- ٢٢٧

[١] رسائل عن الحرب والسلام من ترسل القاضي الفاضل : ص ٢٦

الطب والحكمة ، وتأهل بما اختصّ به من الخلال الحميدة، والخصال السديدة للخدمة ، واستحق بمناقبه الغزيرة أوفر أقسام النعمة"[٢]
ولكن ذلك لا يمنع من القول أن القاضي الفاضل كان أحد أكبر الكتّاب الذين يحسنون حتى في تصنعهم . ولذلك فإنني أرى أن العناية باللفظ سلاح ذو حدين ، ويتوقف الأمر على مقدرة الكاتب الموهوب الذي يعرف كيف يوظف اللفظ توظيفا موضوعيا وجماليا ، وعندئذ يكون الاهتمام باللفظ جزءا من تحسينه موضوعيا ومعنويا وجماليا، وآية ذلك تكمن في أننا لو أسقطنا المحسنات اللفظية في نص من نصوصه فإن النص يسقط سقوطا ذريعا؛ لأنه جعلها جزءا من بنية النص ، وهذا هو حال المحسنات مع عباقرة كتاب هذه المدرسة ، والقاضي الفاضل أحد أهم أركانها ، ويقول ابن الأثير في ذلك في معرض حديثه عن مدّعي هذا الفن :" ومما رأيته من المدّعين لهذا الفن الذين حصلوا منه على القشور ، وقصروا معرفتهم على الألفاظ المسجوعة الغثة، التي لا حاصل وراءها ، أنهم إذا أُنكرت هذه الحالة عليهم ؛ وقيل لهم: إن الكلام المسجوع ليس عبارة عن تواطؤ الفِقَر على حرف واحد فقط ، إذ لو كان عبارة عن هذا وحده لأمكن أكثر الناس أن يأتوا به من غير كُلْفة ،ـ وإنما هو أمر وراء هذا ؛ وله شروط متعددة ، فإذا سمعوا ذلك أنكروه لخلوهم عن معرفته ، وإذا أُنكر عليهم الاقتصار على الألفاظ المسجوعة ، وهُدوا إلى طريق المعاني ، يقولون : لنا أسوة بالعرب الذين هم أرباب الفصاحة ؛ لأنهم إنما اعتنوا بالألفاظ ، ولم يعتنوا بالمعاني اعتناءهم بالألفاظ ، فلم يكفهم جهلهم فيما ارتكبوه حتى ادّعوا الأسوة بالعرب فصارت جهالتهم جهالتين . قال : ولم يعلموا أن العرب ، ،إن كانت تعتني بالألفاظ فتصلحها وتهذّبها فإن المعاني أقوى عندها ، وأكرم عليها،وأشرف قدرا في نفوسها "[١]

وفي رأي ابن الأثير ما يدل على أن ذوق العصر كان جالبا لهذا النوع من الاهتمام ، والأديب البارع هو الذي لا يطغى في أدبه اللفظ على المعنى ، حتى وإن كان مطلوبا لذاته ، ولا يمكن أن ننكر أن هذا الاهتمام باللفظ قريب من ثقافة المتلقي والقارئ في عصر القاضي الفاضل ، وفي العصور التي تلته مباشرة، ودليلنا على ذلكم تتلمذ كتاب العصر المملوكي على القاضي الفاضل واتباعهم لمدرسته ، من مثل : محيي الدين بن عبد الظاهر ، وابن نباتة المصري، وغيرهم من الكتاب العظماء .

ويمكن أن نسوق شواهد من نثر القاضي الفاضل تدل على أنه اعتنى باللفظ ، ولكن ذلك لم يمنع المعنى من البروز ، والوصول إلى المتلقي بجلاء ، وذلك في مثل قوله في رسالة له إلى الديوان العزيز في فتح بيت المقدس:

---

(٢) المرجع نفسه : ص ١٥٤.
(١) صبح الأعشى : ٢/ ١٩٣.

"... وجاء أمر الله وأنوف أهل الشرك راغمة، فأدلجت السيوف إلى الآجال وهي نائمة، وصدق وعد الله في إظهار دينه على كل دين ، واستطارت له أنوار أبانت أن الصباح عندها جنان الجنين ، واسترد المسلمون تراثا كان عنهم آبقا، وظفرزا بما لم يصدقوا أنهم يظفرون به طيفا على النائم طارقا، واستقرت على ألأعلى أقدامهم ، وخفقت على الأقصى أعلامهم ، وتلاقت على الصخرة قُبَلُهم ، وشفيت بها وإن كانت صخرة كما تشفى بالماء غللهم..." . وفيها من التعمد إلى فرد العضلات التعبيرية ، وهو من باب الإطناب ، ويبدو فيها أن اللفظ يزيد على المعنى ، ولكنه في الوقت نفسه يزيده جلاء ، ويصل إلى المتلقي ابن البيئة كما يريد وأكثر ، وقد ذهبوا إلى ذلك انطلاقا من أن الكلام الموجز لا يؤمن الإشكال فيه ، ومن ثم لا يحصل على معانيه إلا خوّاص أهل اللغة العارفين بدلالات الألفاظ ، بخلاف الكلام المسبع الشافي ؛ فإنه سالم من الالتباس ، لتساوي الخاص والعام في جهته، ولكننا مع اختلافنا عن هذا النهج ، فإننا لا يجب أن نغفل أن أي أدب هو ابن بيئته .

ولا يمكن أن نغفل القاضي الفاضل ومن تبعه في مدرسته هذه ، والذين تحول البديع على أيديهم إلى لعبة جمالية عرفوا كيف يفيدون منها أقصى الإفادة ، فنيا وجماليا ، بحيث غدا البديع – مهما كانت كثرته – على أيديهم إلى جزء من نسيج النص وبنيته الفكرية أو المضمونية والدلالية والجمالية ، وسواء اتفق ذوقنا معهم أم لم يتفق ، فلا شك أنهم – بمقياس عصرهم وذوقه الفني – كانوا أعلاما ونجوما ساطعة في سماء النثر العربي القديم ، ويعد القاضي الفاضل ذروة النضج في هذه المدرسة، فكريا وأسلوبيا.

وبهذا فإن الحكم على أدب مرحلة من المراحل يجب أنت يرتبط بثقافة المتلقي (القارئ)، وهم في عصورهم كانوا ينطلقون من الذوق السائد ، ومن ثقافة المتلقي .

والجدير بالذكر أن القاضي الفاضل فيما وقع تحت يدي لم يلجأ إلى استخدام التعقيد ، ولم يلجأ إلى الألأفاظ الوحشية الغريبة التي تحتاج إلى استخراج معانيها من المعاجم اللغوية ، وما ذلك إلا لأنه من كبار الكتاب ، ولم يكن يلجأ إلأى مثل هذا إلا صغار الكتاب في عصره ، وفي ذلك يقول ابن الأثير : " ... وقد رأيت جماعة من مدعي هذه الصناعة يعتقدون أن الكلام الفصيح هو الذي يعزّ فهمه، ويبعد متناوله، وإذا رأوا كلاما وحشيا غامض الألفاظ يعجبون به ويصفونه بالفصاحة، وهو الضد من ذلك ؛ لأن الفصاحة هي الظهور والبيان ، لا الغموض والاختفاء "[١].

[١] العمدة : ١٦٨/١

والقاضي الفاضل ليس كغيره من الكتاب أو أنصاف الكتاب وأدعياء الأدب في هذه المدرسة ممن يلتقطون المفردات من بطون الكتب على حد قول القلقشندي [1].

قال صاحب الصناعتين :" وقد غلب الجهل على قوم فصاروا يستجيدون الكلام إذا لم يقفوا على معناه إلا بكد ، ويستفصحون إذا وجدوا ألفاظه كزَّة غليظة، وجاسية غريبة، ويستحقرون الكلام إذا رأوه سلسا عذبا ، وسهلا حلوا، ولم يعلموا أن السهل أمنع جانبا ، وأعز مطلبا ، وهو أحسن موقعا،وأعذب مسْتَمَعا..."[2]

ولم يخرج القاضي الفاضل عما جاء به العسكري في وصفه ذاك ، ولذلك فإن أدبه لا يحتاج إلى قارئ خاص ، بل إلى قارئ فاعل مشارك إيجابي .

٢- الإيجاز وأشكاله:

تنزع الرسائل التي توخى فيها الكتّاب سبل الإيجاز إلى تكوين جنس فرعي في الرسائل الأدبية، وتتبوأ الرسائل الطلبية المرتبة الأولى من حيث عدد النصوص التي بين أيدينا،وهي في أغراض مختلفة كطلب الزيارة، والشفاعة، والاعتذار، يقول القاضي : " إن أخذ العبد - أطال الله بقاء المجلس ، وثبت رفعته، وبسط بسطته، ومكّن قدرته ، وكبت حسدته - في وصف أشواقه إلى الأيام التي كانت قصارا، وأعادت الأيام بعدها طوالا، والليالي التي جمعت من أنوار وجهه شموسا، ومن رغد العيش في داره ظلالا .

---

[1] صبح ألأعشى : ٢١٩/٢

[2] الصناعتين : ٧٥

وجدت اصطباري بعدهن سفاهة وأبصرت رشدي بعدهن ضلالا

وإن أخذ في ذكر ما ينطق به لسانه من ثناء فصيح، و يعتقده جنانه من ولاء صريح،

تعاطى منالا لا ينال بعزمه وكل اعتزام عن مداه طليح

ولكنه يعدل عن هذين إلى الدعاء بأن يبقيه الله للإسلام صدرا، وفي سماء الملة بدرا، وفي ظلمات الحوادث فجرا، وأن يجمع الشمل بمجلسه وعراص الآمال مطولة، وسهام القرب على نحور البعد مدلولة، وعقود النوى بيد اللقاء محلولة ﴿ وما ذلك على الله بعزيز ﴾"[1]،و في هذا الصنف من الرسائل يساعد التكافؤ الثقافي الكاتب على استخدام أساليب الإشارة والتلميح والتورية ومختلف أشكال التداخل الضمني بين النصوص، إذ يقتصر المرسل على تضمين عبارة من آية أو بيت لتحقيق مقصد الرسالة كلها، وقد حرص المترسلون على اختصار العبارة الأدبية وتجويدها قصد استغلال الكلام الأدبي في مقامات عملية نفعية. اقتصروا فيها على طرق موضوع واحد في أسلوب خاطف يصيب الغرض، ولم يضعوا للرسائل خططا تتضمن مقدمة ومتنا وخاتمة على غرار الرسائل المركبة،و يتضح من أبنية هذه الرسائل أنها خطابات أحداث وأنها الجزء القولي من العلاقات الاجتماعية التي تربط بين المترسلين، فهي تسعى إلى حمل المرسل إليه على إنجاز فعل معين كطلب الزيارة أو رد فعل مجاملة كالتهنئة ووصف الهدايا، والتسلية عن العزل،و نجد في هذا المضمار صنفاً من الرسائل يمثل درجة أولى في سلّم الرسائل المركبة، ولكنه يحافظ على الخصائص نفسها التي تتسم بها الأبنية البسيطة، من حيث تعمد كتّابها الإيجاز لتحقيق الغرض النفعي العملي،وقد لاحظت أن الرسائل التي يعتمد كتّابها الإيجاز تنزع إلى تعويض الأفعال وإلى أن يحدث الترسل ما يحدثه الفعل الذي يحمله الكلام، وتستعمل هذه الأبنية في نماذج من رسائل التهديد والحروب.

وأخيراً فإن توخي أساليب الإيجاز يؤلف في حركة الترسل طابعاً مميزاً لعلاقات التخاطب بين المترسلين المنتمين إلى مراتب اجتماعية مختلفة، فهو لا يرمي إلى تحقيق غايات بلاغية فحسب، بل يهدف إلى إبراز هوية المترسل وصلته بالمخاطب، ودعم صورته عنده، وفي هذا المضمار حرص الخلفاء والوزراء وغيرهم من ذوي الرتب العليا على توخي الإيجاز في مخاطبة من دونهم رتبة، ولاسيما في الأغراض الطلبية كالتوصية والاستنجاز، وقد لاحظت أن لهذا الوضع كذلك أثرا في صناعة الصورة الفنية،فقد كان للتباعد في المكان ولفضاء الكتابة دور في توليد جانب من الإنشاء ينزع فيه الكتّاب إلى صياغة العبارة النثرية في أقوال شعرية، في المعنى العام للعبارة الشعرية، أي القول المخيّل المنظوم، و لاحظت كذلك أن هذه الآثار تظهر على

[1] القاضي الفاضل دراسة ونماذج - ص١٣٣

نحو خاص في مقاصد الترسل التي نازعت بها الرسائل أغراض الشعر: فعامة الصور الشعرية التي تميزت بها الرسائل الأدبية إنما تميزت بها؛ لأن وضع الناثر فيها يتماهى ووضع الشاعر، وقد لاحظنا أن هذا التماهي مرده إلى التداخل بين مقاصد الرسائل النثرية ومقاصد الشعر، و تظهر في هذا المستوى آثار تحويل الحوار الشفوي إلى حوار مكتوب بين المترسلين، ذلك أن الكتابة تبرز الصيغة الخطية للكلام وتمحو آثار التلفظ الشفوي وهي آثار تعطل قدرة القارئ على تأمل الكلام والنظر فيه.

٣-الخـــيال والصـــورة الفنيـــة:

اهتمّ النقاد بالحديث عن دور الخيال وأهميته في العمل الأدبي، وهو عنصر مهم من عناصر نجاح الفن في مختلف أشكاله. يقول الدكتور شوقي ضيف : " الخيال هو الملكة التي يستطيع بها الأدباء أن يؤلفوا صورهم، وهم لا يؤلفونها من الهواء، إنما يؤلفونها من إحساسات سابقة لا حصر لها، تختزنها عقولهم، وتظل كامنة في مخيلتهم، حتى يحين الوقت، فيؤلفوا منها الصورة التي يريدونها " [(١)]. و يرى ناقد آخر معاصر، أن الخيال هو : " الأداة اللازمة لإثارة العواطف وإشعالها، وهو الذي يملك به الشاعر أو الأديب نفس القارىء والسامع، ويجعلها تتعجب وتطرب من مشاهد الصور " [(٢)]، فالصورة هي الوسيلة الأهم المعينة للأديب، لكي يعبر عن تجربته وعواطفه، وحتى تحقق الصورة غايتها المنشودة تلك، فإنها تتطلب تآلف الصور الجزئية في العمل الأدبي ككل، لتكون الصورة الكلية التي هي التجربة ، وتنقلها لنا نقلا فنيا واقعيا صادقا"[(٣)].

ولذا فإن الدارس لرسائل الفاضل ، يرى بوضوح ظاهرة ازدحام الصور واكتظاظها، فهو يتكىء على الخيال بأنواعه المختلفة: من تشبيه واستعارة وكناية ومجاز، بعد أن يركّب منها صورا كليّة متضامنة متناسقة، لكي يتخذ منها وسائل للتعبير عمّا يعتمل في نفسه من مشاعر وأفكار، ويوصلها إلى متلقيه توصيلا معبرا وموحيا؛ حتى غدت رسائله معرضا غنيا بالصور البيانية المتنوعة ؛ ذلك لأن الأدب من غير هذه الألوان يصبح كتلة جامدة لا أثر للحياة فيه[(٤)] فهي جزء ضروري يمده بالحياة .

---

(١) في النقد الأدبي :١٦٧.
(٢) النقد العربي الحديث ومذاهبه :٤٤.
(٣) المرجع نفسه :٤٧.
(٤) الشعر كيف نفهمه: ٥٩ .

وأما المصادر التي استقى الفاضل منها صوره فكثيرة متنوعة ، فهي مستقاة من روافد متعددة، كان من أهمها: الموروث الديني، والشعري، وغيره مما يجب على الكاتب أن يلم به من أدوات الكاتب المعتمدة في عصره .

وجد الفاضل في الموروث الديني منبعا لا ينضب للصورة التي تضرب في وجدان المسلم ، وتحدث فيه التأثير المطلوب ، فالموروث الديني كما قيل هو: " أعظم مصدر للصورة النفسية ؛ لأنه يمسّ أصفى المشاعر وأرقها وأطهرها وأبسطها، وهو يخفي وراءه قوة عزيزة مهيبة ترتفع فوق كل القوى البشرية وغير البشرية ، هي قوة الله ... " [1] ؛ ولذا فقد كثرت الصور المستمدة من القرآن الكريم في كتابات الفاضل، ومنها قوله: " وقد كان الفرنج لا يلقون إلا على ظهر الحصان فقد صاروا لا يلقون الأمن من بطن الحصن، وإن لجؤوا إلى جبالها المنيعة، فرب ساعة كالساعة الموصوفة في قوله تعالى وتكون الجبال كالعهن،ومن اعتقل خصما فقد ملك قياده، وأمن شراده ، وصار تحت ختمه ، وحبس جسمه في حصنه ، وقلبه في جسمه، وإذا كان الله قد أعطانا البلاد، وهي آلة المقيم الراتب، وأعطاهم المراكب وهي آلة الظاعن الهارب فقد علمنا لمن عقبى الدار، وقد ينقلهم نقل قوم نوح من الماء إلى النار "[2]، ومنها قوله:

" ... وفرّ الكافرون منا فرار النمل من سليمان، وهزم الله بحزبه أحزاب الشيطان " ، وقوله : " ... وخفقت على الأقصى أعلامهم، وتلاقت على الصخرة قبلهم ، وشفيت بها وإن كانت صخرة كما تشفى بالماء غللهم "[3] . وكثيرا ما كان الفاضل في تصويره لأسوار العدو و تحصيناته، يستعير بعض مستلزمات العقيدة الإسلامية كالركوع والسجود، ليصور ما فعله المنجنيق بها من هدم وتحطيم . يقول في حصن عسقلان : " وصلت منجنيقاتنا في قبلة أسوارها، فما سهامها تركع وأحجارها تسجد ، ونجوم رجومها لشياطين الكفر يقذف ويطرد "[4] . وقد تكون الصورة عند الفاضل مستوحاة من مهنة الكتابة وأدواتها، وذلك كما في قوله : " ... ونثرت أقلام الظبى حروف رؤوسهم نثر الأقلام للحروف "[1]، وقوله في كتّاب الدولة الفاطمية من رسالة رفعها إلى بغداد :

" ... ومن كتاب تفعل أقلامهم فعل الأسل "[2]، ومن أجواء المعارك والحروب التي كانت سمة واضحة في عصره ، إذ استقى منها الكثير من صوره . ومن

---

[1] الصور الفنية في شعر أبي تمّام ، عبد القادر الرباعي : ١٥٦.
[2] المختار من إنشاء القاضي الفاضل، (مخطوط): ١١.
[3] الرسائل الأدبية للقاضي الفاضل (مخطوط):١٦٠.
[4] المصدر نفسه :١٤٨٠.

[1] الروضتين : ج١ق٤٩٧/٢.
[2] مفرج الكروب في أخبار بني أيوب: ٢٦/٢

ذلك قوله : " ... ونصبنا عليه منجنيقا لا يزال شهاب القذف ضاربا. فما ملكنا ربضه، وأطلقنا فيه النيران ، ورملنا الرجال بالدم ، وأرملنا النسوان "[٣]، وقوله :
" ... فبنت سنابك الخيل سماء من العجاج ، نجومها الأسنة، وطارت إليهم عقبان من الخيول قوادمها القوائم ومخالبها الأعنة، وتصوبت عيون السمر إلى قلوبهم كأنما تطلب سوادها، وقصدت أنهار السيوف صدورهم لتروي أكبادها " [٤]

وقد تكون الصورة عنده مستمدة من الطبيعة ومظاهرها المختلفة، كالليل، والنهار، والغيم، والسماء، والنجوم، والرعد، والزراعة، والبحر، وغيرها . ومن ذلك قوله : " كتابي أطال الله بقاء مولاي من منزلة بعرين ، حيث أخرجت السماء أثقالها ، وركضت خيل الغمائم لابسة من العز إلى جلالها ، وثوب الليل بماء الغمام غسيل ، وشبح الصبح بسيف البرق قتيل ، وكأن عقارب الظلام بالثلج أفاع ، فليكن ليل قرينها ليل السليم ، وكأن مواقع الرعد قعاقع حلي الغواني في يده فهو لا ينام ولا ينيم ، وكأن الصباح قد ذاب في الليل نظرا، وكأن البرق لما ساوى الغمام بين صد في الليل والنهار قد قال آتوني أفرغ عليه صبرا ، وقد ابتل جناح الليل المقذف فما يطير ، وأبطأ حمام الصبح خلاف ما يقال في رسالة نوح فما يسير "[٥] .، وقوله في جند صلاح الدين : " ... كالبنيان المرصوص انتظاما، وكالغاب المشجر أعلاما، وكالنهار المانع حديدا وهّاجا، وكالليل الشامل عجّاجا، وكالنهر المتدافع أصحابا، وكالمشط المطّرد إصخابا"[١].

وتأتي البيئة الاجتماعية وظواهرها المتعددة فتكوّن رافدا آخر من روافد صوره الكثيرة التي استوحاها من علاقات الناس وعاداتهم الاجتماعية: كالتصافح، واللباس، والاستقبال، والتهنئة والوداع. ومنها في قلعة حمص :
" ... عاقدة حبوة صالحها الدهر على ألا يحلها بقرعة ، عاهدة عصمة صافحها الزمن على ألا يروعها بخلعة ، فاكتنفت بها عقارب منجنيقات لا تطبع طبع حمص في العقارب ، وضربت حجارة بها الحجارة ، فأظهرت فيها العداوة المعلومة بين الأقارب ... " [٢] .

وقد استمد بعض صوره من ثقافته العربية والتاريخية الواسعة، وقد تجلت آثار ذلك في حديثه عن عقيدة الفرنج وطقوسهم وأساليبهم القتالية، وفي حديثه عن المعارك والحصون كما بينا، وقد استوحى كذلك بعض صوره من

---

[٣] الروضتين : ج١ق٤٨٩/٢.
[٤] ثمرات الأوراق في المحاضرات :٢٢٥
[٥] المختار من إنشاء القاضي الفاضل، (مخطوط): الورقتان:-
[١] صبح الأعشى في صناعة الإنشا: ٥١٣/٦.
[٢] الروضتين :ج١ ق٦١٢/٢.

حياة الحيوانات التي رآها أو سمع عنها، ولكن هذه الصور قليلة، إذا ما قيست بالصور المأخوذة من مصادر أخرى .

وأما براعته في الوصف والتصوير، فقد تجلت في وصفه الدقيق للحصون والقلاع، والمعارك وأدوات الحرب، والمدن الإسلامية المحررة من أيدي الفرنج إذ تجلى في هذا الوصف ذوقه الفني وقدرته البيانية، وحرصه على إبراز الجزئيات والتفصيلات والإيضاحات، فهو حينما يصور لنا قلعة أو حصنا من حصون الأعداء، ينقلنا بخياله إلى ذلك الحصن أو تلك القلعة، حتى لنحس وكأننا أمام الموصوف نتعجب من روعة بنائه وحصانته وشدة علوّه ، وصعوبة المسالك المؤدية إليه . وربما كان نجاح الفاضل في الوصف والتصوير أنه كان ينطلق من مشاهدات شخصية؛ فهو يصوّر في معظم الأحيان ما رآه بعينه ، فاتسمت صوره بالواقعية، وكانت أشد تأثيرا في النفوس، ولا سيما أن فيها الكثير من الجديد المبتكر، الذي ابتدعه الخيال الفاضلي الرحب المشحون بالعاطفة القوية،وقد كان الفاضل في كتاباته يميل إلى التشخيص والتجسيم، فيقدم المعاني والأشياء التجريدية أو الجامدة في صور حسية حية تحمل الكثير من صفات الإنسان والكائن الحي، حتى يعطي تصورا أشمل لأفكاره ومعانيه ويزيد في توضيحها، وقد استمد فيما قدمه لنا من هذه الصور من مخزونه الثقافي الغزير وخياله الواسع . فللخيال كما يرى عبد الحميد حسن : " ... شأن في تحويل المدركات، فهو يخرج من الصامت صورا تفيض بالحياة، وتحول المعنى إلى محسوس، والجماد إلى مدرك حي تهتز له النفس "[١] . فالمدن الإسلامية المغتصبة صوّرت في رسائل الفاضل عذارى عفيفات يفترعها صلاح الدين بالسيف . ومن ذلك :" ... صبح الخادم طبرية فافتضّ عذريتها بالسيف، وهجم عليها هجوم الطيف، و تفرق أهلها ما بين الأسر والقتل " [٢] ، وقوله في غزة أيضا : " ... وهي على ما علم من كونها بكرا لم تفترعها الحوادث ، وحصان لم يطمثها طامث[٣].

ويبدو أن صورة المرأة كانت تستأثر باهتمام الفاضل، فهو يكررها كثيرا في كتاباته، ومن أجل ذلك، فقد تخيل الأراضي الإسلامية المغتصبة، وهي في ظل الاحتلال الصليبي امرأة طامثا، وقد تطهرت حينما عادت إلى حمى الإسلام . يقول : " وأصبحت الأرض المقدسة الطاهرة وكانت الطامث، والرب الفرد الواحد، وكان عندهم الثالث " [٤].

وينظر إلى الصخرة المشرفة على أنها امرأة تعاني عشرة زوجها وتسعى إلى مفارقته والتخلص منه، وإلى نظيرها الحجر الأسود وهو يزف

---

[١] الأصول الفنية للأدب :١٠٦.

[٢] الروضتين - بيروت :٨٧/٢.

[٣] الروضتين ، حلمي : ج١ ق٢/٤٩٠.

[٤] الرسائل الأدبية للقاضي الفاضل (مخطوط) (مخطوط) :١٦٣.

إليها البشرى بقطع عصمتها منه . وذلك كما في قوله : " ولما قدم الدين عليها عرف منها سويداء قلبه ، وهنّأ كفؤها الحجر الأسود ببت عصمتها من الكفر بحربه " [٥] . ذلك لأن العلاقة بين الأرض والمرأة وثيقة الصلة ، فكلاهما رمز للعطاء والخصب، والمرأة عند الإنسان المسلم عرض تتوجب صيانته والمحاماة عنه بكل وسيلة من الوسائل، والدفاع عنها يأتي ثانيا بعد الدفاع عن الدين والعقيدة . ولذا فليس غريبا أن نرى الفاضل في حديثه عن الأراضي الإسلامية المحتلة يركز تركيزا واضحا على تقديمها في صورة امرأة عفيفة حصان سباها الأعداء، لكي يلهب مشاعر المسلمين ويحرّضهم على استنقاذها.

وأما أدوات الحرب والقتال، فلم تعد مجرد سيوف ورماح ومنجنيقات وقسي في رسائل الفاضل، وإنما تجسدت في صور آدمية وحيوانية فيها دم وروح كما تخيلها القاضي الفاضل، فالسيوف والرماح لها عيون وأنوف وأيد كما في قوله : " والقتل في أعقابه، وأيدي السيوف وسواعد الرماح لا تني في عقابه "[١].

وأما القسي، فهي حيوان مفترس، يفغر فاه ليفترس عدوه . يقول :
" ... وكم فارسية ركض عليها فارسها السهم إلى أجل فاختلسته، وفغرت تلك القوس فاها فإذا فوها قد نهش القرن على بعد المسافة فافترسه "[٢].

وقد بلغ التصوير الفاضلي القائم على التشخيص والتجسيم في رسائله ذروته في حديثه عن مهاجمة جيش المسلمين بقيادة صلاح الدين مدينة القدس المنيعة بأسوارها وأبراجها القوية، فهو يرسم لنا صورة فنية رائعة لمهاجمة تلك التحصينات في الجمع بين التلوينين : الصوتي والبياني [٣]، كما فعل في حديثه عن التحصينات القوية التي أقامها الفرنج حول مدينة القدس، إذ أقاموا حولها سورا قويا أحاط بها إحاطة السوار بالمعصم، و أنشؤوا عليه أبراجا عالية مشرفة، ثم ينقلنا إلى ميدان القتال الدائر خارج المدينة، فيقدم لنا صورا لأدوات القتال المتنوعة وهي تدك تحصينات الفرنج، متخيرا لكل أداة منها الصورة التي تشاكلها، فنرى سهام المسلمين وهي تصافح سور المدينة القوي، وتدخل في أبراجه وشرفاته كما يدخل السواك بين الأسنان، والمعاول وهي تمضغ حجارة ذلك السور بأنيابها القوية، والمجانيق وهي تضرب أسوار المدينة بحجارتها العظيمة حتى تنثر حجارتها، وتثير الغبار من حولها، وتحصر الأعداء داخل حصونهم، كما في قوله : " وقدم المنجنيقات التي تتولى عقوبات الحصون عصيها وحبالها، وأوتر لهم قسيها التي تضرب فلا تفارقها

---

[٥] المصدر نفسه : ١٦٣.

[١] الروضتين ، حلمي : ج١ق٢/٤٩٠.
[٢] صبح الأعشى في صناعة الإنشا:٤٩٩/٦-٥٠٠.
[٣] الأدب في العصر الأيوبي :٢٠٣.

سهامها ولا يفارق سهامها نصالها، فصافحت السور بأكنافه، فإذا سهامها في ثنايا شرفاتها سواك، وقدم النصر نسرا من المنجنيق يخلد إخلاده إلى الأرض، ويعلو علوّه إلى السماك، فشجّ مرادع أبراجها، وأسمع صوت عجيجها، ورفع مثار عجاجها، فأخلى السور من السيارة، والحرب من النظارة، فأمكن النقّاب أن يسفر للحرب النقاب، وأن يعيد الحجر إلى سيرته من التراب، فتقدم إلى الصخر فمضغ سرده بأنياب معوله، وحلّ عقده بضربه الأخرق الدال على لطافة أنّله..."[١].

ونلاحظ أن الفاضل في صوره التي يرسمها يتكىء على حواسّ مختلفة منها البصرية والسمعية، إلا أن الغالب على صوره أنها بصرية، وقد يعتمد في بعض الأحيان على حواسّه ومشاهداته و إدراكاته معا، كما رأينا في الصورة السابقة التي جمعت عناصر عدة: حركية، وبصرية، ولونية، وصوتية، فجمع بذلك كله بين مهارة الرسام والموسيقي والكاتب والشاعر معا[٢] .

وقد يتفوق الفاضل أحيانا في تصويره على المصور الموهوب، ولاسيما عندما يصور لنا الصمت الذي خيم على مدينة القدس إثر ضربها بالمجانيق، حتى استطاعت الصخرة المشرفة أن تسمع حنين صلاح الدين واستغاثته بربه . يقول : " ... وأسمع الصخرة المشرفة حنينه واستغاثته إلى أن كادت ترق لمقبله، وتبرأ بعض الحجارة من بعض،وأخذ الخراب عليها موثقا فلن تبرح الأرض " [٣].

الفصل السادس-البناء الفني في رسائل القاضي الفاضل:

قبل أن نعرض للبناء الهيكلي لرسائل القاضي الفاضل ينبغي أن نبين الفرق بين البناء الهيكلي لأي عمل فني، والبناء العضوي له. أما البناء الهيكلي فتحدده أركانه: البداية، والوسط، والنهاية،و هو مع ذلك لا ينتشر في العمل كله، كما أنه لا يحقق الامتزاج الذي يحققه البناء العضوي الداخلي بما فيه من عناصر فكرية وانفعالية وبلاغية وعاطفية، ولكن ثمة علاقة تربط البناء العضوي والبناء الهيكلي الذي يحدد للعمل كيانا قائما بذاته بما يحوي من أشياء في داخله؛ أي إن التعاون قائم بين البناءين؛ العضوي والهيكلي في خلق العمل الفني حتى يؤدي الغرض المطلوب.

و الرسالة بكونها جزءا من أجزاء الكتابة، ونوعا من أنواعها لا تخلو من خطة تقوم على المقدمة، والعرض والخاتمة. أما المقدمة ففيها يمهد الكاتب لغرضه الأساسي مثلها مثل بقية أجناس الأدب: المقالة، والقصة، والخطبة،

---

[١] صبح الأعشى في صناعة الإنشا:٥٠١/٦-٥٠٢.
[٢] أدب الحروب الصليبية : ١٨٥.
[٣] صبح الأعشى في صناعة الإنشا:٥٠٢/٦.

والقصيدة الشعرية... ويليها العرض أو صلب الموضوع بين الفاتحة والخاتمة، وفيه يستنفذ الكاتب أغراضه التي أنشأ كتابه من أجلها شرط أن تتسم الأغراض بالتنسيق والوحدة.

يقول الأستاذ أحمد الشايب: " وتكون الطريقة التي يؤديها الكاتب سواء انتهت إلى نتيجة واحدة أم إلى نتائج عدة هي في الواقع متصلة معا، وخاضعة لفكرة رئيسة واحدة، ويكون العرض منطقيا مقدما الأهم على المهم، مؤيدا بالبراهين، قصير القصص أو الوصف أو الاقتباس، متّجها إلى الخاتمة"(١)

ويبدو تأثير المقدمة وأهميتها في العرض، وكيفية استدراج الكاتب للقارئ لكي ينتقل به من غرض إلى آخر دون أن يشعر؛ لأن هذه النقلة مهمة في الحفاظ على الجو النفسي المسيطر على الرسالة كلها حتى لا يختل الخط المستمر فيها، ولذلك كانت الحالة النفسية للمؤلف شرطا مهما في نجاح العمل لما لها من ارتباط بالمبدأ والوسط والخاتمة. وأما الخاتمة فقد قيل إنها ثمرة الرسالة.

وبذلك يقول الأستاذ الشايب:" وعندما يكون السكوت فلا بدأن تكون نتيجة طبيعية للمقدمة والعرض، واضحة صريحة، ملخصة للعناصر الرئيسة المراد إثباتها، حازمة تدل على اقتناع ويقين لا تحتاج إلى شيء آخر لم ير في الرسالة" (١)

---

(١) الأسلوب: ص ٩٤

(١) الأسلوب: ص٩٥

أولا -البناء الفني للرسالة الديوانية:

ا-المقدمات الديوانية الابتدائية:

لم يكن القاضي الفاضل في مقدمات رسائله يلتزم قاعدة معينة، وهو ما جرت عليه العادة عند كتاب بني أيوب. فمقدمات الرسالة الديوانية نجدها في الإخوانية والعكس صحيح أيضا، ومقدمات الإخوانية نجدها في الوصفية.

- الافتتاح بالحمدلة:

وتكون بحمد الله والثناء عليه، ثم الصلاة على نبيه والثناء عليه وتعداد صفاته، ثم الصلاة على آله وأصحابه وتعداد صفاتهم، ثم يقول:" أما بعد" وهو انتقال وتخلص حسن من المقدمة إلى الغرض الأساسي، يشعر القارئ بارتياح واستعداد لما يليه.

يقول ابن الأثير: "ويكفيك من هذه المقدمات الواردة في القرآن الكريم. فهناك الافتتاح بالتحميدات؛ وذلك لأن النفوس تتشوق للثناء على الله فهو داعيه إلى الاستماع"[1]

ولنكتف بذكر مثال واحد على هذه المقدمة من رسائل القاضي الفاضل:
" الحمد لله الذي جعل أيامنا حسانا، وأعلى لنا يدا ولسانا، و أطاب محتدنا أوراقا وأغصانا، ورفع لمجدنا لواء ولجدنا برهانا، وحقق فينا قوله: ﴿سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا﴾[2] نحمده على سبوغ نعمته، ونسأله أن يجعلنا من الداخلين في رحمته، ثم نصلي على رسوله محمد الذي أيده بحكمته وعصمه من الناس...وعلى آله و أصحابه الذين خلفوه فأحسنوا الخلافة في أمته....."[3]، ويبين ابن الأثير العلة في ضرورة افتتاح الكتب الديوانية بالحمد بقوله:"

"وإنما خصّصت الكتب السلطانية دون غيرها؛ لأن التحاميد لا تصدر في غيرها؛ فإنها تضمنت أمورا لائقة بالتحميد كفتح معقل، أو هزيمة جيش"ويرجع تأثر كتاب العصر الأيوبي بهذا النوع من المقدمات بما كان عليه أسلوب الرسائل في القرنين الرابع والخامس .يقول علي بن خلف:

والفتوحات وهي من أعظم المكاتبات خطرا، وأجلها قدرا لاشتمال أغراضها على إنجاز وعد الله تعالى... والرسم فيها أن تفتتح بحمد الله العفو

---

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ج٣- ص ٩٨

(٢) سورة القصص: ٣٥

(٣) مفرج الكروب: ج ٣ – ص ٣٨٤

الحليم، الغفور الرحيم...ويختم بحمد الله القاضي لأوليائه بالإدالة، ولأعدائه بالإزالة، والصلاة على رسول الله ﷺ، وعلى آله"[١]

- الافتتاح بالصلاة على النبي:

قد يفتتح الكاتب رسالته بالصلاة، وقد جاء ذلك عند القاضي الفاضل في كتاب عن الملك الناصر صلاح الدين إلى الخليفة ببغداد، في البشرى بفتح بلد من بلاد النوبة، وانهزام ملكها بعساكره يقول فيها:

" صلوات الله التي أعدها لأوليائه وذخرها، وتحياته التي قذف بشبهها شياطين أعدائه ودحرها، وبركاته التي دعا بها كل موحد فأجاب، وانقشع بها غمام الغم وظلام الظلم فانجاب عن أنجاب، وزالته التي هي للمؤمنين سكن، وسلامه الذي لا يعتري الموقنين في ترديده حصر ولا لكن – على مولانا عاقد ألوية الإيمان، وصاحب دور الزمان، وساحب ذيل الإحسان، وغالب حزب الشيطان، الذي زلزلت إمامته قدم الباطل، وحلت خلافته ترائب الدهر العاطل، واقتضت سيوفه ديون الدين من كل غريم ماطل، وأمضت غرب كل عزم للحق مفلول وأطلعت غارب نجم كل هدى آفل، وشفعت يقظات استغفاره إلى غافر ذنب كل غافل، وعلى آبائه الغاية والمفزع، والملاذ في وقت الفزع، والقائمين بحقوق الله إذ قعد الناس، والحاكمين بعدل الله إذ عدم القسطاس، والمستضيئين بأنوار الإلهام الموروثة من الوحي إذا عجز الاقتباس، والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس، خزّان الحكم وحفاظها، معاني النعم وألفاظها، وأعلام العلوم المنشورة إلى يوم القيامة، وكالئي السروح المنتشرة من كلا سيد الإمامة، ومن لا ينفذ سهم عمل إلا إذا شحذ بموالاتهم، ولا يتألق صبح هداية إلا إذا استصبح الساري بدلالالتهم...المملوك يقبل الأرض بمطالع الشرف ومنازله، و مرابع المجد ومعاقله..."[١]

وفيها كما لاحظنا الصلاة على أمير المؤمنين، وتعداد لصفاته ومآثره، وحقوقه على رعيته، وقد رأينا كيف أطنب و أطال في تلك الصفات، والحدود.

- الافتتاح بـ(أما بعد):

هذه الفاتحة في رسائل القاضي الفاضل، تقع في المكاتبات الصادرة عن ملوك الديار المصرية، و هي في أسلوب واحد عنده: وهو الابتداء بـ " أما بعد"، والخطاب فيه بالملك، والاختتام بالدعاء.

كما كتب عن السلطان صلاح الدين الأيوبي إلى بردويل أحد ملوك الفرنج، وهو يومئذ مستولٍ على بيت المقدس وما معه، معزيا في أبيه، ومهنئا له بجلوسه في الملك بعده، ما صورته:"

---

[١] صبح الأعشى: الأميرية- ج ٨/ص ٢٧٦

(١) صبح الأعشى: ج٦- ص:٥١٠-٥١١

أما بعد، خص الله الملك المعظم حافظ بيت المقدس بالجد الصاعد، والسعد الساعد، والحظ الزائد، والتوفيق الوارد، وهنأه من ملك قومه ما ورثه، بما ساء قلوب الأصادق، والنعي الذي وددنا أن قائله غير صادق، بالملك العادل الأعز الذي لقاه الله خير ما لقي مثله، وبلغ الأرض سعادته كما بلغه محله؛ معز بما يجب فيه العزاء، ومتأسف لفقده الذي عظمت به الأرزاء؛ إلا أن الله قد هون الحادث، بأن جعل ولده الوارث، وأنسى المصاب، بأن حفظ فيه النصاب، ووهبه النعمتين: الملك والشباب؛ فهنيئا له ما حاز، وسقيا لقبر والده الذي حق له الفداء لو جاز......والله يديم تعميره، ويحرس تأميره، ويقضي له بموافقة التوفيق، ويلهمه تصديق ظن الصديق"[٢]. و لكن المستحب عند كتاب العصر الأيوبي في " أما بعد" مجيئها بعد الحمدلة أداة لحسن التخلص من المقدمة والدخول في الموضوع يقول ابن الأثير في ذلك:"

وغاية ما يقال في صيغة: (أما بعد) أن تأتي بعد التحميدة أو بعد الدعاء؛ وذلك لأن المتكلم يفتتح كلامه في كل أمر ذي شأن بذكر الله وتحميده؛ فإن أراد أن يخرج إلى الغرض المسوق إليه فصل بينه وبين ذكر الله تعالى بقوله: أما بعد"[١]

- الافتتاح بالدعاء:

يستفتح القاضي الفاضل أكثر رسائله الديوانية بالدعاء، ثم يذكر من يوجه إليه دعاءه، ولاسيما ما كان منها مرفوعا إلى الخليفة أو السلطان مباشرة، ثم يقول بعد ذلك " المملوك يقبل اليد الكريمة " أو" المملوك يقبل الأرض..." و يتلو عبارات المدح والإطراء، ثم يذكر الغرض مصدرا بكلمة:(ننهي)، أو :(نبدأ)، أو(بعد)، أو ما شابه ذلك، ومثال ذلك قوله في رسالة له عن الملك صلاح الدين إلى ديوان الخلافة ببغداد:" أسعد الله عظماء الأملاك بالانتساب إلى الخدمة الشريفة النبوية، وأوزعهم ما أمرهم من طاعتها، وخلد ملك الديوان العزيز النبوي ما دامت الأفلاك قائمة والنجوم ناجمة، ونقع بغمائمها غلل الآمال الحائمة، وفسر بمكارمها حلم الأماني الحالمة، ورتق بتدبيراتها المعصومة فتوق النوب المتعاظمة، وأظهر على أيدي أوليائها معجزات نصرها، وصرف الأيام والليالي بين المرضيين لله نهيها وأمرها، وأودع بركات السماء والأرض بمودعها ومستقرها.

المملوك - وإن كان قد يسر الله له مذ أطلقت عذبة لسانه خدمة الدولة العباسية؛ فتفسح في وسيع مآثرها، وتخير من بديع جواهرها، و امتاح من نمير زواجرها-، فإنه لا يعتذر عن الحصر الذي اعتراه في وصف المنعم عليه به من الخطاب الشريف، الذي لولا أن عصمة الموالاة تثبت فؤاده الخافق، وتسدد

---

(٢) المصدر نفسه: ج٧-ص ١٢٢-١٢٣

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ج٣/ ص١٣٩

لسانه الناطق، لما تعاطى ما أعطاه من كتابه المرقوم..."[٢]، وقد عدد القلقشندي مراتب الدعاء فـي المكاتبات في ستة أوجه:
منها " الدعاء بإطالة البقاء، والدعاء بإطالة العمر؛ فالدعاء بإطالة البقاء أرفع من الدعاء بإطالة العمر؛ وذلك أن البقاء لا يدل على مدة تنقضي لأنه ضد الفناء، والعمر يدل على مدة تنقضي؛ ولذلك يوصف الله تعالى بالبقاء، ولا يوصف بالعمر. قال صاحب مواد البيان: ومن جعل الدعاء بإطالة البقاء أول مراتب الدعاء خصّ بالخلفاء، وجعل ما يليه لمن دونهم، ويتلوه الدعاء بالمد فـي العمر، فيكون دون الدعاء بالإطالة؛ لأن الوصف بطول الزمان أبلغ من الوصف بالمد فيه من حيث إن المد قابل للمدة الطويلة والمدة القصيرة؛ ولذلك صارت مرتبة الطول أقرب إلى مرتبة البقاء من مرتبة المد،ومنها الدعاء بدوام النعمة، والدعاء بمضاعفتها؛ فالدعاء بالمضاعفة أعلى ؛ لأن الدوام غايته استصحاب ما هو عليه، والمضاعفة مقتضية للزيادة على ذلك.

ومنها الدعاء بعز الأنصار، وبعز النصر، وبعز النصرة، وقد اصطلح كتاب الزمان على أن جعلوا أعلاها بعز الأنصار؛ لأن عز أنصاره عز له بالضرورة مع ما فيه من تعظيم القدر ورفعة الشأن؛ إذ الأنصار لا تكون إلا لملك عظيم أو أمير كبير. و الدعاء بعز النصر أعلى من الدعاء بعز النصرة؛ لما فـي الأول من معنى التذكير وهو أرفع.

- الافتتاح بالقرآن الكريم، والأخبار النبوية، والشعر:

وهي من الافتتاحات المفضلة عند كتاب العصر الأيوبي، يقول ابن الأثير في ذلك:" ومن محاسن هذا الباب أن يفتتح الكتاب بآية من القرآن الكريم، أو بخبر من الأخبار النبوية، أو ببيت شعر، فيكون تضمينا كليا أو جزئيا بنصف الآية"[١]، فمن ذلك ما كتبه القاضي الفاضل عن صلاح الدين إلى الخليفة المستضيء ببغداد ببشرى بفتح من بلاد النوبة والنصرة عليها:"﴿ ولقد كتبنا فـي الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون ﴾[٢]: ﴿ سلام قولا من رب رحيم ﴾[٣]﴿ فروح وريحان وجنة نعيم ﴾[٤]. وصلاة يتبعها تسليم، وكأس يمزجها تسنيم، وذكر من الله سبحانه فـي الملأ الأعلى، ورحمة الله وبركاته معلومة من النشأة الأولى على مولانا الإمام (المستضيء بالله) المستضاء بأنواره، المستضاف بداره، الداعي إلى الحق وإلى طريق مستقيم، الراعي للخلق كما يرعى النسيم، العام فضله، التام عدله، المطروق مورد

---

(٢) الروضتين : ج٤- ١٣٥.

(١) المثل السائر في في أدب الكاتب والشاعر: ج٣ – ص١١١

(٢) سورة الأنبياء:٢١ الآية ١٠٥

(٣) سورة يس ٣٦- الآية ٥٨

(٤) سورة الواقعة: ٥٦، الآية: ٨٩

فنائـه، المـصدوق فـي مـورد ثنائـه..." [1]، و يفـسر ابـن الأثيـر ولعهـم بهـذه الافتتاحيات بقولـه: " فـإن هذا مـا يبعث علـى الاستماع إليـه؛ لأنـه يقرع السمع شيء غريب ليس له بمثله عادة فيكون سببا للتطلع نحوه"[2]

- الافتتاح بلفظ التصدير:

يفتـتح القاضـي الفاضـل بعـض كتبـه بلفـظ " أصـدر " مفـردة أو مضافة"أصدرنا" يعقبها أحيانا الدعاء، ثم يدخل إلى الغرض، ومثال ذلك كتاب كتبه عن صلاح الدين إلى أخيه سيف الإسلام سلطان اليمن، يستقدمه إليه معاونا له على قتال الفرنج خذلهم الله! و يبشره بفتح كوكب(وهي قلعة على الجبل المطل على مدينة طبرية)، وصفد، والكرك في سنة أربع وثمانين وخمسمائة قال فيه:"

أصدرنا هذه المكاتبة إلى المجلس، ومما تجدد بحضرتنا فتوح كوكب: وهي كرسي الاستبارية ودار كفرهم، ومستقر صاحب أمرهم، وموضع سلاحهم وذخرهم؛ وكان بمجمع الطرق قاعدا، ولملتقى السبل راصدا؛ فتعلقت بفتحه بلاد الفتح واستوطنت، وسلكت الطرق فيها وأمنت، وعمرت بلادها وسكنت؛ ولم يبق في هذا الجانب إلا صور، ولولا أن البحر ينجدها، والمراكب تردها؛ لكان قيادها قد أمكن، وجماحها قد أذعن؛ وما هم بحمد الله في حصن يحميهم، بل في سجن يحويهم؛ بل هم أسارى وإن كانوا طلقاء، وأموات وإن كانوا أحياء؛ قال الله ﷻ ﴿ فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عدا ﴾[3]... فالبدار إلى النجدة البدار ! والمسارعة إلى الجنة فإنها لا تنال إلا بإيقاد نار الحرب على أهل النار؛ والهمة الهمة! فإن البحار لا تلقى إلا بالبحار، والملوك الكبار لا يقف في وجوهها إلا الملوك الكبار:

وما هي إلا نهضة تورث العلا ... ليومك ما حنت روازم نيب....."[1]

٢- مقدمات الأجوبة الديوانية:

الجديد هنا في كتب الأجوبة إضافة لفظ " الإعلام" في صدر الكتاب أو بعد المقدمة، ومن المعروف أن كتب الأجوبة إما أن تكون جوابا من مرؤوس لرئيس أو العكس، ولقد لاحظت أن مقدمات الأجوبة في رسائل القاضي الفاضل تتخذ ثلاثة أشكال في الغالب:

- الافتتاح بالإعلام ووصف الكتاب:

يفتتح بلفظ الإعلام، ثم يصف الكتاب، ويبين الفائدة منه، ويمدح صاحبه؛ فإذا كان في التهنئة. قال: " ورد كتابه مبشرا"، وإذا كان في التعزية . قال:" ورد كتابه معزيا"، وإذا كان في شفاعة قال:" ورد الكتاب الكريم"،

(١) صبح الأعشى في صناعة الإنشاج ٦- ص٥٠٤
(٢) المثل السائر في في أدب الكاتب والشاعر: ج١ – ص٩٨
(٣) سورة مريم: ٨٤
[1] صبح الأعشى: ج٧- ص ٢٣-٢٤-٢٥

ومثال ذلك قول القاضي الفاضل في كتاب له إلى المظفر تقي الدين رحمه الله تعالى:

" ورد كتاب مولانا الذي هو مولى الكتب وسيدها و واحدها وموردها على القلوب منهلها العذب ومورردها، وفيه من الإنعام ما لا ينتهي إلى شكره بل إلى ذكره وما لا يقوم الخادم بواجب بشره إلى يوم نشره.[٢]

- الافتتاح بالإعلام ثم الدعاء:

يفتتح بلفظ الإعلام، ثم يليه الدعاء. ومثال ذلك قوله في كتاب له إلى المحسن:

"ورد كتاب المجلس وردت على مساعيه المساعد، ووردت من يده ومن فؤاده الفوائد، و لا عدمت أياديه التي هي للظمأ موارد، وكتبه التي هي للسرور موالد، وأدنى الله داره من محب له أحدهما من يد حاتم، والآخر جهة القاضي صفي الدين شكر وفقه الله، وكان ورود الكتاب الحاتمي نسبة إلى منفذه بالسمة وإلى كاتبه بالمعنى، فلا يجلس علينا الكرم بخاتمه فما

هو إلا فض خاتمه"[١]وفي هذا الكتاب وجدنا القاضي الفاضل يبدأ كتابه بلفظ الإعلام، ويأتي بالدعاء بعده، وينسجم الدعاء مع الإعلام بحيث لا يفارقه.

- الافتتاح بكلام له صلة بالموضوع يليه الدعاء:

يفتتح بكلام له صلة بالموضوع يليه الدعاء، ثم لفظ الوصول، ومثال ذلك قول القاضي الفاضل في رسالة إلى أحد الخلفاء:" وهذه المكاتبة صادرة إلى الأمير في معنى فلان، وهو ممن ترعى حرمته، وتتعرف بركته، ويؤثر قضاء شغله، ويحرص على احترام جانبه لما هو بصدد من نشر العلم الذي هو من كبار أهله. والأمير أبقاه الله يوعز باغتنامها فرصة ونهزه قربة..."[٢]

٣- اللوازم الديوانية في مقدمات الرسائل:

اللوازم الديوانية جملة من الألفاظ والتراكيب التي اعتاد الكتاب الرسميون التزامها في مكاتباتهم الديوانية، ولا يكادون يفارقونها، ولكل منها في المكاتبة موضع خاص، وتستخدم أيضا في المكاتبات غير الديوانية تشبها بالديوانية إذ كانت أساليبها تجري في الغالب على نمط واحد، ولكل أمة في كل عصر على وجه الإجمال مثل تلك اللوازم، والشكليات التي يضعها الكاتب أو يقترحها

---

[٢] المختار من إنشاءات القاضي الفاضل : ص٥٤

[١] إنشاءات القاضي الفاضل: ص: ٧٢

[٢] رسائل الحرب والسلام: ص٢٠٢

الرؤساء أو يأمر بها الملوك والسلاطين، وكأنما هي التي تسبغ على مكاتباتهم السمة الرسمية.

- خطاب الخلفاء:

مما يتصل بصور البدء ألفاظ الخطاب، والمرسل إليه تعظيما له لا يذكر اسمه في غير المكاتبة السلطانية، وقد حل محل الاسم، فضلا عن اللقب والكنية تراكيبُ أو ألفاظٌ اختصّ كل لون من الرجال بلون منها. و أعلى درجات الخطاب عند القاضي الفاضل في خطاب الخلفاء تقبيل الأرض، والعتبات العالية، وتقبيل الأيادي، ومثال ذلك في قوله في كتاب شفاعة إلى السلطان الملك الناصر رحمه الله تعالى:

" المملوك يقبل الأرض أمام المقر المولوي السلطاني الملكي الناصري أعز الله سلطانه، وأفاض على الخلق برد إحسانه، وأظهر بسطوة سيفه حجة الإسلام وبرهانه، وعمر بحياته ممالكه وأوطانه..."[١]

ومن آداب الملوك في خطاب الخلفاء استخدام ألفاظ ومعانٍ تدل على الذل والخضوع كأن يكني نفسه بـ(الخادم) أو بـ(العبد المملوك). مثال ذلك خطاب القاضي الفاضل على لسان صلاح الدين الأيوبي إلى الديوان النبوي :

" أصدر الخادم هذه الخدمة من ثغر عكا، وقد تبسم لقدومنا فامّحى ليل الكفر عن جانبيه..."[٢]

- خطاب الملوك :

يخاطب الملوك في رسائل الفاضل من الأصاغر بـ(الجناب العالي)، وهذه درجة في الخطاب أقل من المقام والمقر في خطاب الخلفاء، ويخاطب بـ(المجلس السامي)، وهذه أقل رتبة من الجناب العالي، وقد شذت بعض رسائلهم عن هذه التقاليد، وفي ذلك يقول ابن شيت: " إن الناس كانوا لا يكتبون المجلس إلا للسلطان خاصة، ويكتبون لأعيان الدولة من الوزراء (الحضرة)، ثم أفردوا السلطان بالمقام، وصاروا يكتبون المجلس لمن دونه، ولم يسوّغوا مكاتبة السلطان بعد ذلك بالمجلس ولا بالحضرة"[٣]

وقد قال ابن الأثير في أدب الخطاب أيضا:" لا يجوز أن يخاطب الأعلى بقول ورد، ولا وردت، ولا صدر، ولا صدرت، بل يقال: يقبل الأرض، وينهي أنه لما كان كذا وكذا باشر المملوك المثال العالي، فإن نقص قال: كان كذا وورد المثال العالي"[٤]

و نجد ابن الأثير لا يلتزم بهذا الكلام فيخاطب الملوك بقوله:" ورد كتاب البشرى" ولم يقل المثال العالي، ولا مكاتبة المجلس العالي، وبالصيغة نفسها

---

[١] رسائل الحرب والسلام: ص٤٢

[٢] المرجع نفسه: ص٣٧

[٣] معالم الكتابة: ص٣٦

[٤] المفتاح المنشأ في حديقة الإنشا: ص١٨

يخاطب من هم أقل من الملوك مرتبة كالقضاة مثلا، فيقول:" ورد كتاب مجلس سيدنا"[1]

ويرد الملوك على أمثالهم بـ " ورد الكتاب". مثال ذلك رد الملك الأفضل على أخيه الملك الظاهر عن جواب ورد منه يسأل عن مرض كان به بقوله: " ورد الكتاب الكريم" [2]

أما الافتتاح بما يدل على الذل والخضوع فهذا أيضا من مصطلحات الدولة الأيوبية، وذلك إذا كان المخاطب دون المخاطب. ومثال ذلك ما خاطب به القاضي الفاضل بقوله عن نفسه في رسالة وجهها لصلاح الدين الأيوبي يهنئه بمولود ولد يقول فيها:" المملوك يقبل الأرض بالمقام العالي الناصري، ونصر الله الإسلام بمقامه، وأهلك أعداء الحق..."[3] و من ذلك أساليب من مثل:(يقبل اليد الكريمة) (ويقبل الكف الكريم)

ومن أدب خطاب الملوك تعظيمهم بنون الجمع من مثل:" ورد كتاب مولانا، مكارم مولانا، شيم مولانا، وذلك في مواضع الشكر والاعتراف بالجميل..."[4]

يقول ابن شيث: " نون الجمع فإنها تخص ذوي التعاظم، قال الله تعالى ﴿ حتى إذا جاء أحدهم الموت قال ربي ارجعون ﴾[5] فدعاه دعاء المفرد؛ لأنه لا يمكن المشاركة في ذلك الاسم، وسأله سؤال الجماعة لمكان العظمة"[6]

- خطاب الملوك للأصاغر:

يخاطب الملوك أتباعهم من الأمراء والوزراء والأعيان والقضاة ردا على كتاباتهم بـ(ورد كتابك)،و (وصل كتاب المجلس)، وتكثر كاف الخطاب و لاسيما في كتب الأوامر والنواهي الصادرة منهم بـ(لتفعلون)،أو (لا تفعل كذا)، وكذلك حين يدعو لهم بـ(أيدك الله)، أو بقولهم: (ولقد أردناك)،ومن ذلك قول القاضي الفاضل في رسالة إلى حسام الدين بشارة: " ورد كتاب

---

(١) رسائل ضياء الدين بن الأثير: ص٥٩-٢٦٨

(٢) المرجع نفسه: ص٢٧٨

(٣) صبح الأعشى: ج٧ – ص٩٠

(٤) رسائل ضياء الدين بن الأثير: ص ٢٦٥

(٥) سورة المؤمنون: ٩٩

(٦) معالم الكتابة: ص: ٤٠

المجلس لازالت سائرة مدائحه غامرة منائحه، بيضا صحائفه، حمرا صفائحه..."[1]

- خطاب الوزراء وغيرهم من أعيان الدولة:

يعد خطاب الوزراء في المرتبة الثالثة بعد مرتبة الخلفاء والملوك، وسبيل مكاتباتهم أن يأتي فيها باللفظ المساوي للمعنى من غير إيجاز ولا إطناب؛ وذلك لأنها رتبة متوسطة بين المتقدمتين [2]

وهذا واضح أيضا في رسائل القاضي الفاضل حيث يخاطب الأمير بـ (المجلس)،ويخاطب الولاة (بسعادة المجلس) بدون نعت، أو بـ(أيام المجلس السامي)، ويخاطب العلماء بـ(جانب المجلس)، ومن ذلك قوله في رسالة له إلى أستاذ الدار[3]: ضاعف الله إقبال المجلس السامي، أدام أيامه،وأمضى في الممالك أحكامه ..."[4]

ومن ذلك رسالة له إلى العماد الأصفهاني: " وصلت ثلاثة كتب من حضرة سيدنا عماد الدين ما زالت معاليها في أجياد الدهر قلائد وعقودا..."[5]

٤- الألقاب والنعوت:

أشرت عند الحديث عن صور البدء المختلفة إلى شيء من ورود الألقاب والنعوت في رسائل القاضي الفاضل، وهي كثيرة ومتعددة، وتختلف باختلاف المقام؛ فهناك لقب الخليفة، ولقب السلطان، ولقب القاضي، ولقب الصاحب، ولقب الملك، ولقب الوزير.

وقبل أن نعرف الفرق بينها ينبغي لنا أن نعرف شيئا مهما جدا ميز الكتابة في العصر الأيوبي وما سبقه، وهو ما من كاتب، بل من شخص حينذاك إلا واتخذ لنفسه لقبا وكنية بجوار اسمه، وقد صاحب هذه التسميات لوازم لا محيد عنها، وتبدو لنا هذه الألقاب والكنى والأسماء واضحة في كتب التراجم، إلى درجة أن الأسماء الأصلية قد توارت خلف هذه الكنى والألقاب.

- ألقاب مضافة إلى لفظ الدين:

والألقاب المضافة إلى لفظ الدين مثل: " سيف الدين، وناصر الدين، ومجد الدين..." وكان هذا الضرب من الألقاب هو المتبع في التلقيب، وكثيرا ما يختصر، فيقال " السراج" في :" سراج الدين"، و" التقى" في: " تقي الدين"،

---

(١) رسائل الحرب والسلام: ص١٥٦

(٢) صبح الأعشى: ج٣ ص٣٢٢

(٣) أستاذ الدار: أبو الفرج محمد بن أبي الفتوح عبد الله بن رئيس الرؤساء، عضد الدين، وزير الخليفة المستضيء، قتل في ذي الحجة سنة ٥٧٣ هـ

(٤) رسائل الحرب والسلام: ص٧٠

(٥) المرجع نفسه: ص٧٠

و"النور" فـي: " نـور الـدين"... ومـن شـواهده فــي رسـائل القاضـي الفاضـل: " أدام الله سلطان المجلس الملك المظفر تقي الدين..."[١]

و منها كتاب له أسبغ فيه على صاحبه الملك المظفر تقي الـدين الكثيـر مـن الألقـاب المضافة إليـه وذلـك فـي قولـه:" أدام الله سـلطان مولانـا الملـك المظفـر الكبيـر العـالم العـادل المرابط المجاهد المنصور الظهير المرتضى تقي الـدين عماد الإسلام والمسلمين ظهير الأنام معضد الدولـة، جـلال الملـة، جمـال الأمـة، عمدة الملوك والسلاطين، ناصر المجاهدين، قامع الكفرة والمشركين، مـصطفى أمير المؤمنين، وأعزّ دولته، ومكن صولته، وأنفذ فـي الأعداء سطوته، وقـرن بالتأييد خطوته ووفر من التوفيق خطوتـه، وخلـد سلطانه ومكنـه، وحمـى فنـاءه وحصنـه..."[٢] ،ومن شواهده أيضا فـي رسـائل ابـن الأثيـر قولـه: " أدام الله أيـام المجلـس الـسامي الأميـري الأجلــي، الـسيدي، الكبيـري، سـيف الـدين ركـن الإسلام".

- ألقاب على وزن: (الفاعل، والمفعول، وأفعل):

يـأتي هذا النـوع من الألقـاب علـى وزن اسم الفاعل ولاسيما فــي ألقـاب الملـوك كالظـاهر والكامـل فــي التـاريخ والعـادل والناصـر، والقـاهر، ويـأتي الربــاعي أو الثلاثــي علــى وزن اســم المفعــول، مثــل: المعظــم، والمــسعود، والمظفر، ويأتي على وزن أفعل، مثل: الأشرف، والأفضل... ومـن ذلـك قـول القاضي الفاضل من رسالة له إلـى الـديوان العزيـز النبـوي يـذكر فيـه فتح البيت المقدس: أدام الله أيام الديوان العزيز النبوي الناصري، لازال مظفر الجد..."[١]

- ألقاب الخلفاء والملوك:

قـال علـي بـن خلـف:" جـرت العـادة فــي الكتابـة إلـى الخلفـاء بالتلقيب؛ لأن اللقب موهبة من مواهب الإمام أمضاها وأجازهـا فـإذا جـرت عليـه كغيرهـا مـن نعمه التي يمنحها على عبيده لذلك فهي حق واجب لـه"..."[٣]، ويلقب الخليفـة فـي رسـائل القاضـي الفاضـل ب(الـديوان العزيـز النبـوي)، ويلقـب الملـوك بــ(الجناب العالي المولوي مضاف إليهـا اسمه كـأن يكـون الظـاهري أو الأفضلي، ومضاف إليها ياء النسب للمبالغة في تعظيم الممدوح؛يقول القاضي الفاضـل فـي كتاب إلى الديوان العزيز النبوي آمد:" أدام الله أيام الديوان العزيز النبـوي، ومـا زالــت دواويــن الخلائــق مبيــضة بــولاء الله وطاعتــه، وزادهــم فــرائض الــدين ومناسـكه، والـدنيا إمـا سـلكة بـالأمن تحـت سـريره، أو منفكـة بـالعجـاج تحـت سنابكه..."[٣]

---

(١) إنشاءات القاضي الفاضل : ص٥٩
(٢) المصدر نفسه : ص٩٧
(١) رسائل الحرب و السلام: ص١٦٦
(٣) صبح الأعشى: ج٨ ص ٣٤٢
(٣) رسائل الحرب والسلام: ص١١٧

ويقول ابن الأثير في ذلك:

" المولوي إذا نقصت قال بعدها الأميري لا المالكي، فإن زاد في العظمة قال المالكي، فإن زاد قال: الجمالي أو الكمالي، على قدر لقب المخاطب"[٤]

- ألقاب الوزراء والأمراء:

يسرف كتاب العصر الأيوبي إلى حد كبير في ألقاب الوزراء والأمراء، كأن يقول: " المجلس السامي الأميري، السيدي، الكبيري، سيف الدين شهاب الإسلام..." و تبدو مظاهر الإسراف - هنا -في كثرة النعوت من ناحية، وإضافة ياء النسب إليها من ناحية أخرى ويقول ابن الأثير: فإن نقصت أبطل حروف الإضافة، فقال بعد المجلس السامي المولوي الأمير الأجلّ، الأخصّ ..."[١]

والحقيقة أن المبالغة في استعمال هذه الأوصاف ما هي إلا نوع من الشغف بالصناعة الشكلية، ولا تفيد شيئا إلا العبث بالألفاظ التي هي ضياع لوقت الكاتب الذي ينبغي أن تكون استعمالاته بليغة تحتوي على اللفظ القليل والمعنى الكثير، وهذه هي البلاغة المطلوبة، ولكن على أية حال لا نلوم الكاتب إذا أتى بها في حدود فهذا كان أسلوب العصر في الكتابة، ولا نجد تفسيرا لإسراف الكتاب هذا سوى أنها لوازمهم ومظهر مزاجهم منذ العصر الفاطمي.

٥- الخواتم الديوانية:

كان القاضي الفاضل يجيد خواتيم رسائله كما كان يجيد افتتاحها؛ لذلك فهو يوفر لها كل مقومات النجاح. اللفظ السهل والمعنى الواضح، ويشملها بالمؤثرات الصوتية والمعنوية، وكذلك الفنية التي من شأنها أن تجعلها أثبت في ذهن المتلقي، و أعون على فهمها وحفظها، أقوى على التأثر بها، و هذه نماذج من خواتيم كتبه:

- الختام بالدعاء يعقبه السلام:

يختم القاضي الفاضل في الغالب رسائله الديوانية كما بدأها بالدعاء، فيضرع إلى الله تعالى أن يحفظ له من يكتب إليه، و من الصعب أن نعثر على خاتمة أخرى يقول:

"و الله يشرح لك صدرا، وييسر لك منا أمرا، ويشد أزرنا بك كما شد لموسى بأخيه أزرا، والسلام"[٢]

- الختام بجملة: (والرأي أعلى أو ما شابهها)

وهذه خاتمة كثيرا ما نجدها في رسائل القاضي الفاضل الديوانية. ومثال ذلك قوله في ختام رسالة طويلة إلى الديوان العزيز النبوي يذكر فيه بفتح

[٤] المفتاح المنشأ في حديقة الإنشا: ص١٧

[١] المفتاح المنشأ في حديقة الإنشا: ص١٨

[٢] مفرج الكروب في أخبار بني أيوب: ج٣- ص:٨٧

بيت المقدس: "... وهذه البشائر لها تفاصيل لا تكاد من غير الألسنة تشخص، ولا بما سوى المشافهة تتلخص، فلذلك نفذنا لسانا شارحا، ومبشرا صادحا، يطالع بالخبر على سياقته... و الله الموفق للصواب، والحمد لله ربي، وعليه توكلت، وإليه أنيب، وهو فلان فليسمع منه، وليروَ عنه، والرأي أعلى إن شاء الله"[١]

وله في ختام رسالة أخرى إلى الديوان العزيزي النبوي: " والخادم ينتظر وصول التقليد بالموصل، وما علق به أمل الموصّل، إلى أن أجال فيه نظر المتأمل، ثقة بأن مسائله على النجاح قادمة، وأن كتابه لطير المنى قادمه، للآراء علوها إن شاء الله"[٢]

وفي كل ذلك إشارات لطيفة، تعتمد حسن الأدب مع الخلفاء والملوك والسلاطين بأن ينهي كلامه بهذه العبارة التي تعيد الرأي لصاحب الرأي منهم...

ثانيا – البناء الفني للرسالة الإخوانية:

١- المقدمات الإخوانية الابتدائية:

نظرا للحرية التي تتمتع بها الكتب الإخوانية نلاحظ أنها لا تلتزم بالرسوم التي تلتزم بها الكتب الديوانية، وهذا ليس في كتابات القاضي الفاضل وحده، بل في كتابات العصر الأيوبي كله، يقول القلقشندي:" إن الابتداء عندهم لم يكن لهم فيه ضابط فكانوا يبدؤون بالدعاء للمجلس وذلك في الغالب في مكاتباتهم"[١]،وهذه مقدمة كتاب كتبه القاضي الفاضل إلى العماد الأصفهاني تشير إلى ما نقوله. يقول فيها:"أدام الله أيام المجلس التي هي لحسنات المدل

---

[١] رسائل الحرب والسلام:ص١٨٨

[٢] المرجع نفسه: ص١٢٩

(١) صبح الأعشى في صناعة الإنشا: ج٨ ، ص١٦٧

مديلـة، و لعثـرات المقـل مقيلـة، ولمعـاطف العـز مميلـة..."[٢]ويمكننـا إجمـال المقدمات التي اتخذها القاضي الفاضل في رسائله فـي أربعة أشكال:

-الافتتاح بالدعاء:

تسود المقدمة الدعائية كتابات الفاضل الإخوانية. مثال ذلك قولـه فـي مقدمـة رسالة لـه إلـى ابـن المجـاور[٣]: الحضـرة النجميـة -حـرس الله أنجمهـا، وحاطهـا من الغير وسلمها - مخصوصة بأعذب تحيات الله وأزكاها، وأطيبها وأشرفها وسمّاها و أسناها، ولو أطعت أشواقي لركبت إليها أعناق الرياح، ولطرقت الباب العزيزي الذي هو سوق السماح..."[٤]

- الافتتاح بالشعر:

من نماذج هذه الفاتحة قوله في كتاب تعزية:

"إنا نعزيك لا أنا على ثقة   من الحياة ولكن سنة الدين

عظم الله أجر المولى، وأحسن عزاه، و أجمل فـي الدنيا والآخرة عقباه، وعوض مفقوده جنات النعيم، وضاعف لـه الثواب والأجر العظيم، ورزق المولى صبرا جميلا، وثوابا حسنا..."[١]

ومـن المعـروف أن الافتتـاح بالـشعر مـن سـمات الكتابـة الإخوانيـة لا الديوانيـة، يقول القلقشندي:" إن المكاتبـات الصادرة من الملوك والصادرة إليهم لا يتمثل فيها بشيء من الشعر إجلالا لهم عن شوب العبارة عن عزائم أوامرهم ونواهيهم ... ولأن صناعة الشعر مغايرة لصناعة الترسل، وإدخال بعض صنائع الكلام فـي بعض غيـر مستحسن، و لا يحسن الاستشهاد بالشعر إلا إذا كتب الملوك إلى الملوك"[٢]

- الافتتاح بكلام له صلة بالموضوع:

ومن نماذجه مقدمة كتاب إلى أمير من الأمراء يقول فيها: " هذه المكاتبة صـادرة إلـى الأمير فـي معنـى فلان، وهـو ممـن ترعـى حرمتـه، وتتعرف بركته، ويؤثر قضاء شغله، ويحرص على احترام جانبه لما هو بصدده من نشر العلم الذي هو من كبار أهله..."[٣]

ونـراه قد دخل فــي موضـوع الرسـالة بكـلام لـه صـلة بمـا يريد قولـه فــي تضاعيف رسالته، والواضح أنها رسالة توصية بشخص ما، يمتلك الموهبة و العلم.

- كتب إخوانية لا مقدمات لها:

---

(٢) المصدر نفسه: ج٨، ص١٦٧

(٣) هو الرئيس شهاب الدين أبو يوسف يعقوب بن محمد المجاور (الروضتين ج٢ ، ص٢٠٥)

(٤) رسائل عن الحرب والسلام: ص ١٨.

(١) رسائل عن الحرب والسلام: ص١٦٣

(٢) صبح الأعشى في صناعة الإنشا: ج٣- ص٣١١

(٣) رسائل الحرب والسلام: ص١٦٣

يدخل القاضي الفاضل في بعض رسائله الإخوانية في الموضوع مباشرة بدون مقدمات، وهذا النمط نجده في كتب الأعياد، مثل عيد الأضحى، وعيد الفطر، وغيره، ومثال ذلك قوله في التهنئة بنصر على الصليبيين:" فالأيام ولله الحمد أعياد، والألفاظ محامد لله وأوراد، والكتب بشائر، والرسل مبشرة، والأماني مغرسة، والسيوف مثمرة، والعدو المخذول لا يقاتل إلا على رقبة وحذاء، ولا يقاتل إلا في قرى محصنة، أو من وراء جدر..."(١)

٢- مقدمات الأجوبة الإخوانية:

تأخذ هذه المقدمة في كتب الأجوبة الإخوانية شكلين:

- أجوبة تفتتح بلفظ الإعلام:

تفتتح بعض كتب الأجوبة بما يدل على وصول الكتاب كأن يقول: (وردت مكاتبته)أو يقول (وصل كتاب الحضرة)...، ثم يعقب هذا الدعاء. مثال ذلك قوله من كتاب له:" وقفنا على كتاب فلان – أبقاه الله لنجح يدني شحطه(٢)، وعافٍ يزيل عتبه على الأيام وسخطه، ومُجدٍ يوفيه من تشييد البنيان قسطه، وعدوّ يعديه وجود الخلق بسعادته جذلا وغبطة، فصادف عندنا شوقا إليه يذكي ضرامه ويشعل، ويشده به إلى الخاطر على الاهتداء بوصفه ويشغل ، وقرم إليه أعان الوجد على أن عان مطلق القلب ..."(٣)

ومثله كتاب إلى صاحب اليمن يقول فيه: " وصل كتاب الحضرة حرس الله مجدها، وجدد جدها، وأرهف حدها، وكبت ضدها، ووقفت عليه وكنت عن خبرها سائلا، ولهمها حاملا، ولأحوالها عن الظنون المترجمة ناقلا، فأقرأ العين بما أهدى من أنبائها واقتضاني حاجة نفسي في تسيير أسباب بقائها..."(٤)

- أجوبة تفتتح بالدعاء يعقبه الإعلام:

هذا الشكل عكس ما سبقه إذ يفتتح بالدعاء يليه لفظ الوصول. مثال ذلك قوله من كتاب له إلى القطب النيسابوري(٥):"

" الكتاب أدام الله جمال العلم ببقاء الفقيه الأجل، وضاعف توفيقه وأدامه، وأعلى به منار الشرع وأقامه، وأمضى به سيوف الحق الذي يسميها الناس أقلامه، تحية مأمور بأن يحيا بأحسن منها أو مثلها.

---

(١) المرجع نفسه: ص١٤٧

(٢) بعده

(٣) رسائل عن الحرب والسلام: ص١٣٥

(٤) المرجع نفسه: ص٣١

(٥) القطب النيسابوري: أو المعالي مسعود بن محمد بن مسعود، شيخ الشافعية، توفي في آخر شهر رمضان سنة ٥٧٩ هـ (النجوم الزاهرة: ج٦- ص٩٤)

أتينا المأمور من الرد عنها لا الرد بها، و أصدرنا الإجابة التي ما وفّى الإبانة فيها من حملها، ولما ورد ذلك الكتاب تناولناه باليد التي نرجو أن نتناول كتابنا بها ببركة دعائه، وقرأنا بلسان لا ينقطع من وظيفة ثنائه، ونظرنا
بعين ما رقي زاخرها على بعد العهد من أنوار لقائه..."(١) فقد بدأ رسالته بدعاء طويل، ثم أردفه بلفظ الإعلام بقوله: (و أصدرنا الإجابة)

الفصل السابع - دلالات الأساليب في رسائله:

١-الأسلوب الخبري:

ما أهم الخصائص التي تميز أسلوب القاضي الفاضل على مستوى التراكيب والعبارات؟ ، وهل وفق في اختيار الأساليب التي تناسب معانيه؟. هذا ما سيجيب عنه المبحث الآتي.

يعتمد القاضي الفاضل على الأسلوب الخبري، ويوفق كثيرا في توظيفه بما يخدم موضوعاته المختلفة، ويبرز أسلوبه بطريقة ملائمة . يقول سعد الدين التفتازاني :

" وإنما ابتدئ بأبحاث الخبر لكونه أعظم شأنا وأعم فائدة ؛ ولأنه هو الذي يتصور بالصور الكثيرة، وفيه الصياغات العجيبة، وبه تقع - غالبا- المزايا التي بها التفاضل ، ولكونه أصلا في الكلام"[١]

---

[١] رسائل عن الحرب والسلام: ص٦٢

وللجملة الخبرية معنى يحدده تركيبها، فإذا أطلقت خالية من أي تأكيد كانت لها دلالة، وإذا أكدت بمؤكد واحد أو أكثر لها دلالة أخرى.

-الجملة الاسمية:

قبل أن أبدأ الحديث عن استخدام القاضي الفاضل للجملة الاسمية في رسائله أود أن أشير إلى استخدام معاصريه لها، وأخصّ بذلك ابن الأثير ، فهو يقول في رسالة له يهنئ بها الملك الأفضل بخلعة جاءته من الخليفة العباسي، مع التأكيد على أن التهاني من الموضوعات التي تكثر فيها الجملة الاسمية، فهو يقول :

" ولئن خرجت في لون السواد فإن مولانا قمر لياليها، أو كانت من العصب اليماني فإنه قيلها وابن قيلها، وأحسن ما فيها أنها زفت إليه بكرا ، وعلمت أنه أسلفها من حقوف خدمه وذمم وسائله مهرا، ونطق لسان حالها فوعده بأن رسلها تترى، ولم يكن تعنّيها فيما مضى من الأيام لامتناع الأذن من آذنه، ولا لأن رفده جل عن هاجنه، بل لأنه وصل في خدمة الخلافة إلى مقام لم تزده خلعتها قربى، ولا رفعت دونه حجبا"(١).

في هذا النص ثماني جمل متتابعة بعضها يصف الخلعة عند وصولها ، وبعضها يصف حالة الممدوح وقت حصوله عليها، وكلها مستقلة في معناها متجانسة في الاسمية لا تأتي لمجرد الإخبار، وإنما تؤكد معاني في نفس المتلقي ؛ فالممدوح مثلا في الجملة الأولى قمر يجلي ظلام الليل، وتؤكد الجملة الثانية الملك في الممدوح ؛ فهو قيلها وابن قيلها . أما الجملة الثالثة فتضيف ملمحا جديدا بين الممدوح وهديته، فقد هلت عليه عروسا في ليلة زفافها جميلة في شكلها، تختال في مشيها؛ فهي عذراء لم يحظ بها أحد من قبل لذلك استحقها جزاء لحسن جهاده في حماية الإسلام وبلاد المسلمين، وتفيد بقية الجمل الفخر بالمكانة العظيمة التي بلغها الممدوح عند الخليفة، ولم يكن تأخير الخلعة لأن العطية أكبر من أن تهدى إليه، ولكن لأن صاحبها بلغ بخدمته للخليفة العباسي مكانة أكبر من أي جزاء يناله ، ونلاحظ -هنا - أن التوازي في الجمل الاسمية يكشف سعادة الكاتب لما يناله ممدوحه من حفاوة وتكريم.

وللتراكيب المعطوفة على مثيلاتها خلال الجملة الاسمية أثر في وصف حالة من الحالات وتعميقها في نفس المتلقي . يقول القاضي الفاضل في رسالة إلى صلاح الدين وهو بالشام يستعد للجهاد:

"...وأما تأسف المولى على أوقات عاطلة من الفريضة التي خرج من بيته لأجلها، وتجدد العوائق التي لا يوصل إلى آخر حبلها، فللمولى نية رشده، أوليس الله العالم بعبده، وهو سبحانه لا يسأل الفاعل عن تمام فعله؛

---

(١) أساليب بلاغية : ص ٧٩.

(١) رسائل ضياء الدين بن الأثير – ص ١٧٧.

لأنه غير مقدور له، ولكن النية لأنها محل تكليف الطاعة، وعن مقدور صاحبها من الفعل بحسب الاستطاعة، وإذا كان المولى آخذا في أسباب الجهاد، وتنظيف الطرق إلى المراد، فهو في طاعة قد امتنّ عليه بطول أمدها، وهو منه على أمل في نجح موعدها، والثواب على قدر مشقته، وإنما عظم الحج لأجل جهده وبعد شقته، ولو أن المولى فتح الفتوح العظام، في أقل الأيام، وفصل القضية بين أهل الإسلام، وأعداء الإسلام؛ لكانت تكاليف الجهاد قد قضيت ، وصحائف البر المكتسبة بالمرابطة والانتظار طويت.."[1]

وفي هذا الجزء من الرسالة تحتشد الجمل الاسمية المتعاطفة، فقد بدأها بجمل اسمية تفيد تفصيل أمر أراد أن يخفف فيه من وطأة ما حلّ بسلطانه من الضيق ؛ عبر في الأولى عن تأسف المولى على أوقات تنقضي عاطلة من الفريضة ، ويعطف عليها جملة أخرى في تجدد العوائق الدائمة ، ثم بدأ بتفنيد تلك الأمور الموجبة للتأسف، وهي متعاطفة أيضا، ويسير على هذه الطريقة إلى آخر الرسالة، وتبدو الجملة الاسمية الدالة على الثبات والتقرير واضحة الدلالة فيما أراد أن يوصله إلى مولاه صلاح الدين الأيوبي، ولا يتأتى ذلك بالجمل الفعلية .

وفي معرض حديثه عن السلطان وأهل بيته يقول : " فهم بحمد الله بهجة الدنيا وزينتها، وريحانة الحياة وزهرتها، وإن فؤادا وسع فراقهم لواسع، وإن قلبا قنع بأخبارهم لقانع، وإن طرفا نام على البعد عنهم لهاجع، وإن ملكا ملك تصبره عنهم لحازن ، وإن نعمة الله فيهم لنعمة بها العيش ناعم؛ أما يشتاق جيد المولى أن يتطوق بدررهم، أما تظمأ عينه إلى أن تتروى بنظرهم، أما يحن قلبه على قلبه، أما يلتقط هذا الطائر بتقبيلهم ما خرج من حبه...."[2].

ونراه يستخدم أساليب التوكيد للجمل الاسمية التي اتكأ عليها في حديثه عن أهل بيت السلطان، ويستخدم مؤكدين لكل جملة يبدأها بإن، ويأتي باللام المزحلقة في خبرها، ولاشك أن لأدوات التوكيد في هذا الموضوع أثرها في نفس السلطان؛ ليبعث فيه العزيمة والفخر بأهله وخاصته، وليؤسس لفكرة قد نجح نجاحا باهرا في إيصالها.

وقال في رسالة له يتحدث فيها عن صلاح الدين وعن مناقبه وانتصاراته :" ... فضل مولانا الحنان ، ومن عندنا اللسان، وعليه الجهد ، وعلينا الحمد، وفتوحه كثمرات الجنة لا مقطوعة ولا ممنوعة، إلى أن يعود ثنايا شرفاتها بأنامل الرماح مقروعة، وأما حصن برزية فهو الذي يضرب الأمثال، وتضرب عنه الأمثال ، ويكاد لا يتحرك إذا قادت أيدي الزلازل

---

(١) القاضي الفاضل – دراسة ونماذج : ص ١٠٤

(٢) المرجع نفسه : ص ١٠٥

أزمة الجبال، وكان للكفر درعا حصينة طالما كانت تهزأ بالنصال، ونصال مولانا حقّ بها الباطل يزهق...ولازال الإسلام ببقائه ماضي العزائم، وجيوش نصره إذا عاينت جيوش أعدائه جروا ذيول الهزائم ، ولازالت جياده في أجياد الحصون ، ،أعداؤه يتساقون كأس الحتوف حيث السيوف أزاهر والغمود كمائم ، ونصر الله محيط به في موقف تخون فيه السيوف القوائم..."[(١)].

ونراه في رسالتة السابقة يحشد الكثير من الجمل الاسمية التي تدل على مراده ، وهو مدح بطله صلاح الدين ، والتي يقرن صفاته بانتصاراته وبأفعاله وأفعال جنوده في المعارك .

وقد كان التعريف والتنكير في رسائله يؤديان أغراضا بلاغية واضحة ، ولجلاء ذلك نقتطع من رسالة له كتبها عن السلطان صلاح الدين يعتذر له عن تأخر الكتب :" سلام الله الأطيب ، وبركاته التي يستدرُّها الحُضّر والغُيّب ، وزكواته التي ترفع أولياءه إلى الدَّرج ، ونعمه التي تجعل على أهل طاعته في الدين من حرج – على مولانا سيّد الخلق، وسادّ الخرق، ومسدّد أهل الحق ، ولابس الشعار الأطهر سوادا، ومستحق الطاعة التي أسعد الله من خصّه بها بدءا ومعادا، ومولى ألأمة ، الذي تشابه يوم نداه وبأسه إن ركض جودا أو جوادا ، وواحد الدهر الذي لا يثنى ، وإليه القلوب تثنى ..."[(٢)].

فالناظر إلى هذه المقدمة التي بدأ فيها رسالته يجد أنه أكثر من الجمل الاسمية المتعاطفة ، وفيها الكثير من الصفات التي يسبغها على السلطان على عادته في رسائله ، وكان يكثر من ذلك ، وبنظرة إحصائية للأسماء التي اختارها يرى الباحث أنها من المعارف ، وفي هذا دلالة على تخصيص ممدوحه بالحكم بصفات يسبغها عليه دون غيره ، وقد استخدم المعرف بأل ، والمعرف بالإضافة ،واستخدم النكرة للعموم والشمول في مثل قوله " إن ركض جودا أو جوادا" وقوله : " ولابس الشعار الأطهر سوادا ،ومستحق الطاعة التي أسعد الله من خصه بها بدءا ومعادا"

وهكذا نرى التعريف يكون حيث يرغب في تعيين المقصود في الكلام ، لسبب ما، وأن التنكير يوجد حيث يقصد إلى عدم تعيين المقصود في الكلام.

ولهذه الظاهرة اللغوية أهمية كبيرة في تنوع التعريف على وفق مقتضيات الكلام وتوظيف كل منهما لدواعٍ معينة تثري التركيب بدلالاتٍ متنوعة مما يُعدُّ أحد وسائل إثراء الدلالة ، ومرجع هذا التوظيف إلى حاجة السياق إذ للتعريف والتنكير دلالة عامة من حيث إرادة التعيين أو عدمه إلا أن لهما معانياً يخرجان إليها ، وهذه المعاني لا تفاد منهما إلا من خلال سياقهما ، فالسياق هو وحده المحدِّد لهذه المعاني التي تخرج إليها المعرفة والنكرة ، فقد

---

(١) المختار من إنشاء القاضي الفاضل – مخطوط – الورقة ٣٨-٣٩

(٢) صبح الأعشى – ٦- ٥١٤

تكون النكرة أحياناً دالة على التحقير وأحياناً دالة على التعظيم ، أو تكون دالة على التقليل أحياناً وأحياناً على التكثير ،ومن أمثلة دلالة النكرة على التعظيم قوله في رسالة له:" الحمد لله الذي أعاد الإسلام جديدا ثوبه، بعد أن كان جديدا(١) حبله، مبيضّا نصره، مخضرّا نصله، ومتسعا فضله ، مجتمعا شمله ..."(٢)

فالنكرات (جديدا، مبيضا، مخضرا، متسعا ، مجتمعا) للدلالة على تفخيم الثوب والنصر ، والنصل ، والفضل ، والشمل) وجاء تقديمها ليمنحها الخصوصية ، وليشعر المتلقي أنها المقصودة بالحكم.

وقد أعطت الجملة الاسمية أبعادا جديدة للتجربة الشعورية التي يريد أن يوصلها إلى متلقيه .يقول الدكتور سعيد أبو الرضا في ذلك :

" تنقل الدلالة من المستوى العادي إلى مستوى أعمق في تأكيد المعنى ، كما تخلق هذه الزيادة في حجم البنية التلاؤم بين المستويات الدلالية للنص، وحالة المتلقي"(١).

وللتدليل على تقوية الجملة الاسمية للحكم في نفس المتلقي الذي ينكره تارة ويشك فيه تارة أخرى نستدعي رسالة لابن الأثير في نهاية العدو الخوارزمي:

" لا جرم أنه صار شريدا فريدا، وكان آخر ذلك أنه مات ميتة جاهلية ، وهي كما قيل غدة كغدة البعير وموت في بيت سلولية، وليت ذنبه أحاط به فلم يتعده إلى البلاد على سعة أمدها وكثرة عددها، ولا إلى الإسلام على ارتفاع عماده، واشتهار من تلك الأرض من علمائه وزهاده، وقد دلت التجربة على هذه الطاعة وأعلمته أنها العتاد الذي لا يتخونه النفاد. و إنها السيوف التي لا تضمها الأغماد، وإنها إذا كانت في كلمة أو يد أعلتهما على الكلمات والأياد، فبأي رأي اهتدى هذا في الخروج على طريقها والمحاربة لفريقها"(٢)

نجح الكاتب في رسم صورة ساخرة للعدو المهزوم الخائب في آماله، الأهوج في وضع خططه، المتسرع في تنفيذها، الغبي الذي لم يستفد من تجاربه. ولنلتمس دور الجمل الاسمية المتتابعة في تصوير نهاية العدو (أنه صار شريدا، وأنه مات ميتة جاهلية)؛ إذ نلاحظ دأب الكاتب على تأكيد نهاية العدو المؤلمة بـ(أنّ) المشددة التي من شأنها الإثبات لما يأتي بعدها ، وبضمير الفضل (هو) الذي يؤكد نهاية العدو التي آل إليها، وهي نهاية

---

(١) حبل جديد: مقطوع ، قال الشاعر :
أبى حبّي سليمى أن يبيدا وأمسى حبلها خَلَقا جديدا . (انظر لسان العرب مادة جدد).
(٢) صبح الأعشى : ج٦ – ص ٥١٧
(١) في البنية والدلالة : ص ١٠٢.
(٢) رسائل ضياء الدين ابن الأثير : ص٢٣

كما قيل كغدة البعير يقصد الطاعون الذي يصيب الإبل، ومن ثم فإن لهذه الجمل الاسمية أغراضا تفهم من سياق الكلام. منها: الفرحة في فوات مأمول العدو، ومنها الشماتة في هزيمته والسخرية من تفكيره.

ويمضي الكاتب بالجملة الاسمية المؤكدة فيصور استمرار العدو في عصيانه وعدم استفادته من أسلافه الأعداء الذين حاولوا الخروج على طاعة الخليفة العباسي، وباءت محاولتهم بالفشل. يقول : " إنها العتاد، إنها السيوف، إنها أعلتهما على الكلمات والأياد " ثلاث جمل دقيقة ومتعاطفة تحمل دلالات الحركة والقوة، والفخر والاعتزاز بالخليفة .

وبذلك نرى أن استخدام الجملة الاسمية في العصر الأيوبي متشابه بين صاحب الطريقة وتلاميذه من الكتّاب .

- **الجملة الفعلية:**

تخرج الجملة الفعلية للتعبير عن الوفاء بالمعاني ودقيق المشاعر، ولاسيما إذا كان المعنى يتجه إلى الاستجداء والاستعطاف. مثال ذلك قول القاضي الفاضل في افتتاحية رسالة له :

" إن أخذ العبد – أطال الله بقاء المجلس، وثبت رفعته، وبسط بسطته، ومكن قدرته، وكبت حسدته – في وصف أشواقه إلى الأيام التي كانت قصارا، وأعادت الأيام بعدها طوالا..."[١].

هذه ست جمل ترد ماضية تنصرف إلى المستقبل، وتدل على الدوام والثبات والتجدد؛ فلكل جملة إيحاءات عميقة الأثر والدلالة في معاني الدعاء والوفاء والإخلاص للممدوح بين إطالة البقاء، و ثبات الرفعة، وبسط البسطة، وتمكين القدرة، وكبت الحساد ...

أما ميدان المعركة ووصف أحداثها، وما يعقبها من فتوحات ونصر؛ فنجد أن الجملة الفعلية أنسب الأبنية اللغوية لتجسيدها وعرضها على المتلقي حية نابضة، وذلك بما فيها من وقائع وحقائق يبرزها الكاتب بأسلوبه كما يراها أو يصورها كما أخبر بها، ومثال ذلك قوله يصف معركة في رسالة له إلى وزير بغداد:

" أثاروا على يوم الكفر ليلة عجاج، جعلت ليل من وراءهم من الإسلام سكنا، وصبروا و صابروا فكأنما كان السيف لهم أليفا، وكان المعترك لهم وطنا، وأخذت في البلاد النار مآخذها، ونفذت فيها الغيرَ من منافذها، وثلت عروشها، وثلت غروسها، وجليت في مصبغات النيران عروسها، وأصبحت تناجي العيون ثواكلها، وتصف النوازل منازلها دمنا على الأطلال مطولة، وصرعى بسيوف البلاء مقتولة، وجاء العدو فأحدقت به الأبطال ، و تنجّزت عادة حمله ، فمطلت خلقها المطال، فلما كثّر الله المسلمين في عيونهم، ورأوا ما لم يكونوا يرونه قبلها بظنونهم، واستمدوا معاني الشكوى لتبوح بها ألسنتهم إذا خلوا إلى شياطينهم ، فأخلدوا إلى الأرض نازلين، وقعدوا عن الحملة ناكلين، واتقى فارسهم براجله ورامحهم بنابله، ولاذ سيفهم بجفنه ولا خير في حامله، وأقاموا محصورين لا يستطيعون وردا ولا صدرا، ولا يجدون متقدما ولا متأخرا، فما كان للكفر فئة ينصرونه من دين الله وما كان منتصرا، وعرف النصل في لحن السيف أن الشجاعة والنكول أمران يقذفهما الله في القلوب فلا يقل الناس كيف"[١].

إننا أمام جزء من رسالة طويلة في وصف معركة من معارك السلطان صلاح الدين ؛ تحتشد بالكثير من الأفعال بصيغتي الماضي والمضارع، ويستأثر الماضي بنصيب الأسد فيها؛ لأنه يرصد حادثة جرت وانقضت في زمن ما قبل الكتابة، وأما استعماله للماضي المبني للمجهول ففيه الاستغراق في الفعل وانتهاؤه؛ فقد جاء في المقدمة بأفعال ماضية يصف فيها ما جرى (أثاروا-صبروا- صابروا - أخذت - نفذت)، وحين استقر لديه

---

[١] القاضي الفاضل – دراسة ونماذج : ص ١٣٢

[١] عيون الروضتين في أخبار الدولتين – القسم الثاني : ص ١١٧.

النصر بتلك الأفعال جاء بالأفعال المبنية للمجهول ليعبر عن انقضاء الأمر بقوله : (ثُلّت – جَليت) ، وحتى في استعماله للأفعال المضارعة مسبوقة بالفعل الناسخ (أصبح) ما يدل على التمكن والاستغراق ،

إن اللافت للنظر في رسائل القاضي الفاضل ومن عاصره في وصف المعارك أنها تحتشد بالأفعال الدالة على الحركة، التي بدورها تنقل لنا أجواء المعركة وكأنها أمامنا.

وممن برعوا في وصف المعارك، وأكثروا من استعمال الأفعال ابن الأثير، ومثال ذلك قوله يصف قتال الأمير حسام الدين النائب عن الملك الأشرف في حربه بمواجهة العدو الخورازمي:

" ولقد أرسى إليه سابقا لخبره ناصبا عزمه بلقاء نظره، لا يحفل خيله تركب نواصيها من وحاها، ولا تحسب حساب يوم وسورة هجيرة، ولا ليلة وسدفة دجاها، وقذفت جانب الشرق فعطف سهله على حزنه، وظهرت له الفتنة حيث يظهر قرن الشيطان، فأمكن يده في اصطلام قرنه، وانتصف للعر ب من العجم فشفى من غليل الصدور المخنقة، وأدال الوجوه الأسيلة من الوجوه التي هي كالجـــــمان المطرّقة، وسلّط الرماح على سهامهم فأعجلتها عن المطار، وجعل رنين قسيهم نوحا عليهم فأنذرهم بقصر الأعمار.."[١]

في هذا الجزء الصغير من رسالة ابن الأثير يربط بين الجمل الفعلية والمضمون، فنجد الأفعال الماضية: (أسرى، وقذفت ، فعطف، وظهرت، فأمكن، وانتصف، فشفى، وأدال، وسلط، فأعجلتها، وجعل)، وكل جملة تصور مشهدا رائعا وبعدا جديدا في مواجهة الممدوح للعدو فقد استقبله بالشجاعة والإقدام؛ إذ خرج له في الليل غير مبال بمشقات الطريق، وسرعان ما انقض عليه، وقد عطف سهله على حزنه(أي قلبه رأسا على عقب)، وأحكم قبضته في قرنه الذي يشبه قرن الشيطان الماكر الخبيث، وذلك عندما توسط مكانه فروى ظمأه من صدره الغليظ، وأبدل وجهه الأسيل بوجه أشبه بالمجان المطرقة، وهي الوجوه الغليظة العريضة، وتبع هذا بتوالي طعنات رمحه على سهامه فشلّت قدرتها على التسديد والإصابة، ثم أبدل من أصوات قسيه التي تتلاحم حماسة وغضبا مأتما تعلو فيه صرخات القتلى وعويل الأسرى، ونلاحظ أن إصرار الكاتب على مصاحبة الجمل بالعطف يكثف حركة القائد السريعة في متابعة ثغرات الموقف، والسيطرة عليه مما مكنه من إحراز النصر .

وتتجلى الجملة الفعلية في تكثيف الحزن في نفس المفجوع، ولاسيما إذا كان الميت ملكا . يقول الفاضل معزيا الملك العادل بابن أخيه الملك العزيز عثمان ابن السلطان صلاح الدين:

---

[١] رسائل ضياء الدين بن الأثير – ص ١٧٦.

" أدام الله سلطان مولانا الملك العادل، وبارك في عمره، وأعلى أمره بأمره، أعز نصر الإسلام بنصره، وفدت الأنفس نفسه الكريمة، وأصغر الله العظائم بنعمته العظيمة، و أحياه الله حياة طيبة يقف هو فيها والإسلام في مواقف الفتوح الجسيمة، وينقلب عنها بالأمور المسلمة، والعواقب السليمة، ولا نقص له رجالا ولا عددا، ولا قصر له ذيلا ولا يدا، ولا أسخن له قلبا ولا كبدا، ولا كدر له خاطرا ولا موردا، ولما قدر الله ما قدر في الملك العزيز-رحمة الله عليه ، وتحياته مكررة إليه من انقضاء مهله، وحضور أجله، كانت بديهة المصاب عظيمة، وطالعة المكروه أليمة، فرحم الله ذلك الوجه ونضره، ثم السبيل إلى الجنة يسره.

وإذا محاسن أوجه بليت   فعفا الثرى عن وجهه الحسن

فأعزز على المملوك والأولياء، بل على قلب مولانا، لا سلبه الله ثوب العزاء بسرعة مصرعه وانقلاب مضجعه، ولباسه ثوب البلاء قبل أن يبلى ثوب الشباب، وزفه إلى التراب وسريره محفوف باللذات والأتراب ..."[١].

استخدم القاضي الفاضل في تعزيته للملك العادل صيغتين من صيغ الأفعال: أولهما الأمر الذي ينسحب للدعاء، والثاني الماضي الذي يتصرف للمستقبل، وينسحب للدعاء أيضا، وتنوع الزمان بين المستقبل، والماضي الدال على المستقبل، أجدر على إبراز قيم الفجيعة والتعزية والحزن في النفوس حيا نابضا شديد التأثير بشجنه وأنينه، ولاسيما أن بعض جمله جاءت لتنفي الحزن على فرد معين في مقابل أنها تثبت القيمة العامة للأسى والحزن على شخص هو كل الناس .

والجملة الفعلية شاركت في نقل إحساس القاضي الفاضل مشاركة جعلته يعتادها في أغلب ما يكتب ؛ وما ذلك إلا لأنها تعطي الحياة لكل أمر يريده، وقد اقتصرت في اختياراتي على بعض كتاباته، ويبقى أن نشير إلى أن الجملة الفعلية أكثر استخداما من الاسمية في رسائله.

٢-الأسلوب الإنشائي:

وقفت فيما سبق على أسلوب بلاغي احتل مقام الصدارة في عرض موضوعات القاضي الفاضل، ذلك الأسلوب الخبري الذي اتصل في كل حالاته بوجدان الكاتب فأثرى كلامه لما فيه من المعاني والدلالات الشعورية

[١] عيون الروضتين في أخبار الدولتين – القسم الثاني : ص٣٢٥-٣٢٦

الزائدة على معناه اللغوي، وسأنتقل للحديث عن الجانب الثاني في مستوى التراكيب ، وأقصد به الأسلوب الإنشائي. يقول القزويني :
" ووجه الحصر أن الكلام إما خبر أو إنشاء؛ لأنه إما أن يكون لنسبته خارج يطابقه أو لا يطابقه، أو يكون له خارج الأول الخبر، والثاني الإنشاء . والإنشاء أسلوب مكتف بذاته ؛ إذ ليس له مرجع خارجي يطابقه أو لا يطابقه، وسمي طلبيا؛ لأنه يستدعي مطلوبا غير حاصل وقت الطلب"[١]

وأما أنواع الإنشاء الطلبي [٢] في رسائل القاضي الفاضل وغيره من كتاب الدولة الأيوبية فهي : الاستفهام ، والأمر ، والنداء ،والنهي ، والعرض ، والتمني ، والترجي ، وتتفاوت الأساليب باختلاف الرسائل ، وتتفاوت دلالاتها وأغراضها البلاغية حسب تدرجها في الموضوع الواحد ، ولذلك كان لزاما على الكاتب أن يفجر ما في الإنشاء الطلبي من معانٍ عميقة يحددها أسلوبه وصياغته . وفيما يلي رصد للأكثر استخداما في رسائله :

أ- أسلوب الاستفهام:

إن قيمة الاستفهام السياقية التداولية مبحث من المباحث التي اهتمّ بها البلاغيون القدامى ضمن اهتمامهم بالقرآن جنساً من أجناس البيان،و نجد في مصنف الزركشي (ت، ٤٩٧هـ) الموسوم بالبرهان في علوم القرآن بابا كاملاً خصّصه المؤلف لدراسة أساليب الاستفهام في القرآن معتمداً علاقات التخاطب معيارا لتصنيف هذه الأساليب، ولتحديد أوضاع التلفظ التي ينتج عنها كل أسلوب منها[١]، ونستخلص من تحليل الزركشي لآثار المقام في توجيه صيغة الاستفهام ومن التمييز بين الأصناف المتقاربة أن للمخاطب دوراً أساسياً في توجيه بنية الاستفهام، وأن القدامى اهتموا اهتماماً واضحاً بالسياق الحواري الذي يتحكم في هذه البنية، والتي توجه إمكانات الأجوبة عن الاستفهام،ولئن اعتمد الزركشي وغيره ممن اهتموا بهذا الأسلوب القرآني جنسا من أجناس الخطاب،فإن أنواع الاستفهام التي استخرجوها منه يمكن أن تعبر عن الأعمال التواصلية الأساسية التي تبنى عليها المحاورات الشفوية منها والمكتوبة؛ فالتحذير والتوبيخ يتركزان في الحوار العادي وفي الكلام اليومي،و يمثل الاستفهام أحد الأساليب الأساسية التي تصاغ فيها المحاورات بين الكتّاب،

---

[١] الإيضاح -ص ١٣.

[٢] هناك نوع ثان للإنشاء يسمى الإنشاء غير الطلبي ، وهو ما لا يستدعي مطلوبا ، وله أساليب مختلفة منها صيغ المدح والذم(نعم ، وبئس) ، والتعجب (ما أفعله ! ، وأفعل به!) ، والقسم ، والرجاء وغيره . ولا يهتم البلاغيون بهذه الأساليب لقلة الأغراض المتعلقة بها ؛ ولأن معظمها أخبار نقلت من معانيها الأصلية . أما الإنشاء الذي يُعنون به فهو الطلبي ؛ لما فيه من تفنن في القول لخروجه عن أغراضه الحقيقية إلى أغراض مجازية تفهم من سياق الكلام . انظر : أساليب بلاغية: ٢١٢

[١] البرهان في علوم القرآن : ج٢/ ٣٢٩-٣٣٧.

ويستخدم في معانيه الأصلية التي تدل على الاستخبار الحقيقي في رسائل استنجاز الوعود، وفي رسائل الأحداث التي يستخبر فيها الكاتب عن أحوال المخاطب. غير أن الكثرة الكثيرة من صيغ الاستفهام تستخدم في سياقات لا تفيد المعنى الأصلي، بل تفيد المعاني المرتبطة بآداب التخاطب بين المترسلين، وسأحاول في هذا الفصل أن أحلّل أهم السياقات التي استعمل فيها القاضي الفاضل الاستفهام أداة من أدوات صناعة المحاورة المكتوبة، وطريقة من طرائق عقد صلة التخاطب في الرسائل.

- سياق التعظيم في صدور الرسائل :

لم يتبع القاضي الفاضل سياقا واحدا يستغله لاستعمال الاستفهام الذي يخرج للتعظيم، فكان يستعمله في الصدور لإحداث ضرب من ضروب تفخيم الافتتاح وتقوية المطلع، وكان الكتّاب يصدرون الرسائل المدحية بأسلوب استفهام التعظيم لتحقيق مقاصد مختلفة منها: استقصاء المعاني المدحية، فله في صدر رسالة إلى نائب دمشق عن السلطان في فتح حلب قوله:" نشعر الأمير بما منّ الله من فتح مدينة حلب التي هي مفتاح البلاد، وتسلم قلعتها التي هي أحد مارست به الأرض من أوتاد، فلله الحمد، وأين يقع الحمد من هذه المنة؟[١]، ومنها في المتن بقصد تعظيم ممدوحه صلاح الدين الأيوبي، قوله: " ولا شبهة أن مولانا عزّ نصره في أشغال شاغلة، وأمور متشددة، وقضايا غير واحدة ولا متعددة، ولكن قد ابتلي الناس فصبروا، وأضجرتهم الأيام فما ضجروا، أي عبادة أعظم من عبادته التي قام بها والناس عنها قعود؟ وصبر في طلب خبتها على ناري الحرب والوقت ذاتي الوقود، غير أن مولانا إذا ذكر نصيبه من الإقدام ، فلا يُنْسى نصيبه من الحزم..."[٢]، وقد خرج الفاضل من الصيغة الإنشائية المتمثلة بالاستفهام إلى الصيغة الخبرية، بعد أن استقر المعنى الذي أراده من استفهامه: (وأي عبادة أعظم من عبادته...؟) ، وهو يرمي إلى إثبات أحكام تتعلق بالمخاطب في أفعاله وأقواله، ولو صيغت هذه الأحكام صيغة خبرية ؛ لكان أثرها في المخاطب دون الأثر الذي يحمله استفهام التعظيم والمدح.

ويتضح ذلك بجلاء في رسالة له أكثر فيها من صيغ الاستفهام؛ لأن الحالة تستدعي ذلك؛ فالسلطان قد تبرم بكثرة المطالبات منه، فأراد الفاضل أن يذكره بمنزلته في الدولة الإسلامية؛ ليصل إلى مأربه في إزالة تبرمه... يقول فيها:"

تبرم مولانا بكثرة المطالبات منه، فلا أخلى الله المولى من القدرة عليها، وهنيئا له أن الله سبحانه يطالب بحفظ دينه، والنبي- ﷺ -يطالب بحسن الخلافة في أمته ... فهل عدم من الله تعالى قطّ نصره؟، فهل استمرت به قط عسرة ؟، فهل

(١) القاضي الفاضل دراسة ونماذج – ص١٠٣
(٢) المرجع نفسه ص١٠٤

تمت لعدو قط عليه كرّة؟، هل بات إلا راجيا؟، هل أصبح إلا راضيا؟، ألا يعلم أن الله تعالى ذخر له من الصالحات ما لم ير كفؤا له غيره؟،ألا يحصي من سبقه من الملوك إلى الدنيا فعجزوا عمّا سبق إليه الملك من الآخرة؟. هو بحول الله أوثق منه بسلطانه. قاتلت الملوك بطمعها ، وقاتل هو بإيمانه ؛ هل تعرف راية يقاتل تحتها في سبيل الله إلا رايته؟ هل يُعرَف مال ينفق في سبيل الله إلا ماله؟ هل يسمع في مجلسه إلا كتاب الله يتلى، سنة رسول الله ﷺ تقرأ؟، أو يرى به إلا الخيل تعرض، والسلاح يطلب ؟ لا أقداح الشاربين ، ولا أصوات المغنين، ولا وقائع الكذابين، ولا سعايات النمامين، فلا أعدم الله الخلق واحدا به استقام جميعهم..." (١)

بدأ الفاضل رسالته بذكر السبب الذي من أجله أنشئت وهو التبرم بكثرة المطالبات من السلطان بأسلوب خبري لم يطل كثيرا، ثم انطلق ليحشد الكثير من صيغ الاستفهام التأكيدي الذي يكون جوابه فيه، وهذا الأسلوب أوقع في نفس المخاطب من الأسلوب الخبري الجاف، ويبدو واضحا أن وظيفة الاستفهام في هذه السياقات المختلفة وظيفة واحدة، وهي تقوية درجة الذاتية في التلفظ.

إن الفاضل في الرسالتين السابقتين يرمي إلى إثبات أحكام تتعلق بالمخاطب في أفعاله وأقواله، ولو صيغت هذه الأحكام صياغة خبرية ، لعبر المتكلم لا محالة عن إعجابه بأقوال المخاطب إلا أن أثر التكلم الذاتي يكون دون الأثر الذي يحمله استفهام التعظيم.

- **سياق التقريع في متون الرسائل:**

يمكن أن نعد هذا النوع من الاستفهام أشد الأنواع ارتباطاً بالسياق الحجاجي: فهو يقوم على مبدأ المحاسبة: محاسبة المخاطب على أفعاله، وهو كذلك أسلوب من أساليب الاعتساف على المخاطبين. ويستخدم الاستفهام بهذا المعنى في رسائل الهجاء،أو رسائل الرد على المجادلين المخالفين ، ومنه قوله في رسالة له عن السلطان إلى أخيه العادل وهو بمصر في الرد على مجموعة من الفقهاء:" انتهى إلينا أن بالديار المصرية، وبالحضرة العلية، جماعة من الفقهاء قد اعتضدوا بجماعة من أرباب السيوف، وبسطوا ألسنتهم بالمنكر من القول غير المعروف، وأنشؤوا من العصبية ما أطاعوا فيه القوى الغضبية، وأحيوا بها ما أماته الله من أهل حمية الجاهلية ، والله سبحانه يقول وكفى بقوله حجة على من كان سميعا مطيعا:﴿ واعتصموا بحبل الله جميعا ﴾(١)، وقد نهى عن المجادلة لأهل الخلاف ، فكيف بأهل الوفاق؟....."(٢)، فبعد أن بسط الفاضل الأمر

---

(١) عيون الروضتين في أخبار الدولتين: القسم الثاني – ص٩٨

(١) آل عمران ١٠٣

(٢) عيون الروضتين في أخبار الدولتين – القسم الثاني – ص٢٤٦

بصيغة خبرية أتى بالاستفهام الاستنكاري، و هذا الاستفهام يستخدم بنسبة أكبر في الرسائل الردعية التي يكون مقصدها حمل المخاطب على الإقلاع عن فعل ما، فيكون أسلوباً من أساليب التحقير والاستصغار... غير أن قيمة الاستفهام الدلالية تظل في جعل الرسائل رهينة كفاية المخاطب في قراءة النص وفي تصور صوت المتكلم؛ ذلك لأن هذه القيمة تنتج عن مكونين اثنين: أما المكون الأول فهو دلالة الملفوظ في ذاته؛ أي محتوى القول المصرح به، وأما المكون الثاني فهو الدلالة الناتجة عن طريقة التلفظ بالاستفهام أي التقريع والتحقير، ويمكن أن يحقق الاستفهام في المثال الذي ذكرنا بطريقتين مختلفتين: أما الطريقة الأولى فهي التلفظ بالقول في نغمة تهكمية، ويكون ذلك في لهجة خافتة ونبر هادئ، وأما الطريقة الثانية: فهي التلفظ به مصحوباً بإنكار، ويكون ذلك بلهجة حادة متوترة. ونستخلص من هذه الملاحظة أن استفهام التقريع والتحقير يفقد في المراسلات المكتوبة المعوضة للمحاورات الشفوية حرارة التلفظ الشفوي، ويفقد جزءاً من مقصد المتكلم من محاورة مخاطبه، فإذا كانت الهيمنة على المخاطب مقصدا أساسياً من مقاصد التقريع، فإن تحويل القول الشفوي إلى قول مكتوب يذهب بجزء مهم من هذه الهيمنة، وينقص من قيمة الكلام العملية، وهي القيمة المميزة للاستفهام غير الحقيقي أو الاستفهام الخطابي، وقد أتينا بهذه الشواهد من كلام الفاضل لندلل على هذه الصيغة في الاستعمال السياقي للاستفهام في العصر كله، في صدور الرسائل ومضمونها وخواتيمها، و يمثل الاستفهام في سياق الإنكار أهم أساليب الاستفهام غير الحقيقي في الرسائل، وهو أقواها دلالة على النزعة الحوارية في هذا الجنس من الكتابة، ويصاغ في صدور الرسائل الجوابية، فيكون تعليقاً على ما يرد في الابتداء، فهو مدخل إلى الكتابة في الاعتذار يستعمله لدفع اللوم، أو لتجاهل سبب المعاتبة،ويكون هذا الاستفهام كذلك مدخلاً إلى الرد على الاعتذار يقوي به الكاتب التعبير عن قبول العذر،إلا أن هذا الاستفهام يستعمل كذلك في سياق العتاب فيكون صيغة من صيغ الاختتام، وشكلاً من أشكال الاحتجاج على المخاطب غير المتمسك بقيم الصداقة،وإن هذا النوع من الاستفهام الذي يمثل وجها من الوجوه الأسلوبية في حركة الترسل يبرز لنا مدى تشتت الرسالة التي وصلت إلينا؛ لأن كثيراً من الرسائل التي صدرت باستفهام يفيد الإنكار، أو ختمت به، جاءت أجوبة عن ابتداءات لم تصل إلينا، فغدت حواراً ضاع طرفه الأول.

-دور الاستفهام في ربط أقسام الرسالة:

لقد توخى بعض كتّاب الرسائل في العصر الأيوبي وعلى رأسهم القاضي الفاضل استخدام الاستفهام أداة يربطون بها أقسام الرسالة بعضها ببعض، ويقدمون بها للمقطع السردي في كل قسم من الأقسام: ففي رسالة للقاضي الفاضل في كتاب ورد عليه من السلطان في فتح آمد يقول فيها بعد أن

يذكر الفتح :"... وكان السابق من ولاة الدولة العباسية الأولى ، قاصر السيف عن أن يسغ الغصة بمائه، وأيهم أترك للفراش الممهد ، وأهجر في سبيل الله لراحة ، وأصبر في جهاد عدو الله على مضض جراحه، وأسلى عن ريحانة فؤاده ، وأكثر ممارسة لحية واد، فيختار لهذه الأمة التي جعلها الله لها إماما وأميرا أسعد من أجرى في طاعة ضامرا، وملأ بولائه ضميرا، فمن عدله أن يولي عليها العدل الذي يقر عينها، ومن فضله أن لا ينسى الفضل بينها، وقد ورد ذلك المنشور بآمد....."[١]،وبهذا ينتقل القاضي الفاضل من أمر الفتح إلى تعظيم الفاتح باستفهامات متكررة يروي فيه مناقب صلاح الدين باستفهام يفيد التعظيم والتقدير.

إن هذا النوع من التلفظ في سياق ذكر المناقب يميز بين أدب المناقب غير المرتبط بمقام الترسل، وأدب المناقب المرتبط بهذا المقام، ففي أدب المناقب السردي يكون الممدوح متحدثاً عنه غائباً زمن التلفظ، وأما في مقام الترسل فإن استخدام الاستفهام يجعل الممدوح طرفاً في تواصل حواري، ففي تصدير المدح بالاستفهام ينزع هذا الجنس من أدب المناقب منزعاً إنجازياً؛ ذلك أن المتكلم لا يرمي إلى تخليد المآثر فحسب، ولو كان ذلك لاقتصر على أسلوب السرد، ولكنه يرمي كذلك إلى حمل السامعين على الشكر، وهذا واضح في كثير مما كتب أهل العصر، وإن في تكرار موجبات الشكر في أسلوب استفهام ضرباً من ضروب المبالغة الرامية إلى إظهار عجز المتكلم عن الإحاطة بوصف أفعال الممدوح،ويكون فيها تنويع أدوات الاستفهام ومعانيه من طرائق عقد خطة الرسالة، وتقوية حيوية التواصل في الترسل المكتوب.

لئن اختلفت وجوه استخدام الاستفهام في الرسائل الأدبية وأجناسها الخطابية فإنها تشترك كلها في النزعة الحوارية، فقد جاء قسم كبير منها في أساليب طلبية،وتكاد لا تخلو كلها من الصيغ التي تفيد التعجب أو الالتماس أو النهي أو نحو ذلك من أشكال المخاطبة التي تتجه إلى قارئ محدد،وجاء قسم كبير من الردود آخذا بالاعتبار كلاماً سابقاً، فظهر استفهام الإنكار: إنكار كلام سابق، وطلب تجديد المراسلة، ونحو ذلك.

إن الاستفهام يمثل في صناعة الترسل مجالا من مجالات تصنيع الأجناس الحوارية الشفوية،ومجالات تحويل الحوار إلى جنس من أجناس النثر الفني،ونعني بالتصنيع أن المترسلين يحاكون في محاوراتهم أوضاع التلفظ في الحوار الشفوي، ولكنهم لا يحافظون على خصائص المشافهة في هذا الأسلوب، وهي إيجاز الاستفهام، واستعماله استعمالاً محدوداً في محاورة حقيقية يسهم الطرفان في إنجازها، بل يتخذون من هذا الأسلوب إطارا فنياً لتطوير صناعة الكتابة وطرائق إنشاء خطاب الرسالة،وقد اخترنا الاستفهام؛ لأنه من أهم فنون المعاني التي سعى بها الكتّاب إلى تقوية صلة التخاطب في

---

[١] عيون الروضتين في أخبار الدولتين – القسم الثاني – ص ٩٨

الرسائل، لا بكونه استفهاماً حقيقياً، بل بكونه شكلاً من أشكال إخراج المعاني يعوّض عن الصورة الفنية أحياناً.

ب-أسلوب الأمر :

الأمر من الإنشاء الطلبي، وفيه يقول العلوي :

" صيغة تستدعي الفعل، أو قول ينبئ عن استدعاء الفعل من جهة الغير على جهة الاستعلاء "[1]، وقد يخرج الأمر عن معناه الأصلي، وهو طلب الفعل على وجه الاستعلاء والإلزام إلى معان أخرى تفهم من سياق الكلام مثل الدعاء- وسأفرد له فصلا خاصا؛ لأنه قيمة بارزة من القيم التي اعتمدها كتاب العصر، والالتماس، والتمني، وغيرها من الأغراض المجازية، وهذا الأخير هو الذي نقف عنده في رسائل العصر الأيوبي، وقد أثبت البحث أن كتاب العصر الأيوبي يتخذون صيغتي الأمر:

- فعل الأمر :

تكثر هذه الصيغة في التقاليد الديوانية، وتتعدد أغراضها المجازية رغم أنها أمر تكليف يصدر من الباب العالي بالتنفيذ الفوري، وبالتمعن فيها نجد أنها تحمل بين طياتها معاني النصح والإرشاد، والتحسير، ومثال ذلك القاضي الفاضل في كتاب له عن العاضد بولاية قاض:

" ... فاعرف قدر ما عُدِق بك من أمور دين ودنيا ، وخُدِمَ لا توى عليها إلا بلباس التقوى ، وأنك قد أصبحت لجنات أنعُم أمير المؤمنين رضوانا... وباشر ذلك مستشعرا خشية الله في سرك وجهرك ، متحققا أنه غالب على أمرك ... وأخلص نيتك في خدمة أمير المؤمنين ، فمع الإخلاص الخلاص، وأدِّ له ألأمانة ، لا إن أداءها أطيب القصص يوم القصاص ، وقم في خدمته المقام المحمود ، واستدم بها صعود ركاب السعود ، فقد عرفك الله بركة النصيحة وعوائدها ، وأنجزت لك الآمال المنبسطة مواعدها ، واستشرف أحوال القراء؛ فهم أحق قوم بالتهذيب ، ولزوم أساليب التأديب ..."[2]، ويسير الكتاب على هذا المنوال ،وفي هذا النص توجه الكاتب على لسان الديوان إلى من يتولى صالح الناس في القضاء في موقف إنساني أثار عاطفة المتلقي بمجموعة من الوصايا التي هي بمثابة كعبة يطوف بها ويقدسها، ويعمل على تحقيقها حتى إذا حاد عنها عاد إليها ليحافظ على ثقة أمير المؤمنين فيه، بالإضافة إلى ثقة الناس ، وكانت أول هذه الوصايا التي صاغها في جملة طلبية

---

[1] الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز : ج٣- ص٢٨١

[2] صبح الأعشى في صناعة الإنشا: ج١- ص٣٥٥

(فاعرف)، وهي في مستواها العميق دعوة رقيقة للنصح والإرشاد مصحوبة بالتعليل، والتسويغ، وتوظيف نتاج الخبرة والإحساس بالمسؤولية .

ثم تتوالى الجمل الطلبية: (وأخلص، وأدِّ، وقم، واسترف)، وفيها استمرار للنصيحة المشفوعة بالخبر فاضطلاع القاضي بمهامه وفهمه لكل صغيرة وكبيرة فيها أمر لازم حتى يدرك مسؤولياته كاملة، ولا يلقي بتبعاته على عاتق الآخرين، وكلها بنيات في تركيباتها واجبة على التوالي، وموظفة لخدمة الغرض الأساسي ، وهو أمر أمير المؤمنين بالاهتمام بالثقة التي من أجلها أعده لهذا المقام .

ومنها قوله في ولاية أحدهم :

" ... فتقلد ما قُلّدته من هذه الخدمة ، وارفل بما ضفا عليك من ملابس هذه النعمة ، وبما صفا من موارد هذه الجحملة ، وقدم تقوى الله أمامك ، واتّبع وصيتها التي استعمل الله بها إمامك ، فبها النجاة مضمونة ... واعتمد المساواة بين الناس فيما هو حُكم، والنظر بالعدل في كل ما هو ظلم ... واشمل أهل المدينة بطمأنينة تنيم الأخيار ، وتوقظ الأشرار ،وأنصف المظلوم ، واقمع الظالم، وكن لنفسك زعيما بنجاتها ، فالزعيم لها غارم ، ،أنه عما نهى الله عنه من الفحشاء والمنكر ، وأمر بالمعروف ، وحسبك أن تعرف وتذكر ، وخذ في الحدود بالاعتراف أو الشهادة ..."[١]

ويسير كتاب الدولة الأيوبية على هذا المنوال في الأمر، ولا أرى ضرورة للاستشهاد به لكثرتها .

- **المضارع المقرون بلام الأمر:**

هذه الصيغة من صيغ الأمر، ويخرج فيها الكتاب كثيرا عن معنى الأمر إلى معان أخرى سنلمحها في هذه الرسالة التي يرسلها إلى ابن منقذ يأمره فيها بالسفر إلى المغرب بأمر الملك الناصر صلاح الدين-رحمه الله- يستنصر بملك المغرب يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن لما حصر الفرنج- خذلهم الله - عكا بعد كسرة حطين وفتح بيت المقدس يقول فيها:

" بسم الله الرحمن الرحيم، الأمير الأجل، الاسفهسلار[١] الأصيل، العالم المحترم، شمس الدين....تستخير الله سبحانه، وتتوجه كيفما يسر الله إلى الجهة الإسلامية المغربية، حرس الله جانبها، ونصر كتائبها ومراكبها، وتستقري في الطريق وفي البلاد من أخبار القوم في أحوالهم وآدابهم وأخلاقهم وأفعالهم، وما يحبونه من القول نزره أو جمّه، ومن اللقاء منبسطه أو منقبضه، ومن القعود بمجالسهم مخففة أو مطولة، ومن التحيات المتهاداة بينهم ما صيغته وما موقعه، وهل هي السنن الدينية أو العوائد المملوكية؟

---

[١] صبح الأعشى في صناعة الإنشا: ج١- ص٣٥٩

[١] اسفهسلار: معناه في الأصل مقدم العسكر ، وهو مركب من لفظين : أولهما فارسي وهو (أسفه)، ومعناه المقدم، والثاني تركي، ومعناه العسكر (صبح الأعشى ٦/٦)

ولا تلقه إلا بما يحبه، ولا تخاطبه إلا بما يسره، والكتاب قد نُفّذ إليه ولم يختم لتعلم ما خوطب به.

و المقصود أن تقص القصص عليه من أول وصولنا إلى مصر عليه من أول وصولنا إلى مصر، وما أزلنا من البدع بها، وعطلنا من الإلحاد فيها... وتفصل ما جرى لنا مع الفرنج من الغزوات المتقدمة التي جسنا فيها خلال ديارهم،وجعلها الله تعالى مقدمات لما سبق في علمه من أسباب دمارهم، وما أعقبها من كسرتنا لهم الكسرة الكبرى...

وتذكر ما دخل الثغر من أساطيلنا ثلاث مرات، واختراقها مراكبهم وهي الأكثر، ودخولها بالميرة بحكم السيف الأطهر...

وتذكر أن الله قصم طاغية الألمان، وأخذه أخذة فرعونية بالإغراق في نهر الدنيا الذي هو طريقه إلى الإحراق في نار الآخرة ...

وإن سئل عن المملوكين يوزبا و قراقوش، وذكر ما فعلا في أطراف المغرب بمن معهما من نُفايات الرجال الذين نفتهم مقامات القتال؛ فليعلمهم أن المملوكين ومن معهما ليسوا من وجوه المماليك و الأمراء، ولا من المعدودين في الطواشية والأولياء، وإنما كسدت سوقهما، وتبعهما ألفاف أمثالهما...

إن سئل عن النوبة المصرية وما فعل بجندها؛ فليعلمهم الأمير أن القوم راسلوا الكفار، وأطمعوهم في تسليم الديار، فأشفى الإسلام على أمر شديد، وكاد يقرب على الكفر أمر بعيد ..." [1]، و هي رسالة طويلة اخترت منها ما يناسب الغرض .

يقول الخطيب القزويني:" والأظهر أن صيغة الأمر المقترنة باللام نحو : ليحضر زيد، وغيرها نحو : أكرم عمرا، ورويدا بكرا، موضوعة لطلب الفعل استعلاء لتبادر الذهن عند سماعها إلى ذلك وتوقف ما سواه على القرينة[2].

وقد سقت هذا الرأي للخطيب المقريزي للتدليل على أن الأمر المقترن في هذه الرسالة وغيرها من الرسائل الموجهة من السلطان إلى من هم دونه ؛ يستخدم فيها هذا الأسلوب ،والملاحظ في الرسالة أنه استخدم ثلاث صيغ للأمر ؛ كل يؤدي غرضه ضمن السياق أولها : استخدام المضارع غير المقترن باللام ، وقد حدث ذلك في بداية الرسالة، وذلك بقوله: " تستخير الله سبحانه، وتتوجه كيفما يسر الله إلى الجهة الإسلامية المغربية ... وتستقري في الطريق وفي البلاد من أخبار القوم وأحوالهم..."

واستخدامه للمضارع الذي ينسحب إلى الأمر فيه لفتة ذكية، وهي أنه يحمل معنى الاستعلاء، إلى جانب احترام المتلقي للرسالة، وذلك باستخدامه

---

(1) الروضتين : ج٤- ص١١٢

(2) الإيضاح: ج٢- ص٧٢

صيغة الغائب، وهو بذلك يبرع في استهلاله، ويوجه أوامره بصيغة تحلو لمتلقيه.

وهو يسير بهذه الطريقة لينتقل إلى المضارع المسبوق بأن، وذلك بقوله: " والمقصود أن تقص القصص عليه ... وتفصل ما جرى لنا مع الفرنج من الغزوات..."ويسير مفسرا لكل ما يريد أن يقال للملك المغربي من الأمور، ويعود ثانية للفعل المضارع بقوله : " وتذكر ..."، ونراه قد عدل من صيغة الغائب التي بدأ بها إلى صيغة المستقبل، وكأن المتلقي ماثلا أمامه يحاوره .

وأما الصيغة الثالثة: فهي الصيغة المقترنة باللام، وفيها يبدأ بقوله: " وإن سئل..." وهي صيغة الشرط المقترن جوابه بالفاء ؛ فإنه في الجواب يستعمل المضارع المقترن بلام الأمر بقوله : " فليعلمهم..." وكأنني به في استعماله لهذه الصيغة يخفف من وطأة الأمر المباشر، ويوحي بأنه الأعلى في الوقت نفسه، وهو أسلوب درج عليه القاضي الفاضل ومعاصروه في الكتابة على لسان السلاطين لمن هم دونهم في المنزلة .

وجاء في نسخة تذكرة أنشأها القاضي الفاضل عن السلطان صلاح الدين ، سيرها صحبة الأمير شمس الدين الخطيب : أحد أمراء الدولة الصلاحية إلى أبواب الخلافة ببغداد في خلافة الناصر لدين الله :

" ... فليمطر الأرض هناك عنّا قُبلا تخضّلها ، بأعداد لا نحصّلها ، وليسلّم عليه سلاما نعتدّه من شعائر الدين اللازمة ، وسنن الإسلام القائمة ، وليورد عنا تحية يستنزلها من عند الله تحية مباركة طيبة ، وصلاة تخترق أنوارها الأستار المحجبة ، وليصافح عنا بوجهه صفحة الثرى ، وليستشرف عنا بنظره فقد ظفر بصباح السرى ، وليستلم الأركان الشريفة ، فإن الدين إليها مستند ، وليستدم الملاحظات اللطيفة ، فإن النور منها مستمد ؛ وإذا قضى التسليم وحق اللقاء ، واستدعى الإخلاص جهد الدعاء ، فليَعُدْ وليُعِدْ حوادث ما كانت حديثا يفترى ... وليشرح ما صدرا منها لعله يشرح منا صدرا ، وليوضّح الأحوال المستسرة ، فإن الله لا يعبد سرا ..."[1] وتسير التذكرة على هذا المنوال ، ولعل من المهم التنبيه هنا أن التذكرة لها من القواعد ما يجعل استخدام المضارع المقترن بلام الأمر من ضروراتها أحيانا ، وذلك بحسب المقام ، وقال صاحب مواد البيان في ذلك : " وهذه التذاكر أحامها أحكام الكتب في الفوذ من ألأعلى إلى الأدنى ، وعن الأدنى إلى الأعلى ، فينبغي أن تبنى على ما يحفظ رتب الكاتب والمكتوب إليه"[1] ويمكننا أن نأتي بالكثير من الأدلة على ذلك ، ولكن ما قدمته يكفي للإشارة إلى أنه لابد من تأمل السياق؛ لأنه هو الذي تستمد منه الصيغة دلالتها، فقد ترى التركيب يجري في سياقين ويفيض بمعنيين متباينين .

---

[1] صبح الأعشى في صناعة الإنشا : ١٣/ ٨٥-٨٦

[1] صبح الأعشى في صناعة الإنشا : ١٣/ ٨٤

ج-صيغة الدعاء :

يعد الدعاء من صيغ الأمر الشائعة في النثر العربي، ولاسيما الرسائل، ولكثرة استخدامه في رسائل القاضي الفاضل ومعاصريه؛ أردت أن أعيره ما يستحق من الدراسة، ويمثل الدعاء في النثر القديم عملاً قولياً أساسياً في صناعة الخطاب، وهو من الأعمال القولية الإنشائية التي تبرز فيها آثار المقام، وتحدد صلة المتكلم بالمخاطب اجتماعياً، وتعبر عن آداب التخاطب، وقد ورثت الرسائل الأدبية فن الدعاء عن المحاورات النثرية الشفوية؛ ذلك أن الدعاء يمثل في النثر الشفوي مرحلة وسطى يجاوز فيها لغة الحياة اليومية إلى وضع الجنس البسيط الذي تعبّر عن الصيغة الدعائية المثلية "لا درّ درّك - بالرفاء والبنين - أسخن الله عينه..."، ولكنه لا يرقى إلى الصيغة الإنشائية الكتابية التي نجدها في الأجناس المتطورة مثل الرسائل، و يُستعمل الدعاء في الرسائل الأدبية استعمالين مختلفين: أما الاستعمال الأول فينزع فيه إلى اكتساب صفة الغرض الأدبي، ويبرز ذلك في الرسائل البسيطة التي تكتب بمناسبة حدث ما له صلة بوضع المخاطب وأحواله كالتعزية والتهنئة، ونجد نماذج كثيرة يقتصر فيها كتّابها على الدعاء للمخاطب، وتكون معاني هذا الغرض معبّرة عن تقاليد المخاطبة وآداب التعامل الاجتماعي، ومن ذلك قول القاضي الفاضل من رسالة له:" إن أخذ العبد- أطال الله بقاء المجلس، وثبت رفعته، وبسط بسطته، ومكّن قدرته، وكبت حسدته- في وصف أشواقه إلى الأيام التي كانت قصارا، وأعادت الأيام بعدها طوالا" (1).

أما ثاني الاستعمالين فيكون فيه الدعاء عنصراً من عناصر الرسالة ذا وظيفة بنيوية من جهة، وشكلا من أشكال صناعة المعنى من جهة ثانية، وهو يستخدم في الصدور والمتون والخواتم لتحقيق هاتين الوظيفتين.

-الدعاء في صدور الرسائل وخواتيمها:

عمل مصنفو أدب الكتّاب على تحديد صيغ الدعاء في صدور الرسائل وخواتمها،وعلى تقييدها بقواعد صارمة، وقد تم ذلك منذ أوائل القرن الثالث للهجرة ،ويعد إبراهيم بن المدبّر وسليمان بن وهب (ت ٢٧٢هـ) واضعي النمط الكامل لهذا الفن، وفق مراتب المخاطبين، فقد صنفا المخاطبين ثلاث مراتب، وجعلا لكل مرتبة صيغاً دقيقة تستعمل في مخاطبة أصحابها(2)، بل جعلا لكل غرض من أغراض الرسائل صيغا دعائية دقيقة، تستعمل في كل قسم من أقسام خطاب الرسالة،ولهذه الصيغ وظائف مختلفة نذكر منها وظيفة التلطيف في رسائل شكوى الزمن؛ أي التخفيف من قنوط الكاتب: "وليكن ما

---

(1) القاضي الفاضل – دراسة ونماذج: ص ١٣٢.

(2) انظر الرسالة العذراء ، ضمن رسائل البلغاء – ص ٢٣١

تختم به فصولك في موضع ذكر البلوى: "نسأل الله دفع المحذور، ونسأل الله صرف السوء"[٣]، فالدعاء في هذا المقام يكبح جماح الكتابة، ويفتح باب الأمل في انجلاء الغمة، ويتضح لنا من خلاله أن العبارة الدعائية تتحول في النثر إلى أسلوب من أساليب (محاصرة) دفق الكتابة، به ترسم حدودها داخل ثقافة الكاتب، ويتضح لنا كذلك أن هذا الأسلوب إنما يعمل على تذكير الناثر بصورة الكاتب التي ينبغي ألا يخونها، ونخض به الكتابة الجماعية التي ينبغي أن يستمد منها الكاتب إنشاءه.

واتصلت حركة التأليف في الأدعية عبر عصور النثر الأدبي كلها واتخذت في أدب الكتّاب منذ القرن الرابع للهجرة، فضلاً عن التقعيد والتقنين وجهة تاريخية فلم يقتصر المصنفون على تعديل الصيغ وفق تطور أساليب التخاطب، بل اهتموا كذلك بالتأريخ للأدعية منذ عصر النبوة، ويشمل هذا التاريخ ذكر نشأة الأدعية، وصلتها بالشعر[١]،وذكر دور رجال السياسة في تطويرها،وقد اهتموا بها كذلك بكونها من رسوم الحكم في دواوين الرسائل[٢]، ولعل هذا التقعيد يرجع إلى عوامل اجتماعية و لغوية في آن واحد؛ فقد أدت ظاهرة التوسع في المراسلات، منذ أوائل القرن الثالث للهجرة، إلى تعدد أنواع المخاطبين ومراتبهم، وإن كان جلهم ينتمون إلى الفئات الخاصة، واقتضى هذا التنوع توسعاً في صياغة أدب التخاطب في الرسائل،فقد اقتضى نظاماً من الصيغ يعبر عن المراتبية، ويقتصر به أصحاب دواوين الرسائل على الاستعمال في إطار ما تقتضيه تلك المراتبية، وبذلك تسهم الرسائل في إقرار المراتبية الاجتماعية والثقافية وتثبيتها وإبرازها، ويعبّر استعمال الدعاء بكونه نشاطاً لغوياً اجتماعياً عن إقرار المتخاطبين بهذه المراتبية، وبوضع كل منهما فيها، فهو بهذا كله سنن اجتماعي لغوي،و قد كان تغيير صيغة الدعاء في الرسالة دليلاً أو علامة على تغيير العلاقة المراتبية بين المتكلم والمخاطب، ونذكر مثلاً رسالة كتبها أحمد بن إسماعيل أحد كتاب القرن الثالث في معاتبة صديق له نال رتبة فنقصه[٣] الدعاء: "وليس يحرص النعمة، ويحوطها إلا ترك ما أراك تستعمله في ترتيب المكاتبة، وتمييز المخاطبة، والمُحاصة[٤] في ألفاظ الدعاء؛ فأما إخوانك فليس من حقك أن تحطهم حال رفعتك"[٥]،وقد ولد هذا التغيير في الدعاء كما

---

[٣] المصدر نفسه : ص٢٣٤.
[١] انظر : أدب الكاتب للصولي . ص ١٧٥.
[٢] انظر : رسوم الخلافة للصابي .
[٣] نقصه الدعاء: دعا له بدعاء لا يصلح إلا لمخاطب من رتبة دون رتبته.
[٤] تحاص القوم: اقتسموا حصصا
[٥] جمهرة رسائل العرب : ٣٥٢/٤

نلاحظ، معنى من معاني العتاب خاصاً بالرسائل،تمثل هذا التوسع كذلك في اعتناء واضعي قواعد الدعاء بتدقيق الفروق بين صيغ الأدعية ومعانيها، وفي اهتمامهم بإمكانات التأويل التي تتضمنها الصيغ، يقول ابن المدبر في تفسير سبب اجتناب مخاطبة الأدباء بعضهم بعضا بصيغة (جعلت فداك)،: "كما أنهم جعلوا(أكرمك الله وأبقاك) أحسن منزلة في كتب الظرفاء والأدباء من (جعلت فداك)، على اشتراك معناه، واحتماله أن يكون فداءً له من الشر"[١]. فعبارتا الظرفاء والأدباء تدلان على أن تدقيق الدعاء كان مرتبطاً بمدى حسّ المخاطب اللغوي، وذوقه الأدبي. إلا أن صيغ الدعاء في النصوص التي بين أيدينا في العصرالأيوبي؛ تثبت أن حركة الترسل لم تخضع لهذه القواعد التي تعمل على محاصرة النص دون مراعاة مقتضيات السياق اللغوي الذي يندرج فيه الدعاء، فقد حرص بعض كتّاب أدب الرسائل على التنبيه إلى ضرورة اجتناب الأدعية الجاهزة، وإلى لزوم التصرف في صيغها بما يلائم المقام فقال محمد بن عبد الغفور الكلاعي: "مما يجب على الكاتب أن يتحرى في الدعاء الألفاظ الرائقة، ويتوخى من ذلك ما يناسب الحال و يشاكل المعنى ويوافق المخاطب"[٢].

ولعل هذا التناقض بين ما دعت إليه تعاليم الكتّاب وواقع النصوص يرجع إلى اختلاف في المنظور بين واضعي القواعد وكتّاب الرسائل حيث اطمأن الكتّاب إلى استعمال ما يخالف القواعد؛ لأنهم أدرجوها في أغراض لا تحتمل فيها هذه الصيغة إلا تأويلاً واحداً وهو الدعاء للمخاطب لا عليه.

ولا شك في أن السياق المعنوي الذي تندرج فيه العبارة الدعائية يحول دون فهمها في بعدها السلبي الذي توحي به إذا عزلت عن السياق؛ فالقيمة السياقية للدعاء أو مقتضيات المقام الأدبي هي التي وجت الكتّاب في استعمال هذا الأسلوب، و فيه يظهر الفرق بين قراءة الجملة الدعائية قراءة لغوية مجردة من مقام التلفظ بها، وقراءتها قراءة سياقية.

أما الوجه الثاني من وجوه التصرف فيكون بالاستغناء عن الصيغ الجاهزة، وبتوليد صيغ جديدة من السياق اللغوي الخاص بالرسالة، فيكون الدعاء متين الصلة بها، نابعاً من لغتها، كقول القاضي الفاضل من رسالة له إلى صلاح الدين الأيوبي:"... إلا ما نظر فيه أمير المؤمنين بنور الله من اصطفائك أيها السيد، الأجل الملك الناصر -أدام الله قدرتك- لأن تقوم بخدمته بعده، وتسد في تقدمه جيوشه مسدّه..."[١]، والدعاء بإدامة القدرة للسلطان يستوجبه السياق، وهو في قدرة السلطان على إدارة شؤون الدولة.

---

[١] رسائل البغاء : ص٢٣١

[٢] إحكام صنعة الكلام: ص٨٢.

[١] القاضي الفاضل – دراسة ونماذج: ص ٩٢

إن هذه الصيغ في استخدام الدعاء تقلص من صبغة هذا الفن أو الأسلوب النفعية العملية التي يتسم بها بوصفه شكلا من أشكال الكلام ذي القيمة الإنشائية وتقوى مقابل ذلك قيمته الفنية، فيصبح أسلوباً من أساليب تحسين السياق الأدبي، لم يقتصر الكتّاب على صهر الدعاء في سياقه عبر التوليد اللفظي، بل عمل بعضهم على تقوية هذه الصلة من ناحية المعنى، فجاء الدعاء متضمناً مقصد الرسالة يقول القاضي الفاضل:" ... وقبل الإجابة على الفصول نبشر بما جرت العادة به - لا قطع الله تلك العادة - من سلامة وصحة وعافية شملت موالينا وأولاده السادة، أطاب الله الخبر إليهم عن المولى وإلى المولى عنهم ، وعجل لقاءه ولقاءهم له، فهم بحمد الله بهجة الدنيا وزينتها ، وريحانة الحياة وزهرتها....." [٢]

كان في إدراج الدعاء في صيغته الجاهزة خطة لتوليد معاني خاتمة الرسالة ولو لا نقض هذا الدعاء وإنكار معناه لما استطاع الكاتب صناعة خاتمة الرسالة على النحو الذي أراد، فتقوية المعنى الأدبي تتم إذا بإدراج يفاجئ بما لا ينتظر من صيغ المخاطبة، وإن هذا التنازع بين القواعد الصارمة في كتابة الدعاء والأساليب المجددة لهذه الكتابة هو في ذاته تنازع بين قوانين الجنس الأدبي الذي يتحول إلى مؤسسة ثابتة ومقتضيات الآثار الفردية التي تدفع الكتّاب إلى إظهار آثارهم الخاصة في هذا الجنس الذي يطمس ذاتية المتكلم ويخضعها لرسوم الكتابة المتداولة.

-الدعاء في متون الرسائل:

يدرج الدعاء في متون الرسائل بصيغ مختلفة، ويحقق في خطة الرسالة وظائف متنوعة، فهو يرد ترديداً للصيغة نفسها التي تدرج في الصدر، أو في صيغة قريبة منها، فيكون كاللازمة في مطلع الفقرة، أو في غضونها، ويعمل الدعاء المعترض على دعم المخاطبة والتذكير باتجاه الكلام إلى المخاطب، وتكون له في بعض السياقات الوظيفة نفسها التي يؤديها النداء، على نحو قول القاضي الفاضل من رسالة له إلى السلطان:

" ويريد المملوك بهذا ألا يتغير لمولانا- أبقاه الله – وجه عن بشاشة، ولا صدر عن سعة، ولا لسان عن حسنة...

وكما لم يحدث استمرار النعم لمولانا-عز نصره - بطرا، فلا تحدث له ساعات الامتحان ضجرا، والمملوك يستحسن بيتي حاتم، ومولانا - أبقاه الله،

---

[٢] الروضتين : ج ٣ ص١٢٢

وخلد سلطانه وملكه - يحفظهما..."[1]: ففي هذه الفقرة جدد الكاتب الدعاء للمخاطب، كي يجلب اهتمامه أكثر فأكثر، ويُبرز تخصيصه بالمخاطبة. فهو يؤدي الوظيفة نفسها التي يؤديها قول الخطيب: (أيها الناس) في مستهل كل قسم من أقسام الخطبة. والذي يؤكد أن للدعاء هذه الوظيفة التنبيهية إنما وروده جملة اعتراضية تفصل بن المسند والمسند إليه، تخرج القارئ من نمط في الخطاب إلى نمط آخر قبل أن تكتمل عناصر الجملة، ثم سرعان ما ترده إلى النمط الأول،و يدرج الدعاء كذلك للربط بين فقرات الرسالة، وللتخلص من معنى إلى آخر، فهو يقع في الرسائل ذات المعاني المتعددة موقع الخاتمة الفرعية التي تيسر للكاتب الانتقال من شكل خطابي إلى آخر، وتمكّن القارئ من تجديد نفس القراءة، وتساعد على الخروج من وضع قراءة إلى آخر، وهذا كثير في رسائل أهل العصر ،فالدعاء في سياق الرسالة يتوّج كلام الكاتب في المعاني الحكيمة العامة، وهو كلام تظهر فيه ازدواجية المخاطبة: مخاطبة متقبل الرسالة المعني بها، ومخاطبة عامة القرّاء بمقتضى طبيعة التلفظ في خطاب الحكمة،و يعلن الدعاء بذلك عن فراغ الكاتب من هذه المخاطبة المزدوجة، وعن عودته إلى موضوع الرسالة الأصلي وهو مدح المخاطب، فتختفي مخاطبة عموم القراء، ويصبح التخاطب ثنائياً، وقد يمثل الدعاء في الإيقاع العام للفقرة مقطع وقف أو استراحة، ويؤدي التحميد هذه الوظيفة، فقد كان التحميد في رسائل الشكر والتبشير بالفتوحات والعهود يستخدم الطريقة نفسها التي تستخدم في الخطب ؛ أي في استهلال الخطب، ولكنه تحول في خطط رسائل المدح والاعتذار والشكوى إلى عنصر لاختتام المقطع ، ولتتويج الكتابة ،أو التخلص إلى آخر.

ويمكن للباحث أن يخلص إلى أن الدعاء مثل أسلوبا مميزا لأدب الرسائل في العصر الأيوبي، وهيمن على النثر من دون الشعر، وقد رأينا أن الجمل الدعائية لم تدرج في خطط الرسائل إدراجا يخضع لمنوال واحد، ولم ترصع بها الصدور والمتون والخواتيم على سمت واحد، وإنما خضعت كتابة الدعاء لمقتضيات التخاطب في هذا المقام الأدبي، وتنوعت بتنوع مقاصد الرسائل وأغراضها.

وقد وجدنا أن وظائف الدعاء تختلف باختلاف العلاقات السياقية التي تربط بين الجملة الدعائية وسائر أقسام الرسالة، وباختلاف مراحل التقبل، ونستنتج من مختلف وجوه التصرف في الدعاء ما جاء منها توليدا لفظيا، أو تجاوزا للصيغ المألوفة، أو ما أدرج في خطط الرسائل، أن بين الرسائل الأدبية وأسلوب الدعاء تنازعا أو تناقضا. فقد سعى أصحاب أدب الكتّاب إلى فرض صيغ جاهزة تراعي مراتب المخاطبين لا محالة، ولكنها صيغ لا تهتم بالعلاقة السياقية الخاصة بكل رسالة الدعاء الذي فيها، وإنما تفرض على الكتّاب

---

[1] الروضتين : ج٤- ص١٠٧

مقومات إنشائية عامة، لكون الدعاء تلفظا خاضعا للكاتب كما حددته تعاليم الكتّاب .

سعت الرسائل في العصر الأيوبي إلى التوفيق بين المطلب العائد إلى سنن اجتماعية، والذي يتحقق بجملة من الرسوم الدعائية الجاهزة، ومطلب الأدب، وهو الذي يكسب العبارة قيمة أدبية في سياقها قبل البحث عن وظيفتها الاجتماعية، وهذه الوجوه التي بيناها في التصرف بصيغ الدعاء هي مجال إسهام الرسائل في إضفاء الأدبية على هذا النمط من الكلام، وقد نجح بعض كتّاب العصر - إلى حد ما -في تحويل هذه الصيغ التي يمكن أن تكبل النص إلى أدوات فنية، ولكن مقام الترسل لا يمثل أفضل مقام استغلت فيه إمكانات الدعاء الأدبية ولاسيما عند رأس المذهب في العصر وأعني به القاضي الفاضل .

د-تركيب النداء:

النداء هو طلب إقبال مخاطب بعيد عن تناول المنادى بجسمه أو بروحه أو بعلو شأنه أو لاستحالة الوصول إليه . والبعد -هنا - نسبي يختلف باختلاف الزمان والمكان ومنزلة الإنسان بالنسبة لأخيه الإنسان. وقد يكون مظهرا لخيال الكاتب، وقد يكون المخاطب قريبا من المنادى قربا حسيا أو قربا معنويا .

ومن خلال تتبعي لرسائل القاضي الفاضل وجدته من المقلين في استخدام تركيب النداء، مع أنه من مستلزمات الرسائل، وقد رأيت أنه يعدل عنه إلى تراكيب أخرى ، ويعطي فحوى النداء بأسلوب خبري، ولاسيما في خطابه للسلطان صلاح الدين، أو في خطابه للخليفة العباسي .

وتعد أبرز أدوات النداء التي يستخدمها (يا)، ويكثر من استخدامها في مواطن الشوق والفجيعة، ويستغلها الكتّاب عادة في تجسيد همومهم، ومثل ذلك في قوله من رسالة له إلى بعض مشايخ مكة بعد رجوعه من الحج : " سقى الله الحجاز وحيا كعبته، ويا طول ما ترشقني سهام الشوق الذي أصبح الذكر جعبته، أها على تلك المواقف، وتبا لمن رضي أن يكون مع الخوالف، فريعا ونعمى، وحسنة وحسنى، لمجاوري ذاك الحرم ..."(١)

وهذا النداء الشجي يمثل قيمة الكعبة، وشوقه إليها، وجاء به في صيغة التعجب شوقا إلى تلك الديار المقدسة بعد أن رحل عنها، ويناسب صوت المد فيها ذلك الموقف الذي عبر عنه، فمع التشويق ينقل المد الجوي النفسي للكاتب.

ومن معاصري الفاضل وتلاميذه ابن الأثير الذي يقول من رسالة له على لسان الملك ألأفضل علي يعزي عمه الملك العادل في ولده الذي توفي في سنة ست وستمئة :" فيا عجبا لها فجعت، ثم شاركت في الفجيعة، وهذا من فعلها بديع لم تفعله إلا في هذه الحادثة البديعة، وكذا فليجل الخطب إن كان خطبا جليلا! ... فيا أسفاه على ذلك الغصن الذي ذوى عند إبّان زهره، والهلال الذي

---

(١) الروضتين : ج٣-ص١٧

اعترضـه المحـاق فـي غـرة شـهره، والـسحاب الـذي مـا اسـتتم نـشأه حتـى انحسر!...فما دام ذلك المعدن باقيا فيا كثرة النضار!، ومادامت تلك الدوحة سالمة فيا كثرة الثمار"[1]

هذه النداءات الممتالية تعداد لقيمة واحدة جسدها الكاتب فـي المفقود الذي يمثل لـه الحاضر الجميل، والشباب الدائم، والمعدن النفيس ؛ لذلك يتعجب الكاتب من المنية، ويسخر منها، ويثور عليها كأنها شخص أراد الانتقام منه . كل هذا لينقل الحسرة والأسى إلى أهل المفقود، وليبث فـي النفوس الشعور بعزة المفقود وعظمته.

ويمضي الكاتب في تكثيف مشاعر الحزن والألم بأدة النداء (يا) ؛ ليربط بين أنينه ولوعته وأسفه على المفقود (فيا أسفا)، وبين الصفات التي استعارها له؛ فهو الغصن الوارف الأخضر الذي ذبل، وهو البدر الذي لم يكتمل بعده، وهو السحاب في علو شأنه،وهو السيف الذي لم يخرج من غمده، ثم يحاول فـي النهاية شد أزر الملك العادل المعدن النفيس الذي لا يفنى لأنه الأصل الذي يتفرع منه الأبناء الذين يشبهون الذهب الخالص، والثمار اليانعات (فيا كثرة النضار!، فيا كثرة الثمار!)، والمقصود بهما المعزى الملك العادل . كما يبدو فـي النداء إثارة مشاعر الفخر والإعجاب والتعظيم لبيت الملك العادل.

وقد كرر القاضي الفاضل النداء فـي رسالة له يقول فيها:

" يا مولانا، اعلم أن الله تعالى قد فعل لك ما فعله لنفسه، ودل على لطفه بك كما دل على قدرته، فإنه تعالى خلق الخلق من غير مادة، وأقام السماء بغير عمد، وكذلك فعل الله بك؛ خلقك بغير شبيه فـي الملوك كرما ودينا، وسهّل لك من مصر مالا من غير جهة، وحمى منها بلادا بغير جند، وسكن لك فيها رعية بغير ولاة، فاشكر الله ولا تحقر خدمة من يبيع الأنفاس والنوم والراحة اجتهادا فيما يريحك ويخفف عنك، ثم لا يريد العوض منك، إنما يريده الله عنك ؛ لأن خدمتك طاعة له ... يا مولانا، ليس لك في مصر إلا الثغور، وما عملت في هذه السنة إلا بقدر ثمن حبال ما سُير إليك من الأساطيل . إن الله آخذ بيد الكريم، والمعونة بحسب المؤونة، فليهن المولى العافية من الحساب، فشتان ما حساب من كنز الذهب والفضة ولم ينفقها في سبيل الله، وحساب من قال بيده هكذا وهكذا في سبيل الله..."[1].

والكاتب هنا يأخذ دور الناصح المواسي لبطله العظيم، وهو يرتب له بالديار المصرية أمور السلطان من تجهيز العساكر، وتعمير الأسطول، وحمل المال ، ونقل المير إلى عكا، والسلطان يكاتبه في مهماته، وترجع أجوبته بأحسن عباراته، مشيرا وناصحا ومسليا، وباحثا عن مصالح الإسلام متقصيا،

---

[1] رسائل ضياء الدين بن الأثير : ص ١٩٤.

[1] الروضتين : ٣-٤٣ص١٠٥

وقد استعمل تركيب النداء بقوله: (يا مولاي) عند بداية كل فقرة من فقرات الرسالة، ليبدأ بعدها النصح والتسلية، وليخفف عنه أعباء السلطان، وهو أسلوب اتبعه غير مرة حين يأخذ دور الوزير الناصح المستأمن، والذي أحبه مولاه حبا لا يدانيه حب .

وثمة حالتان لأسلوب النداء بألفاظه وموسيقاه برع بهما ابن الأثير، وقد جسد فيهما فجيعة الموت، و هما :

نداء الندبة، وأكثر ما يستعمل هذا الأسلوب مصدرا بلفظ (وا) . يقول ابن الأثير:

" ثم نتبع ذلك بطلب الجنة لمن نقلته المنايا عن أرائك الخدور، وجعلته في بطون القبور، ولمن فاجأت الأيام غصنه فقصفته، ولم يعش حتى عرف الدنيا ولا عرفته، فواها لهما وقد نزلا بمنزل عديم الإيناس! " (٢) .

كان الكاتب قد تلقى رسالة تعزية في وفاة أم وابنها الغصن الأخضر الذي لم يدرك الحياة بعد، ويصف حياتهما قبل الوفاة؛ حيث رغد العيش وترف الحياة، وحياتهما بعد الوفاة؛ حيث الجفاء والحرمان؛ لذلك يدعو لهما بنعيم الجنة يعوضهما. ونلاحظ أن النداء بـ(وا) وما يصاحبه من امتداد صوتي يتناسب والصراخ والعويل، كما يتناسب مع المنادى الذي أصبح بجسمه بعيدا، ولعل الكاتب بهذا المد يحاول أن يستثير المتلقي تجاه الفاجعة كي يشارك أهلها أحزانهم.

وأما الحالة الثانية فهي النداء وقت نزول الكارثة، ويسمى الاستغاثة، ومثال ذلك قول ابن الأثير في رسالة للملك الأشرف عند نزول العدو الخوارزمي على مدينة خلاط على وجه الإنذار والتحذير:

"وقد أرسل المملوك كتابه هذا كرجل ثائر الرأس، وأول ما ينطق به أن يقول: يا أيها الناس إن الناس، ومن شأن مرسله أن يأخذ بالخبر النبوي فيما يحله ويعقده، وأن يماثل بينه وبين المعنى الذي يصوغه والغرض الذي يقصده!، ولما بلغ النبي -ﷺ -الدعوة صعد الصفا وقال : يا صباحاه! فاجتمع إليه الناس، فقال : أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا تغير عليكم من هذا الوادي؛ أكنتم مصدقيّ . قالوا : نعم . قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد . والمملوك يمد يديه بالإنذار حتى ينبسط جناحاه، ويقول : يا صباحاه، يا صباحا، يا صباحا! وهو نذير للبيت العادلي بين يدي عدو ذر أمر شارقه، وحمل سيفه على عاتقه، وسبق فأيد عزمه بسابقه، ولا حساب عنده للعوائق حتى يلبث دون عائقه. فالبدار البدار والنفار النفار، وإلا فالفرار الفرار و العثار العثار"(١).

من واقع إحساس الكاتب بواجبه تجاه أهله وبلاده ودينه اعتمد على النداء المتكرر الذي جسده بين الاستغاثة والإنذار، وهاتان قيمتان تدلان على

---

(٢) رسائل ضياء الدين بن الأثير : ج٢ – ص٢٩

(١) رسائل ضياء الدين بن الأثير : ص ٢٨.

نزوع داخلي من الكاتب في الحرص على حرية بلاده، وضمان مستقبلها؛ وذلك بتكاتف أهلها مع القائد الذي يتولى الأمر فيها، ولعل قوله: " يا أيها الناس " يوقظ في الجميع الإحساس بالمسؤولية فينبروا للتصدي للعدو قبل أن يستفحل أمره ويتوغل فيهم. وهنا نلاحظ أن الكاتب اعتمد في الغالب على النداء بالجملة الاسمية " يا صباحاه! "، وكأنه يستحضر صورة النبي ﷺ عندما نادى في قومه يهديهم إلى حياة مشرقة بعيدة عن ضلال الشرك والوثنية.

ومن الأغراض البلاغية لأسلوب النداء عند ابن الأثير التي تميّز بها عن أستاذه ومعاصريه إبراز روح السخرية والاستهزاء، وذلك على لسان الأزهار والطيور، وذلك في قول السحابة للحمام:

" يا ذوات البكاء والنوح، المفتخرات على الأيك والدوح . ألستم الباكين بغير جوى، الشاكين بغير هوى ؟ "[1].

وقول الشمس للسحاب :

" وشيمتك أيتها الغمامة البكاء من غير حزن ، والحنين من غير فراق إلف ولا سكن لكن أنا عروس الفلك"[2].

وقول البنفسج لزهرة البدو:

" أيتها الساكنة مسكن الشيح والقيصوم التي لا يعلم لها مقام في المفاخرة حتى يقال : وما منا إلا له مقام معلوم"[3].

واضح أن للخيال نصيبا كبيرا في رسائل ابن الأثير، فهو لا يقتصر في ندائه على العاقل، بل ينادي كل عنصر بذاته ينادي الطير والأزهار، والقلم والسيف كل ما يحيط به ويتصل بحياته، وبهذا يحاول عن طريق الخيال إدراك ما لا يمكن إدراكه في الواقع. ومما تقدم يتبين أن الإنشاء الأدبي في رسائل القاضي الفاضل ومعاصريه لا يقصد دائما مجرد معناه اللغوي، وإنما يقصد به ما وراءه من دلالات شعورية وإيحاءات عميقة مرجعها الشعور المسيطر على الكاتب في الموقف الذي تنشأ به الرسالة.

الفصل الثامن: التقليد والابتكار في الشكل والمضمون في رسائله:

إن من أهم معايير تقييم الأعمال الفنية معيار التقليد والابتكار ؛ ولذلك فإنني اخترته لدراسة قضية الشكل والمضمون ، وكان من أهم أسباب اختياري لهذا المعيار من بين معايير النقد الفني؛ أنه يمكن بواسطته الفصل في القضية التي اختلف فيها النقاد والباحثون حول كتابة القاضي الفاضل؛ حيث إن

---

[1] رسائل ضياء الدين بن الأثير – رسالة الأزهار – ص ١١

[2] المصدر نفسه – ص١١

[3] المصدر نفسه : ص٩

فريقا منهم ذهب إلى أنه صاحب طريقة كتابية خاصة في النثر الفني ، ومن بين هؤلاء الدكتور أحمد أحمد بدوي الذي يقول في حقه:" ثم أخذ نفسه بإتقان فن الكتابة على الطريقة الشائعة في عصره، حتى اختط لنفسه طريقة عرفت وامتاز بها في زمنه وما تلاه من الأزمان"[١] ؛ بينما ذهب الفريق الآخر إلى أنه لم يكن إلا مقلدا لمن سبقوه، ومن بين أنصار هذا الفريق الدكتور محمد كامل حسين الذي قال عن القاضي الفاضل: " وما القاضي الفاضل إلا أحد تلاميذ كتاب الفاطميين، وبهم تخرج، والعجيب حقا أن أرى بعض الزملاء يتوهم أن للقاضي الفاضل مذهبا خاصا عرف به في الكتابة، وأن له مدرسة تتميز بخصائصها وطرائقها عن مدرسة الكتاب الفاطميين"[٢]، ولعل من المناسب أمام هذين الرأيين أن أوضح جوانب التقليد والابتكار في كتابة القاضي الفاضل الفنية، وسيكون ذلك من خلال بيان خصائص الطريقة الفاضلية الفنية التي سار عليها، وبيان مدى ملاءمتها للمعاني التي أراد التعبير عنها. أما آراء النقاد والباحثين في طريقته الكتابية ومواقفه منها فإنني سأفرد لها بابا خاصا.

١-التقليد:

مرّ القاضي الفاضل كغيره من الكتاب بمراحل متلاحقة حتى وصل إلى النضج النهائي، وقد غلب عليه جانب التقليد في الشكل والمضمون معا في الكتابة الديوانية التي كتبها في شبابه ؛ وذلك في ديوان الدولة الفاطمية، ويرجع التقليد في كتابته في تلك المرحلة لسببين هما:

أولا- كونه في مرحلة تكوينه الأدبي؛ مما فرض عليه الاقتداء بأساتذته حتى يثبت لهم جدارته بتقلد منصب أعلى من منصبه وهو ما كان يشغله آنذاك في ديوان الإنشاء، وقد نجح في تحقيق هدفه؛ لأنه أصبح فيما بعد رئيسا لديوان الإنشاء .

ثانيا- اتخاذ الخلفاء الفاطميين كتّاب الإنشاء وسائل لنشر مذهبهم الشيعي بين الناس عن طريق من يسندون إليهم المناصب السياسية أو العسكرية أو الدينية ، وجرى الخلفاء الفاطميون على إثبات أحقيتهم بالخلافة من العباسيين اعتمادا على هؤلاء الكتّاب، كما اعتمدوا عليهم في إظهار غنى دولتهم وبذخ خلفائهم؛

---

[١] أسس النقد الأدبي عند العرب : ص ٣٦٨-٤٥٠

[٢] في أدب مصر الفاطمية: ص ٣٢٢

لذلك دار كل كتّاب الإنشاء في هذا العصر -ومن بينهم القاضي الفاضل -في فلك واحد؛ ويظهر ذلك من تضمينهم كتاباتهم أفكارا تكاد تكون واحدة، مما جعل آثار العقيدة الفاطمية تظهر بوضوح في كتاباتهم؛ فكل رسالة لا بدأن تشتمل في البدء على حمد الله، والصلاة على النبي والوصي والأئمة من آل البيت، ولا بد من الإعلان أن الخلفاء الفاطميين حفدة النبي ﷺ، ويجب أن تشتمل هذه الرسائل على الدعاء للوصي علي- كرم الله وجهه- والأئمة العاملين برضاء الله وكأنهم بذلك يردون على العباسيين الذين ينكرون أحقية الفاطميين بالخلافة، وسوف أكتفي للتدليل على توافر هذه الأفكار في كتابات القاضي الفاضل بنصوص عدة من سجلات كتبها على لسان العاضد:

جاء في عهد أسد الدين شيركوه بالوزارة الذي كتبه القاضي الفاضل على لسان العاضد:" من عبد الله ووليه عبد الله أبي محمد الإمام العاضد لدين الله أمير المؤمنين إلى السيد الأجل الملك المنصور ... أبي الحارث شيركوه... والحمد لله الذي اختار أمير المؤمنين لأن يقوم في أمته مقامه... يحمده أمير المؤمنين على ما حباه من التأييد الذي ظهر فبهر، وانتشر فعم نفعه البشر، وإظهار الذي اشترك فيه جنود السماء والأرض... و يسأله أن يصلي على سيدنا محمد الأمين... وعلى أبينا وأخيه وابن عمه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ناصر شريعته وقسيمه في النسب، ويد الحق التي حكم لها في كل طالب بالغلب، وعلى الأئمة من ذريتهما وسائط الحكم، ومصابيح الظلم، مفاتيح النعم، والمخفقين دعوى من باهاهم وفاخر، والباذلين جهدهم في جهاد من اتخذ من دون الله إلها آخر، وسلم وردد ، ووالى وجدد"[١]

وجاء في عهد صلاح الدين بالوزارة الذي كتبه القاضي الفاضل أيضا على لسان العاضد:" من عبد الله ووليه عبد الله أبي محمد الإمام العاضد لدين الله أمير المؤمنين إلى السيد الأجل... والحمد لله الذي اختار لأمير المؤمنين ودله على مكان الاختيار، وأغناه باقتضاب الإلهام عن روية الاختيار، وعضد به الدين الذي ارتضاه ، وعضده بمن ارتضاه... والحمد لله الذي أتمّ بأمير المؤمنين نعمة الإرشاد، وجعله أولى من للخلق ساد، وللحق شاد، وآثره بالمقام الذي لا ينبغي إلا له في عصره، وأظهر له من معجزات نصره ما لا يستقل العدد بحصره، وجمع لمن والاه بين رفع قدره ووضع أصره، وجعل الإمامة محفوظة في عقبه... وأقامه للدين عاضدا، فأصبح به معتضدا، وحفظ به مقام جده وإن رغم المستكبرون...يحمده أمير المؤمنين علي بن أبي طالب الذي جادلت يده بلسان ذي الفقار ... وعلى الأئمة من ذريتهما الذين أذل الله بعزتهم أهل الإلحاد وأصفى بما سفكوه من موارد الرشاد، وجرت أيديهم وألسنتهم بأقوات القلوب، وأرزاق العباد، وسلم، ومجد، ووالى وجدد"[٢]

---

[١] صبح الأعشى: ج١٠ – ص٨٠- ٨٣

[٢] المصدر نفسه: ج١٠- ص٩١-٩٢

ومنها سجل كتبه القاضي الفاضل عن العاضد بولاية قاض من قضاته:
" من عبد الله ووليه أبي محمد عبد الله الإمام العاضد لدين الله أمير المؤمنين إلى القاضي المؤتمن الأمين علم الدين... سلام عليك فإن أمير المؤمنين يحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، ويسأله أن يصلي على جد سيد ولد آدم... صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين وعلى أمراء المؤمنين ووال وجدد وعظم ومجد وكرر وردد"(١)

ومنها سجل بولاية قاض في ثغر الاسكندرية من إنشائه أيضا يقول فيه:
من عبد الله ووليه... يحمده أمير المؤمنين أن أفاض عليه أنواره البهية، وتعبد البرية بأن جعلها بطاعته مأمورة وعن مخالفته منهية، واستخلف منه على الخلافة القوي الأمين، وآتاه ما لم يؤت أحدا من العالمين، ويسأله أن يصلي على جده الذي عم إرساله بالرحمة(٢) وكشف بمبعثه كل غمة وجعل شرعه خير شرع وأمته خير أمة... وعلى أبينا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب الذي وفر الله نصيبه من العلم والحكمة وجعل خلافته في أرضه لا تخرج عن ذريته الهداة الأئمة، وعلى ألهما الأطهار و عترتهما السادة الأبرار الذين ولاؤهم يحظى بالجنة ومحبتهم تنجي من النار وسلم عليهم أجمعين... وإن أمير المؤمنين لما أفرده الله من المآثر، وتوحده به من المناقب والمفاخر، وخصه بشرفه من الإحسان إلى أوليائه بالإنعام إليهم في الدنيا والشفاعة لهم في الآخرة، يرتاد لجلائل الخدم من يشار إليه"(٣)

لا يخفى على قارئ هذه النصوص الأربعة أنها متشابهة شكلا ومضمونا، وفيها من العبارات المكرر أيضا؛ وذلك من مثل افتتاحية كل عهد من هذه العهود، والتي تتضمن اسم الخليفة ولقبه وكنيته، واسم من يكتب له العهد ولقبه وكنيته، والصفات الكثيرة التي يصف فيها الخليفة والمعهود إليه، ومثل العبارة التي تتضمن سؤال الخليفة لله تعالى أن يصلي على جدهم سيدنا محمد، وأبيهم الإمام علي، ومثل العبارة التي يختم بها الدعاء للنبي وأمته، هذا بالإضافة إلى المعاني التي يكررها في رسائله هذه، والتي تتضمن شكر الخليفة لله على ما أفاضه عليه من النعم الكثيرة ، ووجوب طاعة الرعية له وقوة خلافته واتساعها، وما أراد الكاتب من وراء هذا الشكر إلا استعراض قوة الخلافة حتى يدخل الرهبة في نفوس مناوئيه، والرغبة في نفوس مواليه. وهذا التكرار في رسائل الفاضل يجعلنا لا نسلم بما جاء على لسان معاصريه، في أنه لم يكرر في رسائله عبارة أو لفظا، وهذا ما قاله صاحب الروضتين:" أنه لم يكن يكرر في رسائله

---

(١) صبح الأعشى: ج١٠، ص٣٤٣
(٢) المصدر نفسه: ج١٠ ، ص٣٤٣
(٣) و الصواب: عمّت الرحمة بإرساله، وذلك جريا وراء السجع.

ما سبق أن استعمله؛ فما كرر دعاء في مكاتبة، ولا ردد لفظا في مخاطبة، بل تأتي فصوله مبتكرة مبتدعة"[١]

ولا أستغرب تلك الصفات التي وصف بها معاصرو القاضي الفاضل كتاباته على سبيل الإعجاب، والتي تؤكدها كثرة المدائح التي مدحت بها هذه الكتابات، وأسباب ذلك كثيرة من أهمها: علو مكانته، ومنزلته بين كتاب عصره، ولا يخلو عصر من عصورنا القديمة من التزلف للكبار.

أما السبب الثاني فهو تقليده لأساتذته، ويمكن الوقوف على تقليده لأساتذته من خلال كتاباتهم، فقد جاء في إحدى رسائل ابن قادوس الديوانية:"... وصلى الله على جدنا محمد الذي لبى وأحرم، وبين ما أحلّ الله وحرّم وعلى أخيه أبينا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب الذي ضرب وكبر، وحقر من طغى وتجبر، وعلى الأئمة من ذريتهما أعلام الدين، وحتوف المعتدين، وسلم وكرم وشرف وعظم..."[٢]وجاء في العهد الذي كتبه ابن الخلال لشاور بالوزارة على لسان العاضد: " من عبد الله ووليه عبد الله أبي محمد العاضد لدين الله أمير المؤمنين إلى السيد الأجل... سلام عليك...فإن أمير المؤمنين يحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، ويسأله أن يصلي على جده محمد خاتم النبيين وإمام المرسلين، ﷺ، وعلى آله الطاهرين الأئمة المهديين وسلم تسليما ... والحمد لله الذي استثمر من دوحة النبوة الأئمة الهادين، و أقامهم أعلاما مرشدة في محجة الدين، يحمده أمير المؤمنين على نعمة الله التي جعلته للبشر إماما،أمضت له في المشارق والمغارب أوامر وأحكاما، وجرد من عزمه في حياطة دين الله عضبا مرهفا وجساما... ويسأله أن يصلي على جده محمد خاتم النبيين... وعلى أخيه وابن عمه أبينا علي ابن أبي طالب سيف الله الذي شهره على الكفر وسله، وكفله إعزازا لدين، فأعظمه بجهاده وأجله"[١]

إن المتأمل في رسالة ابن قادوس يرى أثر المذهب الشيعي فيها، وهذا ما رأيناه عند تلميذه القاضي الفاضل، بل نلاحظ تكرار بعض العبارات التي تتضمن الصلاة على النبي محمد ووصفه بأنه جدهم، وعلى الإمام علي بوصفه أخا للنبي وأبا الفاطميين وجدهم، وعلى الأئمة من ذريتهما، ووصفهم بأوصاف تعكس قوتهم وانتصارهم على أعدائهم، ومن أمثلة التشابه في الفكرة، بين ابن قادوس وتلميذه القاضي الفاضل ما جاء في العبارة التي يختم بها كل منهما الصلاة على النبي والإمام علي والأئمة تلك العبارة التي تتضمن أدعية عدة متوالية في صيغة فعل أمر يقصد الدعاء.

[١] الروضتين: ج٢- ص ٢٤٢
[٢] المصدر نفسه : ج٢- ص ٢٤٢

[١] صبح الأعشى في صناعة الإنشا: ج١٠- ص ٣١٠-٣١٢

ويلاحظ في نصّ ابن الخلال التشابه الشديد بين فكرته وفكرة تلميذه القاضي الفاضل، ذلك التشابه الذي وصل في بعض المواضع إلى حد التكرار ولاسيما ما جاء في العبارة يفتتح بها كل منهما العهد، والتي تتضمن اسم الخليفة ولقبه وكنيته واسم من يوجه إليه العهد ولقبه والدعاء لهما، والعبارة التي تتضمن الصلاة على النبي بوصفه جد الخليفة الفاطمي والأئمة الطاهرين، والإشارة إلى نسبة الفاطميين إلى النبي ﷺ، والتنويه بقوتهم انتشار مذهبهم واتساع دولتهم، وقد قلد القاضي الفاضل أساتذته كتاب الدولة الفاطمية أيضا في وصف موكب الخليفة الفاطمي في عيد النحر أو عيد الفطر أو في أية مناسبة غير ذلك من المناسبات التي اعتاد الفاطميون الخروج فيها على الرعية في زينتهم[٢] ، مثل: وصف نهر النيل ، ولاسيما وقت زيارته.

٢- التجديد :

إن من كتب القاضي الفاضل ما كان مقلدا فيه في المضمون، ومجددا في الشكل، و من ذلك:

-وصف الكواكب والمجرات وتباشير الصباح:

جاء عند النويري برهان ما ذهبت إليه من أن القاضي الفاضل كان مجددا في هذا الجانب ؛ لأنه هو الوحيد الذي وصف الكواكب والمجرات نثرا من بين أدباء عدة تناولوا هذا الموضوع وشعرا ؛ وذلك حيث أورد تحت عنوان: (ذكر ما قيل في وصف الكواكب وتشبيهها) عددا كبيرا من أبيات الشعر لشعراء عدة في هذا الموضوع بلغ عددها الثمانية والأربعين بيتا، ولم يذكر شيئا مما قيل في هذا الموضوع نثرا إلا فصلا من رسالة للقاضي الفاضل [١].

أما وصف تباشير الصباح فدليل تجديد القاضي الفاضل فيها قد جاء أيضا في (نهاية الأرب) ، ولكن تحت عنوان: (ومما قيل في تباشير الصباح)؛ وذلك حيث ذكر النويري تحت هذا العنوان ثلاثة وثلاثين بيتا من الشعر تدور حول هذا الموضوع، ولم يذكر من النثر في الموضوع نفسه إلا فصلا من رسالة للقاضي الفاضل[٢].

١-ولم يثبت البحث أن هناك كتّابا تناولوا هذا الموضوع أو الموضوع السابق قبل القاضي الفاضل، ولعل هذا ما جعل النويري لا يذكر عند استشهاده نثرا

---

[٢] الفاضل من إنشاء القاضي الفاضل: ص٦٥-١٥٦

[١] نهاية الأرب في فنون الأدب : ج١ ، ص ١٦٢-١٧٠
[٢] المصدر نفسه: ج١ ، ص١٤٣-١٤٦

على هذا الموضوع أو سابقه إلا ما كتبه القاضي الفاضل في هذين الغرضين، ويؤكد هذه الفكرة ما أورده على ابن ظافر الأزدي في كتابه: (غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات) ؛ حيث إنه لم يورد حول تباشير الصباح ووصف المجرات والكواكب فصلا واحدا نثرا، بل جاء كل ما أثبتته من كتابات الأدباء حولهما شعرا، وقد عددت كتابات القاضي الفاضل في هذه الموضوعات مما كان فيه الرجل مقلدا من ناحية ومجددا من ناحية أخرى ؛ لأن كلا من سمة التجديد والتقليد ظاهر بوضوح في هذه الكتابات.

أما ما يتعلق بسمة التجديد فيؤكدها أن القاضي الفاضل أول من تناولوا المعاني الشعرية بأسلوب نثري كما ذكرنا، وقد لاحظ ذلك بعض الباحثين المحدثين[١]

أما ما يتعلق بسمة التقليد في هذه الكتابة فيوضحها اعتماد القاضي الفاضل على معاني الشعراء وصورهم التي سبقوه بذكرها في هذا الموضوع، ودفعا للإطالة سأقتصر على إثبات سمة التقليد عنده فيما كتبه في موضوع وصف الكواكب والمجرات.

قال القاضي الفاضل واصفا الكواكب والمجرات:" سرنا وروضة السماء فيها من الزهر ظهر، ومن المجرة نهر، والليل كالبنفسج تخلله من النجوم أقاح، أو كالزنج شعلة من الرمح جراح، والكواكب سائرات المواكب، لا معرس لها دون الصباح، وسهيل كالظمآن تدلى إلى الأرض ليشرب، أو الكريم أنف من المقام بدار الذل فتغرب، فكأنه قبس تتلاعب به الرياح، أو زينة قدمها بين يدي الصباح، أو ناظر يغضه الغيظ ويفتحه، أو صديق لجماعة الكواكب، أو رقيب على الكواكب مواكب، أو فارس يحمي الأعقاب، أو راع به إليها، وقد شردت عن الصحاب، والجوزاء كالسرادق المضروب، أو الهودج المنصوب، أو الشجرة المنورة، الحبر المصورة، والثريا قد همّ عنقودها أن يتدلى وجيش الليل قد همّ أن يتولى..." [٢]

وأبين كيف اتكأ القاضي الفاضل على تشبيهات من سبقوه من الشعراء في هذا النص، فنجده قد شبه السماء بالروضة، والكواكب بالزهر، والمجرة بالنهر، والليل بالبنفسج، والنجوم بالأقاح، وقد سبقه إلى هذه التشبيهات شعراء عدة منهم ابن المعتز الذي شبه السماء بالروضة، والنجوم بالأقاح في قوله:

كأن سماءها لما تجلت ... خلال نجومها عند الصباح
رياض بنفسج خضل نداه ... تفتح فيه نوار الأقاحي [١]

---

[١] الدكتور أحمد الحوفي ، والدكتور بدوي طبانة في تقديمهما لكتاب (المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر) – انظر المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ج ١ ص٢٠.

[٢] نهاية الأرب في فنون الأدب: ج١ ص ١٧٠

[١] كأن سهيلا شخص ظمآن جانح ... من الليل في نهر من الماء يكرع

وابن الحجاج [٢] الذي شبه المجرة بالنهر، في قوله:

هذه المجرة والنجوم كأنها   نهر تدفق في حديقة نرجس [٣]

ومن الشعراء الذين شبهوا المجرة بالنهر أيضا قبل القاضي الفاضل المهذب ابن الزبير[٤] حيث يقول:

وترى المجرة والنجوم كأنها   تسقي الرياض بجدول ملآن
لو لم يكن نهر لما عامت به   أبدا نجوم الحوت والسرطان[٥]

ومن الصور التي جاءت في هذا النص تشبيه القاضي الفاضل لسهيل بعدة أشياء منها تشبيهه إياه بالظمآن الذي تدلى إلى الأرض ليشرب، وقد سبقه إلى تشبيه سهيل بهذه الصورة البحتري، وذلك حيث يقول:

كن سهيلا شخص ظمآن جانح   من الليل في نهر من الماء يكرع[٦]

ومما سبق إليه القاضي الفاضل تشبيهه سهيلا بالفارس، و سبقه إلى هذا التشبيه أبو العلاء المعري حيث قال :

وسهيل كوجنة الحب في اللو   ن وقلب المحب في الخفقان
مستبدا كأنه الفارس المعـ   ـلم يبدو معارض الفرسان[٧]

ومما شبه به القاضي الفاضل (سهيلا) به الرقيب، وقد سبقه إلى هذا التشبيه ابن المعتز حيث قال في وصف سهيل:

وقد لاح للساري سهيل كأنه   على كل نجم في السماء رقيب [١]

ومما شبه القاضي الفاضل سهيلا به أيضا الراعي ، وقد سبقه إلى هذا التشبيه الشريف ابن طباطبا [٢] ، وذلك حيث يقول:

كأن سهيلا والنجوم أمامه   يعارضها راع أمام قطيع[٣]

ومن الكواكب التي ورد ذكرها في نص القاضي الفاضل (الثريا) التي شبهها بالعنقود، فقد سبقه إلى تشبيهها هذا ابن المعتز حيث يقول في وصفها هي والهلال:

يتلو الثريا كفاغر شره   يفتح فاه لأكل عنقود[٤]

-غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات، ص٤٣

[٢] من شعراء بغداد في القرن الرابع الهجري

[٣] غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات : ص ٥

[٤] شاعر مصري من شعراء القرن الخامس ، وأوائل السادس في عصر الفاطميين.

[٥] غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات : ص ٥٣

[٦] نهاية الأرب في فنون الأدب : ج١ – ص ٦٩

[٧] المصدر نفسه: ج١ ص٦٩

[١] ديوان ابن المعتز : ص ٧٩

[٢] توفي سنة ٣٥٢ هـ على وفق رواية المغرب وسنة ٣٤٥ على وفق رواية ابن خلكان

[٣] . غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات، ص٤٣

[٤] المصدر نفسه: ص٢٠

وأما تشبيهه ظلمة الليل حين يجلوها الصباح بالجيش المنهزم أمام جيش آخر، والذي جاء في نص القاضي الفاضل، فقد سبقه إليه الحاتمي[٥] في قوله:

وليل أقمنا فيه نعمل كأسنا إلى أن بدا للصبح في الجو عسكر[٦]

وممن سبقه أيضا ابن تمار الواسطي الذي يقول:

أما ترى الليل قد ولت عساكره مهزومة وجيوش الصبح في الطلب[٧]

ويمكن تفسير السبب الذي ساعد القاضي الفاضل على كثرة اعتماده على معاني الشعراء الذين سبقوه وصورهم بالرجوع إلى الطريقة التي سلكها معه أستاذه ابن الخلال عندما كان يدربه على فن الكتابة، تلك الطريقة التي كان من أهم أسسها نثر الشعر، وسآتي على هذا الموضوع بشيء من التفصيل..

-وصف معارك صلاح الدين مع الصليبيين :

ويدخل في ذلك وصف الحروب التي وقعت بين صلاح الدين مع الصليبيين، وماله من صلة وثيقة بها مثل وصف الجيوش وآلات الحرب والقلاع والحصون وحصارها وهدمها، والفتوح والتبشير بها وطلب النجدة واستعجالها، والدعوة للقتال والحض عليه. ونظرا لارتباط هذه الموضوعات ببعضها ارتباطا وثيقا فإن الحديث عنها عند القاضي الفاضل غالبا ما كان يأتي خلال رسائل التبشير والتهنئة بفتح البلدان التي تكون في قبضة الصليبيين؛ لأن الفتح كان لا يتم في كثير من الحالات إلا بعد خوض للمعارك وهدم للحصون وجندلة للأبطال، ولم تختلف رسائله التي كان يكتبها في هذه المناسبات عن قصائد المدح التي يكتبها الشعراء في مثل هذه المناسبات، حيث إنها تضمنت إلى جانب مدح صلاح الدين ووصفه بالشجاعة، وجنوده المثل والحكمة والاستشهاد بالآية والحديث والاقتباس منهما،وقد شبه الدكتور عبد اللطيف حمزة هذه الرسائل بأنشودة النصر التي يعبر بها الكاتب عن مشاعر الجماهير تعبيرا صادقا حيث قال: " إن هذه الرسالة الديوانية كانت تشبه من قريب أو بعيد أنشودة النصر التي يعبر بها الكاتب عن مشاعر الجماهير، فلا بدأن يكون تعبيرا قويا مفعما بالحياة"[١]، ومن أشهر هذه الفتوح التي لاقت تبشيرا بها فتح بيت المقدس الذي كتب

---

(٥) هو أبو علي محمد بن الحسن ، توفي سنة ٣٨٨هـ.
(٦) غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات: ص٣٥
(٧) المصدر نفسه: ص٢٧.
(١) الأدب المصري من قيام الدولة الأيوبية إلى مجيء الحملة الفرنسية : ص١٨٠

القاضي الفاضل في التبشير به رسائل عدة ، من أشهرها تلك التي كتبها على لسان صلاح الدين إلى الخليفة العباسي ببغداد[٢]، والتي أطلق عليها لشهرتها (الرسالة المقدسية)[٣]، وقد تضمنت هذه الرسالة شأن غيرها من رسائل التبشير بالفتوح وصفا مسهبا لجيش صلاح الدين وآلاته التي استخدمها في دك حصون الفرنج، وما لاقاه هؤلاء الفرنج من مُر الهزيمة على يد صلاح الدين ورجاله .

وبالإضافة إلى معركة بيت المقدس التي انتهت بفتحه ؛ كانت لصلاح الدين مع هؤلاء الفرنج وقائع عدة لم يغفل القاضي الفاضل الحديث عن واحدة منها؛ لأنه كان عليه بوصفه رئيس ديوان الإنشاء أن يكون قلمه أول الأقلام التي تكتب حول الأحداث التي تقع في دولة الأيوبيين سواء أكانت هذه الكتب مرسلة إلى أناس داخل هذه الدولة أم كانت مرسله إلى من هم خارجها، وغالبا ما كان حديثه عن هذه الوقائع حديثا مطولا يحمل في طياته إلى جانب التنويه بقوة جيش صلاح الدين الإفصاح عما تمتع به القاضي الفاضل من قدرات فنية رأينا أثرها على المعاني عند دراستنا لخصائص مذهبه الفني.

ومن المواقع التي كتب القاضي الفاضل رسائل عدة في وصفها : الموقعة التي انتهت بفتح حصن الكرك بعد حصاره مع حصن الشوبك، وغيرهما من الحصون[١] ؛ فما كتبه حول هذا الحصن بالإضافة إلى وصفه أنه بين خطره على المسلمين، ووصف الدمار الذي وقع بأصحابه من الصليبيين[٢]

ومن المواقع التي دبّج الفاضل في وصفها رسائل عدة موقعة عكا [٣] ، وقد كان للمصاعب التي لاقاها جيش صلاح الدين في فتح عكا، والتي أطلق عليها كسرة عكا صدى كبيرا في هذه الرسائل؛ حيث إنه كتب في الاستنجاد بملك المغرب يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن أكثر من رسالة، وذلك عندما تزايدت إمدادات الصليبيين [٤]

ومما لا شك فيه أن هذه الأحداث، وغيرها كثير، قد هيأت للقاضي الفاضل من المعاني ما لم يكن قد تهيأ لسابقيه الذين لم يعاصروها، ويكفي للوقوف على مدى الاهتمام الذي لاقاه وصف الحروب وآلاتها والقلاع والحصون في كتابات القاضي الفاضل ذكر مضامين بعض الرسائل التي احتفظ بها أبو شامة في كتابه: (الروضتين) ، والتي لم تسبق الإشارة إليها من قبل: كتب رسائل عدة في وصف ما لاقاه

---

(٢) هو الناصر لدين الله أبو العباس أحمد بن الإمام المستضيء بأمر الله.

(٣) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان : ج ٧، ص ١٧٩.

(١) الفاضل من إنشاء الفاضل: ص ١٣٨-١٤٣، والروضتين : ج١ ص٢٠٦.

(٢) الروضتين : ج٥٥،٥٦/١

(٣) المصدر نفسه: ج٦ – ص ٥٠٦-٥١٥

(٤) المصدر نفسه: ج١- ص٢٣٦

جيش صلاح الدين في طريقه إلى دمشق[١] ، ووصف قلعة حمص[٢] ووصف حصن بيت الأحزان، وما حاق وبمن كان بداخله من الدمار على يد جيوش صلاح الدين . كما كتب في التبشير بفتح طبرية وبيسان ، واقتحام حصن كوكب [٣]، ووصف عبور جيش صلاح الدين لنهر الفرات[٣]، والتبشير بفتح حلب وحارم [٤]، ووصف فتح (آمد)[٥]، كما كتب رسائل عدة في وصف القتال الذي كان بين صلاح الدين والصليبيين في عين جالوت [٦]، ودبج في تهنئة السلطان بانتصاره على الصليبيين في موقعة حطين[٧] أكثر من رسالة ، وتناول وصف حصن برزية [٨]، والتبشير بفتح كوكب[٩].

ويترجّح تناوله لهذه الموضوعات بين التجديد والتقليد ! كما سبقت الإشارة ؛ لأن كتابته في هذه الموضوعات حملت من سمات التجديد والتقليد ما يؤيد ما ذهبت إليه.

أما جانب التقليد فيظهر من كون الحديث عن هذه الموضوعات ليس جديدا على الأدب العربي؛ لأن أبا تمام والمتنبي وغيرهما من الشعراء قد سبقوا القاضي الفاضل إلى وصف المعارك وآلات القتال والدمار الذي تلحقه جيوش المسلمين بحصون الأعداء وقلاعهم ، ومن فيها، وسأكتفي للاستشهاد على ذلك بالإشارة إلى قصيدتين تناولتا هذا المعنى إحداهما لأبي تمام، والأخرى للمتنبي. أما أبو تمام فقد سجل انتصارات المأمون والمعتصم على الفرس والروم تسجيلا يشهد له بسحر بيانه ، ومن ذلك ما جاء في أم ملاحمه -على حد قول الدكتور شوقي ضيف[١]- ، وهي القصيدة التي مدح بها المعتصم عندما فتح عمورية إثر انتصاره العظيم على البيزنطيين، وذلك حيث تحدث عما حققه هذا الفتح للمسلمين والإسلام من منى معسولة ومن عز ومجد، بينما هوت بالروم وديارهم في الحضيض، ويصور استعصاءها على ملوك الفرس والتبابعة، وأنها عتيقة منذ الاسكندر، ومع ذلك تحتفظ بسبابها للخليفة الموعود بفتحها، وكأنما كان نصر جنود المعتصم عليها جربا أصابها، فإذا هي تركع صاغرة تحت قدمي المعتصم، وقد لطخ الدم ذوائب فرسانها وجباههم،

---

[١] الروضتين : ج١-ص٢٣٦.
[٢] المصدر نفسه: ج١ ص٢٣٩
[٣] المصدر نفسه : ج٢ص٢٨،٢٩.
[٣]المصدر نفسه : ج٢- ص٣١-٣٢
[٤] المصدر نفسه : ج٢ –ص ٤٨
[٥] المصدر نفسه : ج٢-ص٤٠-٤١
[٦] المصدر نفسه : ج٢-ص ٥٠-٥١
[٧] المصدر نفسه : ج٢-ص٨٢-٨٣
[٨] المصدر نفسه : ج٢ ص١٣١-١٣٢
[٩] المصدر نفسه : ج٢-ص١٣٦-١٣٧
[١] العصر العباسي الأول: ص٢٨٣.

والتهمتها النيران التهاما، وعلى الرغم مما أصاب جسدها من جروب ووجهها من تشويه تسكب في نفوس العرب من الفرح والبهجة ما لا تذكر بجانبه فرحة ذي الرمة وبهجته حين كان يسلم بربع مية التي تغنت بحبه لها الأحياء والبيد[٢]

وأما المتنبي فإنه سجل في شعره انتصارات سيف الدولة على الروم ؛ ومن ذلك ما جاء في قصائده التي يمدحه فيها، ويذكر ظفره بالروم؛ حيث يصف جيوش الروم الجرارة وعددهم وعتادهم ؛ وفي الوقت نفسه يصف هزيمة هذا الجيش العرمرم على يد سيف الدولة [٣]

وأما سمة التجديد في رسائل القاضي الفاضل حول هذه الموضوعات؛ فيوضحها تناول المعاني في قالب نثري، والذي هيأ له ذلك أنه عاصر أحداثا لم يعاصرها أساتذته من كتاب الفاطميين، وأقصد بها حروب صلاح الدين مع الصليبيين ، تلك الحروب التي صبغت الأدب في عصرها بصبغة خاصة تلائم الجو الذي عاش فيه الكاتب، وقد سبق تفصيل ذلك في الباب الأول من هذا البحث، وقد اتضح لنا مدى اعتماد الفاضل في أفكاره على الشعراء في باب الدراسة الفنية منها.

-إدخال المعاني التي ظاهرها التذلل في الكتابة:

من المعاني التي أثبت البحث أن الفاضل كان من أوائل من أدخلها في الكتابة الفنية - ديوانية كانت أم إخوانية -تلك المعاني التي تدل على ظاهرة الخضوع والتذلل، والذي يعبر عنه بالألفاظ منها: " الخادم"، و: " العبد"، و" المملوك"، و" يقبل الأرض " ... وكان هذا التعبير يظهر في افتتاحيات الرسائل - في الغالب - مما جعل القلقشندي يقول : " ولم أرها -يعني الافتتاحية التي تبدأ بتقبيل الأرض وما شابهها - فيما قبله"[١]، وأكد رأيه هذا بما جاء عنده عنوان الأسلوب الثاني أن تفتتح المكاتبات بـ : (يقبل الأرض مصدرا بالمملوك)، وذلك حيث قال عن هذه الافتتاحية وهي من مصطلحات الدولة الأيوبية " [٢].

وإذا كانت عبارة: (المملوك يقبل الأرض) وردت في افتتاحيات القاضي الفاضل كما لاحظ القلقشندي، فإن بقية الألفاظ والعبارات التي سبق ذكرها، والتي تعبر عن معنى الذل والخنوع؛ لم يكن يوردها في افتتاحيات الرسائل فحسب، وإنما في وسطها أحيانا[٣]، كما كان يوردها في البداية

---

[٢] ديوان أبي تمام: ج١ص٤٥

[٣] ديوان المتنبي : ج٣- ٣٧٨.

[١] صبح الأعشى: ج ٤- ص١١٠

[٢] المصدر نفسه: ج ٧-ص٩٠

[٣] نهاية الأرب في فنون الأدب: ج ٨ ص١٨٠

والنهاية معا [٤]، وأحيانا يوردها في مستهل الرسالة وفي منتصفها وفي نهايتها[٥]، ونضيف إلى ذلك أن هذه الألفاظ التي تحمل معاني التذلل لم تكن بالقدر الذي نلمسه في أيامنا هذه، ويتضح ذلك في أمرين:

أحدهما أنه لم يكن يقتصر في إطلاقها على نفسه في مكاتباته مع السلطان صلاح الدين بوصفه أعلى منه مرتبة، بل يطلقها على نفسه أيضا في مكاتباته مع أصدقائه وإخوانه[١]. أما الأمر الثاني الذي يؤكد أن هذه الألفاظ كان يطلق بعضها على السلطان صلاح الدين نفسه في الرسائل التي يكتبها على لسانه إلى الخليفة العباسي ببغداد [٢]

وإن كان إدخال هذه المعاني في الكتابة العربية لم يؤلف عند العرب، فإن الفرس قد ألفوها في مكاتباتهم، وباحتكاك الثقافة الفارسية تسربت هذه المعاني من الفرس إلى العرب من بين ما تسرب إليهم[٣].

وقد كان إلمام الأديب بالثقافات المجاورة من شروط إعداده للعمل في ديوان الإنشاء، وهذا يؤكد أن القاضي الفاضل كان ملما إلى حد كبير بالثقافة الفارسية، ويظهر ذلك مما يأتي:

- شيوع هذه المعاني التي نحن بصدد الحديث عنها في مكاتباته، وقد سبقت الإشارة إلى أنها من صفات الثقافة الفارسية.
- يفهم إلمامه بالثقافة الفارسية، بل باللغة نفسها من قول صلاح الدين عندما كان يحدثه عن العماد:" هذا يحل التراجم، وربما أغيب أنا ولا أقدر على ملازمتك، فإذا غبت قام العماد الكاتب مقامي"[٤]
- أن تلميذه ابن سناء الملك كان ملما ببعض الثقافات الأجنبية، ومن بينها الفارسية التي يتقنها، وقد كان حريصا على أن يطمئن أستاذه عليه في هذا الشأن "؛ فقد جاء في إحدى قصائده التي وجهها إلى القاضي الفاضل:

وعز على العرب أني حفظت برغمي بعض لغات العجم[٥]

وأكد لأستاذه معرفته بالفارسية عندما استخدم بعض الخرجات الفارسية في موشحاته ، وكان المصريون السابقون له يضعون الموشحات بخرجات

---

(٤) المصدر نفسه: ج ٨ -ص٧-٨
(٥) المصدر نفسه: ج ٨- ص١٧-١٨
(١) نهاية الأرب في فنون الأدب : ج ٨- ص٧-٨-١٧-١٨
(٢) المصدر نفسه: ج ٨-ص١٨
(٣) انظر تراث فارس: ص ٢٥٨-٢٨٦
(٤) النجوم الزاهرة: ج ٦-ص٧٤
(٥) ديوان ابن سناء الملك : ج ٢-ص٣١٦

مغربية، وقد عرض ابن سناء الملك على أستاذه بعض هذه الموشحات ليأخذ رأيه.

-وصف بلاغة الكتب :

ومما كان القاضي الفاضل فيه مقدما على غيره من الأدباء كتابا كانوا أم شعراء وصف بلاغة الكتب ؛ فالناظر في الأدب العربي قبل القاضي الفاضل يلاحظ أن الأدباء وصفوا بلاغة الكتاب عموما، ولم يصفوا كتابا بعينه من حيث ألفاظه ومعانيه، وقد سبق أن رأينا ذلك عند الجاحظ الذي وصف الكتاب نثرا، وأما الشعراء فقد اهتموا بوصف الكتب، وبوصف أدوات الكتابة مثل القلم(١)، والمحبرة(٢)، واللوح (٣)، والسكين (٤).

وقد ظفر موضوع بلاغة الكتب بعدد كبير من رسائل القاضي الفاضل، والشواهد على ذلكم كثيرة من أهمها: " فصوص الفصول" الذي ملأه ابن سناء الملك برسائل القاضي الفاضل التي كان يقرظ فيها كتبه إليه، وبالإضافة لهذا الكتاب احتفظت لنا المجاميع التي اختارها تلاميذه ومنهم ابن نباتة، وابن عبد الظاهر بعدد كبير من الرسائل التي كان مضمونها فقط تقريظ القاضي الفاضل لبلاغة الكتب الواردة إليه، ويضاف إلى ذلك رسالته التي استشهد بها كل من النويري في: (نهاية الأرب)، و القلقشندي في: (صبح الأعشى) على تضمين القاضي الفاضل للشعر في كتاباته، و لاسيما ما ركب في نصف القرينة على البيت الكامل في التاريخ، و ما ركب فيه نصف القرينة على نصف البيت، والتي استعرضناها بالتفصيل في باب الدراسة الفنية .

وتتسم كتابة القاضي الفاضل في هذا الموضوع بإفراطه الشديد في إعمال الخيال لتجسيد المعاني التي تضمنتها الكتب التي يصف بلاغتها، وخير شاهد على ذلك قوله : " كتاب إلى نحري ضممته، وذكرت به الزمن الذي ما ذممته، وأكبرت قدره حين تسلمته استملته، والتقطت زهره ، فحين لمحته استملحته، وامتزج بأجزاء نفسي، فحين لحظته حفظته، وجمعت بينه وبين مستقره من صدري، واستطلت به مع قصره على حادثات دهري، وجعلت سحره بين سحري ونحري، واستضأت به ورشفته، فهو ناري وهو نهري، فإذا أردت العطر بلا أثر أمسكت مسكة بيدي، وإن أردت السكر بلا إثم أدرت كأسه في خلدي، فلله أنامل رقمته، ما أشرف آثارها!، وخواطر أملته، ما أشرق أنوارها!، ولم أزل متنقلا منه بين روضة فيها غدير، وليلة فيها سمير، وإمارة لها سرير، ومسرة إنما لها طليق أسير، ونعمة أنا لها عبد بل بها أمير "(١)

---

(١) معجم الأدباء: ج١- ص٦٠

(٢) معالم الحضارة الإسلامية: ص٢٧٢-٢٧٣

(٣) الأغاني: ج١٤- ص٤٥

(٤) زهر الآداب : ص٤٤٦-٤٤٧

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب: ج٨ص٤٧،٤٤

فالملاحظ أن هذا النص بأكمله أوقفه الفاضل على وصف كتاب أتاه من أحد أصدقائه، وقد أعمل فيه خياله لتجسيد المعاني التي أراد أن يعبر عنها تعبيرا يسترعي الانتباه لكثرة الصور التي حشدها فيه، ويوضح هذا أن الصورة البيانية التي جاءت في هذا النص إذا عددناها وجدناها تجاوز خمس عشرة صورة، ومنها على سبيل المثال قوله :" استلمته" ؛ أي قبلته تشبيها للكتاب بالحجر الأسود الذي يستلمه الحجيج، وقوله: " التقطت زهره" ، و" استضأت به ورشفته، فهو نهاري وهو نهري"، وقوله : " وإن أردت السكر بلا إثم كأسه في خلدي "، وقوله : " ولم أزل متنقلا منه بين روضة فيها غدير، وليلة فيها سمير، وإمارة لها سرير "؛ حيث شبه الكتاب مرة بغدير في روضة، ومرة بسمير في ليلة ومرة بسرير إمارة.

وجاء في رسالة أخرى له في الغرض نفسه قوله:

" كتاب اشتمل بديع المعاني وباهرها، وزخرت بحار الفضل إلا أنني ما تعبت في استخراج جواهرها، بل سبحت حتى تناولها... واقتبست من محاسن أوصافه، وبدائع أصنافه، نكتا استقلت أجسادها بالأرواح، وزهيت جيادها بما فيها من الغرور والأوضاح، فيا لله من بدائع وروائع، ولطائف وطرائف، فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، وما يقرط الأسماع و يقرط الألسن، فكأنه طرف طرف صوبه مدرار، وعلم علم منصوب في رأسه نار، صحح السحر وإن كان ظنا، وفضح الدر إذ كان أبرع معنى وأسنى حسنا، وأدنى مجنى، وأغنى معنى، فما ضره تأخير زمانه، مع تقديم بيانه، ولا من سبقه في عصره، مع أنه قد سبق في شعره" (١)

وبالنظر في النص الذي بين أيدينا يمكن ملاحظة مدى إعجاب القاضي الفاضل ببلاغة الكتاب الذي يكتب عنه، ويظهر ذلك من أول سطر في هذا النص حيث يقول :" كتاب اشتمل على بديع المعاني و باهرها، وزخرت بحار الفضل إلا أنني ما تعبت في استخراج جواهرها ، بل سبحت حتى تناولتها "، وقد شبه الكتاب ببحر زاخر بالجواهر التي يسهل الحصول عليها بالسباحة فيه، ولم نكد نسير مع القاضي الفاضل في نصه هذا حتى نراه يورد الصور الخيالية تترى في تجسيد المعاني، ومن ذلك قوله : واقتبست من محاسن أوصافه، وبدائع أصنافه، نكتا استقلت أجسادها بالأرواح، وزهيت جيادها بما فيها من الغرور و الأوضاح "؛ ومما لا شك فيه أن هذه الصور فيها من التكلف الشيء الكثير ؛ نظرا لحرص القاضي الفاضل على دمج العديد من الألوان البديعية فيها، مثل مراعاة النظير المتمثلة في: " الأجساد والأرواح و الجياد"، والجناس المتمثل في: " أوصافه وأصنافه"، و" ألرواح والأوضاح" ، و الموازنة المتمثلة في وحدة الوزن بين كل من " محاسن وبدائع"، وبين " الأرواح والأوضاح" ؛ هذا بالإضافة إلى السجع الذي يعد أقوى قيد كبل

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب: ج٨ ص٢٥

القاضي الفاضل به حرية الألفاظ في معظم مكاتباته ؛ مما أعاقها عن التعبير عن المعاني الملائمة، وقد تمثل السجع في هذا النص في اتحاد حروف كلمات كل فاصلتين؛ أي اتحاد نهاية كل من " أوصافه وأصنافه"،و " الأرواح والأوضاح"، ولا نكاد نقرأ في هذا النص سطرا حتى تطالعنا صور متتالية؛ فهو مرة يشبه معاني الكتاب الذي يعنيه بالجنة ؛ حيث يقول: " فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين" ، ومرة أخرى يشبه هذه المعاني بأنها أقراط تتحلى بها الأسماع كما تتحلى الآذان بالأقراط الحقيقية، ويردف هذه الصورة بصورة أخرى يصور فيها بلاغة هذا الكتاب قاطعة للألسن على سبيل الكناية عن عدم استطاعة أي لسان أن يتلفظ بمثلها، وقد جاءت هاتان الصورتان في قوله: " وما يقرط الأسماع و يقرط الألسن "، ولا نكاد نتجاوز هاتين الصورتين حتى تلقانا صورتان أخريان جاءتا في قوله:" فكأنه طرف صوبه مدرار، وعلم علم منصوب في رأسه نار"، فإذا نظرنا إلى الصورة الأولى منها لم نستطع فهمها إلا بعد تغيير بعض ألفاظها لعدم إفادة العبارة أي معنى، وهي على هذا النحو، ولعل ذلك راجع إلى خطأ النساخ، وأنسب تغيير لألفاظها لنفهم معناها ما جاء في التعليق عليها في نهاية الأرب، وهو : " ولم نجد من معاني هاتين الكلمتين - طرف طرف- ما يناسب السياق، ولعل صواب العبارة " فكأنه قطر قطر " إلخ ، فالأولى مصدر قطر الماء يقطر، إذا سال ، والثانية بمعنى المطر، كما تدل على ذلك بقية الجملة" [1]، وبعد هذا التغيير تكون الصورة تشبيها شبه فيه الكتاب بنزول المطر، وأما الصورة الثانية من الصورتين اللتين بين أيدينا فقد شبه فيها الكتاب بجبل من العلم على قمته نار إمعانا في شهرته بالعلم، وإذا تأملنا هذه الصورة رأينا أن الصنعة البديعية قد ذهبت بجمالها، وما ذلك إلا لتعمده المجانسة بين كلمتي " علم ، وعلم"، وتصنعه ذكر النار مع العلم إشارة للمثل السائر في الشهرة " أشهر من نار على علم"، وقد كان للصنعة البديعية أثر في إفساد جمال الصورة التي قبلها.

ولعل هذا النص وسابقه دليل على احتفاله بالكتب التي كانت ترد إليه ، واتخاذه من وصف بلاغتها موضوعا يدبج فيه الصور البيانية التي بالغ في الإكثار منها مبالغة شديدة شأنها شأن أي ظاهرة كتابية يعمد إليها فلا يتركها إلا بعد أن يستعرض كل ما لديه من القدرات الأسلوبية في صياغتها، وقد اتضحت هذه الخاصية أكثر في كتابته عند دراسة خصائص طريقته الكتابية.

وقد فتح القاضي الفاضل بكتاباته في هذا الغرض بابا جديدا لنوع من أنواع النثر الفني ، وهو التقريظ ؛ فكان إذا صنف مؤلف في فن من الفنون، أو نظم شاعر قصيدة أجاد فيها ، كتب له أهل الصناعة تقريظا يمدحونه فيه، ويأتي كل منهم بما في وسعه من البلاغة في ذلك.

---

[1] نهاية الأرب في فنون الأدب: ج ٨ ص٤٥

ومن أكثر التقريظات إغراقا في المبالغة والتكلف ما كتب به صلاح الدين الصفدي على مصنف وضعه الشيخ تاج الدين علي بن درهم الشافعي في الاستدلال على أن البسملة من أول الفاتحة . وذلك حيث قال: " وثقفت على التصنيف الذي وضعه هذا العلامة، ونشر به في المذهب الشافعي أعلامه، وأصبح ونسبته إليه أشهر علم و أشهر علامة؛ فأقسم ما سام الروض حدائقه، ولا شام أبو بشامة بوارقه [١]؛ كل الأئمة تعترف بما فيه من الأدلة، وكل التصانيف تقول أمامه : بسم الله؛ كم فيه من دليل لا يعارض بما ينقصه ، وكم فيه من حجة يكل عنها الخصم ؛ لأن عقله على محك النقد يعرضه، قد أيد ما ادعاه بالحديث والأثر، ونقل مذهب كل إمام سبق وما عثر؛ لقد سر الشافعي بنص قوله الذي هذبه، وجعل أعلام مذهبه مذهبة:

أكرم به مصنفا — فاق تصانيف الورى
ليل المداد فيه بال — معنى المنيـــــر أقمرا
كم فيه برد حجة — قد حاكه محررا
وكم دليل سيفه — إذا لقي خصما فرى
فلم يكن من بعده — مخالف قط يرى[٢]

وجاء في تقريظ لقصيدة نظمها شرف الدين عيسى بن حجاج [٣] مدح بها رسول الله- ﷺ -، وضمنها ألوان البديع : " إني وقفت على البديعية التي نظمها الفاضل الأرفع ، واللوذعي المصقع، أديب الزمان، وشاعر الأوان... فألفيتها الدرة الثمينة؛ غير أنها لا تسام، و الخريدة المخدرة؛ إلا أنها لا يليق بها الاحتشام...إن ذكرت ألفاظها فما الدر المنظوم ؟ أو جليت معانيها أخجلت الروض المعطور، أو اعتبر تحرير وزنها فاق الذهب تحريرا، أو قوبلت وافيها بغيرها زكت توفيرا وسمت توقيرا، أو تغزلت أسكتت الورق في الأغصان، أو امتدحت قفت إثر كعب، وسلكت سبيل حسان؛ فإطنابها لفصاحتها لا يعد إطنابا، وإيجازها لبلاغتها يعد على المعاني من حسن السبك أطنابا.

هذا وبراعة مطلعها تحث أسماع باقيها شغفا، وبديع مخلصها يسترق الأسماع لطافة، ويسترق القلوب كلفا، وحسن اختتامها تكاد النفوس لحلاوة مقطعه تذوب عليها أسفا، وبالجملة فمآثرها الجميلة لا تحصى، وجمائلها المأثورة لا تعد ولا تستقصى، فكأنما قس بن ساعدة يأتم بفصاحتها، وابن المقفع يهتدي بهديها ويروي عن بلاغتها، وامرؤ القيس يقتبس من صنعة شعرها، والأعشى يستضيء بدرها، فلو رآها جرير لرأى أن نظمه جريرة اقترفها، أو سمعها الفرزدق لعرف فضلها بتحقق شرفها، أو بصر بها حبيب بن أوس

---

[١] المقصود به أبو شامة صاحب الروضتين

[٢] صبح الأعشى في صناعة الإنشا: ج١٤-ص٣٣٥

[٣] كان ذلك في سنة اثنتين وتسعين وسبعمئة ؛ أي بعد وفاة القاضي الفاضل بقرنين من الزمان تقريبا(انظر : صبح الأعشى: ج١٤ ص٣٣٨)

لأحب أن يكون من رواتها، أو اطلع عليها المتنبي لتحير بين جميل ذاتها وحسن أدواتها"[١].

ومما يلاحظ على هذا التقريظ وسابقه أنهما يسيران على الطريقة نفسها التي كان القاضي الفاضل يصف بها بلاغة الكتب؛ فالكاتبان قد أطلقا لخيالهما العنان حتى يجعلا للعملين اللذين يقرظانهما قدرا رفيعا لا يدانيه في البلاغة أي عمل آخر نثرا كان أم شعرا.

ويستدل الدكتور أحمد أحمد بدوي على تأخر ظهور هذا اللون من الكتابة واستمراره إلى العصر الحاضر بقوله: " وظهور هذا اللون من الإنشاء في هذا الثوب من السجع يدل على تأخره في الظهور بين ألوان النثر الفنية، وقد ظل هذا التقريظ إلى عصرنا الحاضر، ولا يزال كثير من الكتب التي طبعت أو ألفت في مطلع هذا العصر تحمل هذا التقريظ، ولكننا اليوم قد استبدلنا بالنقد التقريظ" [٢]

ويفرق الدكتور أحمد بدوي بين تقريظ الأمس ونقد اليوم بقوله : " فبعد أن كان المقترض يثني على الكتاب ثناء بريئا من أن يشاب بلون صرنا اليوم نثني، ولكن يصحب ذلك بيان ما في الكتاب من وجوه النقص [٣]

ويفهم من قوله هذا أن النقد الذي يقوم على إظهار المحاسن والنقص في النص الأدبي لم يظهر إلا في عصرنا الحديث ، ولكن مصادر نثر القاضي الفاضل الفني نقلت لنا رسائل قوم فيها القاضي الفاضل شعرا لابن سناء الملك، كما سبق أن رأينا.

وبعد بيان جوانب التجديد والتقليد في كتابة القاضي الفاضل ؛ يمكن القول بأن الرجل كانت له طريقة كتابية تقوم على دعائم من التقليد وأخرى من التجديد.

---

[١] صبح الأعشى: ج١٤-ص٣٣٨

[٢] أسس النقد الأدبي عند العرب: ص٥٨٨-٥٨٩.

[٣] المرجع نفسه: ص٥٨٩.

الباب الخامس:

مواقف النقاد من
المذهب الفاضلي فـي الكتابة

١- موقف الدكتور محمد كامل حسين:

من النقاد والباحثين الذين كان لهم موقف من مذهب الفاضل الكتابي الدكتور محمد كامل حسين الذي يرى أن الفاضل يعد شيخا من شيوخ الكتابة وعمالقتهم في الأدب العربي، واستدل على ذلك بأن شهرة الفاضل في فن الترسل كانت حديث رجال البلاغة العربية، بل حديث كل من تعرض للعصر الأيوبي؛ فكل الذين تحدثوا عن فن النثر أشادوا به[١]

وقد لاحظ أن النقاد القدماء فطنوا إلى إسراف الفاصل في المبالغة من خلال شعره، كما لاحظ أيضا أنهم فطنوا إلى اقتداء من كان حوله به وسيرهم على نهجه، وقد وافقهم ناقدنا على ما فطنوا إليه غير أنه رأى أن المبالغة في القول ليست جديدة على مصر والمصريين، بل إنها من أخص خصائص الشخصية المصرية في كل عصورها؛ فإذا كان الفاضل قد بالغ في شعره ونثره، فهو لم يأت بشيء جديد على مصر؛ إنما كان يعبر عن طبيعة الحياة المصرية ، كما عبر عنها غيره من الشعراء والكتاب الذين أسرفوا في المبالغة أيضا[٢]

ولو كانت المبالغة من طبع المصريين، وكان الفاضل شأنه شأن هؤلاء المصريين الذين عاش بينهم، لما لفت نظر النقاد القدماء ونظره هو؛ لموافقته إياهم على ما ذهبوا إليه من إسرافه الشديد في المبالغة، واقتداء من حوله به، وسيرهم على نهجه ؛ ولو كان الفاضل لم يأت بشيء جديد على الأدب في مصر لكان شأنه شأن غيره من كتّابها، ولما قال عنه هو: " كان الفاضل شيخا من شيوخ الكتابة وعمالقتهم في الأدب العربي، فشهرته في فن الترسل كانت حديث رجال البلاغة العربية، بل حديث كل من تعرض للعصر الأيوبي"[٣]

وللناقد رأي في استمرار أدب الفاضل ومذهبه في الكتابة والشعر على حد سواء ؛ جاء في قوله: " ومن الطبيعي أن يستمر مذهب شعراء هذه المدرسة في العصر الأيوبي، وسيخضع الفنانون ولاسيما الكتاب الخضوع كله لهذه الطريقة التقليدية ولاسيما أن الحاكم الفعلي للبلاد ، والمدبر الأول لشؤونها في النصف الثاني من القرن السادس هو رجل قضى وقتا طويلا يتدرب على هذا الفن في دواوين الفاطميين، ويأخذ عن كتاب الفاطميين وشعرائهم مذهبهم الفني، فنشأ مولعا بهذا المذهب، داعيا له، بل غلا في هذا المذهب غلوا جعل المؤرخين والنقاد ينسبون إليه هذا المذهب، وتلك الطريقة التقليدية، هذا الرجل هو القاضي الفاضل . وعندي أن نسبة المذهب إليه لون من ألوان التعسف في الحكم النقدي والتاريخي؛ فلو لم يكن القاضي الفاضل وزير مصر الأول في الأيام الصلاحية، ولولم يكن هو صاحب السلطان

---

[١] دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين: ص٢١٢

[٢] المرجع نفسه: ٢١٤

[٣] المرجع نفسه: ٢١٢

الفعلي فـي البلاد ما كان المؤرخون والنقاد يشيدون بفنـه علـى هذا النحـو الـذي نجده فـي كتب معاصريه أو الكتب التي نقلت عن معاصريه؛ فالحقيقة التاريخية تقول إنه لم يبتدع هذه الطريقة التي نسبت إليه، بل كـان مقلدا لمن سبقه، ولكن شخصيته هي التي جعلت كاتبا مؤرخا، وهو العماد الأصفهاني يشيد بـه، ويغلو في تقريظه ومدحه[١]، ولـو لـم يكن القاضـي الفاضـل فـي هذه المرتبـة العليـا مـا كان هؤلاء الشعراء الذين التفوا حوله ليمدحوه بهذه المدائح التي نراها في كتب التاريخ والأدب، إذ كـان جل الشعراء فـي عصره قد أكثروا من مديحـه تقربـا وتزلفـا نحـن لا ننكـر أن الفاضـل كـان فنانـا مـن بعض النـواحي، ولكـن موهبتـه الفنية لم تكن أهلا لكل ما قيل عنه، ولاسيما أن فنه كما رأينـا كـان فنـا مـصنوعا متكلفا قد يلذ الأذن، ولكنه لا يرضـي العاطفة"[٢]

إن الناظر في مقولة الدكتور محمد كامل حسين السابقة يلاحظ عليـه أنـه أثبت للقاضـي الفاضـل المهارة في فنه الناتجة عن طول تدربه عليـه فـي دواويـن الفاطميين وأخذه عن الكتاب والشعراء ولعه بهذا المذهب، وتبنيه لـه، وغلوه فيه غلـوا جعـل المـؤرخين والنقـاد ينـسبون إليـه هـذا المـذهب الفنـي، وتلـك الطريقـة التقليدية، ولكنه بعد كل ما أثبته للفاضل من العوامـل التـي تؤهلـه لإمامـة مـذهب فني فـي الكتابة يعود فيقول: إن نسبة المذهب إليه لون مـن ألـوان التعسف فـي الحكم النقدي والتـاريخي، ويـستند فـي حكمـه هـذا علـى أن الـسبب فـي إشـادة المؤرخين والنقاد بالقاضي الفاضل راجع فقط إلى مكانته السياسية فـي عـصره؛ إذ لو لم يكن وزير مصر فـي الأيام الـصلاحية، وصـاحب الـسلطان الفعلـي فـي البلاد ما كان لافتا للنظر على هذا النحو؛ لذا فإنني أرى أن الـسبب الـذي اسـتند إليه هذا الناقد فـي تبجيل المـؤرخين والنقـاد للقاضـي الفاضـل، وتقريظهم لـه لا يقـوى علـى هـدم الحقيقـة التـي خلاصـتها أنـه لـولا جـودة فـن الفاضـل وأخلاقـه الفاضلة لما كانت مكانته هذه، لا العكس، وإن كنـت لا أنكـر أثـر هـذه المكانـة ــ وقد أثبت ذلك فـي الفصل الخـاص بمكانـة القاضـي الفاضـل وأثرهـا فـي ذيـوع مذهبه الفنـي، فإنني أرى أنها لم تكن سوى عامل مـن العوامـل التـي جعلـت مـن معاصريه ومن خلفوهم يطنبون ويبالغون فـي الثنـاء عليه، و يطنبون ويبـالغون في تقريظ فنه .

وخلاصـة القـول فـي هذا الموضـوع أن أدب الفاضـل ولاسيما نثـره أهلـه لريادة مذهب فـي الكتابة إليه نسب وبه عرف، وقد سبق بيان الخـصائص الفنيـة لهذا المذهب فـي الكتابة بالتفصيل،ومما يزيد موقف الدكتور محمد كامل حسين مـن مـذهب القاضـي الفاضـل الكتـابي وضـوحا قولـه: " والعجـب حقـا أن أرى بعض الزملاء يتوهم أن للقاضي الفاضل مـذهبا خاصـا عـرف بـه فـي الكتابـة، وأن لـه مدرسـة تتميـز بخصائـصها وطرائقهـا عـن مدرسـة الكتـاب الفـاطميين

(١) انظر خريدة القصر وجريدة العصرر ج١
(٢) دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين: ص٢٠٢-٢٠٣

"[1]،ولا يسعني إزاء هذا الموقف من مذهب القاضي الفاضل ودارسيه الذين عدهم الدكتور محمد حسين متوهمين إلا أن أدعو كل من له صلة بدراسة الأدب إلى إعادة النظر في الأدب الفاطمي والأدب الفاضلي؛ لأنهم سيقفون على حقيقة ما ظنه الدكتور محمد كامل حسين توهما، وهو وجود فرق بين الأدبين مع عدم اختفاء الصلة بينهما؛ لأن كل من درس أدب العصر الفاطمي وأدب العصر الأيوبي لم يستطع إغفال فن الفاضل والوقوف أمامه وقفة المعترف بإمامته له.

٢- موقف الدكتور شوقي ضيف:

ومن النقاد الذين لفت انتباههم فن القاضي الفضل الدكتور شوقي ضيف الذي قال عنه :" وكان أبلغ كتاب عصره، فدفع العصر الأيوبي كله من ورائه في دوائر نماذجه، وما أتاحه لهذه النماذج من صفات أدبية"[1]

وهذا يعني أن الناقد سلم للقاضي الفاضل بثلاثة: أولها: ارتفاع كعبه في البلاغة حتى بز بلغاء عصره؛ ويفهم ذلك من قوله: " وكان أبلغ كتاب عصره". أما ثانيها: فهو ابتداعه طريقة في الكتابة نسبت إليه، تلك الطريقة التي سماها الناقد " دوائر نماذجه". وأما ثالثها: فهو أن طريقته في الكتابة وجدت من المتلقين في عصره وبعد عصره إقبالا شديدا على اتباعها، حتى لكأنهم من شدة إقبالهم على اتباعها يدفعون إليها دفعا من يد حرص صاحبها على تحقق هدفه من دفعه. وهو ما عبر عنه الناقد تعبيرا بليغا؛ إذ لم ينسب فيه الدفع إلا للقاضي الفاضل ذاته، ليظهر مدى حرصه على تحقق نتيجة ذلك الدفع، ويظهر ذلك من قوله:" فدفع العصر الأيوبي كله من ورائه في دوائر نماذجه، وما أتاحه لهذه النماذج من صفات أدبية".

ويتأكد اعتراف الناقد بأستاذية الفاضل بقوله:" ومهما يكن فإن القاضي الفاضل كان أستاذ عصره غير منازع"[2].

واستشهد على ذلك بشهادة ابن خلكان له، وبهذا يقول:" وشهد له بذلك ابن خلكان ؛ إذ وازن بين ما كتبه في فتح بيت المقدس، وما كتبه العماد وغيره، فقال : " إنه رئيس هذا الفن، وإذا شرع في شيء من هذا الباب لا يستطيع أن يجاريه ولا يباريه أحد"[3]،ولم يتوان الناقد عن التصريح مرة ثالثة

---

[1] في أدب مصر الفاطمية : ص٣١٥

[1] الفن ومذاهبه : ص ٣٦٧

[2] المرجع نفسه: ص٣٦٨

[3] المرجع نفسه: ص٣٦٨.

برأيه الذي يظهر إعجابه بكتابة الفاضل، وذلك حيث يقول عنه:" وهذا الرجل العليل القبيح بلغ من فن الكتابة وتجويده ما لم يبلغه أحد في عصره"[٤].

واستدل الدكتور شوقي ضيف على صدق رأيه في كتابة الفاضل بما جاء على لسان بعض معاصريه ومن تلاهم فـي حق الفاضل مثل العماد الأصفهاني والنويري"[١].

ومما يسترعي الانتباه فـي موقف الدكتور ضيف من مذهب الفاضل الكتابي أنه بعد اعترافه صراحة - كما رأينا - بريادته لطريقة كتابية أغرت، بل دفعت العصر الأيوبي كله إلى اتباعها؛ بعد هذا كله صرح الدكتور ضيف برأي مخالف لرأيه الأول، وهو أن الفاضل لم يبتكر مذهبا جديدا في تاريخ النثر العربي، وأنه لم يكن مقلدا ما هرا لمن سبقوه من مهرة الكتاب، ولم يزد على ذلك، ويستدل على هذا من قوله:" ولكن لا ينبغي أن نظن من ذلك أن القاضي الفاضل ابتكر مذهبا جديدا فـي تاريخ النثر العربي، إنما كل ما هنالك أنه قلّد أصحاب التصنع فأحسن التقليد"[٢].

وإذا كان حسن التقليد عند الفاضل وحده - على حد قول الدكتور شوقي ضيف - هو الذي دفع غيره إلى اتباعه، فلماذا لم يعد النقاد الفاضل ومن اتبعه جميعا تابعين لأولئك الذين أحسن الفاضل تقليدهم ؟، ولماذا قال هو نفسه عنه أنه دفع عصره من ورائه في دوائر نماذجه؟، ولم يقل عنه إنه كان حلقة وصلت فن من قبله بفن من بعده؛ لأن التوصيل الجيد لا يتعدى دوره دور الموصل مهما بلغ من حسن التوصيل ودقته. فهل كانت المرآة فـي يوم من الأيام قمرا أو شمسا أو نهرا أو نارا، أو أي شيء من الأشياء التي تعكس صورتها بأمانة ودقة؟ بالطبع لا.

لا يمكن للباحث أن يطلق على أدب القاضي الفاضل غير اسم " الأدب الفاطمي؛ لأنه لم يقلد المرآة بالنسبة لآداب سابقيه، بل كان بحق لبنة في صرح أدبنا العربي الذي بدأ تشييده الأوائل من أدبائنا، ولن يتوقف ارتفاع هذا الصرح حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا.

وإذ ما سرنا مع الدكتور شوقي ضيف في حكمه على الفاضل ، ومذهبه الفني لفت نظرنا قوله:" ومن أجل ذلك كنا لا نخطئ إذا قلنا إن العصور التي تلته- يعني القاضي الفاضل - في مصر كان أصحابها يصوغون على مثاله، وينسجون على منواله"[١].

---

[٤] المرجع نفسه:ص٣٧٠.

[١] الفن ومذاهبه في النثر: ٣٧٠.

[٢] المرجع نفسه٣٧٠.

[١] الفن مذاهبه في النثر: ص٣٧٥.

ويمكن ملاحظة تغير في موقف الدكتور شوقي ضيف من طريقة القاضي الفاضل الكتابية؛ حيث نراه في هذه المرة عاد فشهد بأن العصور التي تلت العصر الفاطمي في مصر كان أصحابها يتبعون طريقته في الكتابة، وذلك ما عبر عنه بقوله:" ويصنعون على مثاله، وينسجون على منواله"، وإذا ما حاول الباحث البحث عن سبب يرد إليه اختلاف موقف الدكتور شوقي ضيف من فن الفاضل أمكن تعليل هذا الاختلاف بالآتي:

أنه عندما عدّ الفاضل مجرد مقلد للفاطميين كان متأثرا بقول الدكتور محمد كامل حسين، ومن رأى رأيه، وعندما عدّ الفاضل صاحب طريقة في الكتابة اتبعه فيها لاحقوه، فصاغوا على مثاله ونسجوا على منواله، كان متأثرا بمكاتبات الفاضل نفسه، ومكاتبات من تلاه من الكتاب، ، بل متكلا على ذوقه النقدي، ومذهبه فيه؛ ذلك المذهب الذي جاء واضحا جليا في موقفه من مذهب أبي تمام في الشعر عندما تعرض لمناقشة أنصار البحتري، ورد ادعاءاتهم على أبي تمام بالتقليد، وذلك حيث قال: " ولا نريد أن نقف عند براهين الطرفين برهانا برهانا؛ لأن صلة ذلك بالنقد أوثق من صلته بالبلاغة، وإنما نقف عند وجه مما أثاروه، هو ما ذهب إليه أصحاب أبي تمام من أنه أتى بمذهب جديد في الشعر، أما البحتري فجرى على عمود الشعر العربي، فهو مقلد، وليس مجددا. وقد رد عليهم أنصار البحتري بأن أبا تمام لم يأت بمذهب جديد، بل هو مقلد لمسلم بن الوليد، وكل ما له بالقياس إليه الإكثار والإفساد، وقالوا إن مسلما هو الآخر ليس مجددا فيما استخدمه من بديع، بل هو مقلد لمن سبقه، وكل ما له الإكثار بالقياس إليهم.

وهذا كله تجن على أبي تمام؛ إذ لا يطلب إلى صاحب المذهب في الشعر والفن أن يخلق مذهبا من لا شيء، بل هو دائما يعتمد على أصول تزكيه، لا يزال ينميها، ويعيش لها وبها، حتى تصبح مذهبا خالصا له"[١].

٣- موقف الدكتور عبد اللطيف حمزة:

نستطيع الوقوف على موقف الدكتور عبد اللطيف حمزة من مذهب الفاضل من خلال وصفه للرسالة الديوانية في عهد الحروب الصليبية، ونصحه القراء بأنسب الطرائق للتمكن من الحكم على العمل الفني، وذلك مثل ما جاء على لسانه معلقا على الرسالة الديوانية في ذلك العصر بقوله: "والرسالة الديوانية - ولاسيما في عهد الحروب الصليبية - إنما كانت توجه إلى مقام الخليفة العباسي في بغداد، وكان يكتبها أديب بارع مثل القاضي الفاضل أو العماد الأصفهاني في العهد الأيوبي، أو محيي الدين بن عبد الظاهر في العهد المملوكي، ومعنى ذلك أنه كان لا بد لهذه الرسالة الديوانية أن تتوفر فيها القيم الفنية ما لا يمكن توفره في أي فن من الفنون الأدبية الأخرى"[٢].

---

[١] الفن ومذاهبه في النثر : ص١٢٨-١٢٩.

[٢] أدب الحروب الصليبية من قيام الدولة الأيوبية إلى مجيء الحملة الفرنسية: ص١٨٠،١٧٩.

وهذا القول يكشف عن مدى تقدير هذا الناقد للرسائل الديوانية في عهد الحروب الصليبية التي قاد زمامها القاضي الفاضل كما يكشف كشفا غير مباشر عن ريادة الفاضل لمذهب فني اتبعه فيه غيره من الكتاب، وقد اتضح من بعض ما كتبه هذا الناقد اعترافه الصريح المباشر بزعامة القاضي الفاضل لمذهب فني تحمس له الكثرة من أهل العصر، وذلك حيث قال: " وطرأ على مصر رجل من فلسطين هو القاضي الفاضل، وتعلم هذه الطريقة من طرائق التعبير في مصر، ثم ازداد مع الأيام تعلقا بها، وتيسر له طبعا بعد أن يكون زعيما سياسيا وأديبا للمصريين، وأن ينشر مذهبه الفني فانتشر انتشارا كبيرا، وتحمس له الكثرة من أهل مصر"[٣]

ولقد كان الدكتور عبد اللطيف حمزة دقيقا عندما عد مكانة القاضي الفاضل السياسية إحدى عوامل رواج أدبه و اتباع غيره لمذهبه في الكتابة، ويظهر ذلك من قوله:" لما كان هذا الرجل وزيرا للسلطان صلاح الدين كان نفوذه الشخصي أيضا من العوامل التي أعانت على رواج أدبه، وعلى تقليد كبار الموظفين في الدولة له"[١].

ورأي الدكتور عبد اللطيف حمزة في القاضي الفاضل لا مراء فيه؛ لأننا رأينا أن مكانة الفاضل الأدبية لم تكن العامل الوحيد في انتشار مذهبه الكتابي، بل كانت عاملا من عوامل عدة. وحتى هذا العامل لم يكن عامل إجبار لغيره على اتباع فنه؛ لأن هذه المكانة ما وصل إليها إلا بفضل هذا الفن؛ ألم يكن فنه هذا هو الذي جعل العادل ابن رزيك يكتب إلى والي الاسكندرية بإحضار القاضي الفاضل إلى الباب واستخدامه بحضرته في الديوان. كما شهد بذلك الحموي حيث قال: " ومن أيام العادل بن رزيك الحسنة لا توارى بل هي اليد البيضاء التي لا تجارى خروج أمره إلى والي الاسكندرية بإحضار القاضي الفاضل إلى الباب واستخدامه بحضرته في الديوان ؛ فإنه عروس الدولة، بل الملة ثمرة مباركة متزايدة النماء أصلها ثابت وفرعها في السماء "[٢]

وكما كان فن الفاضل سببا في رقيه اتخذ قبل ذلك للانتقام منه لولا ادخار الله قلم هذا الرجل لنصرة دينه في الحروب الصليبية، ويفهم ذلك مما أورده صاحب الروضتين في قوله: "إن القصر -يعني القصر الفاطمي - بعثه إلى أسد الدين شيركوه استبعادا له، ذلك أنه زاحم كتاب القصر فثقل عليهم أمره، وعندما أرسلوه إلى شيركوه ظن رؤساء ديوان المكاتبات أن هذا أمر لا

---

[٣] الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي الأول : ص٢٨.

[١] الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي الأول: ص١٤.

[٢] ثمرات الأوراق في المحاضرات : ص١٣٦

يتم، وأن أسد الدين سيقتله كمن قتل من قبله- يعنون ضرغاما وشاور وابنه-، وقالوا لعله يقتل معه فنخلص من مزاحمته لنا، فكان من أمره ما كان"[٣].

ومما يلفت النظر في موقف هذا الناقد من طريقة القاضي الفاضل الكتابية أنه رد زينتها -التي بهرت أعين الناظرين وجعلتهم ينظرون إلى صاحبها على أنه عاهل الكتابة العربية في عصره، وإلى طريقته في الترسل على أنها كالشريعة المحمدية التي نسخت ما قبلها من الشرائع- إلى تمثله ثقافة عصره تمثلا حسنا فيه مهارة وحذق مكّنه من إخضاع هذه الثقافة لفنه ومزجها به مزجا خرجت به طريقته في الكتابة، وفعلت ما فعلت في المتلقين، ويظهر ذلك من قوله:" وانظر إلى هذا الرجل الذي تمثلت في ثقافة عصره كلها تمثلا حسنا قد استطاع - في مهارة وحذق - أن يفيد فائدة كبيرة من هذه الثقافة التي أخضعها لفنه، أن يمزج هذه الثقافة نفسها بهذا الفن مزجا خرجت به الطريقة الفاضلية في زينتها، فبهرت أعين الناظرين إليها، وجعلتهم ينظرون إلى صاحبها على أنه عاهل الكتابة في عصره، وإلى طريقته في الترسل على أنها كالشريعة المحمدية نسخت ما قبلها من شرائع"[١]،ونظرا لقلة الأدباء - في جميع العصور الأدبية- الذين يستطيعون أن يحيلوا الثقافة التي لهم إلى فن، كما فعل القاضي الفاضل ومن سبقه من أعلام الأدب العربي من لدن أبي تمام الطائي ، وهم الذين وهب لهم تلك الهبة- نرى الكاتب ينصح المتلقين بأن يتمتع أولئك الأدباء بتقدير الأجيال المتعاقبة، وذلك لأسباب عدة منها:

الإبقاء على الفن، وإذكاء روح الخلق، والضن بالأدب العربي أن يفقد أغلى ما يعتز به، ويفتخر على الآداب الأخرى، وقد تضمن ذلك كله قول الناقد:" قليل جدا من الأدباء في العصور الأدبية جميعها من يستطيع أن يحيل الثقافة التي لهم إلى فن كما فعل القاضي الفاضل، ومن سبقه من أعلام الأدب العربي، من لدن أبي تمام الطائي، وهؤلاء الذين وهب الله لهم تلك الهبة يجب أن يتمتعوا دائما بتقدير الأجيال الأدبية المتعاقبة، وذلك على الأقل إبقاء على الفن، وإذكاء لروح الخلق، وضنا بالأدب العربي أن يفقد أغلى ما يعتز به، ويفتخر على الآداب الأخرى"[٢].

وقول الدكتور حمزة يلفت النظر إلى قضايا لها قيمتها في هذا البحث منها: أن أعلام الأدب العربي الذين هم كالقاضي الفاضل وأبي تمام ما تمكنوا من إبداع فنونهم التي تعد أعلى ما يعتز به ويفتخر على الآداب الأخرى إلا بعدما تمثلوا الثقافات التي سبقتهم، وعاصرتهم تمثلا دقيقا مكنهم من تحويل هذه الثقافات إلى فن رفيع، وهذا معناه أن الفن كالبناء لا يقوم على غير أساس، بل إن أهم مكونات الفن هي الثقافات التي لغير الفنان والتي استطاع الفنان أن يدمجها في

---

[٣] الروضتين : ج١ ص١٥٩.

[١] أدب الحروب الصليبية: ص٢٠٠-٢٠١

[٢] المرجع نفسه: ص٢٠١

أدبه دمجا جعل منها أدبا خاصا به، ونظرا لصعوبة هذه العملية فإننا نرى من تمكنوا من القيام بهذا قليلين، بل هم قليلون جدا، وقد بين الدكتور حمزة هذه الحقيقة بقوله :" قليل جدا من الأدباء في العصور الأدبية جميعها أن يحيل الثقافة التي لهم إلى فن كما فعل القاضي الفاضل، ومن سبقه من أعلام الأدب العربي"[١]

نخلص مما تقدم إلى أن جانب الاتباع في الفن ليس عيبا فيه، بل العيب في طريقة الاتباع نفسها؛ فمن تناول طعاما لم تقو معدته على هضمه لم يستفد من هذا الطعام شيئا، بل على العكس أضر به وأفسد صحته.

أما القضية الثانية التي يمكن التنبه إليها من خلال قول ناقدنا فهي: أن هذا النوع من الأدب الذي أبدعه قائلوه بعد تمثلهم لثقافاتهم تمثلا دقيقا ، بالإضافة إلى أنه أغلى ما يعتز به، ويفتخر به على الآداب الأخرى؛ فإنه دليل على الفن الحقيقي الذي يعد في حد ذاته مدرسة تؤهل من لديه استعداد للإبداع الفني إلى إنماء هذا الاستعداد حتى يؤتي أينع ثماره الفنية؛ لذا رأينا الدكتور حمزة يوجب على الأجيال المتعاقبة تقدير هؤلاء الأفذاذ العباقرة، ويفهم ذلك من قوله:" وهؤلاء الذين وهب الله لهم الهبة يجب أن يتمتعوا دائما بتقدير الأجيال الأدبية المتعاقبة، وذلك على الأقل إبقاء على الفن، وإذكاء لروح الخلق، وضنا بالأدب العربي أن يفقد أغلى ما يعتز به ويفتخر به على الآداب الأخرى"

وما هذا البحث إلا استجابة لدعوة الدكتور حمزة السابقة التي نادى بها، وهي الاهتمام بأدب الأفذاذ من أعلام أدبنا العربي.

٤- موقف الدكتور أحمد أحمد بدوي:

من النقاد والباحثين الذين حظي أدب القاضي الفاضل باهتمامهم الدكتور أحمد أحمد بدوي الذي حقق عملين أدبيين من أعمال القاضي الفاضل ؛ أحدهما نثري " الدر النظيم من ترسل عبد الرحيم"[١]. أما الآخر فشعري، وهو " ديوان القاضي الفاضل" الذي قدم له بمقدمة تناول فيها بإيجاز حياة القاضي الفاضل ، وبعد ذلك أخرج المقدمة في كتاب مفصل تحت عنوان " القاضي الفاضل دراسة ونماذج" بعدما أضاف إليها نماذج من شعر القاضي الفاضل ونثره الفني وغير الفني.

أما موقفه من مذهب القاضي الفاضل الكتابي فيمكن الوقوف عليه من قوله بعد استعراضه للمراحل التي مر بها القاضي الفاضل حتى وصل إلى المستوى الذي أهله لريادة طريقة عرفت به في الكتابة وعرف بها:" وهكذا تدرب القاضي الفاضل على الكتابة الإنشائية وجعلها منثورة، وقد أخذ نفسه

---

[١] أدب الحروب الصليبية : ص٢٠٢

[١] سبق الوقوف عليه في دراسة مصادر نثر القاضي الفاضل الفني.

بإتقان فن الكتابة حتى اختط لنفسه طريقة عرفت به، وامتاز بها في زمانه وما تلاه من أزمان"[٢].

ويتضح موقف الدكتور أحمد بدوي أكثر من طريقة القاضي الفاضل الكتابية من قوله: " حتى ازدحمت رسائله بألوان الصناعة التي لم تحل بين القاضي الفاضل وبين أن يتناول برسائله جميع ما تتطلبه من شؤون داخلية وخارجية"[٣].

كما لاحظ الدكتور أحمد بدوي إعجاب معاصري القاضي الفاضل بكتابته، ولم يبد اعتراضا عليهم في هذا الشأن حيث سجل كل ما قاله العماد الكاتب في وصف الفاضل، ذلك الوصف المسهب الذي يحمل من المبالغة الشيء الكثير[٤].

واستدل على موقف أتباع القاضي الفاضل منه ومن طريقته بكلمة صاحب طبقات الشافعية في هذا الشأن، وهي :" اجتمع أهل الأدب على أن الله تعالى لم يخلق في صناعة الترسل من بعده مثله، ولا من قبله بأكثر من مئتي عام وربما زادوا، وهو كالشافعي وأبي حنيفة بين الفقهاء، بل هم له أخضع ؛ لأن أصحاب الإمامين قد يتنازعون الأرجحية، فكل يدعي أرجحية إمامه،أما هذا فلا نزاع من أهل الأدب فيه"[١].

ويرى الدكتور بدوي أنه على الرغم من مغالاة الفاضل في إظهار عواطفه في بعض رسائله فإنه نجح في التعبير إلى حد كبير عن إحساسه وشعوره، وقد جاء رأيه هذا في كتابة القاضي الفاضل في وصف الرسائل التي تضمنها : " الدر النظيم من ترسل عبد الرحيم" ؛ حيث قال:" غير أنه مما يلاحظ في هذه الرسائل أن كاتبها كثيرا ما كان يغالي في إظهار عواطفه، ويبالغ في تصويرها، فممدوحه المثل الأعلى للممدوحين، وشوقه نيران تتأجج في الصدور، ومودته باقية ما بقي الزمان، ومع ذلك نجح الكاتب إلى مدى بعيد في التعبير عن إحساسه وشعوره"[٢].

وقد سوّغ هذا الناقد تأنق القاضي الفاضل في كتابته باتخاذ هذا التأنق وسيلة لعرض أفكاره والتأثير في نفوس قارئيه، وأكد نجاح هذه الطريقة في الاستيلاء على قلوب معاصريه بأن قلدوه فيها، واتخذوه إماما لهم في الرسائل الإخوانية والرسائل السلطانية، وقد جاء رأي الدكتور بدوي هذا في طريقة الفاضل في مقدمة كتابه: (القاضي الفاضل دراسة ونماذج) ؛ حيث قال: " هذه دراسة لأحد أعلام الكتابة في الأدب العربي كان له طريقته في عرض

---

(٢) الدر النظيم من ترسل عبد الرحيم : ص٤

(٣) المصدر نفسه: ص١٤.

(٤) الروضتين : ج٢: ص٢٤٢

(١) طبقات الشافعية الكبرى : ج٤-٢٥٣

(٢) الدر النظيم من ترسل عبد الرحيم: ص٦

الأفكار؛ إذ كان يتأنق ما استطاع أن يتأنق، واجدا في ذلك وسيلة للتأثير في نفوس قارئيه، وقد استولت هذه الطريقة على قلوب معاصريه، فقلدوه واتخذوه إماما لهم في الكتابة الإخوانية، والرسائل السلطانية"[٣]

وهناك خاصية من خصائص طريقة الفاضل الفنية أشار إليها الدكتور بدوي، ولعل هذه الخاصية هي التي جرت على طريقته الكتابية النقد الكثير، وذلك لأن هذه الخاصية تنحصر في صعوبة الطريقة الكتابية على من لم يؤتوا القدرة على التعبير بها، مما جعل كل من يخفق في سلك هذه الطريقة ، يجسم هذه الصعوبة للناظر في الكتابة الفنية؛ مما جعل الكتابة الفنية تتدهور في نهاية العصر المملوكي والعصر العثماني بسبب إصرار الكتاب على السير في هذه الطريقة التي لا يقوى على السير فيها إلا كاتب أوتي القدرة على تطويع الألفاظ لما يريد من صناعة بديعية مثل القاضي الفاضل وتلاميذه المعاصرين له أو غير المعاصرين .

أما قول الدكتور بدوي الذي تضمن هذه الخاصية التي يدور حولها الحديث فهو:" وبرغم ما في طريقته من مشقة وعنت استطاع أن يعبر عما يجول في نفسه من عواطف لإخوانه، وأن يؤدي جميع ما تحتاج إليه الدولة في شؤونها السياسية والاجتماعية"[١]

٥- موقف الدكتور محمد زغلول سلام :

لاحظ الدكتور محمد زغلول سلام: " أن القاضي الفاضل امتاز بخصائص جعلته علما مبرزا في الكتابة، بل وقدوة ومعلما لجيل من الكتّاب ساروا على نهجه واهتدوا بطريقته"[١].

---

[٣] القاضي الفاضل دراسة ونماذج : ص٣.

[١]) القاضي الفاضل دراسة ونماذج: ص٣.

[١] الأدب في العصر الأيوبي: ص ٢٣١.

واستدل هذا الناقد على صدق رأيه في القاضي الفاضل وكتابته بما جاء في: (نهاية الأرب) على لسان النويري[٢]. كما أكد رأيه في كتابة الفاضل بقول ابن حجة الحموي: " ولعمري إن الإنشاء الذي صدر في الأيام الأموية، والأيام العباسية نسي وألغي بإنشاء الفاضل ، ولما اخترعه من النكت الأدبية والمعاني المخترعة، والأنواع البديعية، والذي يؤيد قولي العماد الكاتب في الخريدة أنه في صناعة الإنشاء كالشريعة المحمدية نسخت الشرائع"[٣].

وقد رد الدكتور سلام منزلة الفاضل العالية في فنه إلى قدرته على استخدام البديع وسيطرته على السجع، وحسن تصريفه للألفاظ حتى تطاوعه أو يطوعها للألوان البديعية المختلفة التي فتن بها الناس، وقد لاحظ أن الجناس أظهر ما برع فيه الفاضل؛ حيث يديره في عباراته في غير تكلف وإن كان قد بذل في استخراجه جهدا كبيرا، ولكنه يمرق أمام قارئه دون تعثر أو توقف ، وقد شبه الناقد الجناس والسجع في أسلوب الفاضل الذي يعتمد عليهما في تلوين كتاباته بالوشي المزخرف، والنمنمة العربية التي توشي بها البرود والطرز الجميلة التي تحلى بها الجدران، والسقوف والآنية والتحف العربية ؛ وذلك لأن أسلوب الفاضل كان فيه تتابع وتقارب مع تثن وانحناءات نتيجة هاتين الظاهرتين اللتين اعتمد عليهما في تلوين أسلوبه بالجرس الموسيقي المتتابع؛ مما جعل من الطبيعي أن يتحدث الشعراء بهذه القدرة الزخرفية الموسيقية في العبارة[٤]، واستدل الناقد على ذلك بما جاء على لسان ابن التعاويذي في وصفه رسائل الفاضل ؛ حيث قال:

تزهو على الأصداف أوراقها   لأنها أوعية الدر
قارئها ينظر في روضة   موشية الأقطار بالزهر
كأنه فضة وقد فضها   لطائم العطر على العطر
تجدد في أعطافه نشوة   كأنها جاءت على خمر[١]

كما لاحظ الدكتور محمد زغلول سلام أيضا اقتباس الفاضل من القرآن الكريم، وتفننه في الاستعانة بطريقة التضمين أو الإشارة أو التلميح[٢]
وخلاصة رأي الدكتور سلام في القاضي الفاضل وكتاباته تضمنها قوله:

---

[٢] انظر نهاية الأرب في فنون الأدب: ج ٨ ص١
[٣] الأدب في عصر صلاح الدين الأيوبي: ص٢٣٢، والكلام في كتاب ثمرات الأوراق في المحاضرات: ص٥١.
[٤] انظر: الأدب في الحروب الصليبية: ص٢٣٢.

[١] ديوان ابن التعاويذي : ص١٩٤، والأدب في عصر صلاح الدين الأيوبي: ص٢٣٣.
[٢] الأدب في عصر صلاح الدين الأيوبي : ص٢٣٤.

" وهكذا أصبح القاضي الفاضل أستاذا للكتّاب في عصره ومن بعده، أعجب به معاصروه وحاولوا معارضته و تقليده"[٣]. و استدل على ذلك بمعاصره ضياء الدين ابن الأثير للقاضي الفاضل في بعض كتاباته.

كما لاحظ أن تأثير القاضي الفاضل لم يقتصر على الكتّاب فقط، بل تعداه إلى الشعراء، واستدل على ذلك بما ذكره ابن شاكر بقوله:" إن الشاعر الماريني ابن الصفار قال:

ويوم قر بـــــــرد أنفاسه   تمزق الأوجه من قـــــرصها
يوم تود الشمس من بـــرده   لو جـــرت النار على قرصها

أخذه من قول القاضي الفاضل " في ليلة جمد خمرها، وجَمُد جمرها، إلى يوم تود البصلة لو ارتدت إلى قمصها، والشمس لو جرت النار قرصها"[٤]

الخاتمة

تناولت هذه الدراسة (أدب الرسائل في العصر الأيوبي – القاضي الفاضل نموذجا) ، وقد بدأت بمدخل يمهد لملامح البيئة في القرن السادس الهجري بمصر والشام، وقد توخيت فيها أن يكون حديثي عن الملامح بالقدر الذي يمسّ حياة القاضي الفاضل وأدبه ويؤثر فيهما، وذلك لبيان تفاعله مع أحداث عصره ، وتأثيرها في شخصيته وفي أدبه ، وبما يؤسس للقيم الموضوعية التي مثلت الأرض الخصبة لأدب الرسائل، وقد توسّعت قليلا في هذا المدخل ؛ لأن القاضي الفاضل كان أحد الفاعلين في رسم سياسة العصر، كونه وزير صلاح الدين ومشيره، وكاتب ديوانه .

ولما للبيئة من أثر ، بل آثار ، في حياة الناس، وفي حياة أهل الفن بوجه خاص ، وقد تظهر هذه الآثار ظهورا قويا واضحا، وقد تختفي اختفاء عصيا، وقد تكون بين الأمرين ، ولكن البحث البصير في رسائل القاضي الفاضل جعلني أضع بين يدي البحث هذا المدخل ، لتأثره بالبيئة التي عاشها ، وشارك في صناعتها.

وقد تصدّى الباب الأول لنقد الدراسات الحديثة للرسائل، وفيه بيان لمنزلة الرسائل من الدراسات الحديثة ، و به صنفت الدراسات السابقة التي اهتمت بالرسائل، وبيان غياب عنصر الأدبية فيها ، بحيث طغى عليها التصور التاريخي، وبينت فيها أنواع الرسائل، في الحديث عن الأدب وأجناس الرسائل، وقد أثرت مشكلة عدم ترسم الباحثين تطور تاريخ الرسائل الأدبية ، واستنباط منهج ملائم لها، بما يمكّن من إبراز خصائص الرسائل، وبينت عزل الباحثين

---

(٣) المرجع نفسه : ص٢٣٤.
(٤) فوات الوفيات : ج٢-ص١٩٦، والأدب في عصر صلاح الدين الأيوبي : ص٢٣٨.

النماذج الأدبية في الرسائل بعضها عن بعض، ولم يتنبهوا إلى إسهامها في تكوين ملامح معنى من المعاني أو أسلوب من الأساليب أو غرض من الأغراض..

ثم درست الرسالة والمصطلحات الموازية لها وتطورها وتتبعت الفروق بينها، مع تطورها الدلالي، من خلال معانيها اللغوية والسياقية.

و انطلاقا من أن الثقافة الواسعة تنتج أدبا واسع المدى، فقد أوليت ثقافة الكاتب عناية خاصة، و بها درست أدوات الكاتب من مفهوم العصر الأيوبي، وقد حددت معالم تلك الثقافة.

وجاء الباب الثاني ليرسم معالم شخصية القاضي الفاضل والحياة الأدبية في عصره ، وتتبعت الروايات التاريخية عن حياته ، وقمت بترجيح الروايات العالية فيها، ودرست ثقافته وأثره في معاصريه من الكتاب، وتتبعت حياته وتطورها من بداياته إلى وفاته، مرورا بعصره الذهبي في كنف صلاح الدين الأيوبي وخلفائه.

أما مذهب القاضي الفاضل في الكتابة فقد أوليته اهتماما خاصا؛ لأنه محور الدراسة، وفيه حددت آثاره التي اعتمدتها في الدراسة، ومضمون تلك الآثار، وكان للحروب مع الصليبيين والبعد الديني نصيب الأسد من تلك الآثار، وقد كان ممن أرخوا لتلك الحروب برسائله ، وكان شاهدا على ذلك العصر، فدعا إلى الوحدة الإسلامية من خلال إيمانه المطلق بأن القوة الحقيقية للإسلام إنما تكمن في وحدة الصف وتوحيد قوى المسلمين في مواجهة الغزاة ، وقد جسد أدبه هذه القيم خير تجسيد، وكان بارعا في وصف الجيش الصليبي، من أجل تصوير خطرهم الحقيقي ، وتعظيم دور المسلمين في محاربتهم ، وبرع في وصف حروب الحصون والقلاع .

و كان لصلاح الدين- بوصفه البطل الذي تجسّد في رسائل القاضي الفاضل -نصيب من الدراسة؛ لأن القاضي الفاضل خير من جسّد لنا هذه الشخصية العظيمة في التاريخ الإسلامي الطويل، وله في ذلك شواهد عظيمة تشهد له بطول الباع في وصف هذه الشخصية وتتبع مسيرتها الطويلة منذ توزيره للفاطمي إلى وفاته .

ثم كان لابد لي من بيان عوامل تأثير مذهبه الفني في عصره، ومنها مكانته السياسية والأدبية، وسلوكه الاجتماعي، وانسجام مذهبه الفني مع الذوق العام للعصر الأيوبي.

وأتيت في الدراسة على تأثير مذهبه الفني في نثر معاصريه، وحددت فيه من تتلمذ على يديه، ومن نشأ في كنف مذهبه، واخترت ثلاثة من الكتاب وهم العماد الأصفهاني، وضياء الدين ابن الأثير، ومحيي الدين بن عبد الظاهر، وقد بينت مواطن التأثير عند كل منهم .

وبعد أن اكتملت الدراسة الموضوعية أتى الباب الرابع ليتحدث عن الخصائص الفنية لمذهب القاضي الفاضل الكتابي، وفيه درست ثقافته التي تبدت في رسائله، ومنها القرآن الكريم والموروث الديني، فقد تبين أنه اتكأ على المادة القرآنية، وهي خاصية تلفت النظر في أدبه، فقد استغل القرآن الكريم استغلالا فنيا صرفا، واتخذ منه صبغا من أجمل أصباغه الفنية التي ألف بينها بطريقة فاتنة.

وقد افتن في استخدام المادة الدينية، ومنها الحديث النبوي الشريف،إلى جانب إلمامه بالاعتقادات والديانات الأخرى كالنصرانية والوثنية .

وكانت الثقافة الأدبية الواسعة رافدا آخر من روافد ثقافته التي عملت على تكوينه العقلي والبياني، وأمدته بكثير من الألفاظ والمعاني، ومن الروافد ألأخرى الثقافة التارخية الواسعة ، ولم تقتصر تلك الثقافة على التاريخين العربي والإسلامي فحسب ، بل تجاوزت ذلك إلى الاطلاع على تاريخ الدولة الرومية ، والمدن الإيطالية ، وغيرها من الأمم والشعوب التي كانت على علاقة بالفرنج الذين يحاربهم سلطانه.

وأما الشعر فقد كان له نصيب كبير في الاستشهاد والتضمين ، وقد افتنّ في الاتكّاء على الشعر : نثرا وتضمينا واقتباسا، وكان صاحب طريقة عرفت به ، وتبعه فيها تلاميذه.

وكان لوظائف التداخل بين النصوص في رسائله نصيب من اتلبحث ، وقد استخصلت من النصوص المحفوظة في رسائله إدراجا صريحا أو ضمنيا ، ومن تحويل الأجناس ألأدبية جملة وظائف منها : الوظيفة البيانية والتعليمية ، والتي ظهرت في مستوى الجملة النثرية القائمة على التخييل ، وبها يتم إثراء الجانب الوصفي والتصويري ، وكان يعول بها على مراجعه ومخزونه الثقافي ، والأدبي المشترك بينهم وبين القراء، وبلغت نزعة تغليب الاستحضار على الابتكار ذروتها في رسائل العصر الأيوبي .

ومنها الوظيفة الإيحائية ؛ فكان الشاهد الأدبي يمثل قطعة من نص يحيل عليه الكاتب ، فيحول السياق الذي يتضمن ذلك الشاهد إلى مجال من الدلالات التي تستوعب جنسا من أجناس الكلام .

وكان للوظيفة التكوينية أثر واضح في توليد المعاني من الشواهد المدرجة في الرسائل ، وبرزت في استمداد بنية الرسالة من العناصر الأسلوبية أو المعنوية التي يتضمنها الشاهد الأدبي ، فكان الكاتب يتبنى مضمون الشاهد ويحوره بما يتلاءم مع الموقف .

ومثل الشاهد الأدبي ذو الوظيفة الإقناعية نوعا من أنواع الأدلة في الحجاج ، وفي مواقف حرجة تحتاج إلى سند نقلي قيل في مقام مطابق للمقام الذي تكتب فيه الرسالة.

و تبين للباحث من دراسة الخصائص الفنية العامة لطريقة القاضي الفاضل أن طريقته اتسمت بخصائص عدة ميزتها من كتابات الكتّاب الذين سبقوه، وكان أثرها واضحا في كتابات تلاميذه من الكتّاب الذين عاصروه والذين أتوا من بعده، وهذه الخصائص هي : طول العبارة مما تجاوز ما كان عند الكتاب قبله ، والتزام السجع في كل كتاباته التزاما لم ير من قبل عند أحد من الكتاب الذين سبقوه ، والإكثار من الجناس كثرة ملحوظة تكاد لا تخلو منها عبارة من عباراته ،و الإفراط في الموازنة ، ومراعاة النظير ، والتورية، والإفراط في الاستشهاد بالشعر وتضمينه ونثره ، ولاسيما في الرسائل الإخوانية ، وكثرة الاقتباس من القرآن الكريم، وحلّ معانيه كثرة تجاوزت كل ما جاء في هذا اللون البديعي عند الكتاب الذين سبقوه ، ولاسيما في الرسائل الديوانية ، فضلا عن الإكثار من الصور البيانية ومزجها بالألوان البديعية مزجا فيه كثير من التعقيد، و ظهرت هذه الخصائص من خلال تحليل بعض النصوص من كتاباته ، و أفردت بعد الفراغ من ذلك وقفة خاصة للحديث عن كل من التورية ، والشعر ، والقرآن الكريم ، والصور البيانية أو الخيال في رسائله.

أما التورية فهي من المحسنات البديعية التي أكثر القاضي الفاضل منها في مكاتباته، و عدت في عصره والعصور التي تلته من أغلى فنون الأدب ، ومن أرقها وأدقها بين مسالك التعبير، ومن أعلاها رتبة، وهي تنم بحسن اختيارها ولطف ابتكارها عن ذوق سليم، وطبع قويم، وحسن لطيف.

و ظهر لي أن القاضي الفاضل من المبرزين في هذا اللون البديعي، وقد أشاد به أشهر من كتبوا عن التورية ؛ فقد اتضح أنه الذي ذلّل صعابها ، ومهّد لها بالأمن مخاوفها، فارتشف من هذه السلافة أهل عصره، ومن نزل ربوع مصر، فرفعوا لواء التورية.

أما السجع فقد التزمه القاضي الفاضل ، و أكثر منه في رسائله؛ ذلك لأن السجع كان أسلوبا عاما للكتابة في عصره، وقد التزمه معظم الكتاب في تلك الفترة في الشعر والنثر على حد سواء،وربما تجاوزوا ذلك إلى فنون الكتابة الأخرى ، وقد كانوا يدافعون عن استعماله والأخذ به أمام من يعيبون عليهم ذلك،وكان السجع في رسائله يأتي وفقا لطبيعة الموقف ومقتضيات الظروف ، وهو مرتبط بحالته النفسية .

وأما الجناس فقد أكثر منه الفاضل مستغلا تماثل الألفاظ وتقاربها من أجل أن يدخل في بنائه الفني إيقاعا موسيقيا خاصا ذا أثر في النفوس ،و اعتمد عليه الفاضل في تلوين أسلوبه بالجرس الموسيقي المتتابع ".

و بدا لي من كتاباته مفتونا بالجناس بنوعيه: التام والناقص.

وأما الطباق والمقابلة، فاتكأ الفاضل عليهما من أجل التوضيح وتأكيد المعنى المراد ؛ ذلك لأن الطباق بما فيه من اجتماع الأضداد من شأنه أن يوضح ويبين

ويجلي . و لما كان القاضـي الفاضـل يسعى إلـى نقل صـورة واضـحة موضـحة عن عصره، فقد أكثر من استخدام الطباق والمقابلة في كتاباته.

وتبين لي أن الفاضل لا يسعى من وراء استخدامه للطباق والمقابلة في كتاباته إلى مجرد الزخرفة والتنميق أو التلاعب بالألفاظ ، من أجل إرضاء ذوق عصره، بل كان يسعى كذلك إلى توضيح أفكاره ومعانيه وقد أسعفه في ذلك كله خياله الواسع، ومخزونه الثقافي، ومقدرته على استعمال الألفاظ وتطويعها.

وقد أثبت البحث أن في رسائل الفاضل صورا أخرى من المحسنات اللفظية والمعنوية التي أتى بها لتلوين أسلوبه وتوضيح معانيه، كالتضمين، والتقسيم، ومراعاة النظير، وغيرها من ألوان البديع التي افتتن بها عصره.

أما في مجال خصائص مذهبه الفني في مستوى الألفاظ والتراكيب ، فقد درست الأسلوب ، وتبين لي أنه اتّبع في رسائله طرائق وأساليب عدة ، سعيا وراء الاستثارة العاطفية وإبراز المخاطر التي كانت تتهدد الإنسان المسلم وأرضه، ومن أجل ذلك اتسم أسلوبه بمجموعة سمات يدركها الدارس إذا دقق في رسائله التي كتبها في العهد الأيوبي كالمبالغة والتكرار، واستعمال المصطلحات، والاتجاه الخطابي، واصطناع أسلوب القصة، واستعمال أنماط مختلفة من الجمل ما بين إنشائية وخبرية ومعترضة، وقد يعمد في مواضع معينة في رسائله إلى الجنوح إلى المبالغة فيما يصفه أو يتحدث عنه ، إلى جانب ميله إلى استعمال الأسلةب الخطابي القائم على الوعظ ، إلى جانب ميله إلى ألأسلوب القصصي الذي سار فيه على نهج الحكايات ، فغدت به بعض رسائله سلسلة من المواقف والأحداث المتصلة.

أما في مجال استخدامه لمفرداته اللفظية فقد احتلت اللفظة مكانة مهمة في رسائله، وكانت من أهم أركانها الأساسية التي تقوم عليها، وذلك لأن الكلمة عنصر من عناصر العمل الأدبي، وعامل من أقوى العوامل التي تتوقف عليها قيمته الجمالية، والأداء الفني الجميل. وهذا الأخير أساسه الدقة في اختيار الكلمة، ووضعها في بيئتها وامتزاجها مع معناها إذ ليس هو في مجموعة إلا طائفة من الكلمات المؤتلفة المعبرة .

و كانت عناية الفاضل بألفاظه واهتمامه بها قد دفعته إلى الاهتمام بجمله، فهو يحرص على إقامة التعادل والتوازن فيها، ويهتم بائتلافها مع قرائنها التي تجاورها من أجل أن يحدث الإيقاع الموسيقي المطلوب داخل جمله ،ويضفي على أسلوبه رونقا وجمالا.

وتبين لي أنه كان ينزع في رسائله إلى الإيجاز بأشكاله المتعددة ، فقد كان توخي أساليب الإيجاز في رسائله يؤلف في حركة الترسل طابعاً مميزاً لعلاقات التخاطب بين المترسلين المنتمين إلى مراتب اجتماعية مختلفة، فهو لا يرمي إلى تحقيق غايات بلاغية فحسب، بل يهدف إلى إبراز هوية المترسل

وصلته بالمخاطب، ودعم صورته عنده،وقد لاحظت أن لهذا الوضع كذلك أثرا في صناعة الصورة الفنية،فقد كان للتباعد في المكان ولفضاء الكتابة دور في توليد جانب من الإنشاء ينزع فيه الكتّاب إلى صياغة العبارة النثرية في أقوال شعرية، في المعنى العام للعبارة الشعرية، أي القول المخيّل المنظوم، و لاحظت كذلك أن هذه الآثار تظهر على نحو خاص في مقاصد الترسل التي نازعت بها الرسائل أغراض الشعر.

وفي مجال الخيال و الصورة الفنية فإن الدارس لرسائل الفاضل ، يرى بوضوح ظاهرة ازدحام الصور واكتظاظها، فهو يتكىء على الخيال بأنواعه المختلفة: من تشبيه واستعارة وكناية ومجاز، بعد أن يركّب منها صورا كليّة منها صور كلية متضامنة متناسقة، لكي يتخذ منها وسائل للتعبير عمّا يعتمل في نفسه من مشاعر وأفكار، ويوصلها إلى متلقيه توصيلا معبر وموحيا؛ حتى غدت رسائله معرضا غنيا بالصور البيانية المتنوعة ؛ ذلك لأن الأدب من غير هذه الألوان يصبح كتلة جامدة لا أثر للحياة فيه، فهي جزء ضروري يمده بالحياة .

وأما المصادر التي استقى الفاضل منها صوره فكثيرة متنوعة، فهي مستقاة من روافد متعددة، كان من أهمها: الموروث الديني، والشعري، وغيره مما يجب على الكاتب أن يلم به من أدوات الكاتب المعتمدة في عصره.

وفيما يتعلق بالبناء الفني للرسالة ، فقد تنوعت افتتاحياته بين الحمدلة ، والصلاة على النبي ، والافتتاح بأما بعد ، والافتتاح بالدعاء ، والافتتاح بالقرآن الكريم والأخبار النبوية والشعر ، والافتتاح بلفظ التصدير ، وتنوعت أيضا في الأجوبة .

وكان يلتزم بصيغ معينة في مقامات الخطاب ، من مثل خطاب الخلفاء ، والملوك ، والأصاغر ، والوزراء وأعيان الدولة، وقد افتن في الألقاب والنعوت في خطابه ، فلكل مقام لقب يليق به.

و أفردت فصلا خاصا لدلالات الأساليب في رسائله ، ودرست فيه الأسلوبين الخبري والإنشائي .

فأما في الأسلوب الخبري ، فقد درست علاقة الجمل الفعلية والاسمية ، ودلالة كل منهما في السياق.

وأما في الأسلوب الإنشائي فتوقفت عند بعض الأساليب الإنشائية من مثل الاستفهام ، والأمر ، والدعاء ، والنداء .

ولآن معيار التقليد والابتكار من أهم معايير تقييم الأعمال الفنية ، فقد أوليت عناية خاصة ، وتتبعت مراحل تكوينه الأدبي بين التقليد والابتكار .

وكان الباب الخامس في مواقف النقاد من المذهب الفاضلي في الكتابة ، وهم الدكتور محمد كامل حسين، والدكتور شوقي ضيف، والدكتور عبد

اللطيف حمزة، والدكتور أحمد أحمد بدوي ، والدكتور محمد زغلول سلام، و وقفت عند أرائهم النقدية ، بالنقد والترجيح .

المصادر والمراجع

١-ابن الأثير وجهوده في النقد – محمد زغلول سلام- مطبعة منشأة المعارف الاسكندرية – بدون تاريخ

٢-ابن سناء الملك – حياته وشعره – ابن سناء الملك – ت : محمد إبراهيم – نشر دار الكتاب العربي للطباعة والنشر – القاهرة ١٩٦٨.

٣-إتحاف الأخِصّا بتاريخ وفضائل المسجد الأقصى – مخطوط ، ومنه نسخة على ميكروفيلم بمركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الأردنية رقم (٥٩٧).

٤- إحكام صنعة الكلام – الكلاعي- تحقيق محمد رضوان الداية – ط. دار عالم الكتب – بيروت ١٩٨٥.

٥- أدب الحروب الصليبية – عبد اللطيف حمزة- دار الفكر العربي- القاهرة –ط١-١٩٤٩م ، وطبعة بيروت سنة١٩٨٤م ، وهي مصورة عن الطبعة الأولى.

٦-أدب الدول المتتابعة – عمر موسى باشا- دار الفكر الحديث دمشق ١٩٦٧م.

٧- الأدب في العصر الأيوبي- محمد زغلول سلام – دار المعارف – القاهرة – ط١- ١٩٦٧م.

٨- الأدب في موكب الحضارة الإسلامية – مصطفى الشكعة- مكتبة الأنجلو – القاهرة- ١٩٦٨م.

٩- الأدب المصري من قيام الدولة الأيوبية إلى مجيء الحملة الفرنسية – عبد اللطيف حمزة – مكتبة النهضة المصرية – القاهرة (بلا تاريخ).

١٠- أدب الكاتب – الصولي – ت: محمد بهجت الأثري – المطبعة السلفية– القاهرة ١٩٢٢م.
١١-أساس البلاغة – الزمخشري – ت: عبد الرحيم محمود – دار المعرفة للطباعة والنشر- بيروت –لبنان ١٩٧٩/.
١٢- أساليب بلاغية – أحمد درويش – مطبعة وكالة المطبوعات- الكويت ٢٧ ش فهد السالم.
١٣- أسس النقد الأدبي عند العرب – أحمد أحمد بدوي – دار نهضة مصر للطبع والنشر ١٩٧٩.
١٤-الأسلوب – أحمد الشايب- النهضة المصرية- القاهرة –ط٦- ١٩٦٦م.
١٥- الأصول الفنية للأدب عند العرب – أحمد أحمد بدوي – دار نهضة مصر للطبع والنشر١٩٧٩م.
١٦- الاعتبار – ابن منقذ الشيرازي- حرره فيليب حتّي- مطبعة جامعة برنستون – ١٩٣٠.
١٧-الأغاني - الأصفهاني- طبعة بولاق ١٢٨٥هـ- دار الكتب المصرية ١٢٨٥هـ-١٩٢٧م.
١٨-الإفادة والاعتبار في الأمور والمشاهدات والحوادث المعاينة بأرض مصر- البغدادي (٦٢٩هـ) ت: سلامة موسى – القاهرة- (بلا تاريخ).
١٩-الإلمام بالأعلام- النويري (٧٧٥هـ)- ت: محمد عبد المعيد خان- حيدر آباد – الدكن – الهند – ط١- ١٩٦٨م.
٢٠- إنباه الرواة على أنباه النحاة – القفطي- ت: محمد أبو الفضل إبراهيم - القاهرة – ط١- ١٩٥٢م.
٢١- الأوراق- الصولي (٣٣٥هـ) تحقيق ونشر ج. هيورث ،دن ط٣- دار المسيرة – بيروت ١٩٨٣
٢٢- الإيضاح - القزويني - ت: محمد محيي الدين عبد الحميد – مطبعة القاهرة.
٢٣-البداية والنهاية- ابن كثير(ت٧٧٤هـ) – الرياض ط١- ١٩٦٦م.
٢٤-بدائع البدائة- ابن ظافر (ت ٦١٣هـ) ت: محمد أبو الفضل إبراهيم- مكتبة الأنجلو المصرية – القاهرة -١٩٧٠م.
٢٥-البرهان في علوم القرآن – الزركشي – ت: محمد أبو الفضل إبراهيم – ط دار إحياء الكتب العربية – القاهرة ١٩٥٧.
٢٦- البرهان في وجوه البيان – ابن وهب ت: أحمد مطلوب وخديجة الحديثي – ط العاني – بغداد ١٩٦٧م.
٢٧- الاستدراك في الرد على رسالة ابن الدهان المسماة بالمآخذ الكندية من المعاني الطائية-ت: حفني محمد شرف – مطبعة مكتبة الأنجلو المصرية – القاهرة ١٩٥٨م.

٢٨- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة – السيوطي(ت: ٩١١هـ) – محمد أبو الفضل إبراهيم – مطبعة عيسى الباب الحلبي – القاهرة-ط١-١٩٦٤م.
٢٩- بناء القصيدة في النقد العربي.- الدكتور يوسف حسين بكار- مطبعة دار الأندلس .
٣٠- البنيات الصوتية.- مطبعة منشأة المعارف الاسكندرية.
٣١- البنية القصصية في رسائل الغفران – حسين الواد – الدار العربية للكتاب – تونس ١٩٧٧م.
٣٢-البيان والتبيين – الجاحظ(٢٥٥هـ) ت: عبد السلام هارون – مكتبة الخانجي – القاهرة – ط٣ -١٩٦٨م.
٣٣- تاج العروس في جواهر القاموس- الزبيدي (١٢٠٥هـ) – ت: مصطفى حجازي _ مطبعة حكومة الكويت...
٣٤- تاريخ الأدب الأندلسي – إحسان عباس – ط٣- دار الثقافة – بيروت ١٩٦٩م.
٣٥-تاريخ ابن الفرات – ابن الفرات (٨٠٧هـ) ت: حسن محمد الشماع- جامعة البصرة-١٩٦٧م.
٣٦- تاريخ ابن كثير.(البداية والنهاية) – ابن كثير – مطبعة السعادة – القاهرة ١٩٣٢م .
٣٧- تاريخ الترسل النثري عند العرب في صدر الإسلام – د. محمود مقداد – دار الفكر المعاصر دمشق – ط١- ١٩٩٣ م.
٣٨- تاريخ دولة آل سلجوق (اختصار الفتح البنداري) – دار الآفاق الجديدة – بيروت ١٩٧٨م.
٣٩- تاريخ سورية ولبنان وفلسطين – فيليب حتّي – ترجمة كمال اليازجي – راجعه وأشرف على تحريره جبرائيل جبور – دار الثقافة – بيروت ١٩٥٩م.
٤٠- تاريخ مصر الاجتماعي والاقتصادي – أحمد صادق – القاهرة – ط ١- ١٩٧٩م.
٤١- تاريخ مصر الإسلامية زمن سلاطين بني أيوب – ابن ميسر – طبعة المعهد العلمي الفرنسي بمصر١٩١٩م.
٤٢- تراث فارس – آربري ومجموعة من المستشرقين – نقله إلى العربية مجموعة من أساتذة كلية آداب القاهرة ، واشترك في كتابته وراجعه د. يحيى النشار – نشر عيسى البابي الحلبي ١٩٥٩م.
٤٣- الترسل في القرن الثالث الهجري – فوزي سعد عيسى – دار المعرفة الجامعية الاسكندرية ١٩٦٩م.

٤٤- تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي – أنيس المقدسي – ط٤- دار العلم للملايين – بيروت ١٩٦٨م.
٤٥-تتمة المختصر في أخبار البشر – ابن الوردي (٧٤٩هـ) ت: أحمد رفعت البدراوي- دار المعرفة بيروت – ط١- ١٩٧٠م.
٤٦-التكملة لوفيات النقلة – المنذري (٦٥٦هـ) – ت: بشار عواد معروف – العراق -١٩٦٩م.
٤٧- التوجيه الأدبي- طه حسين وعبد الوهاب عزام – دار المعارف – مصر ١٩٧٩
٤٨- ثمرات الأوراق في المحاضرات – ابن حجة الحموي (٨٣٧هـ) – تقديم وشرح مفيد قميحة- دار الكتب العلمية – بيروت –ط١-١٩٨٣م.
٤٩- الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور – ابن الأثير الجزري– ت: مصطفى جواد جميل سعيد – المجمع العلمي العراقي ١٩٥٦م.
٥٠- الجامع المختصر – ابن الساعي – نشر مصطفى جواد ، الطبعة السريانية الكاثوليكية، بغداد ١٩٣٤ م.
٥١- جمهرة رسائل العرب – أحمد زكي صفوت –ط مطبعة مصطفى البابي الحلبي.
٥٢-الحركة الفكرية في مصر في العصر الأيوبي والمملوكي الأول بمصر والشام – نشر دار الفكر العربي – ط١ – ١٩٤٧م.
٥٣-الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي – محمد سعيد كيلاني – القاهرة – ط٢- ١٩٨٤م.
٥٤- حسن التوسل إلى صناعة الترسل – الحلبي (٧٢٥هـ) – ت: أكرم عثمان – دار الرشيد للنشر – بغداد العراق -١٩٨٠م.
٥٥- حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة – السيوطي(٩١١هـ) – طبع مصطفى فهمي – مطبعة الموسوعات – القاهرة (بلا تاريخ).
٥٦-الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام – طبعة دار نهضة مصر للطبع والنشر-ط ٢- القاهرة ١٩٧٩م.
٥٧- الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام – أحمد أحمد بدوي – دار نهضة مصر – القاهرة -١٩٧٢م.
٥٨- الحياة الفكرية والأدبية بمصر من الفتح حتى آخر الدولة الفاطمية- محمد كامل حسين – مطبعة دار النهضة المصرية- القاهرة – بدون تاريخ.
٥٩- الحيوان – الجاحظ – ت: عبد السلام محمد هارون –طبعة دار الجيل – بيروت ١٩٨٨م.

٦٠- خريدة القصر وجريدة العصر (قسم شعراء الشام) – العماد الأصفهاني(٥٩٧هـ) ت: شكري فيصل- المطبعة الهاشمية – دمشق ١٩٥٥-١٩٥٩-١٩٦٤م.
٦١-خريدة القصر وجريدة العصر (قسم شعراء مصر) – العماد الأصفهاني(٥٩٧هـ) ت: أحمد أمين ، وشوقي ضيف، وإحسان عباس- لجنة التأليف والترجمة والنشر- القاهرة ١٩٥١م.
٦٢-خزانة الأدب – البغدادي- ت: محمد محيي الدين عبد الحميد ..
٦٣- الخطط (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار)-المقريزي- القاهرة – طبعة مطبعة الساحل الجنوبي – الشياح لبنان.
٦٤- خطط الشام – محمد كرد علي – مطبعة الترقي- دمشق- ١٩٢٦- - طبعة بيروت ١٩٧١م.
٦٥- دائرة المعارف الإسلامية
٦٦- الدارس في تاريخ المدارس – النعيمي –ت: جعفر الحسيني – مطبعة الترقي– دمشق ١٩٤٨م.
٦٧- دراسات في التاريخ الإسلامي – جمال الدين الشيال – دار الثقافة – بيروت – لبنان.
٦٨- دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين – محمد كامل حسين – دار الكتاب العربي – مصر – ١٩٥٧م.
٦٩- الدر النظيم من ترسل عبد الرحيم – ابن عبد الظاهر (٦٩٢هـ) – ت: أحمد أحمد بدوي – مكتبة نهضة مصر – القاهرة (بلا تاريخ).
٧٠-ديوان ابن التعاويذي- ابن التعاويذي – ت: مرجليوث – ط مطبعة المقتطف بمصر ١٩٠٣م.
٧١- ديوان ابن سناء الملك – ابن سناء الملك (٦٠٨هـ) ت: محمد عبد الحق – دائرة المعارف العثمانية – حيدر آباد – الدكن- الهند – ط١- ١٩٥٨م.
٧٢- ديوان ابن عنين – ابن عنين (٦٣٠هـ) ت: خليل مردم بك – دمشق- ١٩٤٦م.
٧٣-ديوان ابن المعتز – ابن المعتز (٢٩٦هـ) بيروت ١٩٨٠م.
٧٤- ديوان أبي تمام – أبو تمام (٢٢١هـ) ت: محمد عبده عزام – دار المعارف المصرية – القاهرة ١٩٦٤م.
٧٥- ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح العكبري :(التبيان في شرح الديوان) – المتنبي (٣٥٤هـ) – ضبطه وصححه مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري ، وعبد الحفيظ شلبي- دار المعرفة – بيروت ١٩٧٨م.
٧٦- ديوان البحتري – البحتري- ت: حسن كامل الصيرفي – مطبعة دار المعارف- ط٣- مطبعة هندية بمصرر -١٩١١م.

٧٧- ديوان الحطيئة – الحطيئة (٥٩هـ) – ت: نعمان أمين طه – مكتبة البابي الحلبي- القاهرة ط١- ١٩٧٠م.
٧٨- ديوان العماد الأصفهاني – العماد الأصفهاني (٥٩٧هـ) – ت: ناظم رشيد – جامعة الموصل – ط١- ١٩٨٣م.
٧٩- ديوان القاضي الفاضل – القاضي الفاضل (٥٩٦هـ) – ت: أحمد أحمد بدوي- القاهرة – ١٩٦١م.
٨٠- ديوان قيس بن الخطيم – قيس ابن الخطيم- ت: ناصر الدين الأسد – مكتبة دار العروبة- القاهرة –ط١- ١٩٦٢م.
٨١- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة-ابن بسام- القسم الرابع – مطبعة الترجمة والنشر – إصدار كلية الآداب جامعة القاهرة – ١٩٣٩م.
٨٢- ذيل تاريخ دمشق: ابن قلاقس- ت: سهيل زكار – دار حسان – دمشق ١٩٨٣م.
٨٣- الذيل على الروضتين-أبو شامة – منشورات محمد علي بيضون- درا الكتب العلمية – بيروت لبنان – ط١ -٢٠٠٢
٨٤- رحلة ابن جبير – ابن جبير (٦١٤هـ) دار الكتاب اللبناني – بيروت- ودار الكتاب المصري – القاهرة (بلا تاريخ).
٨٥-رسائل البلغاء – محمد كرد علي – ط٤- مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة ١٩٥٤م.
٨٦- رسائل الحرب والسلام من ترسل القاضي الفاضل – ابن الديباجي ت: محمد نغش – القاهرة ط٢- ١٩٨٤م.
٨٧-رسائل الخوارزمي – الخوارزمي (٣٨٣هـ) – ت: نسيب وهيبة الخازن- منشورات دار مكتبة الحياة – بيروت ١٩٧٠م.
٨٨- رسائل ضياء الدين ابن الأثير.- ابن الأثير – ت: أنيس مقدسي – مطبعة المجمع العلمي العراقي عن مخطوطة ترجع إلى القرن السابع الهجري.
٨٩- رسائل الهمذاني – الهمذاني (٣٩٨هـ) –ط٢- مطبعة هندية – القاهرة ١٩٢٨م.
٩٠- رسائل ومقامات أندلسية.- فوزي سعد عيسى = ط منشأة المعارف – الاسكندرية مصر
٩١- رسالة الأزهار –ابن الأثير- تحقيق هلال ناجي – مطبعة جامعة الموصل- المكتبة الوطنية – ١٤٠٣-١٩٨٤
٩٢-رسوم دار الخلافة – الصابي- ت: ميخائيل عوّاد – ط . مكتبة العاني – بغداد ١٩٦٤ .

٩٣- الروضتين في أخبار الدولتين (النورية والصلاحية) – أبو شامة (٦٥٦هـ) ت: محمد حلمي – مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة.
٩٤- زهر الآداب وثمر الألباب -أبو إسحق الحصري – ط٠ – المطبعة الرحمانية بمصر ١٩٢٥م.
٩٥- سفر نامة – ناصر خسرو علوي (١٠٨٨هـ) – ترجمة يحيى الخشاب – دار الكتاب الجديد- بيروت – ط٣- ١٩٨٤م.
٩٦- السلوك لمعرفة دول الملوك – المقريزي (٨٤٥هـ) – صححه محمد مصطفى زيادة- القاهرة – ط٢- ١٩٥٦م.
٩٧- سياسة صلاح الدين الأيوبي.- دريد عبد القادر نوري- مطبعة الإرشاد – بغداد ١٩٧٦م.
٩٨-سير أعلام النبلاء- الذهبي(٧٤٨هـ) – ت: بشار عواد ومحييي هلال – مؤسسة الرسالة – بيروت ط١- ١٩٨٤ م.
٩٩- السيرة النبوية – ابن هشام (٢١٣هـ) – ت: محمد فهمي السرجاني – مكتبة التراث الإسلامي – حلب (بلا تاريخ).
١٠٠- شذرات الذهب في أخبار من ذهب – ابن العماد الحنبلي (١٠٨٩هـ) مكتبة القدسي – القاهرة ١٣٥٠ هـ.
١٠١- الشرق الأدنى في العصور الوسطى- السيد الباز العريني – دار النهضة – بيروت ١٩٦٧م.
١٠٢- شعر الحرب في العصر الجاهلي- علي الجندي – مكتبة الجامعة العربية – بيروت – ط٣ ١٩٦١م.
١٠٣- الشعر كيف نفهمه ونتذوقه- إيليزابيث دور- ترجمة محمد الشوش- بيروت ١٩٦١م.
١٠٤- صبح الأعشى في صناعة الإنشا – القلقشندي (٨٢١هـ) – شرحه وعلق عليه محمد حسين شمس الدين – دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع – ط١ -١٩٨٧م.
١٠٥- صبح الأعشى في صناعة الإنشا – القلقشندي (٨٢١هـ) –نسخة مصورة عن الطبعة ألأميرية – وزارة الثقافة والإرشاد القومي – القاهرة – ١٩٦٣م.
١٠٦-صحيح البخاري – البخاري (٢٥٦هـ) مطابع الشعب -١٣٧٨هـ.
١٠٧- صحيح مسلم – مسلم (٢٦١هـ) – المطبعة المصرية – القاهرة – (بلا تاريخ)
١٠٨-الصناعتين (الكتابة والشعر) – العسكري (٣٩٥هـ) –ت: علي البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم – مطبعة عيسى البابي الحلبي – القاهرة – ط٢ – ١٩٧١م.

١٠٩- الصورة الفنية في شعر أبي تمام – عبد القادر الرباعي- جامعة اليرموك – إربد – الأردن – ط١- ١٩٨٠م.
١١٠- ضياء الدين ابن الأثير وجهوده في النقد – ضياء الدين ابن الأثير – نشر مكتبة نهضة مصر – القاهرة.
١١١- طبقات الشافعية – الأسنوي (٧٧٢ هـ) – ت: عبد الله الجبوري – ط١- بغداد ١٩٧١م.
١١٢- طبقات الشافعية : السبكي(٧٧١هـ) ت: محمود الطناحي ، وعبد الفتاح الحلو – مطبعة عيسى البابي الحلبي – القاهرة ط١- ١٩٧٠.
١١٣-العبر في خبر من عبر – الذهبي (٧٤٨هـ) –ت: بشار عواد، ومحيي هلال – مؤسسة الرسالة – بيروت –ط١ ١٩٨٤ م.
١١٤- العصر العباسي الأول – شوقي ضيف – دار المعارف ١٩٦٣م.
١١٥- العقد الفريد – ابن عبد ربه – ت: محمد سعيد العريان – مطبعة الاستقامة ١٩٤٠م.
١١٦- العمدة – ابن رشيق القيرواني (٤٥٦هـ) ت: محمد محي الدين عبد الحميد – دار الجيل – بيروت – ط٤ – ١٩٧٢هـ.
١١٧- عيون الأنباء في طبقات الأطباء – ابن أبي أصيبعة (٦٦٨هـ) – شرح وتحقيق نزار رضا – دار مكتبة الحياة – بيروت – ١٩٦٥م.
١١٨- عيون الروضتين- أبو شامة – ت: أحمد البيسومي – وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية – دمشق ١٩٩٢م.
١١٩- غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات – الأزدي – ت: محمد زغلول سلام ، ومصطفى الصاوي الجويني – نشر دار المعارف بمصر ١٩٧١م.
١٢٠-فصوص الفصول وعقود العقول- اين سناء الملك ت: محمد إبراهيم نصر، نشر دار الكاتب العربي للطباعة والنشر. مراجعة الدكتور محمد حسين محمد نصار – القاهرة ١٩٦٨م.
١٢١-فض الختام على التورية والاستخدام – الصفدي – ت: المحمدي عبد العزيز الحناوي ١٣٩٩هـ -١٩٧٩م.
١٢٢- الفلك الدائر على المثل السائر- ابن أبي الحديد –ط٠ بدون طبعة
١٢٣- فن المقالة – محمد يوسف نجم – ط٤ – دار الثقافة – بيروت ١٩٦٦م.
١٢٤- الفن ومذاهبه في النثر العربي – شوقي ضيف- دار المعارف – القاهرة –ط ٧- ١٩٧٤م.
١٢٥-فنون الإسلام – زكي محمد حسن – ط: دار الفكر العربي
١٢٦-فوات الوفيات – ابن شاكر الكتبي (٧٦٤هـ) ت: إحسان عباس – دار صادر – بيروت – ١٩٧٤م.

١٢٧-الفهرست – ابن النديم (٣٣٧هـ) – مطبعة الاستقامة – القاهرة .
١٢٨- في أدب مصر الفاطمية – محمد كامل حسين – دار الفكر العربي- القاهرة – ط٢- ١٩٧٠م.
١٢٩- في البنية والدلالة – سعيد أبو الرضا – مطبعة منشأة المعارف الاسكندرية بدون تاريخ.
١٣٠- الفيح القسي في الفتح القدسي- العماد الأصفهاني (٥٩٧هـ) ت: محمود صبح – الدار القومية للطباعة والنشر – القاهرة ١٩٦٥م.
١٣١- في النثر العربي – محمد يونس عبد العال – طبعة دار لبنان ناشرون، والشركة المصرية العالمية لونجمان – القاهرة ١٩٩٦م.
١٣٢-في النقد الأدبي – شوقي ضيف – دار المعارف – القاهرة – ط٢ - ١٩٦٢م.
١٣٣-القاضي الفاضل (دراسة ونماذج) – أحمد أحمد بدوي – مكتبة نهضة مصر – القاهرة – ١٩٥٩م.
١٣٤-القانون في ديوان الرسائل – ابن الصيرفي –ت: أيمن فؤاد سيد ط١- الدار المصرية اللبنانية – القاهرة ١٩٩٠..
١٣٥-الكامل في التاريخ – ابن الأثير (٦٣٠هـ) – بيروت ط٢- ١٩٧٦م.
١٣٦- كتاب الخطابة – أرسطو طاليس – تعريب إبراهيم سلامة – ط. الأنجلو
١٣٧- الكتابة الفنية في مشرق الدولة الإسلامية في القرن الثالث الهجري – ط مؤسسة الرسالة – مصر ١٩٧٨ م.
١٣٨- كشاف اصطلاحات الفنون – التانوي (١١٥٨هـ) ت: لطفي عبد البديع – المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر – القاهرة – ١٩٦٣م.
١٣٩- كشف الظنون على أسامي الكتب والفنون – حاجي خليفة- وكالة المعارف الجليلة – ١٩٤٣م.
١٤٠- كشف اللثام عن التورية والاستخدام – المطبعة الألسنية – بيروت ١٣١٢هـ.
١٤١- كمال البلاغة في رسائل قابوس بن وشمكير- قابوس(٣٩٣هـ) – كمال البلاغة – جمع وتقديم عبد الرحمن اليزدادي - المطبعة السلفية مصر ١٣٤١هـ.
١٤٢- الكواكب الدرية في السيرة النبوية – ابن قاضي شهبة (٨٧٤هـ)- ت: محمود زايد – دار الكتاب – بيروت – ط١- ١٩٧١م.
١٤٣- لسان العرب – ابن منظور (٧١١ه) – دار صادر – بيروت – ١٩٦٨م.

١٤٤- لسان الميزان – ابن الحجر العسقلاني – حيدر أباد – الدكن – الهند ط١- ١٣٣٠م.
١٤٥-المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين الأيوبي- نظير حسان سعداوي – مطبعة النهضة المصرية – ١٩٦٢ م.
١٤٦ -المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر – ضياء الدين بن الأثير (٦٣٧هـ) – ت: أحمد الحوفي ، وبدوي طبانة – نهضة مصر – القاهرة – ط١- ١٩٥٩- ، وط٢-١٩٦٢م.
١٤٧- مجمع الأمثال – الميداني (٥١٨هـ) – ت: محمد محي الدين عبد الحميد – دار النصر – دمشق (بلا تاريخ)
١٤٨- المختصر في أخبار البشر- أبو الفداء (٧٧١هـ) – دار البحار – بيروت – ١٩٦١م.
١٤٩- مختصر من متبلج الأنوار ومتأرج النوّار في المكاتبات إلى الملوك والوزراء والعلماء...
١٥٠- مرآة الزمان في تاريخ الأعيان – ابن الجوزي (٦٣٤هـ) – مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية – حيدر آباد – الدكن – الهند – ط١- ١٩٥١م.
١٥١- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار – العمري (٧٤٩هـ) (مخطوط) – دار الكتب المصرية – القاهرة رقم (٢٥٦٨).
١٥٢- المصباح المنير – الفيومي- ت: عبد العظيم الشناوي – مطبعة دار المعارف .
١٥٣-مصر في العصور الوسطى- علي إبراهيم حسن- القاهرة ط٢- ١٩٤٩م.
١٥٤-معالم الحضارة الإسلامية – مصطفى الشكعة – دار العلم للملايين – بيروت ط٣- - ١٩٧٨م.
١٥٥-معالم الكتابة – ابن شيث- ت: الخوري قسطنطين المخلصي- المطبعة الأدبية – بيروت.
١٥٦-معجم الأدباء – ياقوت الحموي (٦٢٦) – مطبوعات دار المأمون – ت: أحمد رفاعي – القاهرة – ١٩٣٦- - طبعة دار المستشرق – بيروت (بلا تاريخ)
١٥٧-معجم البلدان – ياقوت الحموي (٦٢٦هـ) – مطبوعات دار المأمون – ت: أحمد رفاعي – القاهرة – ١٩٣٦- ، وطبعة دار إحياء التراث العربي – بيروت ١٩٧٩م.
١٥٨- معجم قبائل العرب – عمر رضا كحّالة- المكتبة الهاشمية – دمشق – ١٩٤٩م.
١٥٩-المفتاح المنشأ في حديقة الإنشا- ابن الأثير – ت: هلال ناجي- ط المكتبة الوطنية – جامعة الموصل -١٩٨٤.

١٦٠-مفرج الكروب في أخبار بني أيوب – ابن واصل (٦٩٧هـ) ت: جمال الدين الشيال – جامعة فؤاد الأول – القاهرة – ١٩٥٣.
١٦١-مقدمة ابن خلدون – ابن خلدون (٨٠٨هـ) دار الكتاب اللبناني – بيروت – ط١ – ١٩٧٩م.
١٦٢-المنتقى من أخبار مصر – ابن ميسر (٦٧٧هـ) – ت: أيمن فؤاد سيد – المعهد الفرنسي – القاهرة – ١٩١٩هـ.
١٦٣- مواد البيان – ابن خلف علي الكاتب – ت: د. حسين عبد اللطيف- منشورات جامعة الفاتح – طرابلس – ١٩٨٢ م.
١٦٤-المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (خطط المقريزي) – المقريزي
(٨٤٥ هـ) – مكتبة المثنى- بغداد (بلا تاريخ)
١٦٥-النثر الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين – حازم خضر – منشورات وزارة الثقافة والإعلام – بغداد ١٩٨١م.
١٦٦- النثر العربي القديم من الشفاهية إلى الكتابية – فنونه- مدارسه- أعلامه – محمد رجب النجار – مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع – الكويت –ط٢- ٢٠٠٢ .
١٦٧-النثر الفني في القرن الرابع الهجري- زكي مبارك –مطبعة دار الكتب المصرية -١٩٣٤م- المكتبة التجارية بمصر ط١ .
١٦٨-النثر الفني وأثر الجاحظ فيه – عبد الحكيم بلبع – مكتبة وهبة – القاهرة – ط٣- ١٩٧٥م.
١٦٩-النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة – ابن تغري بردي (٨٧٤هـ) – مطبعة دار الكتب المصرية – القاهرة – ١٩٣٦م.
١٧٠- نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي-د. حسين نصار – مكتبة النهضة المصرية – القاهرة ١٩٦٦م- ط١.
١٧١-النقد العربي الحديث ومذاهبه – محمد عبد المنعم خفاجي- مطبعة الفجالة الجحديدة – القاهرة – ١٩٧١م.
١٧٢-النكت العصرية في أخبار الوزارة المصرية – عماد اليمني (٥٦٩هـ) ت: هرتويغ درنبرغ – مطبعة مرسو- باريس-١٨٩٧م.
١٧٣-نهاية الأرب في فنون ألأدب – النويري (٧٣٣هـ) ى- نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية – المؤسسة العامة للتأليف والترجمة والنشر- ١٩٢٥- ١٩٥٥م.
١٧٤- (النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية) والمعروف بسيرة صلاح الدين – ابن شداد (٦٣٢هـ) ت: جمال الدين الشيال – مؤسسة الخانجي – القاهرة ١٩٦٢م.النوادر السلطانية ...
١٧٥- نور الدين محمود- حسين مؤنس- القاهرة ط١- ١٩٥٩.

١٧٦-الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي – محمد حمدي المناوي – دار المعارف – القاهرة – ١٩٧٠م
١٧٧-الوزارة والكتّاب – الجهشياري – ت : مصطفى السقا ، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي – مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده – القاهرة ط١- ١٩٣٨م.
١٧٨-الوشي المرقوم في حلّ المنظوم – ابن الأثير (٦٣٧هـ) – مطبعة ثمرات الفنون – القاهرة – ١٢٩٨هـ.
١٧٩- وفيات الأعيان ، وأنباء أبناء الزمان – ابن خلكان (٦٨١هـ) ت: إحسان عباس – دار الثقافة – بيروت – ١٩٦٨م.
١٨٠- يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر – الثعالبي (٤٢٩هـ) – دار الفكر – بيروت – ط٢- ١٩٧٣م.

المخطوطات:

١- الرسائل الأدبية للقاضي الفاضل – القاضي الفاضل- مخطوط بمكتبة الأزهر تحت رقم (٤٣٩) أباظة و(٧٠٣٥) أدب.
٢- الفاضل من إنشاء القاضي الفاضل – اختيار جمال الدين ابن نباتة – مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم (٩٥٩٧) أدب ، وفي مكتبة الأزهر تحت رقم (٤٦٩) أباظة- و(٧٠٦٥) أدب تحت اسم (المختار من إنشاء القاضي الفاضل.

٣- الفاضل من كلام القاضي الفاضل – ابن نباتة (٧٦٧هـ) مخطوط – دار الكتب المصرية – القاهرة رقم(٣٨٨٢) .
٤-المختار من إنشاء القاضي الفاضل (مخطوط)

الدوريات:

١- أدب المراسلات في العصر الأموي – مجلة عالم الفكر الكويتية– عدد ٣ – أكتوبر – ديسمبر ١٩٨٣م.
٢-البديع الشعري بين الصنعة والخيال- عبد القادر الربّاعي – أبحاث اليرموك – المجلد الثالث – العدد الثاني ١٩٨٥ – جامعة اليرموك – إربد – الأردن
٣-البنية القصصية في التوابع والزوابع: عبد العزيز شبل: حوليات الجامعة التونسية: العدد ٢٩- لسنة ١٩٨٨ ص-١٤٥- ١٧٢
٤- الرسالة الهزلية من أبي عثمان إلى أبي الوليد – مجلة الكتاب ١٢-١١-١٢٢-١٣١.

فهرس المصادر والمراجع